سلسلة كتب ورسائل
الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق
المجموعة الرابعة

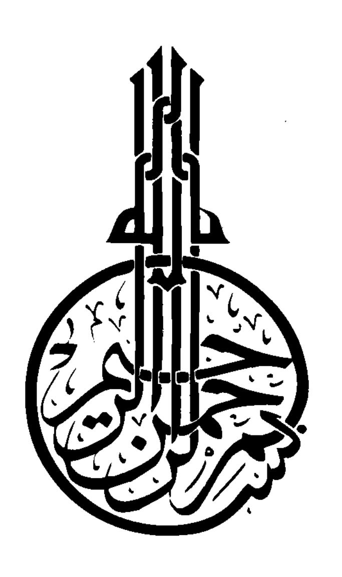


(١)

بقلم

الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق





المجموعة الرابعة

السياسة الشرعية

(١)

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م



شركة بيت المقدس للنشر والتوزيع

الكويت - حولي - ص.ب: ٤٣٧١ - الرمز البريدي: ٣٢٠٧٤

هاتف الإدارة: ٢٦١٠٢٧٠ - هاتف وناسوخ: ٢٦٢٧١٢٠

المعرض: ٢٦٢٦٤٨٣ - المندوب: ٦٦٠٠٦٢٧

البريد الكتروني: muqdes@hotmail.com

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره،،، وبعد،،،

فهذه بحمد الله وتوفيقه، مجموعة من الكتب والرسائل كتبتها في أوقات متفرقة موضوعها (أصول الدعوة إلى الله) أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها مجتمعة في سفر واحد أعظم مما نفع بها متفرقة في كتب ورسائل، وأن يرزقنا سبيل المؤمنين في الإيمان والإسلام والإحسان والدعوة إليه على بصيرة إنه هو السميع العليم.

بقلم

عبد الرحمن عبد الخالق

الكويت في ٥ من شهر ربيع الآخر ١٤٢٧هـ

الموافق / ٤ /٢٠٠٦م



كتاب

أصول الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى



المقدمة

الحمد لله نور السماوات والأرض الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً. والصلاة والسلام على البشير النذير، والسراج المنير، الذي بعثه الله بالحق إلى قيام الساعة، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله..

وبعد،،،

فلما كانت الدعوة إلى الله هي المهمة التي كلف الله بها رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ وكلف الله بها هذه الأمة كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، فإنني أحببت أن أجمع رسالة قصيرة توضح لكل مسلم مكلف بالدعوة أصول هذه الدعوة، وكيف يدعو إلى الله؟ وذلك حتى تكون دعوته على بصيرة كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾.. وإني لأسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذه الرسالة، ويكتب لها القبول، وأن يقوم المسلمون جميعاً بواجب الدعوة إلى الله على بصيرة ليشرق نور الله في الأرض كلها، ويعلو دين الله على كل الأديان. إنه هو السميع البصير والعلي العظيم..

وكتبه

عبد الرحمن عبد الخالق

الكويت ـ في ٢٧ من ذي الحجة ١٤١٦هـ

الموافق ١٤ من مايو ١٩٩٦م

أولاً
حكم الدعوة إلى الله

الدعوة إلى الله واجب كفائي على الأمة الإسلامية جميعها لقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله..﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥].. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٧-٧٨].

ويتعين الوجوب على الإمام لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] فجعل سبحانه وتعالى شرط التمكين إقامتهم للصلاة وأداءهم للزكاة وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

ولقوله ﷺ: «**فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته**» [متفق عليه] والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله أولى واجباته.

ثم أولى العلم من المسلمين الذين أخذ الله عليهم الميثاق ببيان العلم وعدم كتمانه كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ..﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وهذا تحذير من الله لهذه الأمة.. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا

مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩- ١٦٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: ١٧٤].

وقال ﷺ: «**من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**» [رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٢٨٤].

ويقول الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله: " أما بالنسبة لولاة الأمور، ومن لهم القدرة الواسعة فعليهم من الواجب أكثر، وعليهم أن يبلغوا الدعوة إلى ما استطاعوا من الأقطار" [الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة ص ١٧].

ويقول أيضاً: " ونظراً إلى انتشار الدعوة إلى المبادىء الهدامة وإلى الإلحاد وإنكار رب العباد، وإنكار الرسالات، وإنكار الآخرة، وانتشار الدعوة النصرانية في الكثير من البلدان وغير ذلك من الدعوات المضللة نظراً إلى هذا، فإن الدعوة إلى الله عز وجل اليوم أصبحت فرضاً عاماً وواجباً على جميع العلماء وعلى جميع الحكام الذين يدينون بالإسلام، فرض عليهم أن يبلغوا دين الله" [الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة ص١٧].

ثانياً
فضل الدعوة إلى الله

الدعوة إلى الله فضلها عظيم فهي مهمة الرسل والأنبياء، وهم أشرف الخلق وأكرمهم على الله، وهم الذين اختارهم الله لهداية البشر، والعلماء هم ورثة الأنبياء، وقيامهم بالدعوة أعظم تشريف لهم.. قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

ومن فضل الدعوة إلى الله أن «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً. ومن دعا إلى ضلالة كان له من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**» [رواه مسلم].

والدعوة إلى الله هي التي من أجلها شرّف الله بها أمة الإسلام جميعاً فجعلها بذلك خير أمة أخرجت للناس، لأنها حملت رسالة الله إلى العالمين، وجاهدت بها كل الأمم فهم خير الناس للناس.

ثالثاً

أهداف الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى

*** الأهداف العامة:**

إرشاد الناس إلى صراط الله المستقيم، ودينه القويم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجور والظلم إلى العدل والرحمة والإحسان.

والأدلة على هذا كثيرة جداً منها:

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المؤمنون: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الحج: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ [الرعد: ٣٦].

وقوله تعالى ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

وأمة الإسلام التي هي خير الأمم قد أخرجها الله لهذه الغاية فقال سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولم يشرع الجهاد بالكلمة والمال والسيف إلا لتحقيق هذه الغايات، وقد

أجمل ربعي بن عامر رضي الله عنه مهمة أمة الإسلام في الجهاد، فقال عندما أرسله سعد بن أبي وقاص لرستم قائد الفرس، فقال له رستم: لماذا جئتم؟ فقال: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. "البداية والنهاية ٧/ ٣٩".

أما المقصود من الدعوة والهدف منها

فالمقصود والهدف الأعظم من الدعوة هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور وإرشادهم إلى الحق حتى يأخذوا به وينجوا من النار، وينجوا من غضب الله، وإخراج الكافر من ظلمة الكفر إلى النور والهدى، وإخراج الجاهل من ظلمة الجهل إلى نور العلم، والعاصي من ظلمة المعصية إلى نور الطاعة، هذا هو المقصود من الدعوة كما قال جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فالرسل بعثوا ليخرجوا من شاء الله من الظلمات إلى النور، ودعاة الحق كذلك يقومون بالدعوة وينشطون لها لإخراج من شاء الله من الظلمات إلى النور، ومن العذاب إلى المغفرة والجنة، ومن طاعة الشيطان، والهوى إلى طاعة الله ورسوله.

* الأهداف التفصيلية:

١- إيجاد الأمة الصالحة الداعية إلى الله المجاهدة في سبيله

من أول أهداف الدعوة العمل لإخراج الأمة الصالحة التي تعبد الله سبحانه وتعالى. قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]. .

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ

كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨].

والأمة الصالحة: هي مجموع الأفراد الصالحين المجتمعين على الهدى والصراط المستقيم.

٢- إيجاد المؤمن الصالح

وذلك لقوله ﷺ: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم**» [متفق عليه].

وقوله ﷺ: «**يجيء النبي ومعه الرجلان ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك. . الحديث**» [رواه أحمد وابن ماجه وصححه الألباني في صحيح الجامع ٨٠٣٣].

فهداية مؤمن ولو واحد تحقيق لهدف عظيم من أهداف الرسالات.

٣- إقامة الحجة لله على الجاحدين والكافرين

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

٤- النهي عن الفساد في الأرض

وذلك لقوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ. .﴾ [هود: ١١٦].

والنهي عن الفساد في الأرض عصمة للجميع من عقوبة الله العاجلة في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

وكل ما نهى الله عنه فهو من الفساد في الأرض قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. وكل الرسل الذين أرسلهم الله نهوا أقوامهم

عن الفساد والطغيان بعد أمرهم إياهم بتوحيد الله وعبادته وطاعته.

- فنوح عليه السلام نهى قومه عن الشرك بالله، وعبادة الصالحين، وهو أعظم الفساد والشر ونهاهم عن صد المؤمنين عن سبيل الله، واحتقارهم وازدرائهم..

- وهود عليه السلام نهى قومه عن الطغيان، والعتو في الأرض بإهدار الأموال في العبث والضياع، كما قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١].

- وصالح عليه السلام أمر قومه بعبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ ما يعبد من دون الله ثم نهاهم عن الإفساد في الأرض بالصد عن سبيل الله، وإيثار الحياة الدنيا على الآخرة فقال لهم: ﴿فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].. وقال لهم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٥٢].

- وشعيب عليه السلام نهى قومه بعد الشرك بالله قائلاً: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٦].

ولذلك فإن سبب ما يحصل لأهل الأرض من فساد أحوالهم ودنياهم هو المعاصي، ولذا كان من أعظم أهداف الدعوة إزالة هذا السبب.

- ورسالة رسولنا الخاتمة جاءت بالأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر، والبعد عن كل فساد في الأرض حتى لو كان عدواناً على حرث أو زرع كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥].

٥ـ عمارة الأرض بالخير والعمل الصالح

من أهداف الدعوة إلى الله عمارة الأرض بالخير، والعمل الصالح.. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧].. وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

و ﴿ٱلْخَيْرِ﴾: اسم جامع لكل نفع فالخلق الحسن خير، والبر والصلة والإحسان خير، وإعمار الأرض بالزرع النافع خير كما قال ﷺ: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**» [رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني في الجامع ١٤٢٤].

ولا شك أن دعوة الرسول ﷺ قد استفاد منها كل العالمين حتى الذين لم يؤمنوا بالإسلام كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧) فإن تعاليم الإسلام التي جاءت بالفضيلة والإحسان، ونبذ الظلم، وإقامة العدل قد استفاد منها كثير من الأمم والشعوب، وإن لم تدخل في الإسلام، وقد أخذت كثير من دول العالم نظام الإسلام في المعاملات، فاستفادت بذلك فائدة دنيوية..

وقد جاء الإسلام برفع الظلم عن النساء، والعبيد، والضعفاء، فاستفاد الناس من ذلك، وجعل الإسلام حقوقاً للأسرى، ونظاماً في الحروب استفاد منه الكفار أيضاً.

فقد جاء الإسلام في وقت عم فيه الجهل والظلم، فغير نظرة الناس عمومهم نحو المرأة والعبد.. فأزال الفروق الجاهلية التي كان الناس يتفاضلون بها، ويقتتلون عليها كاللون، والوطن والأصل وأعلن في الناس جميعاً أنهم لآدم وآدم من تراب..

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد استفاد الناس من هذه التعاليم ولو بعد حين..

رابعاً
أركان الدعوة إلى الله

أركان الدعوة إلى الله ثلاثة هي:

١ـ المدعو إليه: وهو دين الإسلام الذي يراد دعوة الناس إليه وهو سبيل الله، وصراطه المستقيم.

٢ـ الداعي: هو القائم بأمر دعوة الناس.

٣ـ المدعو: وهو من يراد دعوته وهم الناس جميعاً بوجه عام وأهل الإسلام بوجه خاص.

الركن الأول
المدعو إليه

الأصول العامة للركن الأول:

١ـ لا يدعى إلا إلى الإسلام:

الركن الأول في الدعوة إلى الله هو دين الإسلام الذي يراد دعوة الناس إليه، وحملهم عليه ودين الإسلام هو سبيل الله وصراطه المستقيم. قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧].

وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا

فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

فالدعوة إلى الله هي الدعوة إلى توحيده والإيمان به، والدخول في دينه وصراطه المستقيم، وشرعه القويم، وهو دين الإسلام الذي بعث به خاتم الرسل ﷺ..

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به، وما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا" [مجموع الفتاوى ١٥/١٥٧].

٢ ـ الإسلام هو كتاب الله وسنة رسوله، وما أجمعت عليه الأمة:

والإسلام هو ما يتضمنه كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ التي وردتنا بطريق صحيح.. فهذا هو الحق الذي لا شائبة فيه، ولا يتطرق إليه خلل.

ثم ما أجمعت عليه الأمة كلها لأن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، كما قال ﷺ «**لا تجتمع أمتي على ضلالة**».

وما سوى ذلك من رأي واجتهاد، فإنه يصيب ويخطىء، ولا يجوز حمل الناس على قول أحد إلا ما وافق كتاب الله وسنة رسوله.

وقال شيخنا وأستاذنا الشيخ عبد العزيز بن باز -حفظه الله-: "أما الشيء الذي يدعى إليه ويجب على الدعاة أن يوضحوه للناس كما أوضحه الرسل عليهم الصلاة والسلام، فهو الدعوة إلى صراط الله المستقيم، وهو الإسلام، وهو دين الله الحق، هذا هو محل الدعوة كما قال سبحانه ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾" [النحل: ١٢٥].

فسبيل الله جل وعلا هو الإسلام وهو الصراط المستقيم وهو دين الله الذي بعث به نبيه محمداً ﷺ هذا هو الذي تجب الدعوة إليه لا إلى مذهب فلان ولا إلى رأي فلان، ولكن إلى دين الله، وإلى صراط الله المستقيم الذي بعث الله به نبيه وخليله وهو ما دل عليه القرآن العظيم والسنة المطهرة الثابتة عن رسول الله ﷺ [الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة ص/٢٦].

٣ حقيقة الإسلام:

وحقيقة هذا الدين وهدفه هو عبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ ما يعبد

من دون الله، والاستسلام والخضوع لأوامره. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦) وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

والخلق جميعاً ومنهم الإنس والجن قد خلقوا لهذه الغاية. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

٤ـ الإسلام نظام شامل لكل أعمال الإنسان

والإسلام نظام شامل كامل لتنظيم أعمال الإنسان جميعها على هذه الأرض، فهو أولاً يحدد عقيدة الإنسان، وعمله تجاه إلهه وخالقه سبحانه وتعالى. ثم عقيدته وعمله نحو أهل الإيمان ممن دخلوا في هذا الدين ثم عقيدته وعمله نحو كل مخلوقات الله التي تحيط بالإنسان في السماوات والأرض..

وفي كل هذه الأمور تأتي الأحكام الشرعية التكليفية الخمسة: الوجوب والندب، والإباحة، والتحريم، والكراهة..

فلا يوجد عمل ولا اعتقاد إلا وفيه حكم من هذه الأحكام. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقد بين سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله الكليات العامة للإسلام الذي تجب الدعوة إليه فقال:

"وعلى رأس الدعوة إلى الإسلام الدعوة إلى العقيدة الصحيحة إلى

الإخلاص لله وتوحيده بالعبادة والإيمان به وبرسله والإيمان باليوم الآخر، وبكل ما أخبر الله به، ورسوله، هذا هو الأساس الصراط المستقيم. وهو الدعوة إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومعنى ذلك: الدعوة إلى توحيد الله والإخلاص له والإيمان به وبرسله عليهم الصلاة والسلام، ويدخل في ذلك الدعوة إلى الإيمان بكل ما أخبر الله به ورسله مما كان وما يكون من أمر الآخرة، وأمر آخر الزمان، وغير ذلك..

ويدخل في ذلك أيضاً الدعوة إلى ما أوجب الله من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت إلى غير ذلك..

ويدخل أيضاً في ذلك الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ بما شرع الله في الطهارة والصلاة والمعاملات والنكاح والطلاق والجنايات والنفقات والحرب والسلم وفي كل شيء لأن دين الله عز وجل دين شامل يشمل مصالح العباد في المعاش والمعاد ويشمل كل ما يحتاج إليه الناس في أمر دينهم ودنياهم، ويدعو إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، وينهى عن سفاسف الأخلاق، وعن سيء الأعمال..

فهو عبادة وقيادة، يكون عابداً ويكون قائداً للجيش، عبادة، وحكم ويكون عابداً مصلياً صائماً، ويكون حاكماً بشرع الله منفذاً لأحكامه عز وجل، عبادة وجهاد ويدعو إلى الله ويجاهد في سبيل الله من خرج عن دين الله، مصحف وسيف: يتأمل القرآن ويتدبره وينفذ أحكامه بالقوة ولو بالسيف إذا دعت الحاجة إليه، سياسة واجتماع فهو يدعو إلى الأخلاق الفاضلة والأخوة الإيمانية، والجمع بين المسلمين والتأليف بينهم كما قال جل وعلا: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فدين الله يدعو إلى الاجتماع وإلى السياسة الصالحة الحكيمة التي تجمع الأخوة الإسلامية والتعاون على البر، والتقوى، والنصح لله ولعباده.

وهو أيضاً يدعو إلى أداء الأمانة والحكم بالشريعة، وترك الحكم بغير ما أنزل الله عز وجل كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ..﴾ [النساء: ٥٨].

وهو أيضاً سياسة واقتصاد كما أنه سياسة وعبادة وجهاد، فهو يدعو إلى الاقتصاد الشرعي المتوسط ليس الرأسمالي تكسب المال، وتطلبه بالطرق الشرعية، وأنت أولى بمالك وبكسبك بالطريقة التي شرعها الله وأباحها جل وعلا.

والإسلام أيضاً يدعو إلى الأخوة الإيمانية وإلى النصح لله ولعباده وإلى احترام المسلم لأخيه المسلم لا غل ولا حسد ولا غش ولا خيانة، ولا غير ذلك من الأخلاق الذميمة كما قال جل وعلا: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: ٧١] وقال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال النبي ﷺ: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره..**» [متفق عليه].

فالمسلم أخو المسلم يجب عليه احترامه، وعدم احتقاره، ويجب عليه إنصافه وإعطاؤه حقه من كل الوجوه التي شرعها الله عز وجل، وقال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**» [متفق عليه]. وقال ﷺ: «**المؤمن مرآة المؤمن**» [رواه الطبراني في الأوسط وصححه الألباني في الجامع ٦٦٥٥].

فأنت يا أخي مرآة أخيك وأنت لبنة من البناء الذي قام عليه بنيان الأخوة الإيمانية، فاتق الله في حق أخيك واعرف حقه، وعامله بالحق والنصح والصدق.

وعليك أن تأخذ الإسلام كله ولا تأخذ جانباً دون جانب، لا تأخذ العقيدة وتدع الأحكام والأعمال، ولا تأخذ الأعمال والأحكام، وتدع العقيدة، بل خذ الإسلام كله، خذه عقيدة وعملاً وجهاداً، وسياسة، واقتصاداً، وغير ذلك خذ من كل الوجوه كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨].

قال جماعة من السلف معنى ذلك: ادخلوا في السلم جميعه يعني في الإسلام، يقال للإسلام سلم لأنه طريق السلامة وطريق النجاة في الدنيا، والآخرة، فهو سلم وإسلام، فالإسلام يدعو إلى السلم، يدعو إلى حقن الدماء بما شرع من الحدود والقصاص.

والجهاد الشرعي الصادق فهو سلم وإسلام، وأمن وإيمان ولهذا قال جل وعلا: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ أي ادخلوا في جميع شعب الإيمان، لا تأخذوا بعضاً وتدعوا بعضاً، عليكم أن تأخذوا بالإسلام كله، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [البقرة:١٦٨] يعني المعاصي التي حرمها الله عز وجل، فإن الشيطان يدعو إلى المعاصي وإلى ترك دين الله كله، فهو أعدى عدو..

ولهذا يجب على المسلم أن يتمسك بالإسلام كله وأن يدين بالإسلام كله وأن يعتصم بحبل الله عز وجل وأن يحذر أسباب الفرقة والاختلاف في جميع الأحوال..

فعليك أن تحكم شرع الله في العبادات وفي المعاملات وفي النكاح، والطلاق، وفي النفقات، وفي الرضاع، وفي السلم، والحرب، ومع العدو والصديق، وفي الجنايات، وفي كل شيء.. دين الله يجب أن يحكم في كل شيء..

وإياك أن توالي أخاك لأنه وافقك في كذا وتعادي الآخر لأنه خالفك في رأي أو في مسألة، فليس هذا من الإنصاف، فالصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في مسائل، ومع ذلك لم يؤثر ذلك في الصفاء بينهم والموالاة والمحبة رضي الله عنهم وأرضاهم.. فالمؤمن يعمل بشرع الله ويدين بالحق ويقدمه على كل أحد بالدليل، ولكن لا يحمله ذلك على ظلم أخيه وعدم إنصافه إذا خالفه في الرأي في مسائل الاجتهاد التي قد يخفى دليلها، وهكذا في المسائل التي قد يختلف في تأويل النص فيها فإنه قد يعذر، فعليك أن تنصح له وأن تحب له الخير ولا يحملك ذلك على العداء والانشقاق وتمكين العدو منك ومن أخيك ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الإسلام دين العدالة، ودين الحكم بالحق والإحسان، ودين المساواة إلا فيما استثنى الله عز وجل، ففيه الدعوة إلى كل خير وفيه الدعوة إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، والإنصاف، والعدالة، والبعد عن كل خلق ذميم. قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل:٩٠].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

والخلاصة: إن الواجب على الداعية الإسلامي أن يدعو إلى الإسلام كله، ولا يفرق بين الناس، وأن لا يكون متعصباً لمذهب دون مذهب أو لقبيلة دون قبيلة، أو لشيخه، أو رئيسه، أو غير ذلك، بل الواجب أن يكون هدفه إثبات الحق وإيضاحه، واستقامة الناس عليه وإن خالف رأي فلان أو فلان، ولما نشأ في الناس من يتعصب للمذاهب ويقول: إن مذهب فلان أولى من مذهب فلان، جاءت الفرقة والاختلاف حتى آل ببعض الناس هذا الأمر إلى أن لا يصلي مع من هو على غير مذهبه فلا يصلي الشافعي خلف الحنفي، ولا الحنفي خلف المالكي، ولا خلف الحنبلي، وهكذا وقع من بعض المتطرفين المتعصبين، وهذا من البلاء ومن اتباع خطوات الشيطان..

فالأئمة أئمة هدى، الشافعي ومالك، وأحمد، وأبو حنيفة والأوزاعي، وإسحاق بن راهويه، وأشباههم كلهم أئمة هدى ودعاة حق دعوا الناس إلى دين الله وأرشدوهم إلى الحق، ووقع هناك مسائل بينهم اختلفوا فيها لخفاء الدليل على بعضهم فهم بين مجتهد مصيب له أجران، وبين مجتهد أخطأ الحق فله أجر واحد، فعليك أن تعرف لهم قدرهم وفضلهم وأن تترحم عليهم وأن تعرف أنهم أئمة الإسلام ودعاة الهدى، ولكن لا يحملك ذلك على التعصب والتقليد الأعمى، فتقول: مذهب فلان أولى بالحق بكل حال، أو مذهب فلان أولى بالحق بكل حال لأنه لا يخطىء (لا) هذا غلط.

عليك أن تأخذ بالحق وأن تتبع الحق إذا ظهر دليله ولو خالف فلاناً أو فلاناً، وعليك ألا تتعصب وتقلد تقليداً أعمى، بل تعرف للأئمة فضلهم وقدرهم، ولكن مع ذلك تحتاط لنفسك ودينك فتأخذ بالحق وترضى به وترشد إليه إذا طلب منك وتخاف الله وتراقبه جل وعلا وتنصف من نفسك مع إيمانك بأن الحق واحد وأن المجتهدين إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد -أعني مجتهدي أهل السنة، أهل العلم والإيمان والهدى- كما صح بذلك الخبر عن رسول الله ﷺ" أ.هـ [الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة ص/ ٢٧-٣٥].

الركن الثاني
الداعي إلى الله

الركن الثاني من أركان الدعوة هو الداعي إلى الله والمراد به كل مسلم حمل أمانة الدعوة، ودخل في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والواجبات التي يجب توفرها في الداعي إلى الله هي:

١ ـ العلم بما يدعو إليه:

الواجب الأول الذي يجب توفره في الداعي إلى الله أن يكون عالماً بما يدعو إليه، موقناً أن الذي يدعو إليه هو الإسلام. ولأن الإسلام دين متين يشمل جميع عمل الإنسان وعلاقاته بربه ثم بجميع المخلوقات، والعالم من حوله، والعلوم التي جاء بها الدين واسعة جداً فالغيب الذي أخبرنا الله به يبدأ من بدايات الخلق إلى نهاية الدنيا، مروراً بكل الرسالات والنبوات، ووصولاً إلى أحوال المعاد والجنة والنار.. ثم إن الشريعة التي فرضها الله علينا تنتظم جميع أعمال المكلفين وتصرفاتهم على الأرض، وحلاً لجميع مشكلاتهم، وقضاءً لجميع أقضياتهم.. ولأن هذا العلم من الاتساع والشمول والعمق مما لا يحيط به إلا الأفذاذ من الرجال، ولا يجمعه إلا الفحول من العلماء ولا يفقهه حق الفقه إلا الأفراد من الراسخين في العلم.. كان لا بد للداعي إلى الله أن لا يهجم على أمر من أمور الدين إلا بعد العلم به، ولا يفتي في مسألة إلا بعد فقه أبعادها ولا يدعو الناس إلا بعد العلم أن ما يدعو إليه هو ما أمر به الله ورسوله ولا ينهى عن شيء إلا بعد العلم أن ما ينهى عنه هو مما نهى الله ورسوله عنه.

ولا يجوز أن تجعل الأمور الاجتهادية، وما لا نص فيه في منزلة الأمور المنصوص عليها المقطوع بها.. ويجب على الداعي أن يضع كل أمر في نصابه، ودليل هذا كله قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] فالبصيرة العلم، وكذلك قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] فما لم يكن من سبيل الله لا يجوز الدعوة إليه، وما لم يعلم أنه من سبيل الله لا يجوز أن يدعى إليه.

والدعوة على جهل تؤدي إلى فساد الدين فكثيرون دعوا على جهل فضلوا وأضلوا..

وسبيل العلم هو المربي والكتاب والمنهج، وقد سئل شيخنا عبد العزيز بن باز حفظه الله عن الكتب التي يجب على الداعي إلى الله أن يتعلمها فقال:

"أعظم كتاب وأشرف كتاب أنصح به هو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فأنصح كل داع إلى الله، وكل آمر بالمعروف وناه عن المنكر، ومعلم، ومدرس، ومرشد، ذكراً كان أو أنثى، أن يعتني بكتاب الله ويتدبره، ويكثر من قراءته، فهو أصل كل خير، وهو المعلم وهو الهادي إلى الخير، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٨٩].

وهو يهدي بهداية الله إلى الطريق الأقوم إلى سبيل الرشاد، فالواجب على الدعاة والآمرين بالمعروف والمعلمين، أن يجتهدوا في قراءته وتدبر معانيه، فإنهم بذلك يستفيدون الفائدة العظيمة، ويتأهلون بذلك للدعوة والتعليم بتوفيق الله عز وجل.

ثم أنصح بالسنة، وما جاء فيها من العلم والهدى، وأن يراجع الداعي إلى الله والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر والمدرس ذكوراً وإناثاً كتب الحديث، وما ألفه الناس من هذا، حتى يستفيد من ذلك، وأهم كتب الحديث وأصحها، صحيح البخاري، وصحيح مسلم، فليكثر من مراجعتهما، والاستفادة منهما، ومن بقية كتب الحديث كالسنن الأربع، ومسند الإمام أحمد، وموطأ الإمام مالك، وسنن الدارمي وغيرها من كتب الحديث المعروفة كما أوصي بمراجعة كتب أهل العلم المفيدة، مثل المنتقى للمجد ابن تيمية، ورياض الصالحين، وبلوغ المرام، وعمدة الحديث، وجامع العلم وفضله لابن عبد البر، وجامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب، وزاد المعاد في هدي خير العباد للعلامة ابن القيم، وأعلام الموقعين، وطريق الهجرتين، والطرق الحكمية كلها له أيضاً..

وكذلك ما كتبه أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة الشرعية، والحسبة في الفتاوى، ومنهاج السنة، فهو من الأئمة العظماء الذين جربوا هذا

الأمر، وبرزوا فيه، ونفع الله به الأمة ونصر به الحق، وأذل به البدع وأهلها فجزاه الله وإخوانه العلماء عن صبرهم وجهادهم أفضل ما جزى به المحسنين إنه جواد كريم. فأنا أنصح كل مسلم، وكل معلم، وكل مرشد أن يعتني بهذه الكتب المفيدة بعد العناية بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ..

٢ ـ العمل بما يدعو إليه:

الواجب الثاني الذي يجب للداعي أن يكون عاملاً بما يدعو الناس إليه، فإذا دعا غيره إلى خير كان أسبق الناس إليه، وإذا نهاهم عن شر كان أبعد الناس منه، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢-٣] وقوله تعالى: ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة: ٤٤].

وقوله تعالى عن شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ [هود: ٨١] وفي الحديث الصحيح: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة فتندلق أقتابه في النار، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**» [متفق عليه].

قال شيخنا عبد العزيز بن باز حفظه الله: " ومن الأخلاق والأوصاف التي ينبغي، بل يجب أن يكون عليها الداعية، العمل بدعوته، وأن يكون قدوة صالحة فيما يدعو إليه، ليس ممن يدعو إلى شيء ثم يتركه، أو ينهى عن شيء ثم يرتكبه، هذه حال الخاسرين نعوذ بالله من ذلك، أما المؤمنون الرابحون فهم دعاة الحق يعملون به وينشطون فيه ويسارعون إليه، ويبتعدون عما ينهون عنه قال الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: ٢].

هذه الآية العظيمة تبين لنا أن الداعي إلى الله عز وجل ينبغي أن يكون ذا عمل صالح يدعو إلى الله بلسانه، ويدعو إلى الله بأفعاله أيضاً، ولهذا قال بعده "وعمل صالحاً"، فهو داعية إلى الله باللسان، وداعية بالعمل ولا أحسن قولاً

من هذا الصنف من الناس: هم الدعاة إلى الله بأقوالهم الطيبة، وهم يوجهون الناس بالأقوال والأعمال، فصاروا قدوة صالحة في أقوالهم وأعمالهم وسيرتهم.

وهكذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام دعاة إلى الله بالأقوال والأعمال، والسيرة.. وكثير من المدعوين ينتفعون بالسيرة أكثر مما ينتفعون بالأقوال، ولا سيما العامة وأرباب العلوم القاصرة فإنهم ينتفعون من السيرة والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، ما لا ينتفعون من الأقوال التي قد لا يفهمونها، فالداعي إلى الله عز وجل من أهم المهمات في حقه أن يكون ذا سيرة حسنة، وذا عمل صالح، وذا خلق فاضل حتى يقتدى بفعاله وأقواله" [من أقوال الشيخ بن باز ص/٦٥-٦٦].

٣ ـ احتساب أجر الدعوة إلى الله:

يجب على الداعي إلى الله أن يكون محتسباً لا يطلب على دعوته أجراً. قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ وحتى لا يتهم في دعوته، وأنه لم يدع إلا للدنيا، ولذلك أمر الله جميع رسله أن يقولوا ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء:١٠٩].

وأتباع الرسل والأنبياء يجب أن يتأسوا بهم في دعوتهم إلى الله فتكون دعوتهم إلى الله من أجل دينه، واحتساباً لله، وبهذا تجد دعوتهم القبول، وتنتفي عنهم الظنة ويكونون بعيدين عن الشبهة.

قال شيخنا عبد العزيز بن عبد الله بن باز حفظه الله: " أما أخلاق الدعاة وصفاتهم التي ينبغي أن يكونوا عليها فقد أوضحها الله جل وعلا في آيات كثيرة في أماكن متعددة من كتابه الكريم (أولاً) منها:

ـ الإخلاص: فيجب على الداعية أن يكون مخلصاً لله عز وجل لا يريد رياء ولا سمعة ولا ثناء الناس ولا حمدهم، إنما يدعو إلى الله يريد وجهه عز وجل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [يوسف:١٠٨]. وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت:٣٣] فعليك أن تخلص لله عز وجل، هذا أهم الأخلاق، هذا أعظم

الصفات أن تكون في دعوتك تريد وجه الله والدار الآخرة " [الدعوة وأخلاق الدعاة ص/ ٣٦-٣٧].

ولا شك أن إخلاص الداعية لله في دعوته هو من سر النجاح فيها، ووضع القبول له في الأرض.

قال الإمام الذهبي رحمه الله: "كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله، وحصلوه، ثم استفاقوا وحاسبوا أنفسهم فجرهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية بعد، وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله. فهذا أيضاً حسن، ثم نشروه بنية صالحة.

وقوم طلبوه بنية فاسدة لأجل الدنيا وليثنى عليهم، فلهم ما نووا: قال عليه السلام: «**من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى**» [رواه أحمد والنسائي والحاكم وصححه الألباني في الجامع ٦٤٠١].

وترى هذا الضرب لم يستضيئوا بنور العلم، ولا لهم وقع في النفوس، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل، وإنما العالم من يخشى الله تعالى.

وقوم نالوا العلم وولوا به المناصب، فظلموا، وتركوا التقيد بالعلم وركبوا الكبائر والفواحش، فتباً لهم، فما هؤلاء بعلماء!

وبعضهم لم يتق الله في علمه بل رَكِبَ الحيل، وأفتى بالرخص، وروى الشاذ من الأخبار، وبعضهم اجترأ على الله، ووضع الأحاديث فهتكه الله، وذهب علمه، وصار زاده إلى النار، وهؤلاء الأقسام كلهم رووا من العلم شيئاً كبيراً، وتضلعوا منه في الجملة، فخلف من بعدهم خلف بان نقصهم في العلم والعمل، وتلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير، أوهموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله لأنهم ما رأوا شيخاً يقتدى به في العلم، فصاروا همجاً رعاعاً، غاية المدرس منهم أن يحصل كتباً مثمنة يخزنها، وينظر فيها يوماً ما، فيصحف ما يورده ولا يقرره، فنسأل الله النجاة والعفو" [سير أعلام النبلاء ٧/ ١٥٢-١٥٣].

قال عبد الله بن المبارك: "قيل لحمدون بن أحمد: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضا الخلق" [صفوة الصفوة ٤/ ١٢٢].

٤ ـ الصبر على الأذى:

لا بد للداعي إلى الله من التحلي بالصبر لأنه لا بد وأن يؤذى في دعوته فكل الرسل قد عودوا، وقد قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: «**لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي**» [متفق عليه].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١].

وقال ﷺ: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**» [رواه ابن حبان في صحيحه، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٩٩٣].

ومن أجل ذلك قرن الله الصبر مع التواصي بالحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣]. وقال تعالى عن لقمان وهو يعظ ابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

والرسل أوذوا من الكفار المعلنين للكفر، ومن أهل النفاق ومن أهل الجهل، والحمق كذلك ممن يظهر الدين!!

وقد أوذي سيد البشر، وخاتم الرسل وإمام المتقين، سيدنا ونبينا محمد ﷺ من المشركين واليهود والنصارى كما لقي أيضاً من المنافقين أذى كبيراً فقد كان منهم من قال في حقه: (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)، وكان منهم من سب زوجته، وآذاه في أهله ومنهم من قال: (هو أذن)، ومنهم من تآمر على قتله.. الخ.

كما أوذي ﷺ من بعض الجهال الحمقى من أمثال من قال له: (اعدل يا محمد فوالله هذه قسمة ما أريد بها وجه الله) [متفق عليه].

وكذلك أوذي خيار أصحابه من بعده، وما زال الصديق والفاروق يسبان أشد السب إلى يومنا هذا..

فالداعي إلى الله لا بد وأن يؤذى، ويبتلى. فإذا كان الداعي إلى الله من أهل الصبر استمر في دعوته، وإن كان من أهل الجزع والضعف والخور، ترك الدعوة إلى الله وإن كان من أهل الحمق والجهل ربما اعتدى على من يدعوهم، وانتصر لنفسه فأفسد دعوته، وأبطل جهاده في سبيل الله.

٥ ـ الحرص على هداية من يدعوه:

الواجب الخامس الذي يجب توفره في الداعي إلى الله أن يكون حريصاً على هداية من يدعوه فإذا كان من يدعوه كافراً كان حريصاً على إيمانه ساعياً في ذلك بكل سبيل، وقد كان سيد الدعاة والمهتدين وهو نبينا ﷺ ليحزن أشد الحزن حتى يكاد يقتله الغم أسفاً على نفور الناس من دعوته..

قال تعالى معزياً ومعاتباً له: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦].

وقد وصفه تعالى بالحرص على هداية الناس. قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

والداعي إذا كان حريصاً على هداية من يدعوه سعى إلى ذلك بكل سبيل ولم يدخر وسعاً في إيصال الحق له، واستخدم معه كل وسيلة ناجعة، وأزال كل عقبة تصده عن الحق.

وأما إذا اتصف بضد ذلك أهمل في دعوة من يدعوه، ولم يكترث لهدايته أو ضلاله..

وإذا كان من تدعوه مسلماً وكنت حريصاً على أن يهتدي للحق الذي تدعوه إليه، وللمعروف الذي تأمره به، حملك هذا على إخلاص النية، وبذل قصارى الجهد، والفرح بهداية من تدعوه، والحزن إذا لم يستجب لك.

٦ ـ اتخاذ الحكمة منهجاً وسبيلاً:

أمر الله سبحانه وتعالى أن تكون الدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالحسنى، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٣٥].

ـ قال في لسان العرب:

الحكمة: هي العدل، ورجل حكيم، عدل حكيم، واحكم الأمر أتقنه، ويقال للرجل إذا كان حكيماً: قد أحكمته التجارب.. والحكيم المتقن للأمور.

وأصله من المنع: ومنه قوله الشاعر:

بني حنيفة أَحكموا سفهاكم　　　أني أخاف عليكم أن أغضبا

أي ردوهم وكفوهم.

ومنه حَكَمَةُ اللجام ما أحاط بحنكي الدابة، وسميت حكمة لأنها تمنعها من الجري الشديد.. والحكمة مانعة لصاحبها من الوقوع في الخطأ.

ـ معنى الحكمة في الشرع:

قال الإمام ابن جرير رحمه الله: " القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿ٱدْعُ﴾ يا محمد من أرسلك إليه ربك بالدعاء إلى طاعته ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ يقول: إلى شريعة ربك التي شرعها لخلقه، وهو الإسلام ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ يقول بوحي الله الذي يوحيه إليك، وكتابه الذي نزله عليك ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ﴾ يقول: وبالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه، وذكرهم بها في تنزيله، كالتي عدد عليهم في هذه السورة من حججه، وذكرهم فيها ما ذكرهم من آلائه ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ يقول: وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك".

وقال الإمام برهان الدين البقاعي في نظم الدرر: "﴿ٱدْعُ﴾ أي كل من يمكن دعوته.. ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي المحسن إليك، بتسهيل السبيل الذي تدعو

إليه واتساعه، وهو الإسلام الذي هو الملة الحنفية. . ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ وهي المعرفة بمراتب الأفعال في الحسن، والقبح، والصلاح، والفساد، وقيل لها حكمة لأنها بمنزلة المانع من الفساد، وما لا ينبغي أن يختار، فالحكيم هو العالم بما يمنع من الفساد، قال الرماني، وهي في الحقيقة الحق الصريح، فمن كان أهلاً له دعا به ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ﴾ بضرب الأمثال والوعد، والوعيد مع خلط الرغبة بالرهبة والإنذار بالبشارة. . ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي التي يسهل على كل فهم ظاهرها، ويروق كل نحرير ما ضمنته سرائرها، مع اللين في مقصودها، وتأديتها هذا لمن لا يحتمل إلا ذلك. . ﴿وَجَٰدِلْهُم﴾ أي الذين يحتملون ذلك منهم افْتِلهم عن مذاهبهم الباطلة إلى مذهبك الحق بطريق الحجاج. . ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من الطرق بالترفق واللين والوقار، والسكينة، ولا تعرض عنهم، ولا تجازهم بسيىء مقالهم، وقبيح فعالهم صفحاً عنهم ورفقاً بهم، فهو بيان لأصناف الدعوة بحسب عقول المدعوين لأن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بأن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم" أ.هـ

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تفسيره في بيان معنى الحكمة: ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي كل أحد على حسب حاله وفهمه، وقبوله وانقياده، ومن الحكمة، الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبدأة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر، والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، إما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله، وإهانة من لم يقم به، وإما بذكر ما أعد الله للطائعين، من الثواب العاجل والآجل، وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان المدعو، يرى أن ما هو عليه حق، أو كان داعيه إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون ادعى لاستجابته عقلاً ونقلاً، ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة، تذهب بمقصودها ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها [تفسير السعدي ٣/ ٩٢-٩٣].

وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز - حفظه الله -:

"ومن الحكمة إيضاح المعنى وبيانه بالأساليب المؤثرة التي يفهمها المدعو وبلغته التي يفهمها حتى لا تبقى عنده شبهة، وحتى لا يخفى عليه الحق بسبب عدم البيان، أو بسبب عدم إقناعه بلغته، أو بسبب تعارض بعض الأدلة، وعدم بيان المرجح، فإذا كان هناك ما يوجب الموعظة وعظ وذكر بالآيات الزواجر، والأحاديث التي فيها الترغيب والترهيب، حتى ينتبه المدعو، ويرق قلبه، وينقاد للحق، فالمقام قد يحتاج فيه المدعو إلى موعظة وترغيب وترهيب على حسب حاله، وقد يكون مستعداً لقبول الحق، فعند أقل تنبيه يقبل الحق، وتكفيه الحكمة، وقد يكون عنده بعض التمنع، وبعض الإعراض فيحتاج إلى وعظة وإلى توجيه وإلى ذكر آيات الزجر" [من أقوال الشيخ ابن باز في الدعوة ص/ ٦٤].

ومما سبق يتبين أن الحكمة تأتي لمعان كثيرة:

١ـ ما تضمنه كتاب الله سبحانه وتعالى من الدعوة إلى الإيمان بالله وعبادته والتزام صراطه المستقيم، ودينه القويم، فالآخذ بهذا قد أحكم أمره، وعرف طريقه، وبهذا فسر ابن جرير الطبري معنى ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ أي ما تضمنه هذا القرآن الكريم.

٢ـ سنة النبي ﷺ وقد جاءت الحكمة معطوفة على الكتاب كثيراً في القرآن كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فالحكمة هنا هي بيان القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ.

٣ـ الحكمة تعني وضع الأمور في نصابها، والوصول إلى الأهداف المطلوبة بأيسر الطرق وأحسنها كما أمر الله باللين في الدعوة مع الجبابرة: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ وبالشدة في مواطنها كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾. وبالعفو واللين في مواطنه ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾.

والخلاصة: أن الحكمة وصف جامع للعلم النافع الذي يمكن صاحبه من

وضع كل أمر في نصابه، مما ييسر له الوصول إلى أفضل النتائج بأيسر السبل.

الركن الثالث
المدعو

١ ـ عالمية الرسالة:

رسالة الإسلام رسالة للعالمين قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]. وقال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان:١] ومن أجل ذلك فالبشر جميعاً مدعوون إلى هذا الدين، والناس جميعاً هم أمة الدعوة الذين أرسل إليهم رسولنا محمد ﷺ.

٢ ـ أقسام الناس حيال رسالة الإسلام:

جاء الإسلام بنسخ جميع الشرائع السماوية التي قبله، ووجوب دخول اليهود والنصارى في شريعة الله المنزلة على محمد ﷺ، واتباعه في القليل والكثير.. وقد انقسم الناس بعد دعوة الرسول ﷺ إلى قسمين:

- قسم آمن به واتبع ما جاء به من الهدى والنور..
- وقسم كفر بالإسلام وجحد ما أنزل الله على رسوله ﷺ..

وهذا القسم الأخير افترقوا فريقين: كفار معلنون لكفرهم، وكفار تظاهروا بالإسلام، وأضمروا الكفر، وقد سماهم القرآن بالمنافقين..

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى الأحكام التي يجب اتباعها مع كل قسم من هذه الأقسام، ورسم رسول الله ﷺ السياسة الشرعية الواجبة في دعوة هذه الأقسام إلى الله وكيفية التعامل مع كل قسم منهم.

وهذه هي الأصول العامة والسياسة الشرعية في الدعوة والمعاملة مع هذه الأقسام:

أولاً: الأصول الشرعية في دعوة الكفار الأصليين للإسلام:

من الكفار الأصليين من بلغته دعوة الإسلام على الوجه الصحيح، ومنهم بلغته دعوة الإسلام بصورة مشوهة، ومنهم من لم تبلغه دعوة الإسلام..

ومن الكفار الأصليين أهل الكتاب من اليهود والنصارى، والوثنيون والمجوس وغيرهم من أتباع هذه الملل الكثيرة، ومنهم من لا ينتمي لدين أصلاً.

والأصول التي يجب اتباعها مع هؤلاء جميعاً هي:

١ـ إبلاغ دعوة الإسلام على وجهها الصحيح بلاغاً يقطع العذر:

الأصل الأول في دعوة المسلمين إلى الإسلام أن يبلغوا هذه الدعوة على وجهها الصحيح بلاغاً يقطع العذر كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا تقوم الحجة عليهم إلا بهذا.. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة: ٦٧].. وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

ولا يكون البلاغ مبيناً قاطعاً للعذر إلا:

أ ـ إذا فهموه بلغتهم أو تمكنوا من العربية تمكناً يجعلهم يفهمون معانيها كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

فالواجب على أمة الإسلام الذين أخرجهم الله للناس أن يبلغوهم دين الله باللسان الذي يفهمونه ثم يعلموهم العربية ليفهموا عن الله ورسوله..

قال شيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله: "أما بالنسبة إلى ولاة الأمور، ومن لهم القدرة الواسعة، فعليهم من الواجب أكثر، وعليهم أن يبلغوا الدعوة إلى ما استطاعوا من الأقطار حسب الإمكان بالطرق الممكنة وباللغات الحية التي ينطق بها الناس، يجب أن يبلغوا أمر الله بتلك اللغات حتى يصل دين الله إلى كل أحد باللغة التي يعرفها، باللغة العربية وبغيرها" [الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة ص/ ١٧].

ب ـ إبطال شبهات الكفار، ودفع باطلهم:

ويجب أن تدحض كل حجج الكفار وشبهاتهم حول دينهم الباطل، وكل دين غير الإسلام فباطل كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء:١٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام:١٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان:٣٣].

ومن أجل ذلك أبطل الله في القرآن كل ما احتج به الكفار على اختلاف عقائدهم في احتجاجهم لدينهم الباطل، فقد رد الله على اليهود مزاعمهم، وعلى النصارى ضلالهم وشبههم، وعلى مشركي العرب في جميع ما عارضوا به الإسلام، وعلى ما احتجوا به على ما هم عليه من الشرك والضلال.

٢ ـ لا يبدأ مع الكافر الأصلي إلا بالتوحيد ثم الأهم فالأهم:

يجب البدء مع الكافر الأصلي الذي لم يدخل الإسلام بالتوحيد لأنه أساس الدين، وجميع الأحكام ترجع إليه، ولا يصح العمل الصالح إلا به ولذلك كان كل رسول أول ما يدعو قومه يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه وتعالى.

إذ هو الفارق بين المسلم والكافر، وجميع أعمال الدين ترجع إلى التوحيد، وتبنى عليه، فلا يصح عمل صالح للعبد إلا بتحقيق التوحيد لله، وجميع الأعمال الصالحة تكون باطلة إذا لم يكن فاعلها موحداً لله سبحانه وتعالى كما قال جل وعلا في عمل المشركين والكفار: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور:٣٩]..

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم:١٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر:٦٥].

وقد أمر النبي ﷺ معاذ بن جبل عندما أرسله داعياً إلى أهل اليمن أن يبدأ

بالتوحيد ثم بالصلاة، ثم بالزكاة فقد قال ﷺ: **«إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا، فأخبرهم أن الله قد افترض عليهم زكاة في أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم فإذا أقروا بذلك فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس»** [متفق عليه].

قال ابن حجر في الفتح: "بدأ بالشهادتين لأنهما أصل الدين، الذي لا يصح شيء إلا بهما، فمن كان غير موحد فالمطالبة متوجهة إليه بكل واحدة من الشهادتين على التعيين، ومن كان موحداً فالمطالبة له بالجمع بين الإقرار والوحدانية".

وقال: "يبدأ بالأهم فالأهم، وذلك من التلطف في الخطاب لأنه لو طالبهم بالجميع لأول مرة لم يأمن النفرة" [الفتح ٣/٣٥٧].

٣ ـ عرض الدعوة على الكفار باللين، والحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالحسنى:

في مقام عرض دعوة الإسلام على الكفار، وإن كانوا من المجرمين العتاة، والجبابرة الطغاة يجب اتخاذ اللين والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى سبيلاً إلى عرض الدعوة، والدليل على هذا وصية الله لموسى وهارون أن يعرضا الدعوة على فرعون باللين.. قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤].

فمع طغيانه وقتله لذكور بني إسرائيل، واستحيائه لنسائهم، وسومهم رسولهم سوء العذاب إلا أن الله أمر الرسول عليه السلام أن يكون ليناً في عرض الدعوة عليه، ولعل اللين أن ينفعه فيتذكر ويخشى.

وقال تعالى أيضاً ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

٤ ـ وجوب رد إساءتهم وعدم السكوت على طعنهم في الدين:

لا يجوز للداعي إلى الله الذي يعرض دعوته باللين والحكمة على الكفار

أن يأخذ جانب اللين مع الذين يردون رداً سيئاً، ويطعنون في الدين الحق، ويسبون رسول الله ﷺ، أو يعيبون شريعة الله، بل يجب الرد المناسب عليهم والانتصار منهم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فالظالمون منهم يجب الرد بما يتناسب مع هجومهم وتهجمهم على الإسلام وطعنهم فيه. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى: ٣٩].. ولذلك جاء في كثير من آيات القرآن الرد والزجر الشديد على المعاندين من الكفار: كبيان فضائحهم، وكشف مخازيهم ووصفهم بفقدان العقل والفهم، والاستهزاء بحالهم ومآلهم، وتحقير آلهتهم، وتهديدهم بعذاب الدنيا والآخرة.

٥ ـ قبول الكافر أخاً في الإسلام مهما سلف منه في الكفر:

يجب أن يقبل الكافر أخاً في الدين إذا انتقل من الكفر إلى الإسلام، فلا يعير بدينه السابق، ولا بما كان عليه من الكفر والشرك، ولا يذكر بماضيه إلا أن يكون على وجه حمد الله وشكره وفضله عليه كما قال تعالى عن المشركين: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

أصول في دعوة المرتد:

المرتد: هو كل من رجع عن الإسلام بعد دخوله فيه، وللمرتد أحكام خاصة في الدعوة منها:

١ـ لا حكم بالردة إلا من عالم بالإسلام:

لا يجوز الحكم على مسلم بالردة إلا إذا أعلن بنفسه هو أنه راجع عن الإسلام أو أن يكون قوله أو فعله كفراً مخرجاً من الملة، ولا يحكم عليه بالردة إلا عالم بالإسلام وذلك لقوله ﷺ: «**من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه**» [متفق عليه]..

٢ـ يجب التفريق بين مقالة الكفر والكافر:

ليس كل من وقع في الكفر يكون كافراً فربما وقع جهلاً أو تأولاً ولذلك

يجب الرد على المخالف، وإقامة الحجة بيان المقالة الخاطئة، دون الحكم على قائلها حتى يتبين أنه قد اختار الكفر، أو أقيمت عليه الحجة البالغة التي تقطع عذره. .

أصول في دعوة المنافق

المنافق: هو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وهذه بعض الأصول الشرعية في دعوته للإسلام:

١ـ لا يحكم على شخص أنه منافق نفاقاً اعتقادياً إلا ببرهان لا يقبل النقض أنه يبطن الكفر، ويظهر الإسلام كذباً. .

٢ـ المنافق يدعى إلى الإسلام، ويوعظ، ويذكر بالله، ويجري عليه أحكام الإسلام الظاهرة، ويغلظ عليه عند مخالفة الأمر الشرعي. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾ [النساء: ٦٣] ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٧٣].

قال ابن كثير: "قال تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ هذا الضرب من الناس هم المنافقون، والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزيهم على ذلك فإنه لا تخفى عليه خافية فاكتف به يا محمد فيهم فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم، ولهذا قال له ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي لا تعنفهم على ما في قلوبهم ﴿وَعِظۡهُمۡ﴾ أي واتهمهم عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ أي وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم".

ثانياً: الدعوة بين المسلمين:

للدعوة إلى الله بين المسلمين ميدانان هما:

أ ـ التربية والتعليم.

ب ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولكل ميدان من هذين الميدانين أصوله وقواعده.

أ ـ قواعد في التربية على الإسلام وتعليمه:

التربية وهي التزكية والتعليم، هي مهمة النبي في المؤمنين قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

والتربية هي تنشئة الإنسان وبناؤه.. قال الرسول ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**» [متفق عليه].

ـ وهذه أهم قواعد التربية والتزكية:

١ـ تصور النموذج المثالي للإنسان الكامل والعبد الصالح:

يجب أولاً أن يتضح أمام المربي والمعلم النموذج والمثال الذي يجب أن يربى على غراره، وهذا النموذج قد جاء وصفه التفصيلي في آيات كثيرة من كتاب الله سبحانه وتعالى منها أول سورة المؤمنون.. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون: ١-٩].

وفي غيرها من سور القرآن كمطلع سورة البقرة، والآيات الأولى من سورة الأنفال، وسورة الحجرات بكمالها، والآيات من سورة الإسراء من قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢] إلى قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

ولا شك أن القرآن كله قد فصل صفات النموذج الطيب للمؤمن الصالح الذي يحبه الله ويرضاه..

وقد كان رسولنا ﷺ هو الإنسان الكامل والنموذج والقدوة والأسوة الذي أمر المسلمون جميعاً بالتأسي به ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فهو النموذج الكامل للتأسي، وقد كان خلقه القرآن كما قالت السيدة

عائشة رضي الله عنها: «**كان خلق رسول الله ﷺ القرآن**» [رواه أبو داود والنسائي].

وكذلك صور القرآن النماذج السيئة من المجرمين والكافرين والمنافقين. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأنعام: ٥٥].

٢ ـ التعليم الدائم:

يجب على الداعي إلى الله، ومعلم الخير أن يعتمد لنفسه ومن يعلمهم نظام التعليم الدائم من المهد إلى اللحد، والمسلم الحق هو من يزداد في دينه كل يوم علماً وعبادة ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وعلم الدين لا يحاط به، والقرآن لا يشبع منه العلماء، وفضل العلم خير من فضل العبادة.

٣ ـ أخذ العلم والعمل جميعاً:

يجب أخذ العلم والعمل جميعاً، وعدم إفراد العلم عن العمل لأن هذا مدعاة لأن يقول المسلم ما لا يفعل، وأن يصبح العلم حجة على صاحبه لا حجة له، وقد كان منهج الصحابة في التعلم أخذ العلم والعمل جميعاً فقد كان منهم من حفظ سورة البقرة في عدة سنوات ليحفظ السورة وليعلمها، وليعمل بها كما قال الأعمش: (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن) [تفسير ابن كثير] فتأخذ العلم والعمل جميعاً، وهذا لمن جاوز مرحلة الصغر وسنوات الحفظ الذهبية.

٤ ـ اغتنام سني الحفظ الذهبية عند الصغير:

تعليم الصغار يجب أن يكون بالحفظ أولاً اغتناماً لسنوات الحفظ الذهبية وهي من الثالثة إلى العشرين تقريباً.. وقد كان منهج التابعين وتابعيهم تحفيظ الصغير القرآن الكريم أولاً ثم السنة، ثم متون العلوم المختلفة [المتون هي كليات العلوم وقضاياها الأساسية وكثيراً ما تكون نظماً].. ثم في الكبر يعتني بعد ذلك بالفهم والتعلم والتفقه فيما يكون قد حفظه.

٥ ـ تعلم الحق قبل الباطل، والتحصن بجواب الشبهة قبل ورودها:

من قواعد التعليم تعلم الحق قبل تعليم الباطل، لأن السابق إلى الذهن يتمكن منه ويستقر فيه، وقد قال ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه**

يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» [متفق عليه] والفطرة هي التوحيد. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

فيجب تعليم الصغار كلمة التوحيد، وتنشئتهم على الفضيلة، والخلق الطيب قبل إطلاعهم على أنواع الشرك والكفر، ومعرفة الرذيلة..

ثم يجب تعلم جواب الشبهة قبل ورودها تحصناً منها، كما كان الله سبحانه وتعالى يعلم المسلمين ما يقولونه جواباً لشبهات الكفار قبل أن يلقيها الكفار. قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] فأخبرهم بقول المشركين سبحانه، قبل أن يقولوه ليعلمهم جوابه. وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١٤٢] وهذا كثير في القرآن.

٦ ـ التربية بالأسوة:

يجب أن تكون الدعوة إلى الله بالأسوة الصالحة، قبل أن تكون بالتعلم والقدوة الحسنة أبلغ في الدعوة.. فالعالم العامل المربي يدعو بسيرته وأخلاقه وأعماله أكثر مما يدعو بأقواله.. والرسول المربي ﷺ قد أثر في سلوك أصحابه بأخلاقه وشمائله أعظم من تأثيره بأقواله ومواعظه..

٧ ـ الحلم بالتحلم:

هناك فارق كبير بين التعلم والتربية، فالتعليم يكون بنقل العلم بأي وسيلة من وسائل النقل، ولكن اكتساب الأخلاق لا يكون بمجرد معرفتها وتعلمها بل بوجوب التعود عليها والتخلق بها كما قال ﷺ: «**إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم**» [رواه الدارقطني في الإفراد وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٣٢٨].

فلا بد للمربي أن يهيىء من يربيهم على التعود على أخلاق الإسلام ولا يكتفي بتلقينها وتعليمها لهم.

٨ ـ التدرج في التعليم (تعليم صغار العلم قبل كباره):

من القواعد الهامة في التربية والتعليم أن يكون التعليم متدرجاً فيبدأ

بصغار العلم قبل كباره، وبسهله قبل صعبه ومشكله، قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾ [عمران: ٧٩].

قال: مربون تعلمون الناس بصغار العلم قبل كباره..

٩ ـ التقويم المستمر:

من قواعد التربية والتعليم أن يكون التقويم مستمراً ولو كان في حال الكبر، فكل من وقع منه خطأ، أو ارتكب منكراً يجب تقويمه بالتقويم المناسب فقد قال رسول الله ﷺ وهو سيد المعلمين والمربين لأبي ذر رضي الله عنه: (إنك امرؤ فيك جاهلية)!! لما رآه يعير رجلاً بأمه قائلاً له: «**يا ابن السوداء**»!! فقال: يا رسول الله على كبر سني!! فقال: «**نعم**» [متفق عليه].

ووعظ رسول الله ﷺ معاذ بن جبل مع حبه له، موعظة غضب فيها الرسول ﷺ قائلاً له: «**يا معاذ أفتان أنت!!**» [متفق عليه].

وكل هذا يدل على أن الكبير في الفضل أو السن يجب تنبيهه إذا خالف شيئاً من الحق، وكذلك غضب ﷺ على عمر عندما خاصم الصديق وقال: «**أما أنتم بتاركي لي صاحبي**» [رواه البخاري].

١٠ ـ تعليم الناس ما ينفعهم ويحتاجون إليه:

قال العلامة عبد الرحمن بن حسن رحمه الله: "وقد كان شيخنا المصنف رحمه الله - يعني الإمام محمد بن عبد الوهاب- لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل دينهم وعباداتهم، ومعاملاتهم مما لا غنى لهم عن معرفته" [فتح المجيد ص/ ٤١٤].

وإذا سأل العامي عن أمور لا يحتاج إليها فإنه ينبغي للمعلم أن يفتح له باباً إلى ما يهمه. قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: "وينبغي للعالم إذا سأله العامي عما يحتاج إليه، أو سأله عما غيره أهم منه، أن يفتح له باباً إلى المهم، ولا يحقر عن التعليم من يظنه أبعد الناس عنه، ولا يستبعد فضل الله عليه" [مؤلفات الشيخ: القسم الرابع-التفسير. سورة يوسف ص/١٤٧-١٤٨].

١١ ـ تعليم الناس على قدر أفهامهم:

وينبغي للعالم أن يخاطب الناس كلاً على قدر فهمه..

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: " فينبغي للمعلم أن يعلم أن الإنسان على قدر فهمه، وإن كان ممن يقرأ القرآن، أو عرف أنه ذكي فيعلم أصل الدين وأدلته والشرك وأدلته، ويقرأ عليه القرآن ويجتهد أن يفهم القرآن فهم قلب، وإن كان رجلاً متوسطاً ذكر له بعض هذا، وإن كان مثل غالب الناس، ضعيف الفهم، فيصرح له بحق الله على العبيد، مثل ما ذكر النبي ﷺ على المسلم، وحق الأرحام، وحق الوالدين، وأعظم من ذلك حق النبي ﷺ" [الدرر السنية ١/٩٨-٩٩].

١٢ ـ عدم تضييع الزمان في إبطال الشبه الواضحة البطلان:

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: " إن الشبهة إذا كانت واضحة البطلان لا عذر لصاحبها فإن عدم إبطالها تضييع للزمان وإتعاب للحيوان مع أن ذلك لا يردعه عن بدعته.. وكان السلف لا يخوضون مع أهل الباطل في رد باطلهم عنهم" [مؤلفات الشيخ القسم الرابع-التفسير ص/٩٢].

أما إذا كانت الشبهة قد أشكلت على المتعلم أو الناس واحتاجوا إلى إبطالها وجب حينئذ على أهل العلم ردها وتفنيدها وإبطالها بالحجج الدامغة لئلا تستقر في صدورهم فتورث الشك والاضطراب أو الحيرة والارتياب.

ب ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الميدان الثاني من ميادين الدعوة إلى الله وهو من فروض الكفايات على الأمة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب على كل أحد بعينه، بل هو على الكفاية كما دل عليه القرآن".

ولكنه واجب عيني على أولي الأمر من المسلمين وهم الأمراء العلماء كما قال شيخ الإسلام أيضاً: "ويجب على كل أولي الأمر وهم علماء كل طائفة ومشايخها أن يقوموا على عامتهم، ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر" [رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص/٤٠-٤١].

والمعروف: هو كل ما يحبه الله ويرضاه ويأمر به.

والمنكر: يعم كل ما كرهه الله ونهى عنه.

وهذه أهم قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

١ ـ لا تأمر بمعروف ولا تنه عن منكر إلا بعد العلم بما تأمر به وتنهى عنه:

لا يجوز لمن يأمر بالمعروف أن يقدم على ذلك إلا إذا علم أن ما يأمر به هو من المعروف حقاً، ولا ينهى عن منكر إلا إذا علم أن ما ينهى عنه هو من المنكر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "والله سبحانه وتعالى قد أمرنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: والأمر بالشيء مسبوق بمعرفته فمن لا يعلم المعروف لا يمكنه الأمر به.. والنهي عن المنكر مسبوق بمعرفته فمن لم يعلمه لا يمكنه النهي عنه" [التفسير الكبير ٥/ ٣٠٤].

وقال النووي رحمه الله: "ثم إنه إنما يأمر وينهى من كان عالماً بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة، والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا، والخمر ونحوها، فكل المسلمين علماء بها.

وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال، ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه، ولا لهم إنكاره، بل ذلك للعلماء".

ثم العلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه أما المختلف فيه فلا إنكار فيه، لأن على أحد المذهبين: كل مجتهد مصيب، وهذا هو المختار عند كثيرين من المحققين أو أكثرهم.

وعلى المذهب الآخر: المصيب واحد، والمخطىء غير متعين لنا والإثم مرفوع عنه، لكن إن ندبه -على جهة النصيحة- إلى الخروج من الخلاف، فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق فإن العلماء متفقون على الحث على الخروج من الخلاف، إذا لم يلزم منه إخلال بسنة، أو وقوع في خلاف آخر.

وذكر القاضي أبو الحسن الماوردي البصري الشافعي في كتابه الأحكام السلطانية خلافاً بين العلماء في أن من قلده السلطان الحسبة هل له أن يحمل الناس على مذهبه فيما اختلف فيه الفقهاء إذا كان المحتسب من أهل الاجتهاد،

أم لا يغير ما كان على مذهب غيره؟. والأصح أنه لا يغير لما ذكرناه.

ولم يزل الخلاف في الفروع بين الصحابة والتابعين فمن بعدهم رضي الله عنهم أجمعين.. ولا ينكر محتسب ولا غيره، وكذلك قالوا: ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نصاً، أو إجماعاً أو قياساً جلياً. والله أعلم.

٢ ـ اتخاذ إحدى مراتب الإنكار اتباعاً للحكمة والقدرة:

وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان].. [رواه مسلم].

فالإنكار باليد أعلى درجات الإنكار وهو ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ أهل القوة والتمكن والقدرة فمن لم يستطع لسبب أو آخر تحول إلى الإنكار باللسان، ذماً للمنكر وأهله، وبياناً لفساده، وتحذيراً منه، فإن لم يستطع تحول إلى الإنكار بقلبه بغضاً للمنكر وأهله، ومفارقة لمجالسهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨].

ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات، بل هو ثابت لآحاد المسلمين وعليه إجماع المسلمين فإن غير الولاة في الصدر الأول والعصر الذي يليه كانوا يأمرون الولاة بالمعروف وينهونهم عن المنكر مع تقرير المسلمين إياهم، وهذا إجماع من الأمة على ذلك وأدلة القرآن والسنة شاهدة بذلك.. " أ.هـ

٣ ـ وجوب اتباع المصالح الشرعية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ومما يجب على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يعلم المصالح والمفاسد الشرعية التي تترتب على أمره ونهيه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد وتعارضت المصالح والمفاسد.

فإن الأمر والنهي -وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة- فينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح، أو يحصل من المفاسد أكثر، لم يكن مأموراً به، بل يكون حراماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته.

لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، ولن تعوز النصوص من يكون خبيراً بدلالاتها على الأحكام.

ومن هذا الباب ترك النبي ﷺ لعبد الله بن أبي سلول وأمثاله من أئمة النفاق والفجور، لما لهم من أعوان فإزالة منكره بنوع من عقابه مستلزمة إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم، وبنفور الناس إذا سمعوا أن رسول الله ﷺ يقتل أصحابه، ولهذا لما خطب الناس في قضية الإفك بما خطبهم به، واعتذر عنه، وقال له سعد بن معاذ قوله الذي أحسن فيه، حمي له سعد بن عبادة - مع حسن إيمانه وصدقه - وتعصب لكلٍ منهم قبيلته حتى كادت تكون فتنة" [قاعدة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص/٤٧-٤٨].

٤ ـ وجوب إخلاص النية والبعد عن الهوى:

يجب على من يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون عمله لله خالصاً، وأن يكون صواباً، وألا يتبع هواه، ويأمر أو ينهى لحظ نفسه، وذلك أن الضلال في الدين عظيم، ومن فقد الإخلاص، ولم يتحر الصواب أوقعه الشيطان في الهوى، ومن كلام شيخ الإسلام ابن تيمية: "واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات".

فإن أهل الكتاب اتبعوا أهواءهم فضلوا. قال تعالى عنهم ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠].

ولذلك نهى نبينا أن يتبع أهواء أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

فاتباع الهوى هو الذي أفسد الديانات السابقة، وأوجد الفرقة بين أهل الدين الواحد، وهو الذي خرج به من خرج عن موجب الكتاب والسنة وسماهم علماء الإسلام أهل الأهواء..

فيجب على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون باعثه إخلاص النية، وعمله على الكتاب والسنة وأن يجانب الهوى، وإتباع الهوى هو أن يحب ويبغض بدافع من هواه لا إتباعاً للأمر والنهي.

٥ ـ الرفق سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يجب أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر رفيقاً كما قال ﷺ: «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه**» [رواه مسلم].

وقال أيضاً ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف**».

ولهذا قيل: «**ليكن أمرك بالمعروف معروفاً ونهيك عن المنكر غير منكر**» [رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد].

هذا وينظر كذلك إلى الفصل الخاص بالصفات التي يجب أن يتحلى بها الداعي في دعوته إلى الله..

وسائل الدعوة

إلى الله سبحانه وتعالى:

١ـ معنى الوسيلة:

الوسيلة في أصل اللغة هي المنزلة عند الملك، والدرجة والقربة، وقال الجوهري: الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير، والجمع الوسل، والوسائل. [لسان العرب].

وتطلق في العرف والاستعمال الشائع على كل ما يتخذ وصولاً إلى غاية..

والمقصود بالوسيلة هنا: كل أمر وطريقة مشروعة وأسلوب وآلة يمكن

اتخاذها وصولاً إلى نشر الدين، وتبليغه، وتعليمه، والدعوة إلى الإسلام.

٢ـ حكم الوسيلة في الدعوة إلى الله:

كل وسيلة أمر بها الله سبحانه وتعالى، ورسوله ﷺ أو وفق الله إليها المسلمين في أي عصر من عصورهم.. فهي وسيلة مشروعة ما لم يأت في الشرع ما يحرمها، فالأصل في هذه الوسائل الإباحة، وقد تجب الوسيلة إذا كانت مما لا يقوم الواجب إلا به كما هو مقرر في أصول الفقه (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)..

فإذا وجب قتال الكفار ودفعهم، ولم يمكن ذلك إلا بسلاح يمكن المسلمين من دفعهم وجب تحصيل هذا السلاح واستعماله..

وهكذا الأمر في رد الشبهات، وإنكار المنكرات وإبلاغ دين الله إلى العالمين، فكل وسيلة لم يأت الشرع بتحريمها بعينها، فهي مشروعة من أجل القيام بهذه الواجبات..

قال شيخنا عبد العزيز بن باز حفظه الله: " ونظراً إلى انتشار الدعوة إلى المبادىء الهدامة وإلى الإلحاد، وإنكار رب العباد، وإنكار الرسالات، وإنكار الآخرة، وانتشار الدعوة النصرانية في الكثير من البلدان، وغير ذلك من الدعوات المضللة، نظراً إلى هذا فإن الدعوة إلى الله عز وجل اليوم أصبحت فرضاً عاماً وواجباً على جميع العلماء، وعلى جميع الحكام الذين يدينون بالإسلام، فرض عليهم أن يبلغوا دين الله حسب الطاقة والإمكان بالكتابة، والخطابة، والإذاعة، وبكل وسيلة استطاعوا، وأن لا يتقاعسوا عن ذلك أو يتكلوا على زيد أو عمرو، فإن الحاجة بل الضرورة ماسة اليوم إلى التعاون والاشتراك والتكاتف في هذا الأمر العظيم أكثر مما كان قبل ذلك لأن أعداء الله قد تكاتفوا وتعاونوا بكل وسيلة للصد عن سبيل الله عز وجل، فوجب على أهل الإسلام أن يقابلوا هذا النشاط المضل، وهذا النشاط الملحد بنشاط إسلامي وبدعوة إسلامية على شتى المستويات، وبجميع الوسائل وبجميع الطرق الممكنة، وهذا من باب أداء ما أوجب الله على عباده من الدعوة إلى سبيله" [الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة ص/١٨].

ويقول شيخنا محمد الصالح العثيمين: "ليس للوسائل حد شرعي فكل ما أدى إلى المقصود فهو مقصود، ما لم يكن منهياً عنه بعينه، فإن كان منهياً عنه بعينه فلا نقر به، فلو قال: أنا أريد أن أدعو شخصاً بالغناء والموسيقا لأنه يطرب لها ويستأنس بها وربما يكون هذا جذباً له فادعوه بالموسيقا والغناء هل نبيح له ذلك؟ لا لا يجوز أبداً، لكن إذا كانت وسيلة لم ينه عنها ولها أثر فهذه لا بأس بها، فالوسائل غير المقاصد وليس من اللازم أن ينص الشرع على كل وسيلة بعينها، يقول هذه جائزة وهذه غير جائزة، لأن الوسائل لا حصر لها، ولا حد لها، فكل ما كان وسيلة لخير فهو خير" [لقاء الباب المفتوح ١٥/ ٤٩].

٣ ـ حكم الوسائل التي تختلط فيها المصالح والمفاسد:

الوسائل التي تختلط فيها المصالح والمفاسد. كتولي الولايات في ظل الحكومات المعاصرة، والدخول إلى المجالس التشريعية في ظل الأنظمة المسماة بالديمقراطية، والدخول إلى الاتحادات والنقابات العمالية والمهنية، ونحو ذلك..

ينظر دائماً فيها إلى المصالح والمفاسد فإذا رجحت المصالح على المفاسد كان اتخاذ هذه الوسيلة مشروعاً وإذا ترجحت المفاسد تركت هذه الوسيلة، ولا شك أن تقدير المصالح والمفاسد إنما هو بميزان الشرع لا بميزان الهوى والمصالح الدنيوية.. ويختلف الحكم من بلد إلى بلد ومن وقت إلى آخر.

ولا يجوز تحريم وسيلة من هذه الوسائل بدعوى أن وسائل الدعوة لا بد وأن يكون قد جرى عليها عمل السلف الصالح.. فإن في كل عصر تتطور وسائل الناس ووسائل الاتصال بينهم كما تتطور أسلحة الحرب والدمار، ويجب أن يجابه العدو بالوسيلة التي تكافىء وسائله، وتدفع عدوانه عن المسلمين بما يندفع به، والحرب الإعلامية شأنها كالحرب العسكرية..

٤ ـ حكم الوسائل المحرمة:

وكل ما حرمه الله سبحانه وتعالى فلا يجوز استخدامه في الدعوة إلى الله،

ولو أدى إلى نفع المسلمين، وذلك كالقصص المكذوب، والحكايات الملفقة والأحاديث الموضوعة للمبالغة في الترغيب والترهيب، فإن هذه الأساليب وإن كانت تفيد أحياناً في توبة بعض العصاة، وهداية بعض الناس إلا أن هذا من الكذب الذي حرم الله أصله.

٥ ـ أعظم الوسائل في الدعوة إلى الله:

١ تعلم القرآن وتعليمه ونشره:

أعظم وسيلة للدعوة إلى الله هي تعلم القرآن وتعليمه، ونشره، فهو الكتاب المعجز الذي لا يمحوه الماء وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»!! (متفق عليه).

فكثرة اتباع الرسول ﷺ إنما مرده إلى هذا القرآن الذي يقطع العذر، ويدمغ الباطل، ينفذ إلى القلوب ويدمع العين ويحيي موات القلوب، وينير البصائر. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾..﴾ [الشورى: ٥٢].

فالعناية بكتاب الله حفظاً وفقهاً وتعليماً، ونشراً وترجمة لمعانيه من أكبر أسباب الهداية ونشر الإسلام في العالمين..

وقد أمرنا الله أن نجاهد به الكفار فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥١-٥٢].

٢ ـ إعلاء منزلة الرسول ﷺ في الأمة، ونشر كتب السنة:

الوسيلة الثانية من الوسائل العظمى في الدعوة إلى الله هي إعلاء منزلة رسول الله ﷺ في الأمة، ونشر كتب السنة، ورفعه ليكون هو الأسوة والقدوة لكل مسلم.

فلا يجوز أن يخلو بيت مسلم من أصل من الأصول الصحيحة لحديث رسول الله ﷺ وخاصة صحيحي البخاري ومسلم اللذين هما أصح كتابين بعد كتاب الله سبحانه وتعالى..

فالعناية بنشر صحيح السنة وتعليمها، والتفقه فيها، وتدريس سيرة رسول الله ﷺ، وجعله ماثلاً في العيان أمام كل مسلم ليأتسي به في حركاته وسكناته في إيمانه ويقينه وصبره، وجهاده، وعبادته، بل في سمته، وهديه، ومخرجه ومدخله..

هذه العناية بالسنة علماً ونشراً هي من أبلغ وسائل الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى..

٣ - الإمام المسلم الداعي إلى الله:

قيام الإمام المسلم بما أوصى به الله سبحانه وتعالى عليه، والدعوة.. والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من أعظم الوسائل التي ينتشر بها الدين، ويتحقق بها أهداف الرسالة، كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن).

ومن أجل ذلك جعل الله الخلافة في الأرض لمن يقوم بهذه المهمة فقال جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

٤ - تجنيد الأمة كلها في الدعوة إلى الله:

الوسيلة العظمى الرابعة بعد كتاب الله هي تجنيد الأمة كلها لتقوم بما فرض الله عليها في حمل رسالة الإسلام وتبليغها كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٧-٧٨].

وقال ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية**» [رواه البخاري]. وقال ﷺ أيضاً: «**نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع**» [رواه أحمد والترمذي وابن حبان وصححه الألباني في الجامع ٦٧٦٤].

فيجب أن تهب الأمة بكاملها لنشر الدين، وإبلاغ رسالة الله للعالمين، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

٥ ـ العلماء العاملون المربون:

الوسيلة الخامسة العظيمة في الدعوة إلى الله هي وجود العلماء العاملين المربين إذ هم حياة الأمة، ونورها وقادتها وأولو الأمر فيها، فالعناية بوجود هؤلاء العلماء من أعظم ما ينفع أمة الإسلام.

والطريق إلى وجودهم يبدأ بتعليم النابهين والأذكياء من أطفال المسلمين بدءاً بحفظ القرآن الكريم، ومتون علوم الإسلام ثم تهيئة الجو المناسب، لتفقههم، وزكاة نفوسهم، وتفرغهم لعمل الدعوة والتعليم، والتوجيه، وقد عز سلفنا الصالح رضوان الله عليهم عندما كان للعلماء فيهم مكانتهم فقد كانت الشعوب والعامة تسير في ركابهم، وتأتمر بأمرهم..

وترى أن سلطانهم أعز من سلطان الملوك، وهذا عبد الله بن المبارك - رحمه الله - يدخل بغداد فينجفل الناس إليه وتقول امرأة لهارون الرشيد وقد رأت خروج بغداد كلها لاستقباله: " هذا والله الملك لا ملك هارون " [البداية والنهاية ١٠/ ١٧٨].

٦ ـ إحياء مهمة المسجد:

ومن الوسائل الناجحة في الدعوة إلى الله إحياء مهمة المسجد، وذلك بالحث على الجمع والجماعات، والجلوس لقراءة القرآن ومدارسته، وتعلم العلم وذكر الله سبحانه، كما كان الشأن في مسجد رسول الله ﷺ ثم في المساجد التي أشرق فيها نور الإسلام، وأخرجت أجيالاً من العلماء والدعاة في العصور الزاهرة، كمساجد بغداد أيام العباسيين التي قيل فيها: "من أراد أن يرى عز الإسلام فليصل الجمعة ببغداد "!!

وقد عزز من يصلون الجمعة فيها أيام المنصور فكانوا نحواً من خمسة

آلاف ألف. أي خمسة ملايين..

إن مثل هذا المشهد وحده يملأ قلب المسلم عزاً بالإسلام، ويكسر قلوب أعداء الله كما قال الله في شأن أصحاب محمد ﷺ: «**ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار**» [الفتح: ٢١].

وقد خرَّج الحرم المكي والمسجد النبوي، والأزهر، والزيتونة على الدوام آلاف الآلاف من حملة العلم الشرعي الذين كانوا نور الأمة وعزها، ومجدها.

٧ - إخراج الزكاة والصدقات، والاهتمام بأعمال البر والخير:

إخراج الزكاة، والصدقات، والاهتمام بأعمال البر، وعمل الخير إلى جانب كونها في ذاتها قربة عظيمة إلى الله، وأداءً للحق الواجب في مال الله فهي من أعظم أسباب نشر الإسلام، والدعوة إلى الله وتثبيت المسلمين، وتأليف القلوب على الإسلام..

٨ - شهر رمضان شهر الدعوة إلى الله والهداية:

شهر رمضان شهر مبارك، وإذا كان الله سبحانه قد أوجب فيه الصوم، فإن هذا الشهر وما يكتنفه من أسباب الخير هو من أعظم شهور السنة بركة في الدعوة إلى الله وهداية العصاة، ففيه تصفد مردة الشياطين، وتفتح أبواب الجنة، وتغلق أبواب النار، ويقرأ القرآن آناء الليل وأطراف النهار، ويجود فيه المسلمون الصالحون بصدقاتهم، ويشغل الصالحون نهارهم بالصوم وليلهم بالعبادة.. وكل ذلك يدفع في النهاية إلى توبة كثير من العصاة، وهذا الشهر فرصة عظيمة، يجب أن يغتنمها الدعاة في الدعوة إلى الله، وقد يكسبون من المهتدين ما لا يحصلون على مثله طيلة العام..

٩ - الحج والدعوة إلى الله:

الحج من الوسائل العظمى في الدعوة إلى الله، فهو جمع لجمهور عظيم من المسلمين من كل فج عميق إلى مكان واحد يؤدون عبادة واحدة، ويذكرون الله بأذكار هي كليات الإسلام وأصوله: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك..

وهذه التلبية تضمنت غاية الدين وهدفه وعقيدته العظمى، ولا شك أن من فهم هذه التلبية وعلم معناها واعتقدها، وعمل بمقتضاها فهم أصل الإسلام الأصيل: «**من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة**» [رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه، وأبو نعيم في الحلية وصححه الألباني في الجامع ٦٤٣٣].

وقد كان الحج وما زال من أعظم الوسائل في التعريف بالإسلام وتوحيد الأمة، وجمع الكلمة، ونشر الدين كما قال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

وتعلم الإسلام، والتفقه في الدين، وجمع كلمة المسلمين من أعظم منافع الحج.

١٠ ـ الجماعات الدعوية:

جماعة الدعوة وسيلة عظيمة للدعوة إلى الله فهي من باب التعاون على البر والتقوى، ولا شك أن الدعوة إلى الله ونشر دينه، وإعلاء كلمته سبحانه وتعالى هو أعظم البر والتقوى فإذا قامت هذه الجماعة الدعوية على الكتاب والسنة، والنصح لكل مسلم، وأن تقول الحق لا تخاف في الله لومة لائم، ونظمت صفوفها، ووحدت كلمتها، وجعلت جهادها نصراً للدين، وإعلاءً لكلمة الله في الأرض، أعزها الله ونصرها كما قال تعالى ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ولا شك أن جهود جماعة مؤتلفة في الدعوة إلى الله خير من جهود أعدادهم متفرقين..

١١ ـ المؤسسات التعليمية:

المؤسسات التعليمية وسيلة عظيمة في الدعوة إلى الله (فالكتّاب الصغير، ومركز تحفيظ القرآن، والمدرسة، والجامعة، والمعهد) هذه المؤسسات التعليمية إذا تيسر فيها المنهج الدراسي الجيد لدراسة الإسلام، والمعلمون المخلصون العالمون المربون، والنظام الجيد، فإن هذا يخرج أجيالاً من حملة الدين وعلماء الملة، وقادة الأمة.

١٢ ـ الآلات الإعلامية:

مكن الله بالعلم الحديث الإنسان من استخدام آلات ووسائل بالغة التأثير يمكن للإنسان بواسطتها أن يسمع الألوف المؤلفة في وقت واحد، وأن يقرأ الملايين من الناس مقالة رجل واحد في وقت واحد.. فجهاز التلفاز الذي يستطيع أن يراه أكثر من مائة مليون في وقت واحد بل عدة مئات من الملايين، والصحف السيارة التي تطبع في أماكن عديدة من العالم في وقت واحد، وجهاز المذياع الذي تسمع منه الرسالة الواحدة في كل أرجاء الدنيا في وقت واحد!!

إن هذه الآلات الضخمة أصبحت بالغة التأثير.. ولا مجال لمقارنتها مع الوسائل القديمة حيث كان يعتمد الخطيب أو المتكلم على صوته أو مكبر للصوت يسمع بضع مئات أو آلاف من الناس.

أما اليوم فيستطيع نصف سكان الأرض وأكثر من ذلك أن يسمعوا رجلاً واحداً يخطبهم أو يعظهم أو يذكرهم، أو ينشر الشر والفساد بينهم.

وهذه الآلات الخطيرة أصبحت في الحرب الإعلامية تفعل فعل الأسلحة الخطيرة، وقد شبه التلفزيون بالقنبلة الذرية.. فإن خطره في كل بيت، بل ويدخل إلى الغرف المغلقة، ويهجم على العوائل وذوات الخدور، فالرسالة الإعلامية الفاسدة تدمر الرجال والنساء والأطفال..

ولا سبيل إلى مقاومة هذا الشر العظيم إلا بما يماثل ذلك من استخدام هذه الآلات.. فكما لا يمكن مقاومة عدو يستعمل سلاحاً فتاكاً إلا بمثل سلاحه.. فكذلك في الحرب العقائدية لا بد من وسائل تكافىء وسائل الخصوم، وإلا كانت الهزيمة والضياع.

١٣ ـ الوسائل في الدعوة إلى الله كثيرة جداً:

ولا شك أن الوسائل التي يمكن أن يبلغ بها دين الله، وينشر بواسطتها الخير كثيرة جداً..

فالاتصال الفردي وسيلة عظيمة، وقد كان أول وسيلة دعا بها رسول الله ﷺ، ودخل خيار أصحابه في الإسلام عن طريقها فقد آمن أبو بكر رضي الله عنه، وعلي رضي الله عنه، والسيدة خديجة رضي الله عنها، وزيد بن حارثة

رضي الله عنه، لما عرض النبي عليهم الإسلام، قبل أن يسمعوا خطبة أو يحضروا درساً، وآمن بدعوة أبي بكر (الفردية) عدد كبير جداً من الصحابة. (وهذا في الاتصال الفردي).

ومن الوسائل الدعوة إلى الطعام، واستخدام الولاء القبلي كما فعله سعد بن عبادة، وأسيد بن خضير، فقد دعا كل منهما قبيلته -وهو شيخها- فدخلوا جميعاً في الإسلام في ليلة واحدة.

ومن الوسائل النافعة حمل الدعوة مع التجارة فقد دخل بدعوة التجار المسلمين أمم وشعوب كثيرة، وكذلك السياحة، والمراسلات، والمناظرات، واستغلال المناسبات الاجتماعية كحفلات الزواج، والجنائز.. هذا عدا عن الدروس العلمية، والخطابة، وإنشاء الشعر والأدب..

والخلاصة: أنه يمكن لكل أحد أن يدعو إلى الله وأن يبلغ الحق وينشر الخير حتى ولو كان ممن لا يستطيع أن يحفظ العلم ويؤديه كما سمعه، فإنه يستطيع أن ينشر الكتاب، والشريط الديني ويدل على الخير، وأن يكثر سواد الدعاة إلى الله بمصاحبتهم فضلاً عما ينفعه الله به من صحبتهم..

خاتمة

هذا بحمد الله ما تيسر لي جمعه في أصول وقواعد الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى سائلاً جل وعلا أن يوفق المسلمين إلى القيام بهذا الواجب العظيم الذي جعلهم الله به خير أمة أخرجت للناس قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

ونسأله تعالى أن يسلكنا في عداد الداعين إليه والمجاهدين في سبيله وأن يجعل عملنا كله له خالصاً.

وكان الفراغ منه في الثاني من محرم الحرام لعام ١٤١٧ من هجرة المصطفى عليه السلام.

* * *

كتاب

الأصول العلمية للدعوة السلفية

الباب الأول

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله حمداً يليق بذاته، ويكافىء مزيد إحسانه، ويتجدد بتجدد نعمه وأفضاله. والصلاة والسلام على نبيه ورسوله الداعي إلى الصراط المستقيم، والهادي إلى دينه القويم. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

وبعد:

فمنذ سبع سنوات تقريباً صدرت أول طبعة لهذه الرسالة المباركة، التي تلقفتها أيدي إخواننا السلفيين في كل مكان، حيث استنسخها بعضهم بقلمه، وتداول آخرون النسخة الواحدة واحداً بعد واحد، وصورها آخرون ووزعوها ونشروها، وكل ذلك من فضل الله وإحسانه.

ولقد كانت -على صغر حجمها- وافية بحمد الله في موضوعها، واضعة معالم الطريق السلفي، مرشدة لأهداف الرسالة الإسلامية، موضحة غايات الدعوة السلفية، واضعة أصول المنهج السلفي الذي هو المنهج القويم لفهم الإسلام والعمل به، والذي هو بحمد الله طريق الخلاص للأمة وسبيل عزتها ونصرها.

ولقد شاهدنا بركات ذلك ودلائله بحمد الله؛ فالنماذج السلفية الفريدة التي تربت على هذا المنهج قد أثبتت بأخلاقها وصفاتها وعلمها وعملها أنها على طريق السلف الصالح حقاً، وعلى مثال قرون الخير الأولى صدقاً، وأن هذا الدين لا تنتهي عجائبه ولا تنفد ذخائره، وأنه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين حتى يقاتل آخرهم الدجال.

رأينا بحمد الله الإخوة السلفيين الذين درسوا على هذا المنهج فهموا الإسلام فهماً سليماً صحيحاً، وطبقوه في أنفسهم وذويهم، وقاموا بواجب الدعوة إلى الله على علم وبصيرة، وتصدوا لكل انحراف في العقيدة والشريعة والسلوك، وقاوموا أهل الباطل، وجاهدوا بكل أنواع الجهاد المتاحة لهم، وأعادوا للإسلام إشراقته وبهجته وحياته وحركته وشبابه ونضرته. ولا يزال ركب الخير والحمد لله كل يوم في زيادة.

شبهات وردود:

ولم تسلم الدعوة السلفية المعاصرة من الذين ما فتئوا يلقون شبهاتهم حول الدعوة، ونحمد الله سبحانه وتعالى أن هذه الشبهات تسقط دائماً تحت الأقدام، وتتعرى دائماً مع الأيام، ويستطيع كل طالب مبتدىء فهم الإسلام على منهج السلف الصالح أن يرد على هذه الشبهات.

ومن هذه الشبهات على سبيل المثال: قولهم: لماذا تتسمون بالسلفية وهو لم يرد في كتاب ولا سنة؟".

والرد على ذلك أن نقول: إن إطلاق الأسماء على أي حقيقة لا ضرر منه مطلقاً، سواء في الشرعيات أو المباحات، والتسمية لأي أمر شرعي - إذا لم يشتمل على باطل - فليس فيها ضرر، بل قد يكون هذا من الواجبات:

كما أطلق المسلمون على علم الإسناد: (مصطلح الحديث)، ولم يكن على عهد الرسول مثل هذا العلم، وليس هذا بدعة ؛ لأن التثبت في الأخبار والنقل عن الرسول مطلوب.

وكذلك سمي بعض المسلمين بـ (المهاجرين) من أجل الهجرة، وبعضهم بـ (الأنصار) من أجل النصرة، وبعضهم بـ (التابعين) من أجل اتباعهم للسلف من المهاجرين والأنصار المشهود لهم بالخير.

فما الضير أن نتسمى بـ (السلفيين)؛ أي: الذين يتبعون منهج السلف الصالح في فهم الدين، والسلف الصالح الذين نتبعهم هم الصحابة وتابعوهم بإحسان، وهم خير القرون.

وهذه التسمية ضرورية؛ لتميز هذه الطائفة المهتدية عن سائر طوائف

الضلال الذين تركوا منهج الصحابة في فهم الدين، واتبعوا طريق الخوارج الغالين المتشددين، أو المؤولين المتنطعين، أو المقلدين الجامدين.. الخ.

ومع هذا؛ فنحن لا نتعصب لهذا الاسم، بل نحب كل مسلم يشهد الشهادتين ويعمل حسب استطاعته بمقتضاهما، ونوالي كل مسلم يحب الله ورسوله، ولا ننصر السلفي إن كان مبطلاً، ولو كان عدوه كافراً؛ فنحن لا نوالي السلفي في الظلم، بل نوالي كل مسلم حسب دينه واعتقاده وإيمانه.

ونحن في النهاية حملة دعوة تسمى (الدعوة السلفية). وهذه الدعوة منهج كامل لفهم الإسلام والعمل به والدعوة إليه...

وقد تضافر العلماء السلفيون على شرح هذه الدعوة وبيانها عبر القرون وإلى يومنا هذا، ونحن على منهج هؤلاء العلماء العاملين: فمن يستطيع أن يستغني عن أصول الفقه التي كتبها الإمام الشافعي في كتابه " الرسالة " ؟!

ومن يستطيع أن يستغني عن مناقشات ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما للخوارج ورده عليهم في استحلال أعراض المسلمين وأموالهم بالمعصية ؟!

ومن يستطيع أن يستغني عن فقه مالك وردود الإمام أحمد على شبهات الزنادقة وكتابات الإمام ابن تيمية في المصالح الشرعية وردوده على الفرق الضالة؟!

كل هذا وغيره مما يشكل قواعد المنهج السلفي لا غنى عنه بتاتاً لطالب العلم المعاصر، هذا بالإضافة - أولاً وقبل كل شيء - إلى نصوص الكتاب والسنة.

وهذه هي السلفية، تعني في جملتها الاتباع المستبصر لنصوص القرآن والسنة، واحترام العلماء الذين قاموا بفهم هذا الدين وتبليغه، واقتفاء آثارهم في ذلك.

وعلى كل حال ؛ الذين ينكرون على السلفيين اسمهم لم يسلموا هم أيضاً من أن يطلقوا على أنفسهم اسماً ما يتميزون به.. وهكذا يتهمون غيرهم بما هو فيهم، وهذا هو اتباع الهوى.

والفرق بيننا وبين غيرنا أننا لا نتعصب لهذا الاسم، ولا نوالي ونعادي عليه، ولا نجعله شعاراً بديلاً عن الإسلام، بل نحن مسلمون أولاً وأخيراً إن شاء الله، بهذا سمانا الله، وقد رضينا بالإسلام ديناً. . و (السلفية) لا تعني عندنا أكثر من الإسلام الصحيح الموافق للكتاب والسنة والمتبع للسلف الصالح رضوان الله عليهم.

الشبهة الثانية: قول بعضهم: "أنتم مقلدون".

وهذا افتراء؛ فلسنا مقلدين، وإنما السلفي الحقيقي متبع للحق والدليل، معظم لعلماء الأمة، مقدر لجهودهم، وغير متطاول على فقههم وعلمهم. ومتبع للحق أنّى وجده، غير طعّان ولا لعّان ولا فاحش ولا بذيء.

والسلفي الحقيقي أيضاً يستحيل أن يكون غلاماً لم يبلغ الحلم بعد وقد درس قليلاً من القرآن والسنة، ثم يضع نفسه موضع علماء الأمة المشهود لهم بالخير والفضل، فيقول مثلاً: أنا مثل مالك أو الشافعي! أو أفهم كما يفهم أحمد بن حنبل وأبو حنيفة!! بل يضع نفسه موضعها، ويعرف حق سلف الأمة وعلمائها، ويجلهم، ويحترمهم، ويقدسهم، بقدر تقديسهم للحق واتباعهم له، وإذا رأى شيئاً من أقوالهم مخالفاً للدليل، اتهم نفسه أولاً بعدم فهم الدليل، وعذرهم ثانياً في اجتهادهم، لربما لم يصل إليهم الدليل، وربما فهموا من دلالته غير ما فهمنا نحن؛ كما نصّ على ذلك الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتاب " رفع الملام عن الأئمة الأعلام ".

وقد رأيت بعيني غلماناً لم يتجاوزوا السابعة عشرة من عمرهم، لم يحصلوا من العلم إلا قليلاً، إذا ذكر له اجتهاد إمام؛ يقول: " نحن رجال وهم رجال ".

عجباً! متى كنت رجلاً في العلم حتى تضع نفسك على قدم المساواة مع أولئك؟!

وكان الأولى أن تقول: هذا ما فهمته، أو: هذا حد علمي، ولم يتعبدني الله إلا بما استطعت فهمه وإدراكه.

باختصار: السلفيون ليسوا مقلدين، وإنما هم متبعون.

ثم هم أيضاً ليسوا من أهل الوقاحة والتطاول على مقام العلماء بالتجريح والطعن والتشنيع، وإنما مقالتهم دائماً: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

وكذلك السلفيون يردون ما اختلف فيه من علم إلى كلام الله وكلام رسوله، ويسترشدون في فهم كلام الله وكلام رسوله بكلام أئمتهم وسلفهم الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وليس عيباً أن نسترشد بأقوال هؤلاء لنفهم مراد الله ومراد رسوله؛ لأننا لم نشاهد التنزيل أولاً، والصحابة أعلم منا بكلام الله وكلام رسوله، وكذلك العلماء المشهود لهم بالخير أفقه منا وأعلم، وذلك بإخلاصهم وتفرغهم الطويل للعلم والعمل.

وأما أن يكون الأطفال والغلمان الذين لم يحسنوا بعد النطق بالقرآن وفهم الجار والمجرور والفعل والفاعل على قدم المساواة مع أئمة الدين وسادة المسلمين؛ فهذا هو الضلال المبين.

ولقد رأيت بنفسي كيف يتلاعب بكلام الله وكلام رسوله من بعض الغلمان؛ ممن جعلوا أنفسهم علماء بالقرآن والسنة، وأخذوا يفتون في الحلال والحرام والدعوة والسياسة والعبادات وسائر المعاملات بمخاريق وألاعيب تجعل دين الإسلام الحكيم أشبه بدين المجانين والحمقى والمغفلين!

فأي حماقة أكبر من أن يتصدى لتبليغ الدين واستنباط الأحكام من القرآن والسنة من لا يفهم العربية ولا يدرك من أصول الفقه وقواعده شيئاً ؟!

وباختصار؛ السلفي ليس مقلداً، وهو أيضاً ليس متبجحاً وقحاً، يزعم أنه يستطيع الاستغناء عن فهم الصحابة والتابعين وعلماء الأمة وسادتها الذين حملوا هذا الدين بحق وبلغوه بإخلاص عبر عصور الإسلام إلى يومنا هذا.

ولكن السلفي الحقيقي متبع مسترشد مبصر، باحث عن الحق أبداً، وعن الدليل مطلقاً، معظّم لعلماء الأمة وساداتها، غير مفتش عن العيوب والهفوات التي لم ينج منها أحد بعد الرسول ﷺ، ملتزم بجماعة المسلمين، عامل على

وحدتهم، غير داع إلى فرقة وخصام ولجاجة. هذا هو السلفي الحقيقي، ونسأل الله أن يجعلنا كذلك.

هذه إضافة لا بد منها في مقدمة هذه الرسالة المباركة إن شاء الله، وقد يسر الله لي أن أنظر في الرسالة مرة ثانية، وأنقح بعض عباراتها، وأزيد في آخرها إضافة جديدة عن أهم مميزات الدعوة السلفية وبركاتها.

والله سبحانه أسأل أن يكتب هذا عنده في ميزان حسناتنا، وأن يجمع هذه الأمة على كلمة سواء، وأن يأخذ بأيدينا لعزة الإسلام ونصره، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

عبد الرحمن عبد الخالق

الكويت ـ الجمعة ٢٦ محرم ١٤٠٣هـ

١٢ نوفمبر ١٩٨٢م

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضل له، ومن يضلل ؛ فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد:

فقد ابتلي المسلمون خلال تاريخهم الطويل بفتن عظيمة، ونسب إلى هذا الدين كثير من البدع والضلالات، وألقي على الكتاب الكريم كثير من التحريفات والشبهات، وتعرضت سنة الرسول ﷺ للانتحال والوضع تارة، والرد والإبطال تارات.. وكانت الواحدة من هذه العظائم كافية لطمس معالم الدين، وتضييع أصوله، وتشويهه، وإتلافه؛ لولا أن الله سبحانه وتعالى شاء حفظه وأراد، ورد كيد أعدائه، وجعل سعيهم في تحريفه إلى ضلال، وهيأ في كل عصر من عصور الإسلام من ينفي عن هذا الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، ولولا ذلك؛ لانطمست طريق هذا الدين كما انطمست اليهودية والنصرانية.

ولقد كانت هذه الحركات التصحيحية التجديدية لهذا الدين هي الحركة السلفية التي حافظت على أصول هذا الدين نقية خالصة، ونفت عنه كل بدعة، وردت عنه كل ضلالة، وصححت كل تأويل وتحريف.

فالصحابة العدول رضي الله عنهم نقلوا الأمانة كاملة، وبلغوها غير

منقوصة، ووقفوا بالمرصاد لكل تأويل باطل وكل انتحال وتحريض، وحمل الراية من بعدهم علماء التابعين ومن وراءهم.

وفي عهدهم اتسعت دائرة الأمة الإسلامية، وكثر الداخلون من الفرس والروم والشعوب الأخرى، وأراد بعضهم أن يدخل في الدين ما ليس منه؛ بقصد أو بغير قصد، فقام هؤلاء العلماء الأجلاء حراساً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وحفظ لنا التاريخ جهادهم في هذا السبيل؛ حرباً للمبطلين، ورداً للزيف عن هذا الدين، ووقوفاً في وجه انحراف الحكم والسياسة، ونشراً للدين النقي الخالص في كل الربوع، حتى سلموا الراية لمَن بعدهم في العلم والإيمان كاملة، عزيزة الجانب، ظاهرة عالية.

وما يزال هذا الدين يخوض المعركة برجاله المخلصين وأبنائه البررة الميامين، الذين أخلصوا دينهم لله، فآمنوا بكتاب الله كما أنزل، وبسنة رسول الله ﷺ كما جاءت، وتمسكوا بهما، وعضوا عليهما بالنواجذ، وحاربوا كل أفاك أثيم، يروم حمى هذا الدين؛ تحويلاً له وتحريفاً، أو زيادة له ونقصاً، وتمزيقاً له وتقطيعاً.

وفي عصرنا الراهن زادت الهجمة على هذا الدين، وتميزت قلوب الكافرين عليه من الغيظ؛ أن دامت سيادته كل هذه القرون، واستمر عزه كل تلك السنين.. ورأوا من أبناء الإسلام غفلة عن كتاب ربهم وسنة رسوله اللذين كان بهما العز والنصر والغلب، فأمكنوا السيوف من رقابهم، وأعملوا الفساد في هذا الدين برجال أعدوهم لهذا، ودربوهم عليه من أبنائهم أولاً، ونشأوا من أبناء المسلمين تلامذة لهم، يقولون ويعتقدون مثل ما يعتقدون، فحارب الإسلام أبناؤه، وطعن الكتاب والسنة ورائهم، وليس لهذه الفتن الماحقة إلا رجال ينشؤون على الطراز الأول والمنهاج الأنف الذي كان به العز والسيادة والنصر والتمكين.

ورحم الله مالكاً إذ يقول: "لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها".

رجال يعلمون الكتاب كما أنزل، والسنة كما بلغت؛ حسب الأصول

والقواعد التي وضعها علماء السلف؛ جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، ويقفون بعد ذلك في وجه هذا الباطل الزائف الذي ملأ الأرض شراً أو كاد.

والله غالب على أمره، وقد شاء أن تظل طائفة من هذه الأمة على الحق منصورة ظاهرة إلى قيام الساعة.

وهذه الرسالة الموجزة المختصرة بيان واضح للأصول التي ابتنى عليها مذهب علماء السلف في فهمهم للكتاب والسنة والعمل بهما، أردنا بها توضيح الطريق لسالكها؛ حتى لا تختلط الدروب، ويعمى على الناس الطريق المستقيم من الطرق المعوجة الهالكة.

والله أسأل أن ينفع بهذا البيان ما بقيت الدنيا؛ إنه سميع مجيب، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

عبد الرحمن عبد الخالق

الكويت ربيع الثاني ١٣٩٥ هـ

الباب الثاني
الأصول العلمية للدعوة السلفية

أولاً: التوحيد:

الأصل الأول من أصول الدعوة السلفية هو التوحيد. ولا يعني هذا الأصل ما يؤمن به وما يفهمه كثير من الناس من معنى التوحيد، وهو أنه لا خالق إلا الله، بل يفهم السلفي ويعلم من معاني التوحيد أصولاً عظيمة، وقضايا كبيرة، الإخلال بقضية منها إشراك بالله تعالى، أو إلحاد في أسمائه.

وكثير من المسلمين يجهل كثيراً من هذه الأصول والقضايا، فيقع في الشرك، ويظن نفسه مؤمناً موحداً، والحال أنه إما أن يكون ملحداً في صفات الله وأسمائه مؤمناً بها على وجه آخر، أو مشركاً عابداً لغير الله سبحانه وتعالى.

وأصول التوحيد في المعتقد السلفي كما يلي:

أولاً: الإيمان بصفات الله سبحانه وأسمائه على الوجه الذي يليق به سبحانه وتعالى دون تحريف أو تأويل.

فالله سبحانه وتعالى قد وصف نفسه في كتابه في آيات كثيرة جداً، ووصفه رسوله ﷺ في أحاديث كثيرة جداً، مدونة في كتب السنة؛ كالبخاري، ومسلم، و "مسند" الإمام أحمد، وغير ذلك؛ مما هو صحيح ثابت حسب قواعد أهل مصطلح الحديث.

وما أخبرنا الله بذلك عن نفسه ؛ إلا لنصدق ونؤمن.

بل الإيمان بصفات الله سبحانه وتعالى هو أكبر قضية من قضايا العبادة والإيمان ؛ كما جاء في الحديث: أن: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث

القرآن، وليس فيها إلا صفة الله سبحانه وتعالى.

والمحرفون المؤولون عمدوا إلى هذه الآيات، فحجبوا نورها عن المسلمين:

فإما أن يقولوا: هي آيات متشابهة، لا نخوض في معناها، ونؤمن بها كما جاءت؛ يعنون: أنه لا يجوز للمؤمن أن يفهم من معناها شيئاً، فيكون عند ذلك ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾، ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾، فكما أننا لا نفهم معنى محددا من هذه الحروف المقطعة؛ فآيات الصفات عندهم كذلك.

وبذلك حجبوا نور هذه الآيات أن ينفذ إلى قلوب المؤمنين، وأن يستشعر المسلم عظمة الله كما يليق بجلاله وعلو شأنه وذاته.

وبذلك فرغوا التوحيد من أعظم قضاياه، وهو الإيمان بصفات الله جل وعلا.

وهل الإيمان إلا امتلاء القلب بنور صفات الله وإشراقه بمعرفة إلهه ومولاه؟!

ومع ذلك؛ فقد زعموا -وخاب زعمهم- أن هذا الإيمان الأبله هو معتقد السلف، وحاشاهم، بل هم آمنوا بآيات الصفات وفق معناها الذي نزلت به باللغة العربية، مؤمنين أن الله جلت قدرته وعظمته لا يقدر قدره على الحقيقة إلا هو سبحانه وتعالى.

وإما أن هؤلاء المؤولين يعمدون إلى آيات الصفات، فيحرفونها؛ زاعمين أنه تأويل! فيؤولون مجيء الله يوم القيامة بمجيء أمره، واستوائه على عرشه باستيلائه عليه، ويده بقدرته، ووجهه سبحانه وتعالى بذاته..

ولا يؤمنون بذات فوق العرش، وإنما يقولون: ليس ثم عرش، وإنما العرش الملك، وليس لله مكان، فليس هو في مكان، وإما أن يقولوا: لا مكان له في شيء من العالم، بل ولا خارجه.

ولذلك لا يجوز عندهم أن يقول مؤمن: ربي في السماء. فإنهم يبدعونه، وقد يكفرونه.

ويأتون إلى الأحاديث التي تذكر فيها صفة الله؛ كـ «**ينزل ربنا إلى سماء**

الدنيا كل ليلة»، فيسبون من يصدق ذلك بأقبح السباب، ويقولون: بل تنزل رحمته، وأما هو سبحانه وتعالى؛ فلا ينزل ولا يصعد؛ لأنه ليس فوق العرش شيء، بل ما ثم هناك عرش.

وينفون عن الله سبحانه وتعالى كلامه، ويزعمون أن الله إذا أراد أن يكلم أحداً؛ خلق فيه الفهم لمراده، فيكون كلام الله عندهم؛ كالنفث في الروع، وبذلك يكذبون أحاديث البخاري التي جاء فيها أن الله يتكلم يوم القيامة بصوت يسمعه من قرب كمن بعد؛ قائلاً: **«أنا الملك! أين ملوك الأرض؟»** [متفق عليه].

وقد فصلنا هذه الأقوال والردود عليها بحمد الله في [محاضرات التوحيد]

والمهم هنا الإشارة إلى هذه الطوائف من المسلمين، الذين زعموا الهداية لأنفسهم، وهذا كذبهم على الله وافتراؤهم عليه.

فإذا كان الله قد أنكر أشد الإنكار على من قال: إن الله حرم هذا، ولم يحرمه الله ؛ فكيف بمن وصف الله حسب هواه فعمد إلى آياته فحرفها، وأحاديث رسوله فحجب نورها، وضلل المصدق المؤمن بها ؟!

وخلاصة هذا الأمر الأول: أن السلفي يؤمن بصفات الله وأسمائه سبحانه وتعالى ؛ كما جاءت في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، سواء أكانت أخباراً متواترة، أو أخبار آحاد صحيحة.

فخبر الآحاد الصحيح يوجب العلم والعمل؛ لأنهما سواء؛ فلا علم دون عمل، ولا عمل دون علم بل لا يجوز لمسلم أن يعمل عملاً ما من أعمال الدين إلا إذا ثبت عنده صدق المخبر به عن الله أو عن رسوله ﷺ.

وبذلك يفترق السلفي عن جمهور كثير يظنون أنفسهم موحدين لله، وما هم كذلك، وقد حرفوا صفات الله، ومنعوا الناس عن الإيمان بها والتصديق بمعانيها، أو بدلوا لهم معانيها وأمروهم أن يؤمنوا بها على نحو آخر.

ثانياً: إفراد الله سبحانه وتعالى وحده بالعبادة:

وعندما نقول: إفراده بالعبادة؛ فلا نعني الصلاة والزكاة والصوم والحج فقط، بل نعني كل ما يندرج تحت هذه اللفظة من معانيها، وعلى رأس ذلك الدعاء.

فالدعاء هو العبادة، فلا دعاء لغير الله كائناً من كان؛ رسولاً أو ولياً حقاً أو ولياً مزعوماً.

ويأتي بعد الدعاء: السجود، وأنواع من الحب، والتعظيم، والخشية، والخوف، وكذلك الذبح والنذر، والرغبة.

وكل هذه الأمور من حق الله سبحانه وتعالى، وقد صرفها كلها أو بعضها كثير من الناس لغير الله، ويكفيك زيارة واحدة لقبر من القبور المشيدة حتى تشاهد كل ذلك الطلب الصريح من صاحب القبر بكل ما لا يجوز أن يطلب إلا من الله؛ كشفاء المرضى والانتصار على الأعداء، والشفاعة عند الله، والمدد، وإعطاء الأولاد، وخير الدنيا..

وبالجملة؛ فإنه يطلب من هؤلاء الأموات خيري الدنيا والآخرة، وهذا شرك أكبر، مخرج من ملة الإسلام.

ويفعل هذا طوائف كثيرة ينسبون إلى الإسلام!

ولا يكتفون بالدعاء، بل ويذبحون لهؤلاء تقرباً؛ كما كانت الجاهلية تفعل عند طواغيتها، وينذرون لهم، بل ويطوفون بالقبور كما يطاف بالكعبة، ويسجدون عندها كما يسجد لله، وليس هناك شرك أكبر من هذا.

وهذه الأمور لا يصنعها عوام الناس وجهلاؤهم فقط، بل يصنعها كثيرون ممن يزعمون العلم الشرعي، ويحملون فيه شهادات عريضة، وكذلك من يزعمون التقوى والصلاح من أهل الطرق الصوفية والمناهج العبادية المبتدعة، ولا تجد دينهم ينبني إلا على تعظيم هذه القبور وبنائها وإسراجها ودعوة الناس إلى الذبح لها والنذر لها ودعائها من دون الله عز وجل، بل والطواف بها.

وقد أصبح الله عند هؤلاء نسياً منسياً؛ لا يدعى ولا يرجى إلا بواسطة هذه القبور والأضرحة، ويظنون بعد ذلك أنهم مسلمون، وما هم بمسلمين، وقد شابهوا المشركين الذين عبدوا غير الله وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

والدعوة السلفية تجعل نصب عينها تطهير معتقد الناس من هذا الشرك الظاهر الجلي، الذي لا يماري فيه إلا مشرك، ولا يكابر فيه أو يدافع عنه إلا

مطموس القلب، بعيد عن نور التوحيد والإيمان.

ثالثاً: الإيمان بأن لله وحده سبحانه وتعالى وليس لأحد سواه حق التشريع للبشر في شؤون دنياهم.

كما قال جل وعلا: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١].

وكما قال سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

فالتشريع حق للرب جل وعلا؛ فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين والمنهج والطريق والصبغة هو ما شرعه الرب جل وعلا.

واعتداء سلاطين الأرض وملوكها ورؤساؤها على شرعة الله؛ بتحليل ما حرم، وتحريم ما أحل: عدوان على التوحيد، وشرك بالله، ومنازعة له في حقه وسلطانه جل وعلا.

وأكثر سلاطين الأرض اليوم وزعمائها قد تجرأوا على هذا الحق، وتجرأوا على الخالق الملك سبحانه وتعالى، فأحلوا ما حرم، وحرموا ما أحل، وشرعوا للناس بغير شرعه؛ زاعمين تارة أن تشريعه لا يوافق العصر والزمن، وتارة أنه لا يحقق العدل والمساواة والحرية، وأخرى بأنه لا يحقق العزة والسيادة.

والشهادة لهؤلاء الظالمين بالإيمان عدوان على الإيمان وكفر بالله سبحانه وتعالى.

ونأسف إن قلنا: إن سواداً كبيراً من الناس قد أطاعوا كبراءهم فيما شرعوا لهم من شرع مخالف لشرعه سبحانه وتعالى، وكثير من هذا السواد يصلي ويصوم - مع ذلك - ويزعم أنه من المسلمين.

والدعوة السلفية جهاد بكل معاني الجهاد؛ لرد الحق إلى نصابه، وجعل الدين لله وحده، وتخليص الأمة من هذا الشرك الأكبر والكفر البواح الذي استشرى فيها، وذلك لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، ولا تكون كذلك في واقع الناس؛ إلا إذا كان الحكم لله وحده، والتشريع لله وحده؛ وفق ما جاء في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ووفق ما يجتهد فيه أئمة العصر من المسلمين؛ ليتوصلوا باجتهادهم إلى ما يرضي ربهم، ويوافق شرعته.

وتخليص الأمة من هذا الشرك بالبيان والدعوة والجهاد واجب؛ لأن هذه القضية إحدى قضايا المعتقد السلفي.

رابعاً: نؤمن في المنهج السلفي أن قضايا التوحيد الثلاث السالفة قضايا لا تتجزأ ولا تقبل المساومة؛ لأنها أركان في فهم العقيدة السليمة وفي معنى لا إله إلا الله.

فمن آمن بإله واحد؛ يجب أن يعتقد أنه هو الموصوف سبحانه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وأنه يجب الإيمان به وفق هذه الصفات.

وكذلك يجب دعاؤه سبحانه وتعالى وحده، وإفراده بسائر أصناف العبادة؛ من ذبح، ونذر، وخوف، وخشية، وإنابة، وتوكل، وحلف، وتعظيم، وتطهير القلب مما يخدش هذا التوحيد أو يلغيه.

وكذلك يجب الإيمان والعمل لتكون كلمته وشرعه هو الأعلى وهو المحكم في حياة الناس جميعها؛ فلا دين إلا ما شرع، ولا طاعة إلا لله أو ما يقتضي أن تكون طاعة الله؛ أعني: لا طاعة لمخلوق إلا بما يوافق طاعته سبحانه، فإن خالف طاعته؛ فلا طاعة.

والمنهج السلفي يأخذ هذه القضايا جملة، ويطهر قلوب أتباعه من الشرك فيها جميعاً؛ لأننا نعتقد أن من مات وهو يدعو غير الله؛ لم يكن من أهل الجنة، ونعتقد أيضا أن بعض التحريف لمعاني الصفات والأسماء؛ شرك بالله وكفر به، وإن كان بعضه لا يبلغ ذلك، ونعتقد كذلك أن من حكم بغير ما أنزل الله؛ فهو كافر، ومن اعتقد أن لأحد من البشر أن يشرع للناس في شؤون معاشهم ودنياهم دون الرجوع إلى شرع الله والالتزام به والسير بمقتضاه؛ فقد عبد غير الله وأشرك به شركاً جلياً؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

هذه القضايا الثلاث السالفة هي الأركان التي يقوم عليها الأصل الأول من الأصول العلمية للدعوة السلفية.

إنها قضايا التوحيد الثلاث التي إذا اختل شرط منها؛ اختل أصل التوحيد.

وهذا الأصل هو بمثابة المدخل للمعتقد السلفي ؛ لأن التوحيد هو أهم قضايا الدين، بل رأسه، ومن دونه لا يكون المسلم مسلماً.

وتحت القضايا السالفة توجد كثير من الفرعيات والتفصيلات، قد بينا بعضها في مواضع أخرى، وقد فصلها علماء السلف عبر القرون في كتبهم.

والسائر في المنهج السلفي يجعل نصب عينيه دائماً تعلم هذه الفرعيات؛ تكميلاً لتوحيده، وتثبيتاً لإيمانه.

وبهذا الأصل يفترق المنهج السلفي عن كثير من مناهج الإصلاح المنسوبة للإسلام، التي لا تدخل هذه القضايا في حسبانها، ولذلك نجد أن كثيراً منهم يفنون أعمارهم في قضايا فرعية عملية، وفي خلافات جزئية، وينسون أصل الدين الأصيل، وهو التوحيد الخالص الذي ما جاء الشرع إلا لأجله.

وأمثال هؤلاء لا يعنون من الشرك إلا عبادة المسيح والأصنام، وأما تلك الصور التي عرضناها عليك آنفاً؛ فإنهم لا ينكرونها، بل يباركونها ويوافقون أصحابها، وإن حصل لها عند بعضهم إنكار؛ فإنما هو كإنكار بدعة يسيرة لا تضر عندهم بالدين، والحال أنها أصل من أصول التوحيد، وتفويتها قدح في العقيدة والإسلام.

وقد يسأل سائل: لماذا تهتمون بالتوحيد هكذا وتجعلونه الأصل الأول من أصول الدعوة السلفية ؟

والجواب عن هذا السؤال يأتيك مفصلا بحمد الله في الباب الأخير من هذه الرسالة: [السلفية دعوة التوحيد].

ثانياً: الاتباع:

بعد أن يعلم السائر في المنهج السلفي توحيد الله سبحانه وتعالى حسب أركانه السالفة؛ فإنه يتوجب عليه إفراد الرسول ﷺ بالاتباع، وذلك تحقيقاً لقوله: "أشهد أن محمداً رسول الله".

وهذه الشهادة لا تكون كاملة إلا بالأمور الآتية:

أولاً: أن يعلم أن محمداً ﷺ رسول مبلغ عن ربه جل وعلا، وأنه قد جاء بوحيين: الأول كتاب الله القرآن. الثاني: سنته ﷺ.

وذلك لقوله ﷺ: «**ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه**» [رواه أحمد وأبو داود]

فكلام رسول الله ﷺ مثل كلام الله تعالى؛ سواء في الاعتقاد والعمل والقبول؛ لأن هذا وهذا من الله سبحانه وتعالى، والرسول لا يأمر ولا ينهى ولا يحرم ولا يحل في أمور الدين بشيء من عند نفسه، بل بأمر الله سبحانه وتعالى، ولا يخبر بشيء من الغيب إلا بوحي منه جل وعلا؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

وإذا كان أمر السنة كذلك؛ فإنه يشملها جميع أحكام التكليف؛ من: واجب، ومندوب، وحرام، ومكروه، ومباح، ويكون من رد الثابت الصحيح منها؛ كمن رد القرآن.

ثانياً: الدين هو المنهج والطريق والحكم والصبغة العامة، وليس هو التقرب فقط؛ كالمفهوم الشائع بين الناس اليوم.

ومعنى هذا أن الرسول ﷺ هو المشرع بأمر الله لجميع شؤون الحياة التي له فيها أمر ونهي وحكم، وليس للطاعات والقربات فقط ؛ فمعصية أحاديث الرسول ﷺ في شؤون البيع والتجارة والزواج والطلاق والحكم والسياسة والحدود؛ كمعصيته في شؤون العبادة؛ كالصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها.

ثالثاً: للأمرين السابقين تصبح منزلة الرسول ﷺ في الطاعة المطلقة لا تدانيها منزلة لأحد من البشر.

ولذلك، فلا يقبل قول أحد؛ سواء أكان: إماماً فقيهاً، أو زعيماً سياسياً، أو مفكراً أو مصلحاً؛ يخالف قولاً للرسول ﷺ، ومن قدم قولاً لأحد على قول الرسول ﷺ فقد أساء وتعدى وظلم وخالف إجماع الأمة وكتاب الله وأحاديث الرسول ﷺ.

رابعاً: لا تكمل هذه المتابعة للرسول ﷺ؛ إلا بكمال الحب له.

كما قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده والناس أجمعين**» [متفق عليه].

ومما يعين على هذا الحب: التزام أمره دائماً، والمسارعة في طاعته، وتقديم قوله على كل قول، وتذكر مواقفه ومشاهده، ومدارسة سنته وسيرته صلوات الله وسلامه عليه.

ومما يؤسف له في أوساط المسلمين اليوم أنه قد ضعفت هذه المتابعة، وخبا ذلك الحب للرسول ﷺ، وذلك للأسباب الآتية:

١ - القول بجواز التقليد:

وذلك بعد تدوين الفروع الفقهية لكل مذهب من المذاهب الفقهية، والإفتاء بالعمل بهذه الفروع الفقهية مطلقاً، سواء أكانت موافقة أو مخالفة للحديث الصحيح، بل والإفتاء بأنها جميعاً صواب، وإن كانت مختلفة متناقضة. وقد أدى هذا إلى الركون إلى كل قول ينسب إلى الفقه، والقعود عن طلب الدليل من القرآن والسنة، وبذلك ضعف العلم بكتاب الله سبحانه وتعالى وبالأحاديث الصحيحة.

٢ - الإفتاء بغير علم ودليل:

أ) بعد الإفتاء بأن كل رأي فقهي في مذهب ما صواب؛ أفتى المفتون كل مستفت بما يناسبه من قول منسوب إلى الفقه، بل بحث بعضهم عما سماه بالأيسر من كل مذهب في كل مسألة فأفتى به.

وناهيك عما في هذا من توهين العمل بالشريعة، بل بزوالها، إذ ما من مذهب إلا وله كثير من الأقوال المتساهلة جداً، التي جاء القرآن والحديث بخلافها، وليست هذه الرسالة مجالاً لبيان ذلك.

بل وتساهل بعض الناس أكثر من هذا، فأفتى بأي قول يصدر عن عالم ما!

وقد علم القاصي والداني ما أفتى به كثير من العلماء المحدثين في شأن الربا والخمر وملابس النساء وحقوقهن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

ولو جمعنا الفتاوى الباطلة في هذه وغيرها، لخرجنا بأكثر من مجلد فيه ما يهدم الإسلام جملة وتفصيلاً.

ب) لم يقف الأمر بالفتاوى الباطلة وبأن كل قول صواب عند الإفتاء في

أمور الشريعة، بل تعدى ذلك إلى العقائد والغيبيات، فوقعت أيضاً تحت الرأي والظن، وبذلك نفى كثير من العلماء الأحاديث الصحيحة في أمور كثيرة من أمور العقائد، وقالوا بالرأي والظن والاجتهاد في أمور العقيدة والغيب التي لا اجتهاد فيها، وجاروا آراء العصر الصادرة عن غير المسلمين.

٣ - توعير طريق دراسة القرآن والسنة:

وذلك بالتخويف والتحذير الذي لا نفتأ نسمعه من كل ناعق: أن دراسة القرآن والسنة والتلقي منهما ضلال [راجع كتاب " تنزيه السنة والقرآن عن أن يكونا من أصول الضلال والكفران " للقاضي أحمد بن حنبل ، حجر آل بن علي]!! وأنه يجب أولا عرض الآيات والأحاديث على أقوال الأئمة والفقهاء!! وكأن الأصل قد أصبح أقوال الناس لا قول الله ورسوله.

وبهذا التخويف والتحذير وعَّر هؤلاء طريق الفهم السليم للكتاب والسنة، وصدوا عن سبيل الله بعلم أو بغير علم، وجعلوها معوجة للسالكين فيها.

وقد خالفوا بذلك كتاب الله الذي يأمر باتباع الدليل مطلقاً، وبالبصيرة أبداً، وينهى عن التقليد والسير على منهاج الآباء والأجداد دون دليل وبرهان، وخالفوا الرسول ﷺ الآمر بتبليغ حديثه مما نطق به ﷺ، حيث يقول: «**نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها**» [رواه أحمد والترمذي وابن ماجة وغيرهم» وقوله: «**وبلغوا عني ولو آية**» [رواه البخاري].

٤ - إيقاف العمل بالشريعة في كثير من نواحي الحياة:

لا يشك مسلم يفهم الإسلام في الوقت الحاضر أن الشريعة الإسلامية قد أقصيت إلا قليلاً عن مجالات حياة المسلمين، وذلك في شؤون كثيرة؛ كالحكم، والسياسة، وكثير من المعاملات، والحدود، والتربية، والاجتماع، والآداب العامة.

وكان لهذا أسباب كثيرة؛ كغلبة الكفار على أرض الإسلام وغرس أفكارهم وتقاليدهم وعاداتهم في بلاد الإسلام.

وكان من ذلك أيضاً مما نحن بصدده: جمود حركة الاجتهاد الفقهي، وذلك بالوقوف فقط عند ما دونه أئمة الفقه في عصور قديمة استحدثت بعدها

كثير من الأقضيات والحوادث في شتى شؤون الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكان لابد من حركة فقهية تحكم هذه الأمور؛ لتعطي المسلم الحركة الصحيحة بإسلامه في المجتمع الذي يعيش فيه.

ولكن هذا الجمود في الفقه وانفصال السلطة السياسية عن المنهج الإسلامي أدى إلى شل حركة المسلمين، وجعلهم حيارى بين ما يأخذون وما يدعون فيما جدَّ من أمورهم، وكانت الغلبة بالطبع للتيار القوي الذي تقوم عليه أجهزة الحكم وتوجهه أجهزة الإعلام المسخرة للسلطة السياسية.

وكان لهذا كله آثاره في انطماس طريق الإسلام وشريعته، وغياب المعنى الحقيقي لشهادة المسلم: أشهد أن محمداً رسول الله.

والمنهج السلفي لفهم الإسلام والعمل به يضع نصب عينيه تذليل هذه العقبات التي حالت بين الناس ومتابعة الرسول ﷺ، وذلك بأن ينادي دائماً بالقول بتحريم التقليد، ويوجب على كل مسلم السؤال عن القول بدليله من الكتاب والسنة.

ولا يعني هذا أننا نوجب على كل أحد أن يكون مجتهداً، لا؛ إنما نأمر كل أحد بأن يكون متبعاً للدليل، باحثاً عن الحجة من كتاب ربه أو سنة نبيه.

وبذلك تتوحد صفوف الأمة، وينمو فيها معرفة الكتاب والسنة، وتزكو فيها الروح العلمية والمسامحة الأخوية، ولا يستطيع مضل أن يضلها بسهولة؛ لأن ميزان الكتاب والسنة سيكون منصوباً لكل مفت ومتحدث في الدين، وبذلك أيضاً يعظم عند المسلمين شأن الرسول ﷺ، وتعظم شأن متابعته. وكذلك نلجم الألسنة التي تفتي دائماً بغير دليل عندما تعلم أن الناس لا يقبلون قولاً إلا بدليل وحجة، فإذا قال رأيه للناس؛ قال: هذا حكم الشارع؛ طالبه الناس بدليله من قول الله وقول رسوله ﷺ.

وبالأمرين السابقين وغيرهما يفتح للناس ميدان جديد لدراسة جادة للقرآن والسنة، فتجدد حياة الأمة، ويشع نورها، وتتضح معالم الطريق أمامها، ولا يستطيع أي من الناس -مهما كان دوره- أن يضل الناس -إلا أن يشاء الله- وأن يقودهم خلفه كالسائمة.

وإذا أحيينا فقه الكتاب والسنة على هذا النحو؛ استطعنا أن نوقف تيار العصر الإلحادي عند حده، وذلك أننا سنوقف الناس أمام مسؤولياتهم؛ فنحن نقدم لهم قول الله وقول رسوله لا قول فلان وفلان، فإن أذعنوا؛ فقد أسلموا، وإن جحدوا وأنكروا؛ فقد كفروا.

وبذلك تتضح السبل، ويحيا من حيي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة.

ثالثاً: التزكية:

التزكية إحدى المهمات التي من أجلها بعث الرسول ﷺ، بل هي غاية الرسالات وثمرتها.

قال تعالى ممتناً ببعثة الرسول ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٣].

وقال أيضاً: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

فالله امتن علينا في هاتين الآيتين ببعثة النبي ﷺ الذي من مهماته قراءة آيات الله، وهذه نعمة كبرى؛ إذ نسمع كلام الله على لسان بشر منا.

ثم إنه يزكي هذه الأمة؛ بما يقرأ عليها، وبما يوحى إليه. ثم هو يخرج هذه الأمة من ظلمات الجهالة، وذلك بتعليم الكتاب والحكمة.

والكتاب: القرآن.

والحكمة: العلم النافع، الذي يضع من الإنسانية الأمور في نصابها.

ولذلك ؛ فالسنة من الحكمة، والكتاب قد جاء بالحكمة أيضاً.

السؤال الآن: ما التزكية التي عرفنا آنفاً أنها إحدى وظائف النبي ﷺ ؟

التزكية للنفوس: تطهيرها، وتطبيبها، وتنقيتها من قبائحها؛ فالنفس الزكية: هي الطيبة الطاهرة البعيدة عن كل ما يدنس النفوس من غش وحقد وحسد وظلم وسخيمة.

وهذا المعنى مأخوذ من قول العرب: [زكا الزرع: إذ نما وأينع]، والرائحة الزكية: هي الطيبة.

قال تعالى مبيناً افتراق النفوس في الزكاة: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧-١٠].

فالنفس الزكية: هي الطيبة الطاهرة النقية.

وقد أقسم سبحانه وتعالى أن الفلاح منوط بتزكية النفس وتطهيرها، وذلك في سورة الشمس، بعد أحد عشر قسماً، وليس في القرآن أقسام متوالية بهذه الكثرة على حقيقة واحدة؛ إلا في هذه السورة. قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ١-١٠].

وبين في آيات أخر أنه لا يدخل الجنة إلا من اتصف بهذه الزكاة والطيبة والطهر؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣].

والطيبة هنا هي سبب دخولهم الجنة، وهي ثمرة العبادة وغايتها، وهي تزكية النفس التي جاء الرسول من أجلها صلوات الله وسلامه عليه.

وبهذا البيان نصل إلى حقيقتين:

أولاهما: أن التزكية إحدى مهمات النبي ﷺ وغاية من غايات رسالته، بل سنعلم أنها غاية الرسالة والوجود الإنساني كله.

والثانية: أنها السبب في دخول الجنة، بل هي الصفة الواجبة التي من لم يتصف بها؛ لم يكن من أهل الجنة.

والآن يأتي سؤال آخر، وهو: ما الوسائل التي شرعها الله سبحانه وتعالى وبينها رسوله للوصول إلى هذه الغاية؟ وبمعنى آخر: كيف تزكو النفس وتصبح طيبة؟ وما الذي صنعه الرسول (ﷺ) حتى يقوم بهذا الواجب؟

للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نستعرض شرائع الإسلام كلها ونستقرئها جميعاً -سواء أكانت عقائد أو عبادات أو معاملات- وننظر ارتباط هذا بالتزكية والتطهير. وسنتبين بهذا الاستقراء أنه ليس للتزكية أعمال خاصة من مجموع أعمال الدين وعقائده، بل جميع شرائع الإسلام وعقائده وآدابه إنما هي أعمال غايتها ونهايتها التزكية والتطهير.

ما دمنا عرفنا أن الزكاة هي الطيبة والطهر والبعد عن الدنس:

فالتوحيد تزكية؛ لأنه اعتراف وإقرار بالإله الواحد الذي لا رب غيره، وهذا الاعتراف والشهادة تزكية؛ لأن الاعتراف بالحق فضيلة، وجحده وإنكاره رذيلة، وأي رذيلة !! وليس هناك حق أكبر من الله ولا أجلى وأظهر منه عند كل ذي لب وعقل، وإنكار الله وجحده والشرك به أكبر الرذائل والتدسية، ولذلك قال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وذلك لنجاسة قلوبهم ونفوسهم بما تلبسوا به من شرك وجحود ونكران لصفات الله سبحانه وتعالى، وليست نجاستهم لما على أبدانهم من نجاستهم؛ فقد يتطهر كثير منهم ظاهراً، ولكن؛ ما دام أحدهم متلبساً بالشرك والكفر؛ فهو متلبس بالنجاسة المعنوية المدنسة للنفس والشعور.

والعبادات كلها - مالية أو بدنية- ما هي إلا عمليات تزكية؛ لأنها تربط القلب الخالق سبحانه وتعالى، وتذكره به، وبذلك تحصل التقوى للقلب، ومن اتقى وخاف ربه؛ ابتعد عن المحرمات، والمحرمات قاذورات، وفعل الخير طيبة وإحسان وبر وعدل. ولذلك كانت الصلاة على رأس هذه الأعمال؛ لأنها من أنجع الوسائل للوصول إلى هذه التزكية، فتكررها في اليوم والليلة، وذكر الله فيها، وحركاتها تصل القلب حقيقة بالله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وذلك لأنها تربي الواعظ وتورث التقوى.

ولذلك أفتى إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله بأن الصلاة في

الأرض المغصوبة باطلة، وذلك من عظيم فقهه؛ فقد رأى أن قيام المصلي وقعوده وذكره لربه في أرض اغتصبها يدل على كذبه وزوره وبهتانه ونجاسة قلبه ؛ لأن هذا لو كان ذاكراً لله حقيقة؛ لما أمسك هذه الأرض التي اغتصبها، بل لانخلع عنها وردها إلى أصحابها.

ولذلك أيضاً لما سئل رسول الله ﷺ عن امرأة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها؟ قال: «**هي من أهل النار**» [والحديث رواه أبو هريرة ؛ قال: قيل للنبي ﷺ: إن فلانة تقوم الليل، وتصوم النهار، وتفعل، وتصدق، وتؤذي جيرانها بلسانها. فقال رسول الله ﷺ: لا خير فيها، هي من أهل النار. قال: فلانة تصلي المكتوبة، وتصدق بأتوار الأقط، ولا تؤذي أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «**هي من أهل الجنة**» الأحاديث الصحيحة [رقم ١٩٠] وقال الشيخ ناصر الدين: إسناده صحيح. رواه: البخاري في "الأدب المفرد"، وابن حبان، والحاكم، وأحمد.

والحكمة في هذا ظاهرة ؛ إذ لو كانت هذه المرأة مصلية صائمة حقاً؛ لامتنعت عما يدنس النفس أقبح تدنيس، وهو إيذاء الجار.

ولذلك أيضاً قال ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به؛ فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»[رواه البخاري].

وذلك أن الصائم الذي راقب الله - بزعمه - في تركه للطعام والشراب، ولم يستطع أن يراقبه في قول الزور والعمل بالزور: مبطلٌ في ادعاء خوف الله وتقواه، مبطلٌ لثمرة العبادة وغايتها وثمرة الصوم وغايته.

ولذلك لا يجوز لنا أن نفصل بين عبادات الإسلام وغايتها وثمرتها، فنظن أن أعمال القربات مقصودة لذواتها، وبذلك نفرغ العبادة من ثمرتها وغايتها.

بل قرن الله سبحانه وتعالى دائماً بين العمل والثمرة؛ كما قال عز وجل في الصوم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال تعالى عن غاية العبادة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١].

ففهم من هذا أن غاية العبادة كلها التقوى، وقد عبر الله هنا بـ [لعل] التي تفيد الترجي، والله لا يرجو شيئاً؛ لأنه ما شاء كان سبحانه وتعالى، ولكن الرجاء هنا بالنظر للعابد؛ لأنه ليس كل مؤد لهذه العبادة متقياً، بل المنافقون يؤدون الطاعات والعبادات ظاهراً وهم كافرون جاحدون.

ونفهم من هذا أيضاً أن من لم تحصل له هذه التقوى مع أدائه للعبادة؛ كان غاشاً في عبادته، مبطلاً فيها.

فمن شأن العابد أن يكون تقياً خائفاً من ربه محسناً، وهذه التزكية والطيبة والطهر، والعبادة قد وضعت لذلك، ولا يكون المرء طيباً طاهراً بغير العبادة ؛ إن الطاعة من التزكية، فطاعة الله الذي له الفضل علينا والمنة والنعمة هي أول صور المعروف والإحسان والاعتراف، ولذلك لا يتصور زكاة وطهر بغير طاعة أمر الله واجتناب نواهيه.

وقد تكرر معنى "العبادة للتقوى" في آيات كثيرة من القرآن:

كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩].

وكقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وبهذا نصل إلى هذا المعنى الثالث من معاني التزكية، وهي أن شرائع الإسلام كلها ؛ من: توحيد، وعبادة، وصلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وبر الوالدين، وصلة أرحام، ونهي عن الفواحش والمنكرات، ومعاملات تحقق العدل والإحسان؛ ما كل ذلك إلا لتحقيق هذه التزكية.

وهذه الأوامر والنواهي: إما أن تكون هي بذاتها من أركان هذه التزكية ولوازمها، وإما أن تكون مما يورث هذه التزكية ويؤدي إليها.

ومما يدلُّك على هذا المعنى جلياً، بحيث لا يترك لنفسك فيه شبهة: أن تعلم أن الله وصف رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤].

ولقد كان هذا الخلق متمثلاً في العمل بكتاب الله، الذي تضمن كل أنواع التزكية؛ كما جاء في "صحيح البخاري": أن سعد بن هشام سأل السيدة عائشة

رضي الله عنها عن خلق الرسول ﷺ؟ فقالت: (كان خلقه القرآن).

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**» [الأحاديث الصحيحة رقم ٤٥]، وقال الشيخ ناصر الدين: [رواه البخاري في: "الأدب المفرد"، وابن سعد في "الطبقات"، والحاكم، وأحمد، وابن عساكر].

وحصر الرسول(ﷺ) رسالته في هذا يعطيك الدليل الكامل على أن رسالة الإسلام كلها رسالة للتزكية والتطهير.

إذا علمنا أن الإسلام دين تزكية وتطهير، وأن الرسول ﷺ لم يبعث إلا لهذا؛ فيجب علينا أن نعلم أيضاً أنه ﷺ قد أتم هذه التزكية منهجاً وعملاً.

لأن الله أتم دينه ونعمته على رسوله والمؤمنين؛ كما قال تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣]

ومعنى هذا أنه لا يجوز الإحداث فيها؛ كما هو الشأن في جميع شؤون التقرب.

وذلك أن الإحداث في العبادة يؤدي إلى الفساد والانحلال؛ فضلاً عن أنه مرفوض غير مقبول عند الله سبحانه وتعالى.

وقد رأينا كيف انفتح هذا الباب على المسلمين، فدخل منه شر مستطير وبلاء عظيم؛ فمناهج إصلاح النفس والتربية التي اندرجت تحت اسم التصوف قد جمعت في طياتها بلاء لا حصر له ولا حد، وامتد الفساد من حقل التربية والأخلاق والتعبد إلى وضع الحديث وإفساد العقيدة وتحطيم الشرع الذي سموه بالظاهر، وفتح الباب للخرافات والخزعبلات والترهات، ثم وقوع الشرك وعبادة غيره سبحانه وتعالى، ثم الفلسفات الهالكة؛ كالقول بوحدة الوجود والحلول وغير ذلك من عقائد الفرس والهنادك، ثم إسقاط التكليف جملة، والقول في القضاء والقدر بمراد الله مطلقاً، حيث جعل المطيع والعاصي سواء، بل فضَّل العاصي على الطائع..

وقد فصلنا هذا الفكر بحمد الله في كتابنا "الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة".

وفي مقابل هذا الفكر الصوفي قام الجمود الفقهي الذي جعل النصوص حرفيات مرادة لذاتها، وظواهر لا معنى وراءها، وخاصة بعد أن صُبَّت أحكام الكتاب والسنة في قوالب من صنع البشر، أشبه بقوالب التقنين.

وبعد أن بعد الناس عن المصدر الأصيل -كتاب الله وسنة رسوله-؛ تعاملوا مع هذه القوالب الكلامية البشرية، ولم يشعروا تجاهها بتلك الرهبة والتقديس؛ كما يكون التعامل مع كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ولذلك سهل عليهم التحايل على هذه القوالب، فأحلت معاملات كثيرة: ظاهرها العقد الشرعي، وباطنها الحرام، ومن ذلك: بيوع العينة، ونكاح المحلل، والربا في صور البيع، والزنى بصورة الهبة دون ولي وإشهاد.

ثم توسع الناس في اتباع الأقوال والآراء، فأصبح كل قول في الدين حجة ما دام أنه لشيخ ما أو لعالم ما، وبذلك ضعف الوازع، وانهدم ركن الأخلاق، وفسدت مناهج التزكية التي ما جاء الإسلام إلا لأجلها.

والمنهج السلفي يقوم بين المنهجين السابقين:

منهج التصوف ومنهج الظاهر الفقهي، فيحل التزكية محلها من دين الله سبحانه وتعالى، فيجعلها غاية للمسلم؛ يسعى إليها ويتخذ لها الوسائل المشروعة التي جاء بها الكتاب والسنة؛ فلا تزكية بغيرهما، ولا تزكية دونهما أبداً.

وبذلك يبطل في هذا المنهج جميع الاجتهادات العبادية والسلوكية التي ابتدعت في المنهج الصوفي؛ من الانفراد في الخرائب والقبور، والعيش على طعام بعينه، والعزلة مدة محددة، وترك النظافة والتطهر، وترك الكلام، والجلوس في الشمس، وتعذيب النفس بشيء لم يأت به الشارع، وقراءة الأذكار المبتدعة، والرقص والغناء والسماع الشيطاني الذي أصبح من لوازم الطرق الصوفية.

وكذلك يبطل المنهج السلفي هذا السعي الضال وراء ما يسمى بالفتوحات والكشوف، التي ما هي إلا وساوس شيطانية وأفكار فلسفية إلحادية، كشفنا زيفها في كتابنا الآنف؛ فارجع إليه؛ لتقف على هذه الحقائق العجيبة.

ويبطل في المنهج السلفي هذه الظاهرية الجامدة التي تتعامل مع نص وتنسى أهدافه وغاياته، وهذا الفقه الأعوج الذي جعل كل قول في الدين حجة، وكل فتوى - لا دليل عليها - حكماً شرعياً، وبذلك استحلت الحرمات، وفسدت مناهج الإصلاح، وأظلمت النفوس، وخبا فيها نور الوحي السماوي: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والمنهج السلفي للإصلاح والتربية والسلوك والتزكية لا يجعل مثلاً أعلى في هذا إلا رسول الله ﷺ، إذ هو أطهر البشر نفساً، وأعلاهم مقاماً، وأقومهم خلقاً وأرشدهم طريقة ومنهجا؛ كما قال رسول الله ﷺ: «**إني اتقاكم لله وأصدقكم وأبركم**» [متفق عليه].

ولذلك يجعل هذا المنهج السلفي سنة الرسول ﷺ وخلقه الأساس بعد كلام الله في التزكية والتطهير والاتباع.

وكذلك يجعل سيرة الصحابة الأول ورجال الصدر الأول الذين تمثلوا القرآن والسنة قولاً وعملاً وخلقاً قدوة في التزكية؛ فهم المُثُل الحية لزكاة النفس وطهارتها، ولا يقاس بهم من بعدهم أبداً؛ فهم خير القرون وأنفعها للمسلمين، ويأتي بعدهم التابعون بإحسان، والعلماء العاملون في كل عصر؛ وفق ذلك المنهج السلفي الذي شرحنا أصوله آنفاً.

فالعلماء الذين اتبعوا منهج الكتاب والسنة؛ توحيداً، واتباعاً، وتزكيةً، ولم يقعوا في الشرك الظاهر، أو التأويل الباطل، أو ضلال السلوك، وترهات التصوف: هم القدوة بعد الصحابة والتابعين.

وبهذا يتحدد المنهج السلفي في التزكية.

إنه امتثال حقيقي لا ظاهري صوري لكلام الله وكلام رسوله(ﷺ).

ونعني بالامتثال الحقيقي: الذي يكون باطناً وظاهراً، حقيقة لا تصنعاً، إيماناً لا نفاقاً، وزكاةً وطهراً لا خبثاً ولؤماً، وطيبة يستحق المرء معها أن تسلم عليه ملائكة الله على باب الجنة: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

فنسأل الله أن يجعلنا من أولئك الأبرار الصالحين.

الباب الثالث
أهداف الدعوة السلفية

ليست الدعوة السلفية -كما أسلفنا القول- دعوة إلى شعبة من شعب الإيمان، ولا لقضية واحدة من قضايا الإسلام، وليست هي دعوة إصلاحية اجتماعية، ولا دعوة سياسية حزبية، وإنما هي دعوة الإسلام.. الإسلام بكل ما تعني هذه الكلمة من معاني العزة والسيادة والإصلاح والعدل والفلاح في الدنيا والآخرة.

والإسلام دين الله للعالمين؛ فليس هو دين وطن بعينه، ولا شعب بالذات، وإنما هو دين الأرض كلها والناس جميعاً.

ولذلك؛ فالدعوة السلفية كذلك ليست دعوة وطن بعينه، ولا شعب بعينه، وإنما هي المنهج المنضبط لفهم الإسلام والعمل به؛ كما أسلفنا هذا في تعريف هذه الدعوة.

وينبني على القضية السابقة: أن أهداف الدعوة السلفية هي أهداف دعوة الإسلام، وذلك أنها ليست حزباً دينياً بمفهوم العصر، ولا حزباً سياسياً.. إنها منهج ودعوة وطريق لفهم الإسلام والعمل به.

وها هي أهداف هذه الدعوة التي هي نفسها أهداف الدعوة الإسلامية:

أولا: إيجاد المسلم الحقيقي:

جاءت شريعة الإسلام أول ما جاءت لصناعة المسلم، إن صح هذا التعبير، وهو صحيح؛ لقوله تعالى لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

فصناعة الرجال هي مهمة الدعوة الإسلامية.. الرجال بمفهوم الرجولة الكامل..

والإنسان بمفهوم الإنسان الكامل. . والمرأة المسلمة بالمفهوم الصحيح أيضاً. .

والمسلم الحق والمسلمة الحقة يشترط فيهما هذه الشروط، وهي: التوحيد، والامتثال، والتزكية.

المسلم الحق هو الذي يشهد لله بالوحدانية، ويمتثل أوامره، ويبتعد عن نواهيه ما استطاع، ويزكي نفسه بهذا الدين ما استطاع.

ومناهج هذه التربية هي مناهج الدعوة السلفية التي أسلفنا فيها القول تحت عنوان: (الأصول العلمية للدعوة السلفية].

وإذا قلنا: المسلم الحق؛ فإنما نعني التفريق بين هذا الغثاء المنسوب للإسلام زوراً وبهتاناً وبين المسلم بمفهومه الصحيح الآنف.

فالذين ينسبون إلى الإسلام، وهم يمارسون الشرك قولاً واعتقاداً، ويبدلون آيات الله ويحرفونها، ويتحاكمون إلى غير شرعه، ويعادون سنة نبيه، ويستهزئون بها؛ كل أولئك لا يجوز الحكم لأحد منهم بالإسلام.

وقد فصلنا هذا بحمد الله تفصيلاً سهلاً موجزاً في كتابنا (الحد الفاصل بين الإيمان والكفر)

والمهمة الأولى للدعوة السلفية هي مهمة التعليم والتربية والصناعة بعد التعريف والبيان بالمفهوم الحقيقي للإسلام.

وهذه مهمة عظيمة ؛ لقوله ﷺ: «**فو الله؛ لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**» [رواه البخاري].

فهداية فرد واحد للإسلام نعمة عظيمة وعمل جليل، أيا كان هذا الفرد: سيداً أو عبداً، فقيراً أو غنياً، عاجزاً أو قوياً، وحسبنا أن الله سبحانه وتعالى عاتب رسوله ﷺ؛ لأنه انصرف عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى إلى سيد من سادات قريش؛ يدعوه، ويلح عليه؛ منصرفاً عن هذا الذي جاء يطلب الهداية.

قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ [عبس: ١-٤].

يعني الله عز وجل هذا الأعمى.

ثم قال: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ [عبس: ٥-٦].

أي: هذا القرشي الذي رأى نفسه مستغنياً عن دعوة الله، فتتصدى أنت له؟!

قال: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ [عبس: ٧].

أي: ما يضيرك لو لم يتزك هذا المستكبر المستغني؟

ثم قال: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [عبس: ٨-١٠].

أي: لا تفعل! لا تتلهى عن هذا الذي جاءك يخاف الله ويطلب مرضاته!

ويعنينا الآن أن نفهم أن هذه المهمة الأولى والهدف الأول للدعوة الإسلامية هو مقصود الرب جل وعلا، وهو بذل الهداية؛ ليهتدي من يوفقهم الله، ويشرح صدورهم، أياً كان هؤلاء.

ثانياً: المجتمع المسلم الذي تكون كلمة الله فيه هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى:

الهدف الثاني للدعوة السلفية هو إيجاد المجتمع المسلم الذي يقوم بتآلف تلك اللبنات التي ربيت على أساس الإسلام عقيدة ومنهجاً.

وذلك أن لله أحكاماً في المعاملات، والحدود، والسياسات العامة، والحكم؛ لا يمكن تطبيقها؛ إلا بأن يدين المجتمع بدين الله، ويذعن لشريعته.

وكذلك لا يجد المسلم بالمفهوم الحقيقي لمعنى الإسلام متنفسه وراحته وأمنه وطمأنينته إلا في ظل مجتمع مسلم؛ يحكم بشرع الله، ويعظم حرماته، ويحيي شعائره.

ومنذ أن غلب الكفار على أرض الإسلام فمزقوها وأحلوا كفرهم وأنظمتهم وشرائعهم محل شريعة الله ونظامه، والمسلمون في جميع أمصارهم يعانون من هذا البلاء، ويحنون في شوق ولوعة إلى العيش في ظل نظام إسلامي صحيح، تشيع فيه المحبة بين الحاكم والمحكوم، وتختفي فيه المظالم، ويأمن الناس على أموالهم وأعراضهم، وتسود فيه المحبة والإيثار والإخلاص، ويرجع به للمسلمين عزهم ومجدهم الغابر، ويرتفع به الظلم والحيف والفتنة الواقعة على المسلمين في أغلب البلاد.

ولكن مناهج الدعوات للوصول إلى هذه الغاية قد تشعبت وتشتت، وكل منهج في الإصلاح والتربية يحتكر الوصول إلى الهدف وحده؛ غير مقدر للعقبات الهائلة التي وضعت في هذا السبيل.

ومن هذه العقبات على طريق المثال لا الحصر: تلك الردة الجماعية الهائلة في الشعوب الإسلامية، وذلك بعد الصياغة الرهيبة التي صيغت بها عقول أبناء المسلمين، وذلك بالثقافة والقيم المنافية للإسلام، وقد ساعد على هذه الصياغة وسائل الإعلام الضخمة التي تملكها أيد غير إسلامية، ومناهج التعليم التي وضعت بأمر المستعمر وتخطيطه.

أقول: لم يقدر أصحاب مناهج الإصلاح والدعوات الإسلامية ضخامة العبء الواقع في طريق إقامة مجتمع إسلامي، وتصوروا قيامه بين عشية وضحاها، وبجهود مائة فرد أو مائتين، أو ألف أو ألفين، ولم يدروا أن الأمر أصبح أعظم من هذا؛ إذ يحتاج إلى جهاد وصبر طويل وسنين طويلة؛ في التربية، والتعليم، ونشر الإسلام الصحيح، والتعاون الكامل بين جميع العاملين في حقل الدعوة إلى الله؛ طبقاً للأصول العلمية السلفية السابقة.

ومما يحيرك في أمر تلك المناهج المشار إليها آنفاً أنهم عندما يتخيلون مجتمعاً إسلامياً وحكماً إسلامياً؛ فإنهم لا يجعلون الحكم العثماني مثلاً نموذجاً له، ولا يتواضعون فيرضون أن يكون على مثال الحكم العباسي، ولا يعجبهم أيضاً أن يكون على طراز أموي.. يريدون أن تكون خلافة راشدة.. وأيضاً كحكم الشيخين أبي بكر وعمر !!

وهذا التصور حسن في ذاته، ولكن هؤلاء المتشدقين بالحكم الإسلامي، الزاعمين الدعوة إليه؛ لا تجد في أخلاقهم وأعمالهم وسلوكهم وعلمهم ما يؤهلهم أن يكونوا أفراداً من هذا المجتمع؛ فضلاً عن أن يكونوا مسؤولين عن إقامته؛ فالأثرة، وحب النفس، والشح، والخوف، والاستبداد، والتعصب للرأي المخالف، والمجادلة بالباطل؛ كل هذه أمراض بلوناها في كثير من هؤلاء المتشدقين، وهي أمراض يسيرة إذا قيست بما هو أعظم منها مما لا يحسن ذكرها في هذه الخلاصة.

والمهم أن أولئك الحالمين بالحكم الإسلامي المتشدقين به بعيدون بعد المشرق والمغرب عن أهدافهم التي يدعونها، فضلاً عن تعجلهم وجهلهم الفاضح بمجريات الأمور من حولهم، ولذلك تتبدد طاقتهم، وتذهب جهود العاملين معهم أدراج الرياح.

ومما يجعل تلك المناهج بعيدة كل البعد عن أهدافها: عدم وضع أصول محددة لفهم الإسلام والعمل به.

وبذلك يصطدم أفراد الدعوة بالاجتهاد الفردي الذي لا يحتكم إلى أصول واحدة، أو بالواقع المرير الذي تحياه أمة الإسلام، فيقع التمزق والضياع، أو اليأس ثم الانحراف.

وقد ظهرت جماعات كثيرة، كثر أفرادها، ولكن سرعان ما تشتت وتمزقت وحدتها؛ لأن أصول فهم العقيدة والشريعة والعمل بالإسلام لم تكن واضحة محددة.

والمنهج السلفي يراعي هذا كله؛ فيؤسس بنيانه على أصول ثابتة لفهم الكتاب والسنة وتوحيد الكلمة والوصول إلى الحق، ويربي أفراده تربية سليمة وفق الأصول العلمية السابقة: التوحيد، الاتباع، التزكية، ويراعي حاضر العالم الإسلامي في الوقت الحاضر، والعقبات العظيمة التي وضعت في سبيل استئناف المسلمين لحياة إسلامية كاملة في ظل حكم إسلامي كامل، فيصلح ما استطاع، ويوحد جهود العاملين للإسلام ما أمكن، والملك كله بيد الله وحده.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

ثالثاً: إقامة الحجة لله:

كان من أهداف بعثة الرسل أن ينذروا الكافرين والمعاندين حتى لا يكون لهم عذر عند الله يوم القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ

قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

وأتباع الرسل يقومون بهذه المهمة بعد لحوق الرسل بربهم، وهي أن يبشروا الناس وينذروهم حتى لا يكون للمعاندين منهم حجة أمام الله يوم القيامة؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

فأتباع الرسول ﷺ هم خلفاؤه في مهماته - إلا النبوة والرسالة - ؛ فجهاد الكافرين، وتنفيذ أحكام الله، والدعوة إليه، والتبشير، والإنذار ؛ كل هذه من مهمات الرسل وأعمالهم، وهي واجبة أيضاً في حق أتباعهم والسائرين على منهاجهم.

والمدعو إما أن يستجيب للدعوة، فيهتدي، فيتحقق بذلك الهدف الأول من أهداف الدعوة، وهو بذلك الهدف الثالث للدعوة، وهو ما نحن بصدده الآن؛ أي: تقوم عليه الحجة، وينقطع عذره عند الله تبارك وتعالى.

وفي هذا من الأمر ما فيه ؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ﴾ [الرعد: ٧].

فعلم من هذا أن الأمر موكول بالدعوى ليس إلا، وأما الهداية؛ فإنها من فعل الله سبحانه وتعالى، والله يجريها على من شاء من عباده؛ توفيقاً وإحساناً، نسأل الله أن يجعلنا ممن يجري الخير على يديه ؛ إنه هو السميع العليم.

وخلاصة هذا الهدف من أهداف الدعوة هو أن الداعي إلى الله إن لم يتحقق هدفه الأول ويهتدي من يدعوه إلى الله تبارك وتعالى؛ فلا يظنن أن عمله قد ذهب سدى، بل قد أدى واجبه الحقيقي، وهو إقامة الحجة لله، وقطع عذر هذا المعاند أمام ربه يوم القيامة.

وإقامة الحجة تكون في أصل الإسلام - وهو الشهادتان - كما تكون في أركانه.

فمن أقر بالشهادتين، وادعى أنه ناج يوم القيامة؛ دون الصلاة؛ أقيمت عليه الحجة في ذلك بالآيات والأحاديث.

وكذلك الشأن في أركان الإسلام، بل وفي الواجبات والمحرمات عامة.

فإقامة الحجة على مسلم معاند - وليس من شأن المسلم أن يعاند في ترك واجب أو فعل حرام - واجبة أيضاً، لأنها من الدعوة إلى دين الله تبارك وتعالى.

وبهذا ينفرد المنهج السلفي ببيانه لأصول الإسلام وفروعه وآدابه ومستحباته.

وبذلك يظل العمل بالإسلام كاملاً على مدار الزمن؛ لأن إهمال السنن يؤدي إلى إهمال الواجبات، وإهمال الواجبات يؤدي إلى نقض التوحيد.. وهكذا.

والمحافظة على شريعة الإسلام كاملة في العلم والتطبيق هي إحدى غايات المنهج السلفي لفهم الإسلام والعمل به.

ولذلك؛ فنحن في المنهج السلفي لا نبرم بإيضاح سنة مهملة، ولا ببيان واجب؛ لأننا نرى أن كل هذه الفرعيات تلتقي مع الأصل الأصيل، وهو إبراز الإسلام دائماً في صورته الكاملة النقية على مدار العصور، وذلك لتبقى شخصية المسلمين واضحة جلية مميزة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وأصحاب المناهج الأخرى يهتمون بقضايا بعينها من الدين، ويهملون سائره، بل ويضيقون ببيانه لهم وحثهم عليه، وما هذا إلا لجهلهم بحقيقة الدين، وذلك أن ترك نصيب وحظ وقسم مما أمر الله به يورث العداوة والبغضاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة: ١٤].

وهكذا عاب الله على اليهود إيمانهم ببعض آيات الكتاب وكفرهم

بالبعض، وما كان كفرهم إلا تركهم العمل به.

وهكذا يحل بالمسلمين إن هم نسوا بعض ما وعظهم الله به وذكرهم، وبعض ما أوجبه عليهم رسوله ﷺ.

ولذلك؛ فالدعوة السلفية دعوة شمولية لأركان الإسلام ومناهجه جميعاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾ [البقرة:٢٠٨].

فالعمل بجزء من الشريعة وترك جزء آخر من اتباع خطوات الشيطان، الذي يبرر لبعض العاملين في الحقل الإسلامي ترك الواجبات وفعل كثير من المحرمات بدواعي المصلحة المزعومة للدعوة...

والخلاصة: أن إقامة الحجة تكون بالبيان الدائم لأصول الإسلام وفروعه... هذا البيان الذي لا يترك في الحق لبساً حتى ينقطع العذر، ولا يكون لأحد العدول عن فعل الواجب وترك الحرام.

رابعاً: الإعذار إلى الله بأداء الأمانة:

الدعوة إلى الله تبارك وتعالى واجب حتم في الإسلام وأمانة في عنق كل مسلم حمل علماً وأمكنه الله من نشره وإبلاغه، وذلك لأدلة كثيرة جداً؛ منها قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران:١١٠].

ومعنى الآية أن المسلمين لم يكونوا خير أمة إلا بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ومعنى ﴿مِنكُمۡ﴾ هنا: البدء لا التبعيض؛ أي: لتكونوا أمة داعية إلى الخير؛ كما أقول: ليكن منك رجل صالح؛ أي: لتكن أنت رجلاً صالحاً.

وكذلك قول الرسول ﷺ: «**من رأى منكم منكرا؛ فليغيره بيده، فإن لم يستطع؛ فبلسانه..**» الحديث [رواه مسلم].

إلى أدلة كثيرة لا تحصى كثرة.

والمسلم عندما يدعو إلى الله؛ فإنما يقوم بأداء هذه الأمانة، ويخلي

مسؤوليته أمام الله تبارك وتعالى؛ كما قال تعالى عن الذين وعظوا إخوانهم من بني إسرائيل، حيث اعتدوا على حرمة السبت، فصادوا السمك محتالين على شرع الله: ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

فإن الناهين عن المنكر قال لهم بعض الناس: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًاۖ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

أي أنهم لن يرجعوا عن غيهم وضلالهم، فقالوا المقالة السابقة: ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

أي: نقوم بالدعوة إعذاراً إلى الله، حتى نعذر عند الله بأننا قمنا بأداء الأمانة، ثم لعل هؤلاء الذين آيستم منهم يرجعون إلى الله سبحانه، والعلم عنده وحده.

وبهذا ؛ فالداعي على المنهج السلفي لا بد وأن يجعل نصب عينيه أنه سيتحقق له هدفان ولا بد:

الأول: أن يعذر إلى الله بأداء الأمانة.

الثاني: أن يقيم الحجة لله على المعاندين من خلقه.

وأما الهدفان الباقيان؛ فالأمر فيهما بيد الله سبحانه وتعالى وحده، إن شاء أن يعجل بهما؛ فعل، وإن شاء أن يؤجل ذلك؛ فعل، وهما: هداية الناس، وإقامة شرعه في الأرض.

فالأولى يقول الله فيها: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦].

والثانية يقول الله فيها: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥].

فالاستخلاف فعل الله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

والعجلة في تحقيقه من الذين يجهلون سنن الله في الناس.

ولهذا ؛ فإن السائر في طريق الدعوة السلفية لا ييأس أبداً، ولا يذهب

عمله سدى؛ لأنه لا بد أن يحقق نصف مراده على الأقل، ويبقى دائماً مترقباً فضل الله بهداية الناس إلى طريقه وتمكين أهل الإيمان في الأرض، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم، وهذا هو النصف الآخر، وهو من فعل الله لا من فعل العبد، وما النصر إلا من عند الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، فلننصر الله عز وجل بأن نكون أولاً مؤمنين حقاً، وذلك باتباع المناهج السابقة في الإيمان والعمل، ثم ندعو إلى الله على بصيرة؛ باذلين النفس والمال في سبيل الله، ولنعلم أن من جاهد فإنما يجاهد لنفسه، إن الله لغني عن العالمين.

ونحن ندعو الناس في مشارق الأرض ومغاربها إلى الإيمان بهذه الدعوة بعد تمحيصها والتثبت من قضاياها والتعرف على منهجها، وسيعلمون كما علمنا أنها المنهج الوحيد لفهم الإسلام والعمل به، سيذوقون حلاوة الإيمان ولذته؛ لأن إيمانهم سيكون إيمان يقين وعلم، لا تقليداً وحمية وجهلاً، وسيكون اندفاعهم للعمل اندفاع الواثق العالم المطمئن، لا اندفاع العاطفة وفورة الحماس الموقوتة، التي سرعان ما تتبدد وتضمحل.

الباب الرابع
مميزات الدعوة السلفية

أولاً: تحقيق التوحيد:

من الحقائق الأساسية لفهم الدين أن ندرك أن غاية الدين وهدفه النهائي هو توحيد الله سبحانه وتعالى؛ فالتوحيد هو خلاصة الدين، وغايته.

* إذا جئت إلى مسائل الإيمان ؛ وجدت أن أصلها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ووجدت أن الإيمان بالملائكة والكتب واليوم الآخر والرسل والقضاء والقدر، وهي الأركان الباقية ؛ كل هذه الأركان الخمسة تعود إلى الركن الأول:.

- فالملائكة هم جند هذا الإله الواحد، الذين يعبدونه ويوحدونه ويطيعون أمره.

- والرسل هم الداعون إليه.

- والكتب هي التي تضمنت أمره ونهيه ووعظه وصفته وأعماله بأهل طاعته وأهل معصيته.

- واليوم الآخر هو اليوم الذي حدده هذا الإله ليحاسب فيه خلقه.

- والقضاء والقدر هو فعله وتقديره.

وكل ما يتعلق ويتصل بهذه الأركان الخمسة من مسائل العقيدة فهو راجع إلى ذلك:

فالجنة هي دار أوليائه، والنار هي الدار التي أعدها لأعدائه، وكذلك القبر والحساب والميزان. . . الخ كل أمور الغيب هي من خلقه وتدبيره وتصريفه ووفق مشيئته سبحانه؛ فالعقيدة كلها والإيمان كله راجع إلى شيء واحد هو

الإيمان بالإله الواحد سبحانه وتعالى.

* هذا في العقيدة، وأما الأعمال؛ فهي كذلك أيضاً تعود كلها في النهاية إلى التوحيد:

- فأشرف الأعمال على الإطلاق هي العبادات، وأشرف العبادات وأعلاها منزلة هي أركان الإسلام الأربعة بعد التوحيد، وأشرف هذه الأركان بعد التوحيد هي الصلاة...

والعبادات كلها ما سميت عبادات إلا لأنها يتقرب بها إلى الإله الواحد سبحانه وتعالى.

- وأشرف التقرب هو الصلاة، وذلك أنه خطاب ومناجاة بين العبد والرب، وفيها تظهر العبودية ظاهرة جلية، وخاصة وقت السجود الذي يصور كمال ذل المخلوق نحو ربه وخالقه ومولاه سبحانه وتعالى، ولذلك قال ﷺ: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»**.

وذلك أن العبد لما ذل لله وخضع على هذا النحو؛ تقرب الله منه وأحبه وآواه.

وهكذا سائر الأركان؛ فالصوم تذكير بالله وتعليم لتقواه، والزكاة كذلك رأفة وإعانة للفقير ابتغاء مرضاة الله، والحج ما قصد به إلا تعظيم الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده.

وإذا تركت العبادات وأتيت إلى حدود الإسلام؛ وجدت أن الحدود هي شرع الله، وهي الفواصل التي وضعها للتفريق بين ما يجوز وما لا يجوز، وأنها العقوبات التي رتبها على أهل معصيته في الدنيا، ولذلك كانت الحدود توحيداً، أو هي من أجل التوحيد وعبادة الإله الواحد.

وهكذا سائر المعاملات هي من حدوده وشرعه سبحانه، الذي ارتضاه لخلقه، والذي يأبى أن ينازعه فيه منازع؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ [يوسف: ٤٠].

وكذلك الأخلاق لا تكون أخلاقاً صالحة إلا إذا كانت وفق شرعه، ولا يثاب عليها صاحبها إلا إذا أديت ابتغاء مرضاته.

فالإحسان إلى الوالدين والأقارب والزوجات والأولاد والجيران والأصدقاء والخلان، والعدل بين الناس، ورحمة المسكين، والعطف على الفقير، والصدق، والشجاعة، وكل هذا من الأخلاق الطيبة: لا يكون طيباً إلا إذا كان في حدود أمر الله.

فالإحسان إلى الوالدين له حدود في الشرع، ولا يكون الإحسان إحساناً إلا إذا وافق شرع الله وحدوده، ولا يثاب عليها صاحبها إلا إذا عملها ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى؛ كما قال جل وعلا: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

فبعد أن بين سبحانه وتعالى أن الصدقة والأمر بالمعروف والإصلاح بين الناس من الخير؛ بين تعالى أنه لا ينال ثواب هذا الخير إلا من فعله ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى.

وبهذا العرض السريع الكامل لعقائد الإسلام وعباداته ومعاملاته وأخلاقه؛ يتبين لنا أن الهدف والغاية من وراء ذلك كله هو توحيد الله سبحانه وتعالى، وهذا يعني أن التوحيد هو أعظم قضية في الدين، وأنه يجب فهمها فهماً سليماً، وتعلمها تعلماً كاملاً، وربط جميع فروع الدين صغيرها وكبيرها بها..

وهكذا كان الرسل صلوات الله عليهم جميعاً ما بعثوا إلا بالتوحيد ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

وقد جعلها الله بصيغة الحصر؛ أي: لا يوحى إلي إلا هذا، فكأن دعوة الرسول ما كانت إلا من أجل التوحيد، بل ليس الموحى به إلا التوحيد..

ولذلك؛ فالدعوة السلفية المعاصرة والسالفة لا همَّ لأصحابها وحاملي لوائها - ولا يجوز أن يكون لهم همٌّ - إلا إخلاص الدين لله، وتحرير قضية التوحيد، وتفهيمه على وجهه الصحيح.. التوحيد بكل معانيه.

فمعرفة الرب كما وصف نفسه ووصفه رسوله (ﷺ) هو أصل التوحيد وبدايته؛ فلا بد من معرفة الرب معرفة صحيحة، ولا طريق لهذه المعرفة إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فمن آمن برب ما، ولكنه لا يعرف هذا الرب؛ فما وحد الله كما ينبغي له، بل لا بد أن يشهد لله بما شهد لنفسه سبحانه من الصفات الجليلة؛ كالرحمة، والعلم، والسمع، والبصر، والعلو عن خلقه، ومحبته للطائعين، وبغضه للعاصين الكافرين، واستوائه على عرشه الذي هو سقف مخلوقاته، وكلامه لرسله، ورؤية المؤمنين له في الجنة، وإرادته النافذة في أحبابه وأعدائه.. الخ صفاته الجليلة الكريمة التي وصف بها نفسه مادحاً لها، سبحانه لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه.

ويأتي بعد هذا الأصل من أصول التوحيد أصول أخرى؛ من محبة هذا الإله، والتقرب إليه وحده، ونبذ جميع أصناف الشرك؛ من دعاء غيره، والرغبة إلى سواه، والخوف مما عداه، ونبذ الخرافات والأوهام.

ومن أصول التوحيد نسبة الفضل إلى الله وحده؛ فمنه الخير لا من سواه، وهو الذي يدفع الضر ولا يدفعه أحد غيره.

ويأتي بعد ذلك من أصول التوحيد إقامة شرعه في الأرض، والتحاكم عند الخلاف إلى ما أنزله وإلى ما حكم به رسوله (ﷺ) لا إلى شيء غير ذلك.

ويأتي بعد ذلك من أصول التوحيد إخلاص النيات له في التقرب والطاعة ورجاء المثوبة منه والخوف من عقابه.. إلى أصول وفرعيات كثيرة للتوحيد؛ من جمعها وعلمها وعمل بمقتضاها ؛ عرف الله حقاً وعبده حقاً..

والدعوة السلفية تجعل كل هذا نصب عينها، فتدعو الناس أولاً إلى هذه القضية الكلية (توحيد الله)، ثم تبدأ بعد ذلك في تفصيل فرعياتها وجزئياتها، فلا يزال الفرد الذي يسير في الطريق السلفي يرقى كل يوم درجة من درجات سلم التوحيد، ويضيف كل يوم مسألة من مسائله، فلا يمر عليه وقت يسير حتى يكون بحول الله وتوفيقه وحمده موحداً خالصاً، كل يوم في زيادة من دينه.

وبهذا تفترق الدعوة السلفية عن كل ما عداها من دعوات الإصلاح الجزئية التي تنسب إلى الإسلام، وذلك أن هذه الدعوات تبدأ من جزئية من

جزئيات الدين، كأن تحاول تصحيح الحكم والسياسة، وهذه جزئية من جزئيات الدين، وترى أن الوصول إلى تحقيق هذه الجزئية لا يكون إلا بتجميع الناس وعدم تنفيرهم، حتى يساعدهم الناس في الوصول إلى الحكم، ويرون أن تجميع الناس لا يتأتى لهم إلا بالسكوت عن أخطائهم العقائدية، وبذلك يندس فيهم المشركون، والذين يدعون غير الله، ويندس فيهم أيضاً أهل الأهواء من طلاب الرياسات والزعامات؛ لأنهم يرون أن طريقهم موصل لذلك، ويسكتون عن كثير من البدع العقائدية والخرافات، حتى لا ينفروا الناس من دعوتهم في زعمهم، ويخترعون لهذا ما يسمونه بـ (مصلحة الدعوة)، فيحلون كثيراً من المحرمات، ويحرمون كثيراً من الطاعات، وقد يكون هذا في مصلحتهم كحزب يسعى إلى الحكم والرياسة، ولكنه حتماً ليس في مصلحة الدعوة الإسلامية التي يقوم أساسها على التوحيد الكامل، وليس أساسها على الحكم والرياسة؛ فتصحيح الحكم والسياسة من الدين، ولكنه ليس أصل الدين ومنطلقه، ولذلك نص الذين ينتهجون هذا النهج في الدعوة (إصلاح الحكم والسياسة أولاً) أقول: نصوا في كتبهم أن عمل البر من إحسان وزيارة وعبادات وبناء مساجد وغير ذلك إنما هو ظاهر غير مراد لدعوتهم، وأن هدف دعوتهم الأساسي هو إقامة السياسة والحكم، وشتان بين أن يكون هدف الدعوة هو التوحيد وأن يكون هدف الدعوة هو الرياسة والزعامة وإن لبس هذا بلباس الإسلام.

والدعوة السلفية تسعى فيما تسعى إليه إلى إصلاح السياسة والحكم، ولكنها تعتقد أنه جزئية ينزل منزلته من أوامر الدين من حيث الأهمية والأولوية، ويسعى إليه بالقدر السليم الصحيح الذي يتناسب مع القائمين بالدعوة وجهودهم، وهي تدعو الله لكل سلطان صالح يريد الخير للناس، وتدعو جميع السلاطين القائمين إلى تحكيم شرع الله في أنفسهم وما خولهم الله إياه.

وأما أولئك الآخرون؛ فإنهم يشرقون ويغصون لو أن حاكماً دعا إلى شيء من الإسلام، وطبق شيئاً من أحكامه، وذلك أنهم يريدون أن يبقى التناقض قائماً بين الحاكم والإسلام؛ لتستمر دعوتهم، ويكون مبرراً لوجودهم، وذلك أنهم يرون أن توجه الحكام إلى الإسلام نهاية لوجودهم، وسرقة لدعوتهم، وقد

يشعرون بهذا، ويحاربون هذا عن علم، وقد لا يشعر بهذا كثير منهم.

ولذلك حملهم هذا أيضاً على العصبية في الدعوة، وحب الظهور، والرغبة في ألا يأتي الخير للناس إلا من طريقهم، ولذلك عادوا إخوانهم في الدعوة، وذلك كما تعادي الأحزاب السياسية بعضها بعضاً، يسوؤهم أن يصل آخرون إليه، ولو كانوا مسلمين مثلهم وخيراً منهم، أو أن يصلح القائمون في الحكم أنفسهم..

وكذلك الشأن في كل دعوة اتخذت جزئية من جزئيات الإسلام مراداً ومنطلقاً وغاية لها؛ كالدعوات إلى الإصلاح الاجتماعي؛ من محاربة شرب الخمر، والاختلاط، وأندية الفسق والفجور.. ونحو ذلك.

وكذلك دعوات البر والإحسان والعطف على الفقراء واليتامى، هذه الجمعيات والدعوات التي تتوقف عند جزئية من جزئيات الدين يضل سعيها، ولا تصل إلا إلى أقل القليل من النتائج، وقد يبقى أفرادها في دوائر ضيقة من العلم والعمل، ثم يتفرقون ويتمزقون، بل قد يجتمع معهم أهل النيات الفاسدة ومحبو الظهور والمدح.

وهذه الأمور من جزئيات الإسلام، وإن كانت مطلوبة مرادة؛ إلا أنها يجب أن تبقى في الإطار العام من دعوة الإسلام الشاملة العامة، وأن تكون أجزاء في هيكل التوحيد وإخلاص الدين لله سبحانه وتعالى.

ولذلك كان المنطلق السلفي في إخلاص الدين لله أولاً، وتحقيق التوحيد، ثم إنزال جميع تكاليف الإسلام منازلها بعد ذلك؛ من إصلاح الحكم والسياسة والقضاء، وإقامة الحدود، وتطهير المجتمعات من الفساد، وتربية الرجال والنساء على الدين الحق من عبادات ومعاملات وأخلاق.

أقول: هذا المنطلق السلفي هو المنطلق الصحيح السليم، وهي دعوة الرسل، وعلى رأسهم محمد بن عبد الله ﷺ، الذي دعا إلى التوحيد أولاً وأخيراً، ثم أنزل الأعمال منازلها حيث مناسباتها، فنزل تحريم الأطعمة بمكة، حيث يستطيع المسلمون تنفيذ ذلك.. وكذلك نزلت الصلاة والأخلاق والدعوة والصبر على الأذى وبعض المعاملات في المجتمع المكي، ثم تدرج التشريع

من قتال وزكاة وحج وغير ذلك في مجتمع المدينة. .

ونحن نرى أن الدين قد كمل بعد حياة الرسول، ولا يجوز تعطيل فرضية من فرضياته، ولكن يقوم أهل الدعوة والجهاد من أوامر الدين بما يستطيعون وما يطيقون تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ويجب أن يكون ذلك على نهج النبي محمد ﷺ، ووفق سنته، فيحقق التوحيد في أفراد الدعوة أولاً، ثم يدعون إلى العمل الصالح حسب القدرة والاستطاعة والأولوية والمناسبة، ووفق سياسة تحقق للمسلمين أن يقوموا بالدين كله في جميع شؤونهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية، وكل هذا في إطار التوحيد الذي هو غاية العمل الإسلامي ومراده.

وهذه الميزة للدعوة السلفية هي من أعظم مميزاتها.

وباختصار؛ إذا أردنا أن نعرف الدعوة السلفية؛ قلنا: إنها دعوة التوحيد، والتوحيد يعني هذا الفهم الشامل للدين الذي شرحناه آنفاً. . . رأفة وإعانة للفقير ابتغاء مرضاة الله، والحج ما قصد به إلا تعظيم الخالق سبحانه وتعالى وتوحيده.

ثانيا: تحقيق الوحدة:

الدعوة الإسلامية دعوة عامة للناس جميعاً.

قال تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال ﷺ في بيان ما امتاز به عن غيره من الرسل: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة**».

والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً.

ولما كان الناس مختلفين في شأن هذه الرسالة العظيمة، ويكون منهم المؤمن ومنهم الكافر؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

فإن الله سبحانه وتعالى أوصى عباده الذين آمنوا بأن يكونوا إخوة ؛ قال

تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفس**».

ويعني هذا انتفاء الإيمان عند انتفاء الأخوة.

ولذلك كان من علامات النفاق الفجر في الخصومة، وهو المبالغة فيها.

وقد جاءت الأوامر القرآنية الكثيرة والأحاديث الصحيحة الكثيرة بالحرص على هذه الأخوة وتشييد بنائها والنهي والوعيد الشديد على الفرقة والتفرق؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال الرسول ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**».

وقال ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض**».

وقال ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**».

وحث الله ورسوله على كل ما يقرب المسلم من أخيه المسلم، وأجزل الله العطاء لذلك؛ فقد جاء في الحديث: أن رجلاً غفر الله له عندما خرج ليزور أخاً له في الله في قرية غير قريته، وأن الله عجب من رجل وامرأة أطعما ضيفهما وباتا جياعاً مع أولادهما.

والحق أن الإسلام لم ينشر إلا بهذه الأخوة العجيبة، التي ربطت بين الصحابة رضوان الله عليهم في صدر الإسلام، فلولا إيواء الأنصار لإخوانهم المهاجرين، وحب المهاجرين وعفتهم مع إخوانهم الأنصار؛ لما كانت هذه الفتوح العظيمة وهذا الانتشار السريع للإسلام شرقاً وغرباً.

ولذلك كان من أعظم البلاء على أمة الإسلام ما وقع بينهم من فرقة وخلاف وشقاق جعل السيف بينهم بعد أن كان على أعدائهم، ولذلك قال رسول الله ﷺ لمحمد بن مسلمة: «**خذ هذا السيف؛ فقاتل به، حتى إذا وجدت أمتي قد اختلفت وضرب بعضها بعضاً؛ فحطمه على صخرة من صخور سلع**».

أو كما قال ﷺ.

وهكذا فعل محمد بن مسلمة.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦].

أي أن الفشل وغياب النصر سببه الفرقة، وهذا هو شأن المسلمين في العصر الحاضر: أمة عظيمة العدد، واسعة الإمكانات، غنية التراث، ولكنها مع ذلك أمة ضعيفة مشتتة مهزومة، وما ضعفها إلا بفرقتها وتنازعها.

وقد دخل التنازع والفرقة على المسلمين من أبواب كثيرة، وأهم هذه الأبواب ما يلي:

أولاً: الاختلاف في العقائد ومسائل الإيمان:

وقد بدأ هذا الاختلاف يسيراً في مسائل قليلة؛ كالحكم على مرتكب الكبيرة الذي مات ولم يتب منها؛ أكافر هو أم مسلم؟ وهل يجب قتاله أم لا؟ وفي سبيل ذلك نشأت بدعة الخوارج ثم المعتزلة.

ثم بدأ الخلاف حول صفات الله سبحانه وتعالى وأسمائه.

ثم توسع الخلاف العقائدي ليشمل مسائل كثيرة، ويمزق المسلمين إلى نحل وعقائد شتى.

ونظرة سريعة إلى كتاب من كتب الفرق؛ كـ "الملل والنحل" للشهرستاني، و "الفرق بين الفرق" لعبد القادر الجرجاني، أو "اختلاف المسلمين وعقائد المصلين" لأبي الحسن الأشعري؛ يريك كم من الفرق العقائدية ظهر قبل تمام القرن الثالث الهجري.

واختلاف العقائد بالطبع يؤدي إلى اختلاف القلوب والأعمال.

والدعاة السلفيون منذ الصدر الأول دعوا الناس إلى التمسك في أمور العقائد بالكتاب والسنة، وترك التأويل الباطل والهوى والتعصب، وكان لدعوتهم من البركة أن بقي جمهور المسلمين وعامتهم على سنن الحق متمسكين في عقائدهم بالكتاب والسنة.

والدعاة السلفيون في هذا العصر، السائرون على منهج السلف الأول في

دعوتهم وجهادهم، يدعون الأمة كذلك إلى أخذ عقائدها من الكتاب والسنة فقط، ونبذ جميع البدع العقائدية، والاجتهادات والتصورات الغيبية، التي جاء بها المشعوذون والدجالون والمتكلمون على الله بلا علم، وذلك لجمع شمل الأمة على كلمة سواء، فيكون إيمانهم واحداً، وبذلك تكون قلوبهم واحدة.

ثانياً: الاختلافات العملية:

وهذه الاختلافات في أمور العمل من عبادة ومعاملة ونحو ذلك، وإن كان ضرره أخف من أضرار الاختلاف في العقائد؛ إلا أنه يجر أحياناً إلى الشقاق والخلاف.

ولذلك كره رسول الله ﷺ الخلاف مطلقاً، حتى في هذه الأمور العلمية الفقهية.

وهدد عمر بالضرب على خلاف يسير، وقال في مسألة الغسل ؛ هل يجب من الإنزال أم من مجرد التقاء الختانين: اسألوا عائشة، فلما ذكرت حديث الرسول ﷺ: «**إذا التقى الختانان ؛ فقد وجب الغسل**]. **قال عمر**: «**لا يبلغني أن أحداً فعله ولا يغسل إلا أنهكته عقوبة**» [رواه أحمد].

ولما كان الاجتماع على رأي واحد في كل المسائل الفرعية العملية متعذراً؛ فإن الله سبحانه وتعالى أمر برد الاختلاف إلى كتابه وسنة رسوله (ﷺ)، وقد أمر أيضاً بأن يعذر بعضنا بعضاً فيما لم نستطع التوصل فيه إلى رأي واحد.

وكان هذا هو منهج الصدر الأول من سلف هذه الأمة من الصحابة ومن بعدهم ؛ يختلفون أحياناً، ولكن يعذر بعضهم بعضاً، ولا يتعصبون لأقوالهم، ويردون ما اختلفوا فيه إلى الله ورسوله.

وكان هذا أيضاً شأن أئمة الإسلام الأعلام وفقهاء الإسلام في جميع الأقطار -ومن هؤلاء الأئمة الأربعة وغيرهم-: يفتون ولا يتعصبون، ويدعون تلاميذهم إلى نبذ التعصب لأقوالهم إذا خالفت الدليل، ولذلك استمرت وحدة الأمة التشريعية الفقهية زماناً طويلاً.

ولكن نشأ في المسلمين من حرم الاجتهاد والرجوع إلى الكتاب والسنة، وحرم استخدام الدليل؛ زاعماً أن فهم الدليل والحجة قد ولى، وحرم على

الناس العمل إلا بأقوال الأئمة الأربعة، وانتشرت هذه البدعة المقيتة في زمان ضعف الأمة، بزوال ملك العباسيين، وغلبة ملوك من العجم والمماليك الذين لا يحسنون العربية ولا يفقهون في الدين، فنشأ التقليد والتعصب، والتف المقلدون المتأكلون بالدين حول أولئك السلاطين الجهلة، وأغروهم بحرب أهل السنة ودعاة السلفية الداعين إلى الاجتهاد ونبذ التقليد والتعصب، فأصاب أهل الدعوة السلفية من هؤلاء شر مستطير، وذلك لأن هؤلاء المقلدين الملتفين حول سلاطين السوء أغروا عامة الناس بأن من يطلب الدليل والحجة ويأمر بالاجتهاد؛ فإنه يرفض علم الأئمة الأربعة، ويمقتهم، ويزدريهم، ولما كان عامة الناس يحبون الأئمة ويحترمونهم ولا يستطيعون أن يميزوا بين دعوة التقليد وبين الدعوة إلى الاجتهاد والأخذ بالدليل؛ فإن هؤلاء العامة ركبهم أولئك السفهاء، ووجدت الدعوة السلفية العظيمة من هذا البلاء: بلاء السلاطين الأعاجم الجهلاء، وبلاء علماء السوء المتأكلين بالدين الموالين الطواغيت، وبلاء العامة الذين لا يميزون ولا يعرفون معنى التقليد ومعنى الاجتهاد.

وظل الأمر هكذا حتى تهدمت الخلافة العثمانية، وغلب الفرنجة من أهل أوروبا على أرض الإسلام، ووجد المسلمون أنفسهم في مؤخرة الأمم، فصرخوا يريدون العودة إلى الكتاب والسنة.

وبالرغم من هذه الصحوة وهذا التنادي من كل مكان بوجوب تنظيم معاملاتنا وفق الكتاب والسنة؛ فإن هناك من لا يزال يعيش بعقلية التقليد والجمود، ويأبى إلا أن يظل المسلمون في فوضى تشريعية، ويزعم أن كل قول في الدين يجوز الأخذ به، ومن يزعم أن الاجتهاد باطل، وأن الدين محصور فيما دونه الأئمة الأربعة فقط، ومن يتهم الدعاة السلفيين بمعاداة الأئمة، بل ومن يوجب على المسلمين أن يتبع كل منهم إماماً من الأئمة الأربعة، وأن من أخذ بالدليل ورجع إلى الكتاب والسنة؛ فهو مبطل مبتدع.

أقول: ما زال في المسلمين من يعتقد هذا ويدعو الناس إلى ذلك.

ومعلوم يقيناً أن لكل إمام الرأي والرأيين المختلفين في المسألة الواحدة؛ كما نقول: قال الشافعي في القديم وقال في الجديد، بل والثلاثة والأربعة، وأن

كثيراً من المسائل الفقهية العملية فيها اختلاف واضح، ومعلوم أن القوانين العملية يجب أن تكون واحدة، وإذا كان هناك اختلاف بين الفقهاء في هذه المسائل؛ فكيف تضمن الوحدة التشريعية ؟!

إن قلنا: نختار قول إمام واحد؛ كان هذا من التعصب، وليس هذا الإمام الواحد معصوماً حتى نأخذ جميع أقواله في جميع معاملاتنا.

وإن قلنا بجميع الأقوال؛ كان هذا تناقضاً واختلافاً ؛ فكيف يحكم القاضي فيمن تزوجت دون إذن وليها ؟! فبعض المذاهب يجيز ذلك، ويرى العقد مع هذا صحيحاً، وآخرون يرون العقد مع عدم إذن الولي باطلاً يجب فسخ الزواج ؛ سواء قبل الدخول أو بعده؛ فما العمل ؟!

وإن قلنا: نرجح بين الأقوال؛ فكيف نرجح ؟!

إن كان بالهوى والتحكم؛ فليس الهوى من الدين.

وإن كان الترجيح بالدليل والحجة؛ فهذه هي السلفية، وهو الحق: الترجيح بين أقوال الأئمة المتعارضة، وأخذ أقربها إلى الحق في نظرنا، والبحث عن الدليل دائماً، وهذا هو الميزان الضابط لوحدة الأمة في أمورها التشريعية.

وهذا جانب من جوانب الدعوة السلفية: الدعوة إلى وحدة الأمة التشريعية في أمورها العملية، وذلك بحب الأئمة الأربعة جميعاً، والنظر إليهم نظرة سواء، وأخذ الأقوال المؤيدة بالدليل، والتي نرى أنها الحق، وعدم التعصب لواحد منهم دون الآخر، مع الاعتراف بفضلهم وعلمهم وجهادهم، والتتلمذ على كتبهم، ودراسة مناهجهم في الفقه، وأخذ أقوالهم، والعمل بها؛ ما لم تخالف الدليل من كتاب أو سنة، وبهذا أمرونا هم ودعونا إلى ذلك.

وهذا هو المخرج الحقيقي من تمزق الأمة التشريعي وفرقتها العلمية، ومعنى ذلك أنه لا بد وأن ينشأ في الأمة العلماء المجتهدون العالمون، الذين يستوعبون مرحلتهم الراهنة، ويفقهون أوضاع المسلمين الحاضرة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والخلقية، ويشرعون للمسلمين في هذه الأحوال جميعاً وفق الكتاب والسنة؛ مسترشدين بعلم الأئمة الأعلام والفقهاء الكرام؛ غير متعصبين لأحد منهم دون الآخر، وإنما يكون ولاؤهم للحق،

وتمسكهم بالدليل؛ فهم مع الحق لا مع الرجال، يعرفون الحق بدليله، ولا يعرفون الحق بقائله.

وهذا أبرز جوانب الدعوة السلفية، وأكثرها وضوحاً ولمعاناً.

إنهم طلاب حق، يطلبونه بالدليل، ومع تقديرهم واحترامهم لأهل الفضل والعلم ؛ فإنهم مع ذلك لا يقبلون أقوالهم إذا تحقق لديهم أنها تخالف الدليل.

ولما كان الحق واحداً لا يتعدد، وكان السلفيون طلاب حق لا عباد رجال؛ لذلك حافظوا على وحدة الأمة؛ فالرجال المتبعون كثيرون، ولو كان كل رجل سيتبعه من الأمة جماعة؛ لتعددت الجماعات، وإذا كان الرجال يختلفون؛ فمعنى هذا أن الجماعات ستختلف، وبذلك تتمزق الأمة وتتشتت، أما إذا كان الارتباط بالحق وللحق، وكان الرجال يقاسون بالحق ولا يتعصب لأقوالهم؛ كان هناك جماعة واحدة هي جماعة الحق، وكان هناك رجال يحترمون ويقدسون وتؤخذ أقوالهم بقدر اتباعهم وتقديسهم وأخذهم بالحق.

ولذلك؛ فإننا نقول: الدعوة السلفية دعوة وحدة للأمة في نظام تشريعي عملي واحد، مستند إلى الكتاب والسنة، يأخذ بأقوال الأئمة، ولا يتعصب لرأي منهم.

فهل على هذه الدعوة يا قوم من غبار؟!

ثالثاً: تيسير فهم الإسلام:

أنزل الله سبحانه وتعالى الدين الإسلامي للناس كافة، وبعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم للعالمين، وبما أن الناس متفاوتون في الذكاء وسرعة الإدراك والفهم، فإن الله جعل هذا الدين سهلاً ميسراً، ليس في العمل فقط، بل في الفهم والإدراك.

فحقائق الدين الأساسية سهلة ميسرة، سواء كانت حقائق عقائدية إيمانية، أو حقائق علمية تشريعية.

فتوحيد الله سبحانه وتعالى من الممكن أن يعلم بكلمات قليلة وبمجالسات يسيرة لأهل العلم الحقيقي المستند إلى الكتاب والسنة.

وكذلك فرائض الإسلام الخمس يستطيع الفرد الذي أوتي نصيباً قليلاً من

الفهم أن يلم بأحكامها في وقت يسير: فالوضوء والصلاة يمكن تعلم أصولها في وقت لا يتعدى الساعة أو الساعتين، وكذلك الصوم، وصاحب المال يستطيع معرفة زكاة ماله في وقت يسير إذا بين له ذلك رجل من أهل العلم، وكذلك الحج أيضاً.

والخلاصة: أن الإسلام دين ميسر في الفهم والعلم، وكذلك هو دين ميسر في التطبيق والعمل، فلا مشقة فيه بوجه من الوجوه.

ومصداق هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧].

وهذه الآية دليل واضح على أن القرآن - وهو أساس الإسلام الذي حوى جميع علومه - ميسر للذكر، والذكر يتضمن العلم والعمل.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا**».

وهذا دليل على يسر الإسلام في العمل والفهم أيضاً.

ولكن ؛ هذا الدين الميسر قد جاء من الناس من عقَّده، وضيق طرق الوصول إليه، وحجب الناس عن الاستفادة من الكتاب ومن السنة، وجعل الإسلام أشبه بالأحاجي والألغاز، وذلك بإكثار المصطلحات الخاصة في كل فرع من فروع العلوم الإسلامية، ونشأت علوم ومعارف ليست من الإسلام في شيء، وقد أسميناها علوماً ومعارف تجاوزاً، وحدث التغالي بعد ذلك في علوم الآلات الموصلة إلى فهم القرآن والسنة، فنشأ التغالي في علوم النحو والصرف وأصول الفقه، إلى الحد الذي أعجز المتخصصين فيه عن أن يصلوا إلى غاية ذلك من فهم القرآن والحديث، بل من فهم الفروع الإسلامية الأخرى، حتى إننا نجد العالم المتخصص في علوم العربية لا يفقه من الكتاب والسنة إلا قليلاً، وقد يكون عالماً بأصول الفقه لا يحسن التوحيد، بل لا يحسن الوضوء ولا استنباط حكم صحيح من كتاب الله وسنة نبيه، بل الأدهى والأمر من ذلك أن تخرج الجامعات الإسلامية علماء يعتلون المنابر ويخطبون في الناس وهم لا يميزون بين حديث صحيح ثابت عن الرسول (ﷺ) وبين الأقوال الموضوعة

المرذولة المنسوبة إلى النبي ﷺ زوراً وبهتاناً.

وهكذا ساهم تعقيد الدراسة الإسلامية في نشأة أشباه العلماء، الذين يعرفون فرعاً من فروع الدين ولا يملكون رؤية شمولية له.

وكذلك ساهم هؤلاء في نشأة كهانة دينية، جعلت الدين الذي أنزله الله للعالمين محجوباً عن الناس بعلماء ادعوا أنهم الأوصياء عليه، وإذا جئت تناقش حجتهم في قول ما لتفهم وتعي عن الله وتتدبر قوله؛ قالوا لك: لا تناقشنا! خذ قولنا ولا تسألنا عن الدليل! وذلك ليغمضوا عينيك، وليحولوا الناس إلى سائمة يسيرون وراءهم وهم لا يدرون.

والدعوة السلفية تجعل همها الأول تذليل فهم الإسلام للناس؛ فهي تفتح الطريق أمام الناس جميعاً لدراسة الكتاب والسنة دراسة علمية سهلة واضحة، وبذلك يكون العلم مشاعاً للجميع، ويرتبط الناس بالقرآن فيتدبرونه، وبالسنة فيفقهونها، ويصبح فهم الدين والعمل به ليس حكراً على طائفة معينة تلبس لباساً خاصاً وتتكلم بلهجة خاصة، وإنما يصبح الإسلام للناس جميعاً علماً مشاعاً كالهواء الذي نتنفسه.

وإذا كان هذا التيسير مطلوباً في الأزمان الماضية؛ فهو أشد ضرورة ونحن أكثر حاجة إليه في أزماننا هذه، التي يستغرق فيها التعليم الدنيوي كل عمر الإنسان، وتستهلك فيها الحضارة الحديثة كل وقته، ويركض الناس فيه خلف الحياة بكل طاقاتهم وجهدهم.

وهذه هي الفائدة الثالثة والميزة الأولى للسير في الطريق السلفي، طريق النبي محمد ﷺ، الذي علم أمة كاملة بأيسر الجهود وأقل التكاليف.

وهكذا كان صحابته كما قال ابن مسعود: " أبر الناس قلوباً، وأعمقهم علماً، وأقلهم تكلفاً ".

وهكذا نريد الجيل السلفي الحديث، على نحو الرعيل الأول: أبر الناس قلوباً، وأعمقهم علماً، وأقلهم تكلفاً.

* * *



كتاب

الطريق إلى وحدة الأمة



الطريق إلى وحدة الأمة

افتتــاح:

الحمد لله الذي بعث رسوله محمداً ﷺ ليخرج خير أمة أخرجت للناس، والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة الذي تألفت عليه قلوب المؤمنين وأيده الله بنصره وبالمؤمنين، وأعزنا به بعد ذل، وأنجانا بدعوته من الضلالة وقد كنا على شفا هلكة، وعلى آله وأصحابه وأنصاره إلى يوم الدين وبعد،،،

مدخل:

فإن وحدة الأمة وتماسكها، مطلب شرعي، بل فريضة ثابتة وواجب من ألزم الواجب، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال تعالى أيضاً: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، ولا نكون أمة إلا إذا كنا جماعة مؤتلفة على منهج وطريق واحد، وقال أيضاً سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥ - ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً مما يدل على أن وحدة الأمة عقيدة ومنهجاً، أمر واجب لازم لا خيار للمسلم في تركه وإهماله، وأن الفرقة والتفرق مدعاة للفشل في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

وبالرغم من أن وحدة الأمة وتماسكها فريضة شرعية فهي كذلك الوسيلة

الوحيدة للعز والنصر والتمكين، فلا قيام للأمة الإسلامية إلا بائتلافها ووحدتها، وبالتالي فلا تحقيق لأهداف الرسالة إلا بالوحدة والائتلاف ومعلوم أن للرسالة الإسلامية أهدافاً عظيمة منها تبليغ الإسلام للناس كافة، وإقامة الحجة لله على عباده وجعل الإسلام فوق الأديان كلها، والجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]، وقال أيضاً: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وهذه الأهداف العظيمة يستحيل تحقيقها في ظل فرقة المسلمين وشتاتهم واختلافهم ومعلوم أيضاً أن المختلفين هم في شقاق، وبلاء وقتال، والأمة المشغولة بنفسها التي يتنازع أبناؤها ويتفرقون شيعاً وأحزاباً فيكفر بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً يستحيل أن تقوم لهم قائمة، أو يرتفع لهم علم أو ينصب لهم لواء.

ولما كان أمر الوحدة الإسلامية، والأخوة الدينية فريضة شرعية، وسبيلاً لا غنى عنه لتحقيق شرع الله في الأرض، ومراده في عباده..

أصبح لازماً علينا أن نسعى في سبيل تحصيل هذه الوحدة وتثبيت أركانها، وإقامة بنائها.

واقع الأمة الحالي:

ولا شك أن الواقع الحالي للأمة الإسلامية مغاير تماماً لهذا المطلب الشرعي فقد تفرقت بالمسلمين السبل منذ وقت طويل فأصبحت عقائدهم شتى بعد أن كانت واحدة وأصبحت مناهجهم وسبلهم متفرقة متعددة وتمزق شملهم في دول مختلفة، وعصبيات كثيرة كثيرة للوطن، والمذهب، والحزب، والجماعة الخاصة. بل للهوى والمشرب الخاص. ولا شك أن هذا الواقع الأليم هو الذي أفرز الذل والمهانة والفشل، وهو الذي أطمع في هذه الأمة أعداءها، وجعلهم يتمكنون من رقابها، ويذلونها بكل سبيل..

ولا شك أنه لا يمكن الخروج من الواقع الحالي إلا بإعادة اللحمة من

جديد وجمع كلمة الأمة، ولم شملها، وتوحيدها تحت راية واحدة وعلم واحد وإمام واحد.

ولا شك أن هذا المطلب الشرعي، بل الفريضة الدينية هو أولى الأولويات، ومقدم على كل ما سواه من الواجبات لأنه يقع في مقام الوسائل لغيره من الغايات، ولأنه من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.. فلما كان إعلاء كلمة الله، وتحقيق النصر على الأعداء، بل الدفاع عن حوزة الدين والحرمات، كل ذلك لا يتم إلا بوحدة الأمة واتفاق كلمتها كان هذا ولا شك مقدماً على الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنه لا جهاد على الحقيقة، ولا كسر لشوكة الباطل، ولا إعلاء لكلمة الله على الكفر إلا باتفاق كلمة المسلمين كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، فجعل الله نصره كائناً للرسول بمدد من عنده وباجتماع كلمة المؤمنين حوله، ولذلك قال تعالى بعد ذلك مباشرة: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٣].

ولا شك أيضاً أن توحيد الكلمة، وجمع الشمل، ورص الصفوف لا يكون إلا بأسباب، ومقصود هذه الورقة هو بيان الأسباب التي يمكن للمسلمين بواسطتها أن يوحدوا صفوفهم، ويجمعوا كلمتهم. هذه الورقة تضع الأسس أو بالأحرى تعرف بالأسس التي لا بد منها لإقامة بنيان الأمة الواحدة. وهذا أوان الشروع في بيان هذه الوسائل والأسس التي يجب إرساؤها ليتم بناء الأمة بناء سليماً وترص الصفوف رصاً صحيحاً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [].

أسس الوحدة الإسلامية

أولاً: وضع القرآن في موضعه الصحيح:

أول هذه الأسس هو وضع القرآن في موضعه الصحيح من حيث أنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ومن حيث أنه هدية الله إلى عباده المؤمنين والرحمة المهداة للبشر أجمعين والهداية التامة للناس جميعاً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فالقرآن هداية خاصة لأهل التقوى والإيمان، وهداية عامة يوضح الطريق لكل إنسان. كما قال تعالى أيضاً: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]. وهذا خطاب لأهل الكتاب خاصة والناس عامة إن القرآن هداية إلى صراط الله المستقيم الذي لا يضل سالكه، وقال تعالى أيضاً: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠﴾ [الجاثية: ٢٠].

فالقرآن بصائر، أي نور يبصر به كل إنسان طريق الحق لو أراد، ورحمة وهداية خاصة لأهل اليقين بالله.

ولا يستفاد من القرآن إلا باتباع هذه القواعد:

١ - تقبُّله، والفرح به، وانشراح الصدر له، والعلم أنه أعظم نعمة من الله على عباده:

وهو ما أسلفنا القول فيه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن

﴿يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٥].

فأهل الإيمان بالله والثقة به يفرحون ويستبشرون كلما جاءهم جديد من هذا الكتاب وبذلك يزدادون إيماناً مع كل آية يعلمونها ويحفظونها وتتلى عليهم، وأما أهل النفاق والشقاق فإنهم مع كل آية يزدادون كفراً ورجساً لأنهم يقابلونها بالإنكار والتكذيب والكراهية لما فيها من الأوامر والنواهي. وبالتالي فيزداد كفرهم مع كل تكذيب ويزداد رجسهم مع كل استهزاء.. فالمؤمن يزداد مع تنزل القرآن، وتعلم القرآن علماً وأدباً وسلوكاً وعبادة، وبالتالي إيماناً وتقوى، وأما من كان في قلبه مرض من شك ونفاق فإنه يزداد مع كل آية تتلى عليه شكا وتكذيباً واستهزاء، وبالتالي رجساً إلى رجس.

٢ - اليقين بأنه كله من عند الله ورد المتشابه فيه إلى المحكم:

القاعدة الثانية التي يجب اتباعها نحو كتاب الله سبحانه وتعالى هي اليقين بأن هذا الكتاب المحفوظ بكل آياته هو من عند الله سبحانه وتعالى، وأنه لا خلاف ولا اختلاف فيه وأن أخباره كلها صدق، وأحكامه كلها عدل، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام.

ومسلك الراسخين في العلم من أهل الإيمان هو رد ما أشكل عليهم فهمه، وما اشتبه عليهم أمره إلى المحكم البين الواضح من كتاب الله سبحانه وتعالى. كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧].

فالقرآن يفسر القرآن فلا خلاف بين جزئياته بوجه من الوجوه.. ولذلك غضب النبي ﷺ أشد الغضب عندما رأى بعض أصحابه يتناقشون في مسألة من المسائل فقال بعضهم ألم يقل الله كذا، وقال الآخر ألم يقل الله كذا. فغضب

الرسول حتى أن عبد الله بن عمر ليقول: (فكأنما فقىء في وجه رسول الله حب الرمان) وقال ﷺ: «**بهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا إلى ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه**» [أخرجه أحمد وابن ماجة وحسنه الألباني في المشكاة(٣٦/ ١)].

٣ - التسليم للرسول ﷺ في بيانه:

القاعدة الثالثة هي الاعتقاد بأن الشخص الوحيد الذي أنيط به بيان القرآن بياناً معصوماً هو رسول الله ﷺ فهو المخول من الله بالبيان والإيضاح كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، ولا شك أن بيان الرسول للقرآن كان بوحي من الله سبحانه وتعالى كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٧-١٩]. قال ابن عباس جمعه في صدرك، ثم أن تقرأه كما أنزل. وقد بين رسول الله ﷺ كتاب الله بسنته العملية والقولية والتقريرية.

فكانت أخلاقه وشمائله تطبيقاً للقرآن، وكانت أقواله تفسيراً وبياناً له، بل كانت حياته كلها نموذجاً عملياً توضيحياً لهذا الكتاب الكريم، فعلى كل من أراد الاهتداء بكتاب الله أن يتعلم سنة رسول الله ﷺ ويطبق الدين كما طبقه، ويفهمه على النحو الذي علمه ولا خيار له غير ذلك.

٤ - رد مشكلاته واستنباط أحكامه، إلى أولي العلم:

القاعدة الرابعة لفهم القرآن هو وجوب رد ما أشكل منه، وما اشتبه فهمه وفقهه إلى أهل العلم كما أمرنا سبحانه وتعالى إذ يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]. وكما قال أيضاً: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣].

وهذه الآية نص واضح جلي أنه لا يجوز الاستعجال في إشاعة ما لم يفقه ويفهم من أمر الدين بل يجب رده أولا إلى الرسول العليم بالأمر، وإلى أولي

الأمر وهم القادة والعلماء المفسرون لكتاب الله، العالمون به وهذا أدب واجب يؤدبنا الله به، حتى لا نصدر إلا عن علم وبينة، ولا نقول في الدين إلا بمقتضى التثبت والتأكد.

ولا شك أن مخالفة هذا الأدب قد جر على الأمة بلاء عظيماً، وفتناً كثيرة.

٥- الإخلاص للقرآن والنصح له، والإتيان إليه متجردين من كل العقائد والأفكار والتصورات السابقة:

القاعدة الخامسة والأخيرة التي يجب اتباعها مع القرآن هي التجرد الكامل من كل موروث يخالف الحق، والنصح لكتاب الله والإخلاص له، كما قال ﷺ: «**الدين النصيحة**» ثلاثاً: قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**» [أخرجه مسلم من حديث تميم الداري].

فالنصح للقرآن أن تأتي إلى هذا الكتاب الكريم مجرد القلب من موروث يخالفه، مستبصراً به مهتدياً بنوره، باحثاً عن الحق والصواب وإن خالف هواك وموروثك، وإلفك وعادتك فتكون باحثاً عن الحق لوجه الحق، متجرداً لله عن هوى النفس بهذا فقط يمكن الاهتداء بكتاب الله.

وإلا فإن الذين جاءوا للقرآن يلتمسون فيه تأييد باطلهم، ونصر مذاهبهم، ويبحثون في آياته عما يوافق أهواءهم، وينصر نحلتهم ومذهبهم وآراءهم ضلوا بالقرآن ولا شك كل مبطل وجد في القرآن ما استطاع تأويله وتحريفه بصورة أو بأخرى لتوافق هواه، وتؤيد باطله. ولا يتسع المجال هنا لبيان كيف استدل كل صاحب باطل لباطله من القرآن.

ثانياً: وضع سنة النبي ﷺ في موضعها الصحيح:

وسنة النبي تعني كلام الرسول ﷺ وفعله وتقريره، (ما شاهده أو نمى إلى علمه وسكت عليه). والرسول هو النبي المعصوم ﷺ، والمكلف بالتبليغ عن ربه والذي لا ينطق عن الهوى والذي طاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله، والذي لا طريق إلا عن طريقه، ولا دخول للجنة ولا نجاة من النار إلا باتباعه والسير على سنته ومنهاجه قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾

[النساء: ٨٠]، وقال جل وعلا: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً وكذلك الأحاديث ومنها قوله ﷺ: «**والله لا يسمع أحد بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار**» [أخرجه مسلم عن أبي هريرة، شرح السنة (٥٦١) ١/ ١٠٤]. وقال أيضاً ﷺ: «**والله لو أن موسى حياً لما وسعه إلا أن يتبعني**» [أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧)]، وحسنه الألباني في الأرواء (٦/ ٣٤)، شرح السنة (١٢٦) ١/ ٢٧٠]. وقال أيضاً: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[أخرجه مسلم عن عائشة].

إن جعل السنة هي المصدر الثاني للتشريع، وجعلها مع كتاب الله عز وجل مصدري التلقي، والاتباع، وجعل تشريع الرسول ﷺ كتشريع الله في وجوب القبول والإذعان شيء أساسي لوحدة الأمة وجمع كلمتها، ولا نتصور بتاتاً أن يكون هناك اتفاق واجتماع ونحن لم نحقق هذا الأصل الأصيل، والركن الركين من أصول الدين.

ومعلوم أن الله سبحانه وتعالى قد من على الأمة، بحفظ هذا الأصل، كما حفظ القرآن الكريم، وذلك أن السنة شارحة ومبينة للكتاب كما سلف، وضياعها ضياع للقرآن، ولا شك أن ضياع البيان ضياع للنص وقد تكفل الله لرسوله بحفظ القرآن في صدره ثم بيانه له قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

فبيان القرآن لازم له.. وقد قام النبي ﷺ بذلك خير قيام.

ولا شك أن المخالفين في هذا الأصل كثيرون قديماً وحديثاً. فقد نشأ في القرن الثاني الهجري من أنكر حجية السنة والعمل بها، ذكر الإمام الشافعي في كتابه الرسالة أقوالهم ورد عليهم. ونشأ من فرق بين أخبار التواتر فيها وأخبار الآحاد، وقد كتبت في هذا المطولات والمختصرات. ولا شك أن خبر الواحد الصادق عن رسول الله ﷺ يوجب التصديق والاعتقاد والقبول كما هو منهج سلفنا الصالح قديماً وحديثاً، وقد عمل الرسول ﷺ بنفسه وفق هذا فكان يرسل

الرجل والرجلين إلى الآفاق البعيدة ليبلغ الدين من كتاب وسنة ولا يشك عاقل أنه كانت تقوم الحجة على كل من وصلهم أخبار الرسول ﷺ بنقل الفرد الواحد والرجلين..

وقد جاء أيضاً من فرق بين سنة واجبة وسنة واجبة أخرى بحجة أن هذا في المعاملات وهذا في العبادات وأراد أن يحجب التشريع النبوي عن الحياة فزعم أن الرسول ﷺ تؤخذ سنته في أمور العبادات والقربات فقط وأما في البيع والشراء، والحلال والحرام، والجنايات والعقوبات فأراد أن يطبق عليها: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**» [أخرجه مسلم عن أنس وعائشة]، وهذا استشهاد في غير محله لأن الرسول ﷺ قد قال هذا في مسألة فنية دنيوية هي تأبير النخل، والإسلام لم يأت لتعليم شؤون الزراعة والصناعة، وإنما لإقامة العدل ووضع ضوابط المعاملات..

وكذلك انتشر بين جهلة الناس من يظن بأن كل ما يقوله الرسول ﷺ إنما يدخل في باب المستحبات والقربات، وليس فيه شيء من باب الإلزام والواجبات. وهذا خطأ وجهل فسنة الرسول ﷺ مشتملة على الواجب الحتم الذي لا يجوز مخالفته، ويجب الإتيان به، وكذلك النهي عن الحرام الذي يجب الابتعاد عنه وكذلك جاءت ببيان الحرام والحلال كما أنها جاءت أيضاً بالحث على المستحبات والتنفير من المكروهات.

والخلاصة أن السنة مشتملة على بيان الواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام.

ومن عدم النصح للسنة تقديم قول بعض المتبعين من الأئمة والعلماء على قول رسول الله ﷺ الواضح البيان بعد ظهوره في الذهن والعيان. وهذا من الباطل والانحراف بل قد يؤدي إلى الكفر والنفاق.

وقد نص الأئمة جميعاً رضوان الله عليهم أنه لا يجوز لمسلم استبانت له سنة الرسول، أن يتركها لقول قائل كائناً من كان وأن كل إنسان يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا رسول الله ﷺ.

والمقصود أنه قد نشأ في المسلمين أعداء كثيرون لسنة رسول الله ﷺ

أصلوا أصولاً ووضعوا قواعد تهدم الدين. وتفرق كلمة المسلمين، وتنشر الضلال والعقائد والزيغ بين المسلمين ويستحيل على المسلمين التئام واجتماع إلا بوضع سنة رسول الله ﷺ في موضعها من الاحترام والاتباع وجعل كل كلام غير كلام الله وكلام الرسول ﷺ تابعاً لكلام الله وكلام الرسول ﷺ فإن وافق ذلك أخذ وإن خالفه رد وترك.

وبغير تحقيق هذا الأصل يستحيل أن نسير في طريق واحد ويكون لنا صراط مستقيم. بل طرق مختلفة تتفرق بنا في كل اتجاه.

ثالثاً: الإجماع، واتباع سبيل المؤمنين:

الأصل الثالث الذي يجب اتباعه لتحقيق وحدة الأمة الإسلامية واجتماع كلمتها هي وجوب اتباع سبيل المؤمنين، والبعد عن الشذوذ، والانفراد، والعلم أن من مميزات هذه الأمة أنها معصومة عن الخطأ، كما قال ﷺ: «**إن الله تعالى لا يجمع أمتي على ضلالة**» [أخرجه الترمذي عن ابن عمرو وحسنه وصححه الألباني في ص.ج.ص (١٨٤٤)]، وهذا من تمام نعمة الله على هذه الأمة التي وصفها الله بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ولقد جعل الله سبيل المؤمنين هو سبيله وسبيل رسوله فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

ولا شك أن خير قرون هذه الأمة هو قرنها الأول ثم الثاني ثم الثالث كما قال ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» [أخرجه الترمذي والحاكم عن عمران بن حصين وصححه الألباني في الصحيحة (٦٩٩)]. فالقرن الأول هم أصحاب النبي وأنصاره وأصحابه ومن قام الدين على أيديهم وأعلنت كلمة الله في الأرض بجهادهم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣].

وأثنى الله سبحانه وتعالى عليهم في آيات كثيرة من كتابه، وأخبر أنه قد

رضي عنهم، وتاب عليهم، وأنهم أهل رحمته ورضوانه.

ومن هذا كله نعلم أن السبيل الذي سار عليه هؤلاء الأصحاب، واجتمعت عليه كلمتهم لا شك أنه سبيل الله، وطريق النبي ﷺ، والصراط المستقيم..

ولقد أجمع هؤلاء الأصحاب رضوان الله عليهم على أمور كثيرة من أمر الدين لا شك أن اجتماعنا عليها سيجمع كلمة الأمة على أمور كثيرة فرقت الأمة طويلاً. من هذه الأمور:

الإجماع على أنه لا معصوم بعد رسول الله ﷺ وأن الخلافة شورى، وأن الصديق هو خليفة رسول الله ﷺ رضيه الله ورضيه رسوله والمؤمنون، وأن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وخليفة خليفة رسول رب العالمين، واجتماع المسلمين كذلك على عثمان واتفاق كلمتهم عليه، وأجمعوا أن كتاب الله هو الذي بين أيدينا، وأجمعوا على الصلوات الخمس في مواقيتها والصوم في رمضان والحج، وأن سنة رسول الله ﷺ واجبة الإتباع، واجتمعوا وأجمعوا على عامة أساسيات الدين، وفروضه العامة وأجمعت الأمة في كل عصورها على أن الصحابة رضوان الله عليهم هم خير قرون الإسلام وأفضل أجياله.

ولا شك أن الشذوذ عن كل ذلك بل بعض ذلك ضلال وباطل واتباع غير سبيل المؤمنين، وخروج عن الصراط المستقيم والدين القويم الذي بعث به رسول رب العالمين ﷺ.

إن الاجتماع على ما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ ضرورة ملحة في وقتنا الحاضر، الذي نشأت فيه الفرق الباطنية الخبيثة التي قامت على أساس نسف هذا الأصل المكين والتي يقوم دينها على أن رسول الله ﷺ لم يخلف إلا ركاماً، وظلاماً، ولم يترك إلا رجالاً ملأ النفاق قلوبهم، والكفر أفئدتهم وإنه لم يخلف ﷺ إلا ثلاثة أو خمسة فقط كانوا على دينه وملته وطريقته، وأما الآلاف المؤلفة الباقية فكانوا كفاراً منافقين، ولا عبرة لاجتماعهم، ولا وزن لإجماعهم.

وهذا نسف للدين من أساسه، واتهام للرسول ﷺ بالفشل الذريع، بل بالفضيحة والجهل أنه وثق فيمن ليسوا أهلاً للثقة، ومدح من لم يكونوا أهلاً

للمدح، وعاش في وسط جماعة لم يحسن تربيتهم وتهذيبهم، وتركهم لصوصاً متغلبة، ووحوشاً كاسرة وحاشا الرسول ﷺ ذلك وحاشا أصحاب رسول الله ﷺ ذلك، فهم والجميع يشهد كانوا أبر الناس قلوباً، وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً، لقد كانوا هم الأبرار الأتقياء الذين شهد الله لهم بالإيمان والفضل والجهاد والخير وشهد لهم رسول الله أيضاً بذلك وكفى بالله شهيداً سبحانه وتعالى.

والخلاصة: أن اعتماد الإجماع، وما اتفق عليه أصحاب رسول الله ﷺ، وما ائتلفت عليه قلوب المؤمنين جيلاً بعد جيل أصل مكين من أصول الدين يجب تعلمه والإيمان به، والسير بمقتضاه، وهذا سيوفر على المسلمين اليوم جهوداً عظيمة، تذهب هدراً وسيقضي على الخلاف في أمور كثيرة، وسيضع الأمور في نصابها الصحيح، وسيرشد إلى التطبيق السليم لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وذلك أن الكتاب والسنة وهما مصدرا التشريع وأصلا الدين ظهر تطبيقهما على أفضل نحو وفي أكمل مستوى في عصر الصحابة، والخلافة الراشدة.. وبالتالي أصبح هذا هو النموذج الأمثل الذي يجب أن يحتذى في كل عصور الإسلام، فإذا جاء من يقضي على هذا الأصل ويقول بل كان هذا العصر هو أسوأ عصور الإسلام، وأظلم عهود الدين، وأن القرآن والسنة لم يطبقا فيه على الوجه الصحيح كان هذا يعني هدم الدين كله، وإعطاء تفسير آخر للقرآن والحديث، وفي النهاية عزل القرآن والحديث عن حياة المسلمين وهذا ما سعت إليه وسارت فيه الفرق الباطنية الخبيثة التي تسترت بالإسلام ودخلت فيه ظاهراً لتهدم أصوله من الداخل وقد فعلت، وللأسف انطلت فعلتها على كثير من الناس.

والحق أنه ليس هؤلاء وحدهم هم الذين خالفوا في هذا الأصل بل إن كثيراً من المتنطعين الجاهلين والمتشددين المارقين خرجوا عن إجماع الأمة وشقوا عصاها قديماً وحديثاً وفي كل العصور ولا غرو في ذلك، فأولهم هو الذي أراد أن يقيم الرسول ﷺ في زعمه على الحق ويرشده في زعمه إلى ما تعمد الخطأ فيه فقال «**اعدل يا محمد فوالله هذه قسمة ما أريد بها وجه الله**» [أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري]!! وكان هذا الأسلوب المارق

أسلوب طوائف كثيرة من بعده، أنكروا على خلفاء الإسلام وخيرة أتقياء الأمة، وأرادوا إصلاح الهفوة الصغيرة، والخطأ اليسير فارتكبوا العظائم من شق عصا المسلمين، واستحلال دمائهم وأموالهم.

ولقد عانى المسلمون الأمرين من هؤلاء وهؤلاء.. الفرق الباطنية التي خرجت على إجماع الأمة بخبث ومكر ودهاء، وشرعت في نسف أصول وحدة الأمة وتحطيم قادتها، وتشويه عظمائها وأشرافها، وفرق الخوارج المارقة والمتشددين الجهلة خرجوا على إجماع الأمة بجهل وغباء، فأعملوا السيف فيها، وشقوا عصاها وأرادوا حمل الأمة على ما ظنوه حقاً فأفسدوا على المسلمين دينهم، ووحدتهم وكانوا عوناً لأعداء الله المتربصين.

وهكذا ابتلي الإسلام في تاريخه بعدوين لدودين، عدو خبيث ماكر، وعدو جاهل غبي.

والعصمة من هؤلاء وهؤلاء في فهم أصل الإجماع، وتبرئة من برأهم الله، والحرص على اجتماع الكلمة ولم الشعث واجتماع الصفوف، والتنادي إلى نبذ الخلاف، والاعتصام بجماعة أهل الإسلام، والالتقاء على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

رابعاً: الاستبصار برأي أهل العلم والفقه والبصيرة:

الأصل الرابع من الأصول التي يجب معرفتها والعمل بها للوصول إلى وحدة الأمة وتوحيد كلمتها وصراطها، هو وجوب الرجوع في المشكلات والمتشابهات، إلى أهل العلم والرأي والفقه والبصيرة. وذلك أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الناس متفاوتين في الفهم والبصيرة، وليس كل من حمل علماً كان فقيهاً مستبصراً. قال رسول الله ﷺ: «**رب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**» [أخرجه أحمد وابن ماجة عن أنس]. فشتان بين حفظ العلم وفهمه وفقهه.. الأول قد يكون مقدوراً عليه عند كثير من الناس والثاني يقل ويندر.. ألا ترى عند بعض الأطفال قدرة عظيمة على حفظ النصوص، ولكنهم مع ذلك يحملون قدرة محدودة على فقهها وفهمها؟ وهناك أيضاً كثير من الكبار قد يحفظون القرآن ولا يفقهون معانيه وقد يحفظون جانباً عظيماً من

الأحاديث وليست لهم خبرة كبيرة في فهم معانيها وطرق استنباط الأحكام منها.

ولهذا وجب على المسلم المستبصر أن يعود إلى من حباهم الله سبحانه وتعالى علماً وفقهاً وحسن رأي ومشورة فيما أشكل عليه من أمر الدين، وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بذلك حيث قال جل وعلا: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء: ٨٣].

وفي الآية يعيب سبحانه وتعالى على بعض ضعفاء البصائر والعقول ممن يذيعون كل خبر.وينشرون كل ما يفيد أمنا في غير مكانه، وخوفاً في غير موضعه، فيرجفون ويفسدون.. يعيب الله على هؤلاء أنهم يجب عليهم أن يرجعوا كل خير إلى أهل الرأي والمشورة والعلم والاستنباط، ليدلوهم على مدلول الخير، ومفهوم النص ومراميه، ولماذا أمر الرسول بكذا ونهى عن كذا، ووجه إلى كذا، ولم يوجه إلى كذا.

وهذه القاعدة لو فهمت على وجهها الصحيح فإنها ستوفر على المسلمين جهوداً طويلة شاقة، وعناء كبيراً جداً بل إن كثيراً من الشرور والآثام إنما جاءتنا وابتليت بها الأمة من كل متسرع عجول يرى أو يسمع شيئاً من أمر الدين فيفهمه على غير وجهه، ويتسرع في حكمه فيفسد ويضل..

انظر إلى ذلك المتسرع الجاهل العجول الذي رأى النبي ﷺ يوزع غنائم هوازن على غير القسمة المعهودة، فيعطي مسلمة الفتح ويحرم الأنصار والمهاجرين فيظن أن الرسول حابى أهله، وتودد إلى أقاربه وبني عمومته، وجافى خلّص أصحابه فقال للرسول (اعدل يا محمد فوالله هذه قسمة ما أريد بها وجه الله !!) [أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري].

انظر إلى كثير من المتعجلين الحمقى الذين انتشرت فيهم إشاعة ابن سبأ اليهودي بشأن عثمان رضي الله عنه ففهموا أعماله على غير وجهها واتهموه بما هو براء منه. وانتهى بهم جهلهم وحماستهم الباطلة بأن استباحوا دمه، وقتلوه، وفتحوا أعظم باب للشر على هذه الأمة.

وانظر بعدهم فرقة الخوارج الذين فهموا الدين على غير وجهه وعابوا

على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأنكروا عليه ما ظنوه مخالفاً للدين وليس كذلك من رضائه بالحكمين. وعدم إجهازه على جرحى موقعة الجمل، وامتناعه تقسيم غنائمهم على المحاربين معه ونحو ذلك مما لم تبلغه عقولهم، ولم يفقهوه.. فما كان منهم إلا سبه وتكفيره ثم استحلال دمه وقتله.. وهذه الطوائف الجاهلة ظلت تخرج على المسلمين بفقهها الأعوج، وحماسها الأهوج في كل وقت وحين مخلفة آثاراً مدمرة، وجراحاً عميقة في الجسد الإسلامي، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول فيهم: «**يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان**» [أخرجه البخاري عن أبي سعيد]!! وقوله: «**يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم**» [أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري وتقدم برقم (٤٦)]، أي لا يصل إلى قلوبهم من قلة الفقه والفهم.

ولو أن أمثال هؤلاء وعوا هذا الأصل، وهو وجوب التريث في الحكم، والأناة والصبر وسؤال أهل العلم والرأي، والرجوع في المشكلات والمستعصيات إلى أهل العلم والحلم لوفروا على المسلمين كثيراً من الجهود الضائعة، ولجنبوا أهل الإسلام كثيراً من الفتن الماحقة.

لقد حذر السلف رضوان الله عليهم من التسرع والجهل والحماسة في غير موضعها.

كما روى البخاري بإسناده إلى سهل بن حنيف رضي الله عنه قوله: (أيها الناس اتهموا الرأي في الدين فلقد كدت أن أرد على رسول الله أمره يوم حادثة أبي جندل) وهذه موعظة في غاية الحسن، فسهل بن حنيف من أحلم الناس ومن أوسعهم عقلاً وحكمة وهو يقول عن نفسه أنه كاد أن يخرج من الإسلام، ويرد أمر رسول الله ﷺ وبيعته بعد ما وقع الرسول ﷺ صلح الحديبية والذي كان من شروطه أن يرد المسلمون إلى الكفار من جاء إليهم مسلماً ولا يرد الكفار من جاءهم من المسلمين كافراً وبعد توقيع هذه المعاهدة وفيها هذا الشرط القاسي المذل في ظاهره لأهل الإسلام والذي يبدو منه أنهم رضوا بالدون، وقبلوا بالدنية، وأن الكفار هم الأعز !!.

في هذا الوقت العصيب جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في

أغلاله وهو يستغيث بالمسلمين أنقذوني من الكفار فإنهم يعذبونني، ولم يستطع المسلمون فعل شيء له تطبيقاً للمعاهدة بل إنهم ردوه إلى الكفار وهو يستغيث بالمسلمين فلا يجد من يغيثه والرسول ﷺ لا يزيد على أن يقول له: «**اصبر يا أبا جندل فإن الله جاعل لك فرجاً ومخرجاً**»!! وعند ذلك رأى سهيل بن حنيف وهو سيد قومه، والذي إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من قومه يحملون السلاح لا يسألونه فيما غضب، رأى سهيل أن هذه ذلة ولا يرضاها فكاد أن يرد أمر الرسول ﷺ إليه ويعود إلى الكفر، لأنه رأى أن ما وقعه الرسول ﷺ يضاد في ظاهره ما يدعو إليه وما يبشر به.. ولم يكن يدور بخلده آنذاك أن الذي وقعه الرسول ﷺ هو أعظم فتح في الإسلام!!.

ولذلك كان سهل يقول أيها الناس اتهموا الرأي في الدين!!.

والخلاصة أن تحقيق هذا الأصل يقتضي التريث وعدم التسرع في الحكم على الأشياء ووجوب التبصر في الدين والتفقه فيه.. ألا ترى أنه لما مات رسول الله ﷺ أقسم بعض الصحابة أنه لم يمت وهدد من قال بموته بالقتل؟ وعندما عزم الصديق على قتال المرتدين قام في وجهه من ظنوا أنه حكم بالباطل، وأراد أن يقاتل من لا يجوز قتاله..

وكذلك هناك من عارض عمر بن الخطاب في كثير من سياساته التي جاء الواقع بعد ذلك مؤيداً لها، وكذلك جاء من عاب على عثمان ما ظنه باطلاً وهو حق وانتهى إنكارهم بمقتله واستحلال دمه.. وهكذا أمور كثيرة ودروس عظيمة مرت بأمة الإسلام توجب عليهم ما يلي:-

١- التريث عند الخلاف، وتعميق النظرة، وإحالة الفكرة وتقليب الأمور على كل وجوهها قبل إصدار الأحكام.

٢- إرجاع الأمور المختلف فيها إلى أهل العلم والبصيرة والفقه، وعدم الاعتماد على النفس فقط، وعدم الاغترار بظاهر العلم وبريقه في النفس.

٣- اليقين بأن الرأي يصيب ويخطئ، وأن مجال الاجتهاد في الشريعة واسع جداً، ومجال المشتبه فيها كبير جداً، وأن هذا يحتاج إلى الجهابذة الأفذاذ الذين يوفقهم الله لوضع الأمور في نصابها وتنزيل الأحكام على منازلها الصحيحة.

ومن أجل ذلك كله جعل الله الشورى أصلاً من أصول الدين ومعرفة الصواب من الخطأ والمصلحة من المفسدة، وكيفية تنزيل الأحكام في منازلها الصحيحة. وتطبيقها على الوجه الأمثل والأكمل. كما قال تعالى لرسوله ﷺ: **﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران:١٥٩]، علماً أن النبي ﷺ في الأصل مستغن عن المشورة بما كمله الله به من العقل الراجح، والبصيرة النافذة والنبوة والرسالة، ومع ذلك أمره الله بمشاورة أصحابه. وقال أبو هريرة ما رأيت أحداً أكثر مشورة من رسول الله ﷺ لأصحابه. وقد ثبت عنه ﷺ أنه استشار أصحابه في السلم والحرب، وتولية الأمراء، كما استشارهم في الإفك الذي رميت به زوجته الطاهرة الشريفة أم المؤمنين. . وعلى هذا المنوال سار أصحابه الكرام فكان الخلفاء لا يصدرون إلا عن شورى، ولا يفعلون إلا بعد ترو وتأن ظاهر، حتى تتضح الرؤية، ويظهر السبيل. . وباختصار. هذا الأصل يعني أن المسلم لا يجوز له أن يتوجه إلى العمل الذي تشتبه فيه الأدلة ويضطرب فيه الرأي، وتختلف فيه العقول إلا بعد رؤية ومشورة، ورجوع إلى أهل الفضل، والرأي والتجربة ليستنير المؤمن في دينه، ويعرف المجتهد طريقه.**

ولعلي بهذا الشرح والبيان لهذا الأصل العظيم أكون قد وضعت يد إخواني على أصل هام، وأهديتهم أصلاً من الأصول العظام، وهو التريث والتثبت قبل إصدار الأحكام والرجوع إلى أهل الرأي والعلم قبل التصدر للفتيا بين الأنام، وتنزيل نصوص القرآن والسنة منازلها حيث أنزلها الله ورسول الإسلام.

خامساً: رأي الإمام يحسم الخلاف:

الأصل الخامس من الأصول الواجب اتباعها وصولاً إلى وحدة الأمة، وتوحيد كلمتها وصراطها هو وجوب الإمام العام الذي يقيم الشورى، ويحكم بالإسلام، ويطبق شرع الله في الأرض، لأن مثل هذا الإمام هو الدرع الواقي لأمة الإسلام، وهو نقطة الالتقاء والملاذ عند الخلاف والاختلاف، وحكمه في النهاية المبني على الشورى، والنظر هو الحاسم للاختلاف، والقاطع لمادة الشقاق.

والنظر في تاريخ الأمة الإسلامية يوضح هذا الأصل تماماً. فطالما كان للمسلمين إمام واحد تجتمع عليه الكلمة، ويجتمع عنده الشمل كان للمسلمين صراط واحد، وموقف موحد من المشكلات والقضايا التي تعترض سبيلهم، وكانوا فوق الريح كما يقال، وكلما انشقت العصا وكان للمسلمين أكثر من إمام، أو لم يكن لهم إمام كان المسلمون كالشياه المضيعة المطيرة لا راعي لها، كل طائفة منهم تضرب في اتجاه، وكل فريق منهم يسير في ناحية، وهذا هو حال الأمة الإسلامية اليوم.. لما لم يكن لهم مرجع وموئل يرجعون إليه وإمام عام يوحد كلمتهم في الأرض كلها، ويجمع شتاتهم وينسق جهادهم وجهودهم، فأنت تراهم اليوم يضربون في كل اتجاه على غير هدى ويفتون في كل مشكلة بغير بصيرة إلا من رحم الله، ولا يجتمعون أو يجمعون على رأي واحد قط وكيف يجتمعون أو يجمعون، وهم شتات في كل جنبات الأرض والسهام تنوشهم من كل جانب، والمشاكل تعترضهم من كل اتجاه؟ فهذه البوسنة وكشمير وغيرهما تشتعل بما فيها، وهذه أوطان المسلمين يغترب فيها الإسلام ويلاحق ويطارد -من السلطات الحاكمة- إلا ما شاء الله. وها هو الشباب المسلم في أماكن كثيرة يعيش الضياع الفكري والعقائدي، ويقع فريسة لجهله، وهياجه وحماسه، تصارعه الضغوط من كل اتجاه ويجابه المشكلات من كل صوب، وفي هذا المناخ المضطرب تنمو أفكار التطرف ويصبح الصبر والتريث والتعقل بعيد المنال، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

والخلاصة: أن الإمام عصمة من الخلاف وقاطع لدابر الشقاق، فهو موئل الأمة وملاذها ومن أجل ذلك أمرنا بالصبر عليه مع ظلمه، وعدم شق عصا الطاعة له مع انحرافه، وعدم الخروج عليه بالسيف إلا إذا كفر كفراً بواحاً لا تأويل له، ولا تفسير له إلا الكفر البواح.. وأما في غير ذلك فقد أمرنا الرسول ﷺ بالصبر عليه، والإذعان لأمره، وذلك أن افتراق الأمة أعظم الشرين، والعاقل إذا خير بين مفسدتين اختار أيسرهما، فالصبر على إمام ظالم جائر منحرف بعض الانحراف، خير لا شك من افتراق الأمة وشق عصاها، لأن في هذا ذهاب ريحها، وتفرق كلمتها، ولا شك أنه يحصل بذلك من الشرور أضعاف أضعاف ما يحدث من الصبر على جور الإمام.

والمطالع لسيرة سلفنا الصالح رضوان الله عليهم يجد أنهم كانوا يعظمون الإمامة الكبرى جداً ويضعونها في المقام اللائق بها.

فمن الأدلة على ذلك أن شأن الإمامة كان أول أمر فكر به المسلمون بعد وفاة رسول الله ﷺ مباشرة.. ولذلك قدموه على دفنه ﷺ، لأن أي تسويف وتأخير في ذلك يترك الناس دون مرجع فيتصرف كل منهم بما يشاء، وما يحلو له، وما يؤديه إليه اجتهاده كما ذهب الأنصار واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة لاختيار الإمام منهم.. ولو تركهم المهاجرون لكان لهم ما أرادوا، ولما استطاع المهاجرون إلا الإذعان لاجتهادهم والنزول على رغبتهم لقوله ﷺ: «**إذا بويع خليفتان فاقتلوا الآخر منها**» [أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري]، ولقوله ﷺ: «**من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه بالسيف كائناً من كان**» [أخرجه مسلم عن عرفجة].

ولا شك أنه لو اختار الأنصار أميراً منهم وأذعن الجميع لذلك لكان في هذا ضرر عظيم لم تكن لتجتمع على أنصاري ولأنه تقديم للمفضول على الفاضل مما يحرم أمة الإسلام من خير عظيم، وفضل واسع، ومما يدلك على تعظيم السلف للإمامة الكبرى اجتماعهم على الصديق، وتقديمهم لأمره واجتهاده، وتعظيمهم لذلك حتى إن عمر الفاروق ليجادل الصديق في قتال المرتدين ويقول له: كيف تقاتل قوماً يشهدون أن لا إله إلا الله ويصلون؟ فيقول له: لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال.. وهنا يقول عمر الفاروق: (فوالله ما إن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال حتى علمت أنه الحق) [أخرجه البخاري عن أبي هريرة].

فانظر إذعان عمر ورجوعه إلى رأي الصديق واجتهاده، لأنه يعلم أن الله سبحانه قد طهر قلب الصديق، ويستحيل أن ينشرح صدره لباطل!!.

وهكذا كان موقف عمار رضي الله عنه في قضية التيمم، وموقف حذيفة بن اليمان مع عثمان رضي الله عنه في الإتمام في السفر.. وكذلك موقف السلف وخيار الصحابة عندما اجتمعت الكلمة لمعاوية بن أبي سفيان، وتنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما له حقناً لدماء المسلمين، وجمعاً لكلمتهم،

وكذلك موقفهم من عبد الملك بن مروان لما اجتمعت له الكلمة.. وكذلك لأبي جعفر المنصور لما حاز الشوكة واجتمعت له الكلمة.. ولا شك أن هذه المواقف كلها أسهمت في جمع كلمة الأمة ولم شعثها واتحاد كلمتها، وكان هذا ولا شك خيراً من المواقف الأخرى التي أدت إلى وقوع السيف في الأمة وشق عصاها، وحصول المآسي والمصائب العظيمة التي لم يجن المسلمون من ورائها إلا المصائب والعلقم وانشغال المسلمين بأنفسهم وتركهم الجهاد الحقيقي والغزو الحقيقي في سبيل الله، وهدر دماء المسلمين في الباطل.

وصدق رسول الله ﷺ الذي قال لمحمد بن مسلمة: «**خذ هذا السيف فقاتل به، فإذا رأيت السيف قد وقع بين المسلمين فاكسره على صخرة من جبل سلع**» [أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٥) عن سهل بن أبي الصلت عن الحسن مرسلاً وذكره الحافظ في الإصابة (٩/ ١٣٢) عن الحسن كذلك، والذهبي في السير (٢/ ٣٧٣)، أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٣)].. وقد فعل محمد بن مسلمة رضي الله عنه ما أوصاه به رسول الله ﷺ عندما وجد السيف قد وقع بين الأمة.

والخلاصة: لا شك أن الإمام العام أصل عظيم من أصول اجتماع الأمة بل هو الذي يجعل الأصول السابقة كلها في مقام التطبيق. فلا اجتماع على كتاب ولا سنة، ولا يكون إجماع واتفاق إلا بإمام يقيم الأمة على الكتاب ويجمعها على السنة، ويكون موئلاً لأهل الرأي والشورى ومفزعاً للجميع من الفرقة والخلاف.

سادساً: إخلاص الدين لله والقيام له وحده والبعد عن البغي والحسد والهوى:

ولا شك أن إخلاص الدين لله سبحانه وتعالى شرط أساسي لقبول أي عمل من الأعمال كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢ - ٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر: ١١]، وقال النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**» [أخرجه الشيخان من حديث عمر].

وهذه النصوص جميعها مبينة أنه لا يقبل عمل من أعمال الدين يراد به التقرب إلى الله سبحانه وتعالى إلا إذا كان خالصاً لوجهه الكريم، وابتغاء مرضاته.

وبالرغم من أن إخلاص العمل شرط في كل عمل إلا أن الإخلاص القيام له، والتجرد له وحده أشد طلباً، وأعظم إلحاحاً عند الإدلاء بالشهادة والتعامل مع الناس، واختلاف الآراء، فلا وصول إلى الحق مطلقاً إلا بالإخلاص لله والتجرد له، ولذلك أمر سبحانه وتعالى المؤمنين أمراً خاصاً بذلك عند الخصومات قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨] وهذا لأن العداوة قد تكون مدعاة إلى الظلم والتعدي،والشهادة بالباطل واستحلال الحرمات وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

وذلك لأن الرغبة في نصر القريب، قد تدفع إلى الشهادة بالباطل، وإلى المماطلة في الحق..

ولا شك أن التحاسد والتباغض والتنافس على الغرض الدنيوي وكذلك الرغبة في الظهور والشرف والرفعة كل ذلك من أعظم الأمور التي أفسدت على أتباع الرسل اتباعهم، وبذرت الشرور فيما بينهم، وجعلتهم يختلفون من أجل البغي والشقاق، والحسد لا لأنهم لم يعرفوا معرفته والوصول إليه.. قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

وهنا نجد أن الله سبحانه وتعالى يبين أن أتباع الرسالات اختلفوا في الدين والكتاب بسبب البغي بينهم لا لأن الكتاب لم يوضح الحق، أو لأنهم عجزوا

عن الوصول إليه، فما من رسول أرسله الله إلا وبين البيان الكامل، وأوضح الطريق، ووضح الحدود الفاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال.

ولكن أتباع الرسل ضلوا من بعدهم، واختلفوا في الحق بسبب التحاسد والتباغض والتدابر كما قال الله ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ لا بسبب ضعف الدليل، وضمور الحجة، وخفاء السبيل ولكن الله برحمته سبحانه يهدي من يشاء من أتباع كل رسول إلى الحق من بعده، كما قال تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣]. وفي هذا يقول النبي ﷺ: «**ما من رسول الله بعثه الله إلا كان له أصحاب وحواريون يهتدون بهديه، ويستنون بسنته ثم تحدث من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**» [أخرجه مسلم]. والحديث يبين أنه يقع الاختلاف بعد الرسل زيادة في الدين ونقصاً وتقولاً.. وأنه توجد طائفة على الحق تجاهد عليه.

كما قال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**» [أخرجه مسلم عن ثوبان].

ولا شك أن الضلال عن الدين متصل بأسباب كثيرة منها البغي والحسد كما جاء في الآية، ومنها الجهل والتقول والتحريف وكذلك منها التكاسل، والقعود عن نصرة الحق.

ولا شك أن أعظم أسباب الخلاف في الدين، وترك الاستقامة على الصراط المستقيم إنما هو بسبب الحرص على المال والشهرة كما قال ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأشد إفساداً.. من حرص المرء على المال والشرف لدينه**» [أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان عن كعب بن مالك وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٤٩٦)].. فحرص العلماء على المكانة الدنيوية، والرفعة الظاهرية، والأموال والدنيا الدنية هو الذي جعلهم يختلفون ويخالفون شريعة رب البرية ومن أجل ذلك قلنا هنا.. إن من الأصول الواجب اتباعها خروجاً من الخلاف بين المسلمين، وجمعاً لكلمتهم، وتوحيداً لصفوفهم

أن يقوم الجميع لله متجردين، وللدين خالصين مخلصين، لا يبتغون بجهادهم إلا وجه الله رب العالمين.

ولا شك أنه إذا اختفى الخلاف والشقاق، وظهر الوئام والاتفاق وارتفعت حظوظ النفوس، والتنافس والتحاسد حل مكان ذلك الوئام والتقارب والتوادد، ووجدت وحدة الأمة واجتماعها وهنا تظهر رحمة الله ورضوانه وهدايته.

وعلى كل حال هذا أصل عظيم يجب التفطن إليه وهو أننا نحتاج إلى منهاج تربوي، يخرج علماء مخلصين عاملين، لا منافقين عاملين باللسان فقط..

بل إن أعظم الأضرار على الدين أن ينشأ في الأمة علماء اللسان المنافقون كما قال ﷺ: «**أخوف ما أخاف على أمتي من كل منافق عليم اللسان**].

بل إن المنافق عليم اللسان قد يكون أشد ضرراً من الشيطان نفسه كما قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]. فانظر كيف أصبح العالم الفاسد أستاذاً للشيطان وكيف أصبح الشيطان تابعاً له، لا متبوعاً وذلك أنه قد يهتدي إلىَ أساليب في الشر والغواية لا يعرفها الشيطان نفسه.

ومن أجل ذلك كله قلنا إن من أصول وحدة الأمة، وجمع كلمتها، ولم شعثها أن تحرص على إيجاد الغلماء العاملين المؤمنين المتقين، الذين يراقبون الله في اجتهادهم وفتاواهم وأن ينزاح عن صدر الأمة كل منافق عليم اللسان. وبهذا يسهم العلماء المخلصون، والأئمة الحقيقيون المتجردون لله الذين يشهدون شهادة الحق دائماً، ويكون قيامهم لله خالصاً وهؤلاء هم الذين يسهمون في جمع كلمة الأمة ووحدتها، وتوحيد صراطها..

وأما إذا ترك الحبل على الغارب لعلماء اللسان المنافقين فإنهم سيزرعون الشقاق والنفاق ويبذرون بذور الفرقة والاختلاف، وذلك لتبقى لهم مراكزهم،

وليستمر لهم الشرف الزائف وأموال السحت التي يأكلونها بفتواهم الباطلة وعدولهم عن الصراط المستقيم.

والخلاصة: أنه من أجل توحيد صراط الأمة لا بد من السير وراء أئمة الحق والعدل وعلماء الدين الأتقياء الذين يعرفون من أخلاقهم ودينهم ومسلكهم أنهم من أهل التجرد لله والإخلاص له وهؤلاء هم أمل الأمة في جمع صفوفها وتوحيد كلمتها.

سابعاً: وضع ضوابط الأخوة والموالاة موضع التنفيذ:

ومن الأمور العظيمة التي أفسدت على المسلمين أخوتهم ووحدتهم ومزقت شملهم، وفرقت جمعهم أنهم لم يلتزموا بآداب الأخوة الإسلامية، ولم يتقيدوا بأحكامها. علماً بأن الله سبحانه وتعالى قد بين أصول هذه الآداب في كتابه الكريم، وجاءت السنة الشريفة مبينة موضحة لكل تفاصيلها. ولا يوجد عند أمة من الأمم ولا شعب من الشعوب ما عند أهل الإسلام من تراث في هذا الصدد، بل الإسلام في مجمله رسالة أخلاقية ما جاءت إلا لإقامة المجتمع الصالح الذي يتحاب أفراده، ويتعاونون وتختفي بينهم الأثرة والطمع وكل مظاهر الفرقة والشقاق ويكونون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر أن الله تبارك وتعالى قد جعل مودة المسلم للمسلم ومحبته له، ديناً يتقرب به إليه، ويعبد الله به. فالتحابب في الله بين المسلم والمسلم قربة إليه سبحانه وتعالى وكل ما يؤدي إلى ذلك من إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والزيارة، والإكرام والرحمة والتوقير، وستر المسلم، ومعونته، والأخذ بيده، والسعي في حاجته، وعيادته مريضاً، ومواساته في أحزانه، والتخفيف من آلامه، والفرح لفرحه، والنصح له..

كل ذلك من أفضل ما يتقرب به العباد إلى ربهم سبحانه وتعالى، ومعلوم أن حاصل ذلك وغايته هو وجود الأمة المتراحمة المتآلفة المتحابة..

وكذلك أيضاً جعل الله سبحانه وتعالى معاداة المسلم وقطيعته، وظلمه والعدوان عليه، عدواناً على الله سبحانه وتعالى، وبعداً عن الهداية والدين..

والحق أن من يدقق النظر في هذا الصدد يجد أن الله سبحانه وتعالى جعل الدين مودة وأخوة ومحبة بين المسلم وأخيه المسلم، بل إن الله سبحانه وتعالى من رحمته وإحسانه لينزل نفسه في الخطاب منزلة العبد كما جاء في الحديث القدسي: «**إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني. قال: يا رب كيف أعودك؟ وأنت رب العالمين. قال: أما علمت أن عبدي فلان مرض فلم تعده. أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده يا ابن آدم! استطعمتك فلم تطعمني..**» [أخرجه مسلم عن أبي حربدة]. أليس هذا من أعجب الأمور أن يجعل الرب سبحانه وتعالى ذاته العلية مكان المسلم المحتاج والسائل والفقير، والمريض المتطلع إلى زيارة إخوانه.. ثم يتكفل سبحانه وتعالى بنفسه بالجزاء والعطاء لمن فعل ذلك.

إن هذا أمر عظيم جداً ينبؤك أين وضع الله سبحانه وتعالى مودة المؤمن للمؤمن، ومحبته له، ومساعدته له، والعكس تماماً حيث جعل الله العدوان على المسلم عدواناً على أوليائه وجواره، وذمته. فقال سبحانه: (؟) «**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالمحاربة..**» الحديث (أخرجه البخاري].

وقال ﷺ: «**من صلى الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء**»، وقال ﷺ: «**لعن المؤمن كقتله**» [**أخرجه البخاري ومسلم عن ثابت بن الضحاك**»، وقال: «**أيما امرىء قال لأخيه: كافر فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال، وإلا رجعت إليه**» [أخرجه مسلم عن ابن عمر].

والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً وكلها شاهدة أن العدوان على المسلم صغيراً أو كبيراً عدوان على الدين وموجب للعقوبة، وحصول سخط الله وغضبه.

والخلاصة أن الأخوة دين.. بل لا دين إلا بأخوة.. كما قال ﷺ: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا.. أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم.. أفشوا السلام بينكم**» [رواه مسلم عن أبي هريرة].

وجعل الرسول ﷺ قتال المسلم للمسلم كفراً فقال ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**» [أخرجه البخاري ومسلم عن جرير]

وللأسف الشديد فإن هذا الأصل العظيم الذي هو بهذه المثابة في تثبيت أركان الأخوة في الله لم يلق من أتباعه والمنتسبين إليه إلا إهمال هذا الأصل العظيم - إلا من رحم الله - ولقد نشأ بيننا التدين المغلوط الذي يعتقد أصحابه أن الالتزام بالدين إنما يكون فقط بأداء حقوق الله من الصلاة والصوم والحج والزكاة..

مهملين مع ذلك إهمالاً قد يكون تاماً حقوق العباد، بل قد يكون الرجل الذي يدعي الدين من أهل الظلم والبغي والفساد فتراهم آكلين لأموال غيرهم بالباطل، منتهكين حرمة المسلم لا يعبأون بظلمه أو غيبته أو عهده، أو أخذ حقه، ولا يجدون من القربة إلى الله مساعدة المسلم ومعاونته وستره، بل قد يرون هذا مسقطاً لمروءتهم قادحاً في شرفهم، منزلاً من مكانتهم.. فيخشى أحدهم أن يرى مع فقير أو يأخذ بيد محتاج، أو أن يقف مع مظلوم.. وقد يرى الدين والمكانة والشرف احتقار الناس وازدراءهم والتعالي عليهم وللأسف أن يكون بعض هؤلاء ممن ينسبون إلى العلم، ويأخذ الناس عنهم الدين..

إن هذا التدين المغلوط، والدين المبتور الذي يفرق بين الحقوق التي لله وحقوق العباد قد أصبح آفة الكثيرين من أهل الإسلام في الوقت الحاضر، لأجل ذلك فسدت معاملاتهم ومرجت عهودهم، وانتقض اجتماعهم وائتلافهم وأصبحوا أمثولة بين الناس، في فساد الذمم والتقاطع، والتدابر، والتشاجر، وفشو الكذب والخيانة، واللصوصية، والتعدي على الغير.. مما لا يوجد مثله -للأسف- ولا قريباً منه في أمم الكفر والضلال الذين ينشأ بينهم نوع من التعامل المستقيم في حياتهم الدنيا، حيث يعظمون الكذب والخيانة ويمجدون الصدق والأمانة ومن أجل ذلك كانت معاملاتهم الدنيوية، ومجتمعاتهم أحسن حالاً في بعض جوانبها من بعض مجتمعاتنا الإسلامية التي أهملت إهمالاً عظيماً ما شرعه الله سبحانه وتعالى من أصول المودة والأخوة والموالاة، وقواعد التعامل القائم على الطهارة الأخلاقية والاستقامة، والصدق والأمانة والعفاف وأعجب مرة ثانية وثالثة.. من أمة جعل الله معاملات بعضها مع بعض دينا وقربة، وجعل الكلمة الطيبة يلقيها المسلم للمسلم حسنة وأجراً، ثم يكون حالها على هذا النحو.

ألم يقل رسول الله: «**الكلمة الطيبة صدقة**» [أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة]، ألم يقل: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**» [أخرجه مسلم عن أبي ذر].

ألم يقل: «**يا معشر النساء لا تحقرن جارة أن تهدي جارتها لو فرسن شاة**» [أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة]!! والفرسن، هو ظلف الشاة.. ألم يقل ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له**» [أخرجه أحمد وابن حبان عن أنس وصححه الألباني في ص.ج.ص (٧٠٥٦)]. أدين تكون هذه هي تعاليمه، وأخلاقه ثم يكون هذا الذي نراه هو ناتجه وثماره؟ أليس هذا أعظم دليل على أن أمتنا اليوم -إلا القليل القليل- إما أنها تفهم الدين ولا تطبقه أو أنها قد جهلته ولم تعرف حدوده؟.

والخلاصة: في هذا الصدد أنه من أجل وحدة الأمة ورأب صدعها، وجمع كلمتها فلابد كذلك من وضع قواعد الأخوة، ونظام التعامل في الإسلام موضع التنفيذ، ولا بد من النظر إلى الأخلاق في الإسلام، على أنها دين بل لا دين بغير أخلاق، بل الدين هو صالح الأخلاق كما قال ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**» [أخرجه البخاري في الأدب المفرد وابن سعد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيحه (٤٥)].

ولا شك أن الأخلاق قضية واحدة لا تتجزأ كما قال ﷺ: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**» [أخرجه أحمد وأبو داود وابن حبان عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيحه (٤١٦)]. فمن كان الجحود عادته وديدنه مع الناس فلا شك أنه كذلك مع الله أيضاً، ومن كان كاذباً مع الناس فلا يمكن أن يكون صادقاً مع الله، ومن كان خائناً لعباد الله فكيف يكون أميناً ومؤمناً بالله؟..

وكذلك فإن الذي يحب الله يحب عباد الله، والذي يرجو رحمة الله لا يمكن أن يكون ظلوماً لعباده وأحبابه.. ومن كان حريصاً على دين الله لا يمكن أن يكون مبغضاً لأنصار هذا الدين ومن يعلون مناره وينشرون أحكامه..

ومن أجل ذلك قال ﷺ: «**آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**» [أخرجه البخاري ومسلم عن أنس]، فالمؤمن بالله المحب لدينه يجد

لزاماً في قلبه أن يحب من نصر الدين.

وأما الكافر الذي يكره الدين، ويبغض رب العالمين فإنه كذلك يبغض كل من أعلى منار الدين وساهم في رفع شأنه ومع هذا تعلم السبب الذي حمل الرافضة على بغض أصحاب رسول الله وكل مخلص لهذا الدين، إنه كراهية الدين نفسه وبغضهم لله جل وعلا وإلا فمن أحب الله أحب أولياءه، ومن أحب رسول الله ﷺ أحب أحبابه وأصحابه، أما من ادعى محبة الرسول وهو يبغض أولياء الرسول وأحباب الرسول فهو كاذب ولا شك في ذلك.

والحاصل أننا الآن أمة متفرقة ومن أسباب تفرقنا إهمال الجانب الأخلاقي العملي؛ فهو إما عامل ثانوي عند بعضنا، وإما مهمل إهمالاً كاملاً عند آخرين.

والحق أنه هو الدين، بل لا دين إلا بأخلاق واجتماع على أخوة في الله ومحبة في سبيله.

ثامناً: ترشيد جهاد الجماعات الإسلامية:

نشأت بسبب سقوط الخلافة، وتمزق أوطان المسلمين، وقيام الحكومات الإقليمية، وانصراف كثير من هؤلاء الحكام إلى المصالح الدنيوية فقط دون الاهتمام بشؤون الدين.. نشأت بسبب ذلك كله فكرة الجهاد الجماعي وذلك من أجل سد هذه الثغور التي فتحت على الأمة الإسلامية ومن هذه الثغور تعليم أبناء المسلمين الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر الفضيلة والأخلاق والعناية ببناء المساجد، وإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة وكل هذه أمور أهملتها الحكومات المختلفة..

بل وصل الحد إلى إهمال الدفاع عن حرمات المسلمين وأوطانهم بل فتحت البلاد لأعداء الله ليعيثوا في الأرض الفساد، ومن أجل ذلك هب المسلمون إلى التصدي بأنفسهم لذلك لما تنكرت الحكومات لهذه المهام وضيعتها بل عملت أحياناً على هدم الدين ونشر الرذيلة وإضعاف الأمة، وتمزيق صفوفها، وتمكين عدوها منها..

ولما كانت هذه الفرائض لا يغني عنها جهاد الأفراد ولا يجدي فيها بذل الواحد والاثنين، وعمل الناس متفرقين.. فإنه نشأ بسبب ذلك الدعوة إلى

الجهاد الجماعي فأنشأت الجمعيات والجماعات الإسلامية سرية وعلنية، رسمية وغير رسمية من أجل القيام بهذه المهمات، والتصدي لهذه المشكلات التي أضاعتها الحكومات..

ولا يشك منصف أنه كان لهذه الجمعيات والجماعات وما زال فضل عظيم في نشر الإسلام ونهضة المسلمين، والذود عن حياض الدين، ولا شك أن التدين الصحيح الذي نراه اليوم هنا وهناك ما هو إلا ثمرة لجهاد هذه الجماعات والجمعيات، وأثر من آثار هذا الجهد المنظم الذي لولاه.. لكانت حالنا اليوم غير ما نحن فيه من بعض حياة، وبقية حشاشة.

ولا يشك منصف كذلك أنه كان لهذه الجماعات والجمعيات بعض الآثار السلبية ويهمنا من هذه الآثار في هذا الصدد: إيجاد نوع من الفرقة والخصام. والتنافس المذموم والتعصب للجماعة الذي أسهم إسهاماً ما في فرقة الأمة الإسلامية.

وللأسف إن بعض من يرى هذه السلبيات، ويعمى عن الحق الذي من أجله قامت هذه الجماعات قد أفتى بأن التجمع لأمر الدعوة، والاجتماع تحت مسمى من هذه المسميات غير مشروع ظناً في زعمه أن الرسول ﷺ لم يفعل هذا وأن هذا يؤدي إلى الفرقة والخصام.. فأما كون هذا العمل غير مشروع فقد رددنا عليه برسالة مستقلة أسميتها (مشروعية الجهاد الجماعي]. وأما أنها تسبب الفرقة والخصام فإن هذا ليس سبباً لمنع المباح فكيف بالواجب الحتمي اللازم.. أعني ليس كل ما يسبب الفرقة والخصام يجب أن يحرم ويمنع.. ولو منعنا كل ما يسبب فرقة أو خصومة لحرمنا الناس من السعي لطلب الكسب والمشاركات، والتجارات وكل أنواع الاجتماع، ولحرمنا كذلك كل أنواع التميز فلا أنصار ولا مهاجرين، ولا قبائل ولا شعوب لأن كل تميز يؤدي في الغالب إلى الاختلاف ألا ترى أن (الأنصار) اسم يميز أناساً عن غيرهم من المسلمين (والمهاجرين) كذلك اسم مميز لطائفة من أهل الإسلام ألا ترى أنهم تقاتلوا أحياناً وتعصب بعضهم لهذه التسميات.. وقال لهم الرسول: «**دعوها فإنها منتنة**» [أخرجه البخاري عن جابر]!! فلماذا إذن لم تلغ هذه التسميات، ولم

يكتف فقط بمسمى الإسلام الذي يجمع الجميع ولا يميز بين فريق دون فريق؟ . .

ألا ترى أن أتباع كل إمام من أئمة الفقه انتصروا لإمامهم، ونصروا فقهه ورأيه. . وأنه وقع بينهم مشاحنات ومخاصمات بل حروب ودماء. . أيكون هذا سبباً لإلغاء المذاهب الفقهية، وإمامة الدين، وعدم جواز النسبة لإمام من أئمة الفقه والعلم والدين؟ لا شك أنه لا يجوز إلغاء التجمع على إمام، والتفقه على فقيه بذاته، وتدوين علمه وأقواله والانتساب إليه، وإنما الذي لا يجوز هو التعصب له، ورد الحق من أجله، وجعل قوله هو المرجع النهائي في الدين دون قول الله وقول رسول الله ﷺ وإجماع المسلمين.

والخلاصة أن النسبة والتميز جائزان في حد ذاتهما ما دام أنه يراد بهما التعاون على البر والتقوى والتجمع على ما أباحه الله أو فرضه أو حث عليه. . بل إن التجمع يكون واجباً إذا كان لأمر لا يتم إلا بالتجمع عليه، من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وذلك كدفع عدو غزا أرض المسلمين لا يتم دفعه إلا باجتماع وجماعة وأمير ونظام. . فيكون التجمع والجماعة والأمير والنظام هنا واجباً فرضاً لأنه لا يتم الواجب إلا بذلك.

وكذلك الحال في فروض الكفايات التي ضيعها كثير من حكام المسلمين كنشر الإسلام، وتعليم المسلمين، وإقامة المساجد، والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذب عن دين الإسلام.

لا شك أن كل ذلك لا يأتي إلا بجماعة ونظام وما دام أنه لا يتم إلا بذلك فيكون النظام والجماعة واجبين من أجل ذلك.

وأعود فأقول إن المنهي عنه شرعاً هو التعصب للجماعة والانتصار لرأيها حقاً وباطلاً. ومن أجل ذلك قلنا هنا إنه يجب ترشيد عمل الجماعات الإسلامية حتى تتمحص الإيجابيات وتختفي السلبيات ويكون هذا الترشيد كما يلي:

١- الاعتقاد بأن نصر الدين، وإعادة المسلمين إلى سلم المجد وإقامتهم على الحق وإعلاء كلمة الله في الأرض كل ذلك لا يكون إلا بتضافر جهود

العاملين جميعاً في حقل الدعوة، وتعاونهم وتآزرهم وتآخيهم، وهذا التعاون لا يمنع التنافس الشريف، والتسابق في الخير والهدى والبذل والتضحية، كما كان شأن الأوس والخزرج، وبين الصحابة أنفسهم، كل يسابق الآخر، ويريد أن يسبقه، وكل يقدم ما يستطيع من أجل نصر الدين، وإعلاء كلمة رب العالمين.

٢- إفساح المجال للنقد البناء، وكشف الأخطاء، والاستفادة من تجارب الماضي ومن سقطات الدعاة من أجل أخذ العبرة والذكرى وعدم تكرر هذه الأخطاء، وحتى لا تصبح أخطاء الدعاة، وسقطات الجماعات جزءاً من المنهج، ويظنها الناس عملاً صالحاً وأمراً متحرراً فتتحول البدع والأخطاء إلى معالم على طريق الدعوة، وكمالات عند الدعاة.

٣- انتهاج طريق الإصلاح لما أفسده المفسدون والإبقاء على الصالح من بناء الأمة، وترميم ما هو آيل إلى السقوط، وبذلك ندعم البناء، ونجدده شيئاً فشيئاً.. ولا يمر زمن يسير حتى يكون البناء الإسلامي قد استكمل استواؤه وتجددت عمارته.. وأما طريق الهدم للأمة، ومحاولة البناء من جديد فهي طريقة تخريبية، ستؤدي، وقد أدت فعلاً إلى هدم ما هو قائم الآن من بناء الأمة وجعلها كلها في العراء، وكشفها لأعدائها وخصومها، بل معاونة هؤلاء الأعداء في الإجهاز على البقية الباقية من حشاشة الأمة.

هذه هي باختصار شديد.. الخطوات الأساسية لحركة ترشيد البعث الإسلامي، وقد كتبت بحمد الله في هذا كتابات مطولة في فصول من السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله، والطريق إلى ترشيد حركة البعث الإسلامي، والأمر يحتاج إلى كتابات كثيرة في مناهج الترشيد، والله الموفق إلى مزيد من السداد والرشاد وهو المعين على استكمال المنهج وإيضاح الطريق لشباب الإسلام، وهو المسؤول أن ينصر الإسلام والمسلمين، وأن يأخذ بأيدينا إلى الحق والصواب،،،

والحمد لله رب العالمين.

* * *

كتاب

العقبات التي

تعترض بناء الأمة الإسلامية



مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وبعد،،فإن الرسالة الإسلامية تهدف فيما تهدف إلى بناء الإنسان الصالح والأمة الصالحة كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: ٢-٤] ومعلوم أن الأميين هم العرب أهل هذه الجزيرة الذين بعث فيهم محمد ﷺ وكانوا أمة أمية، ولم يكن يحسن القراءة والكتابة منهم إلا عدد قليل عند نزول الوحي.

وأما الآخرون الذين شاء الله أن يلتحقوا بالأمة المسلمة فهم كل مسلم اهتدى إلى دين الإسلام إلى قيام الساعة كما يشير بذلك النبي ﷺ حيث يقول: **«لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»** [متفق عليه].

وهذه الأمة الإسلامية منذ الداعي الأول رسول الله ﷺ إلى آخر فرد فيها وصفهم الله بأنهم خير أمة ظهرت في الأرض حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ومعلوم أن (كان) تفيد الاستمرار كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨]، وخيرية هذه الأمة مردها إلى إيمانها بالله وحملها لشريعته، ودعوتها إليه قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ

أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، ثم لوراثة هذه الأمة كتاب الله. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر: ٣٢-٣٣] فهم الذين اصطفاهم الله أي اختارهم لوراثة كتابه الكريم.

وقد جعل الله هذه الأمة ثلاث طبقات في الصلاح والتقوى: فمنهم ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

ومنهم ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو الذي لازم الطاعة الواجبة وابتعد عن المعصية، ولم يكن له باع في الفضائل.

ومنهم ﴿سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهو الذي انتهى عن المحرمات وجاوز ذلك إلى الانتهاء أيضاً عن المكروهات والشبهات. وفعل الواجبات وأضاف إلى ذلك المندوبات وسارع في الخيرات.

وهؤلاء جميعاً (الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات) قد وعدهم الله الجنة على اختلاف مستوياتهم وطبقاتهم في الخير والفضل، والحمدلله على نعمائه.

مفهوم الإنسان الصالح والأمة الصالحة

لا شك أن الإنسان الصالح الذي تهدف الرسالة الإسلامية إلى بنائه ليس هو الإنسان الغني المترف، الذي يتمتع بطيبات الحياة، ويحيا في العيش الرغيد، ويتفنن في العلوم الدنيوية.. ثم هو بعد ذلك جاهل بربه، جاهل بالغاية التي خلق من أجلها على هذه الأرض، فمثل هذا الإنسان عند الله أحط قدراً من الأنعام.. كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾.

ونفي الله لسمع هؤلاء وبصرهم وعقولهم ليس على إطلاقه، بل هم أهل بصر وسمع وعلم، ولكن ذلك كله محصور في أمر الدنيا.. كما قال تعالى عنهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٦-٧] وقال عن عاد وثمود ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت:٣٨] أي ذوي بصيرة وخبرة بالحياة الدنيا فهم أهل بصر بالزراعات والصناعات والبناء وشؤون الحياة والمعاش كما قال صالح لقومه (ثمود): ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾ [الشعراء:١٤٦-١٥٠].

فالذين عاشوا خلال جنات وعيون وزروع ونخيل طلعها هضيم ونحتوا الجبال بيوتاً ﴿جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾، لا شك أنهم كانوا على علم بالحياة وبصر

فيها. فإن كل ذلك لا يتأتى إلا بعلوم دنيوية فائقة متقدمة.

وكذلك أيضاً قال هود لقومه (عاد): ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٥].

فالذين بنوا بكل سفح من سفوح جبالهم بناء فخماً كان آية في الجمال والدقة، واتخذوا المصانع كأنهم مخلدون أبداً أو ليخلدوا أبداً، وبطشوا بأعدائهم بغير رحمة، وحازوا الأموال والأولاد، وعاشوا في الجنات والبساتين، لا شك أن هؤلاء كانوا يتمتعون بالبصيرة الدنيوية والعلم المادي الذي أهلهم لذلك، ولكن كل ذلك لم يخرجهم عند الله من دائرة الإجرام، ولم يرفعهم من مرتبة الحيوانات.. كما قال تعالى عنهم ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

بل إن الله سبحانه وتعالى مدح نفسه على إهلاكهم وإزالتهم من وجه الأرض حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٢- ٤٥].

وإهلاك الله للقرى الظالمة والدول الجائرة الكافرة قد يكون بالدمار الشامل وترك ديارهم خراباً وأرضهم يباباً ﴿خراباً لا شيء فيها﴾، كما قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج: ٤٥] أي بئر معطلة عن السقي مع امتلائها بالماء وقصر مشيد لا يسكنه أحد!!

وقد يكون الهلاك بتسليط غيرهم عليهم من أهل الإيمان تارة، أو من أمثالهم من أهل الكفر أخرى، كما سلط الله هذه الأمة الإسلامية على الأمم

التي كفرت به من أهل الكتاب الذين بدلوا شرائع الله وانحرفوا عن هديه سبحانه. . قال تعالى بعد أن أورث المسلمين أرض اليهود في المدينة يهود بني قريظة ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٧] وقال عن أمثالهم يهود بني النضير: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

وبشر الله نبيه قبل موته أن أمته سترث الأمم وتملك العالم شرقه وغربه. كما قال ﷺ: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها**» [رواه مسلم].

وقرأ سعد بن أبي وقاص عندما دخل إيوان كسرى بعد فتح فارس قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨] فبكى وبكى الناس وراءه.

وقد يهلك الله الظالمين بالظالمين، ويؤدب المؤمنين بالكافرين. . كل ذلك وفق حكمته التامة، وعلمه المحيط.

المهم هنا أن نعلم أن الأمة الصالحة، والمجتمع الصالح في ميزان الله، ليسا هما الأمة والدولة التي تعيش في بيوت جميلة وشوارع واسعة، وحدائق غناء، وملاعب حديثة. . وبل قد يكون هذا كله موجوداً وتكون هذه الأمة ملعونة في ميزان الله موصوفة بالظلم والطغيان، والكفر والعصيان.

وكذلك الحال أيضاً في الأفراد، فليس الفرد الصالح أو الإنسان الصالح هو الغني المترف المنعم، العليم بشؤون دنياه، الظريف المنمق، الجميل المتأنق، بل قد يكون الإنسان موصوفاً بهذه الصفات جميعها، وهو لا يزن عند الله جناح بعوضة، كما قال ﷺ: «**يأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**» [متفق عليه].

وقال تعالى عن قارون الذي افتخر بماله وزينته وثروته وسلطانه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨]. وقال ﷺ: «**وأهل النار كل**

جعظري جواظ مستكبر» [رواه أحمد وأبو داود]. . والجعظري: هو الغليظ الشديد المنيع في قومه وسربه.

وهنا نأتي إلى السؤال: إذاً ما صفات المجتمع الصالح والأمة الصالحة في ميزان الله وما صفات الفرد الصالح أو الإنسان الصالح الذي يحبه الله ويتولاه؟؟

والجواب:

أن الأمة الإسلامية الصالحة هي الأمة التي يكون تجمعها والتئامها وترابطها على أساس الإيمان بالله ورسالاته والعمل وفق محبته ورضوانه فتكون بذلك علاقة أفرادها قائمة على أساس الأخوة في الله، وما تقتضيه هذه الأخوة من التراحم والتعاطف والتعاون والنصرة والموالاة، ويكون تعاملها مع غيرها من أمم الأرض قائما على أساس من هذه العقيدة أيضاً. فهي داعية للناس جميعاً أن يكونوا أخوة في رحاب الإسلام. وهي تعادي في سبيل عقيدتها وتحارب في سبيلها، وتسالم وتصالح وتعاهد وتهادن وفق هذه العقيدة أيضاً، ومصالحها الدنيوية لإيمانها ودينها.

والفرد الصالح لبنة في هذا المجتمع وعضو في هذه الأمة. يؤمن بالله ويسخر حياته كلها من أجل دينه. . كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣] وهو مع جعله حياته لله ومماته لله يحب الخير للناس جميعاً ويحمل الهداية للناس كافة، ولا يدخر وسعاً في إسعاد الآخرين من قضاء حقوق العباد التي ألزمه الله بها، فهو بار بوالديه. . واصل لأرحامه. . نافع لجيرانه. . متعاون مع إخوانه. . كاف شره عن الناس، قد سلم الناس من لسانه ويده، وائتمنوه على حرماتهم وأموالهم، وهو مع ذلك يغضب لله ويرضى له، ويعادي في الله ويحب فيه، يعادي في الله أعداء الله ولو كانوا أقرب الناس إليه، ويحب في الله أحباب الله ولو كانوا أبعد الناس عنه، ويقاتل في سبيل الله من كفر واعتدى ولو كانوا من الآباء والأبناء والأخوة والعشيرة، هذا في جانب الخلق.

أما أخلاقه مع الخالق فهي أكمل الأخلاق فهو شاهد لله بما شهد سبحانه

لنفسه من أنه الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك القدوس، السلام المؤمن المهيمن، العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ، المصور الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى القائم على كل نفس بما كسبت، مؤمن برسالات الله.

ومثل هذا الإنسان الصالح محبوب عند الله ولو كان في أسمال بالية، وبيت متواضع، وبطن جائع. وذلك المجتمع والأمة التي تضم أمثال هذا هي خير الأمم ولو عاشت في صحارى قاحلة، وشوارع ضيقة، وبيوت رثة بالية!!

وها نحن نقرأ في القرآن عن بني إسرائيل أن الله اختارهم لحمل رسالة، وفضلهم على العالمين في زمانهم، وكانوا شعباً مشرداً مطروداً يسامون الخسف ويصبحون ويمسون في الذل والإهانة، يعيشون مع الفراعنة يستحيون نساءهم، ويقتلون أبناءهم ويسومونهم سوء العذاب فيسخرونهم في البناء وفلاحة الأرض، وتنظيف الطرقات، وخدمة البيوت، ومع ذلك نقرأ في القرآن ثناء الله عليهم واجتباءه لهم وتفضيلهم على العالمين في زمانهم، لما قاموا برسالة الله وعبدوه. قال تعالى: ﴿يَبَنِيَ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٧]، وهذا في موضعين من القرآن، وفي موضع ثالث قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢] أي على علم بأنهم أصلح الناس في زمانهم ومن الله عليهم بأن نصرهم على عدوهم، وأنجاهم من بطشه وأورثهم مشارق الأرض ومغاربها. كما قال تعالى عنهم: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ولكنهم بعد أن تجاوزوا حدود الله، وعصوا رسله، وشرعوا يقتلون أنبياءهم ويديرون ظهورهم لشريعة ربهم ويدعون في الدين ما لم ينزل عليهم زاعمين أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الجنة خالصة لهم من دون الناس، وأنهم شعبه المختار، وتطاولوا على الله بالجحود والنكران، واصفين إياه سبحانه بأبشع الصفات كقولهم (استراح في اليوم السابع) (يد الله مغلولة) (إن الله فقير ونحن

أغنياء)، ومجاوزين حدود شريعته، مستحلين للحرام ظالمين أنفسهم.

لذلك كله وغيره من المعاصي والذنوب لعنهم الله وطردهم من رحمته وسلط عليهم وإلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، بل وشتت شملهم في الأرض وقوض دولتهم وأنهى من الأرض فضلهم وسبقهم، وجعل اللعنة ملازمة لذكرهم حيث ذكروا كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة: ٧٨-٨٠].

وقال عنهم أيضاً: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٢-٦٤].

وقال عنهم أيضاً: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦٦-١٦٨].

وإذا تركنا بني إسرائيل، وبعد أن صاروا ملعونين مطرودين من رحمة الله، وجدنا أن الله قد أقام بعدهم أمة عظيمة مدحها في القرآن وأثنى على نبيها حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٥٢].

ونجد أن هؤلاء الأنصار الذين جعلهم الله مثلاً لهذه الأمة في الفداء والتضحية لم يكونوا إلا مجموعة قليلة من صيادي الأسماك يتبعون رسولهم من بلدة إلى بلدة، ومن قرية إلى قرية في قرى فلسطين فراراً من طغيان الرومان ووشايات اليهود الذين جعلوا جهدهم وجهادهم القضاء على دعوة عيسى عليه السلام.

أقول: نجد أن الله يطلب من أتباع محمد نصره والقيام معه كما نصر أتباع عيسى نبيهم ﷺ، حيث يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

ونفهم من هذا الثناء أن هذه الأمة المهتدية كما أسلفنا كان روادها قليلي العدد، تركهم عيسى ورفعهم الله وهم اثنا عشر رجلاً فقط، فقاموا من بعده بنشر الدين، وإعلاء كلمة التوحيد، فنصرهم الله وأعزهم ودمر اليهود على أيديهم، ثم أن الروم المكذبين بالأمس دخلوا بعد ذلك في النصرانية، إلا أنهم بعد مدة وجيزة أفسدوا هذه الرسالة عقيدة وشريعة فأدخلوا عبادة الأصنام، واستحلوا أكل كل حرام، وتغالوا في رسولهم حتى جعلوه الله، أو ابناً لله، جعلوا تلاميذ عيسى رسلاً، ورهبانهم أرباباً ووسائط بينهم وبين الله.

وبالرغم من أنهم بنوا الكنائس العظيمة والأديرة الأنيقة الجميلة، وجعلوا للدين أعظم الإتاوات والمخصصات، وأنزلوا رهبانهم وعلماء دينهم منازل القادة والعظماء، وأججوا الحروب التي سموها مقدسة، ففتحوا العالم شرقاً وغرباً حتى أصبحت روما كعبة العالم، وأم القرى في زمانها، حتى قال الناس (كل الطرق تؤدي إلى روما).. ونشروا النصرانية الضالة في أوروبا وشمال أفريقيا وغرب آسيا حتى أصبح البحر الأبيض بحيرة رومية نصرانية.

أقول: وبالرغم من كل ذلك إلا أن الله سبحانه وتعالى استغنى عن خدماتهم، ولم يأبه لجهادهم وجهودهم، بل حكم عليهم بالضلال والكفر لغلوهم في عيسى واستحلالهم المحرمات، واستعبادهم الشعوب الضعيفة، وجعلهم الدين كهانة وميراثاً، ولذلك لم تكن أمة النصارى بعد صدرها الأول

أمة صالحة، ولا كان رجالها رجالاً صالحين بمفهوم الصلاح الذي يحبه الله ويرضاه، وفي ذلك يقول ﷺ: «**إن الله نظر قبل مبعثي إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**» [رواه مسلم وأحمد].

وهؤلاء البقايا الذين عناهم النبي ﷺ كانوا رهباناً في الفلوات لا يأبه أحدهم لوجودهم ولا يهتم أحد برأيهم.. في وقت كانت نصرانية الشرك في أوجها وعظمتها.

واستخلف الله من بعد ذلك رسولاً من العرب، وقد كانوا ذاك الوقت أفقر العالمين داراً، وأقل الناس أمناً وقراراً.. فقد كانوا إما تجاراً يجوبون الأرض بين الشام واليمن، أو بدوا رحلاً يجوبون الجزيرة وراء العشب والمطر، وبدأت الأمة الجديدة الصالحة التي اختارها الله لرسالتها الخاتمة تخرج من بين صخور هذه الصحراء، وتُبنى في سهولها ووديانها، ويتبع دين الله حر وعبد وامرأة وصبي، يلوذون بالحبشة تارة، لأن فيها ملكاً لا يستباح جواره، وبأهلها من الكفر تارة، ثم يتوجهون إلى المدينة فيبنون عريشاً لا يقيهم المطر، وينامون ويقومون في السلاح من الخوف وقد تربص الأعداء بهم من كل صوب.

يقول أبو سعيد الخدري صاحب رسول الله ﷺ: «**استهلت السماء في ليلة إحدى وعشرين يعني من شهر رمضان فوكف المسجد في مصلى النبي ﷺ، فبصرت عيني نظرت إليه ﷺ انصرف من الصبح ووجه ممتلىء طيناً وماء**» [متفق عليه].

ويقول أبو هريرة: «**ولقد رأيتنا في صفة مسجد رسول الله نحواً من سبعين، ما منا من له إزار ورداء جميعاً**» [رواه أبو داود والنسائي وغيرهم].

وقال جابر بن عبد الله الأنصاري: «**ومن منا كان يجد ثوبين على عهد رسول الله ﷺ؟**» [رواه البخاري]. أي أن عامتهم لم يكن لأحدهم إلا ثوب واحد إما إزار فقط، وإما رداء فقط.

وتقول عائشة رضي الله عنها وعن الصحابة أجمعين: «**ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض**» [متفق عليه].. والبر هو القمح.

وقالت أيضاً رضي الله عنها: «**ما شبع آل محمد يومين من خبز بر إلا وأحدهما تمر**» [متفق عليه].

وقالت أيضاً: «**إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال.. ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار**» [متفق عليه].

ومع تلك الحال التي كان عليها رسول الله وأصحابه فإننا نقرأ ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم، ومحبته لهم، ونعلم يقيناً أن ذلك كان المجتمع الصالح، بل المجتمع المثالي، الذي لم يوجد في الأرض خير منه لا قبله ولا بعده، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وقوله ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» [رواه البخاري].

ويمن الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة الصالحة فيفتح لها أبواب العالم ومغاليق القلوب، وكنوز الأرض.. فتجبى إليها الثمرات من كل أرض، ويخافها أهل الأرض جميعاً الأحمر والأبيض والأسود، ويأمن الناس في رحابها حتى تخرج المرأة من بصرى الشام إلى صنعاء اليمن وحدها لا تخاف إلا الله، ويفيض المال في يدها فلا يقبله أحد!!

وتقوم هذه الأمة بدعوة الله في الأرض فيحقق الله فيها وعده ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

ولكن الأمة يتقادم بها العهد فتنسى كثيراً مما ذكرت به وتتفرق بأبنائها السبل، وتتبع سنن من كان قبلهم في الطغيان والتجبر، والإفراط والتفريط، والبعد عن عقيدة الإسلام وشريعته، فيحل بها أيضاً ما يحل بالأمم السابقة من تسليط أعدائها عليها، وهلاك بعضها ببعض، ولا تزال إلى اليوم تقرعها كل يوم قارعة.. وتفقد كل صباح جزءاً مما كان بيدها بالأمس.

وها نحن أبناء هذه الأمة نجابه الواقع الأليم الذي نعيشه، ولا يحتاج منا إلى كثير شرح وبيان، والكل منا يحياه ويراه، وإن كان بعضنا أشد إحساساً بوطأته من بعض..

نعيش فرقة شديدة مزقت أمة الإسلام شيعاً وأحزاباً ودولاً وممالك قام بينها التناحر والخلاف والشقاق، وسفك الدماء وانتهاك الأعراض، ومن خلال هذا الخلاف دخل العدو الكافر، وحدث الفساد الكبير الذي حذرنا الله منه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال: ٧٢-٧٣].

والآن نأتي إلى السؤال الذي قدمنا هذه المقدمة الطويلة من أجله: ما الأسباب التي أوصلتنا إلى تلك الحال؟؟ وكيف الخروج من المشكلات التي تجابه أمتنا وتعترض سبيل تربيتنا؟؟

كيف الطريق إلى المجتمع الصالح والأمة الصالحة؟؟ وما المنهاج الذي على أساسه نبني الإنسان الصالح؟؟

وللجواب على هذه الأسئلة.. نقول: هناك مشكلات كثيرة تعترض سبيلنا، وتحول بيننا وبين الوصول إلى هذه الغاية، ولكن أهمها ما يلي:

أولاً: ضياع الهدف والغاية:

إن أمة الإسلام هي أمة الله، وحاملة رسالته إلى العالمين، بدءاً من جيل الصحابة والتابعين ونهاية بمن يجاهدون الدجال مع عيسى بن مريم من المؤمنين الموحدين.

ولقد كان أول أسباب الفشل والضياع الذي أصاب أمتنا، وشتت شملها هو ضياع الهدف والغاية التي من أجلها برزت هذه الأمة إلى الوجود.. وكانت خير أمة أخرجت للناس، فالأمة الإسلامية أمة العقيدة.. أمة الدعوة، أو أمة الإيمان.. والرابطة التي جمعت هذه الأمة ليست فكرة أرضية بشرية، ولكنها كلمة إلهية ربانية. إنها كلمة لا إله إلا الله، محمد رسول الله، كلمة تملأ القلوب والوجدان وتغذي الفكر والعاطفة، وهي تعني باختصار: أن الله خالق هذا الكون ومدبره، وأنه الإله الواحد الذي يجب على جميع الخلائق توحيده

وعبادته، والخضوع لسلطانه وتشريعه، والسعي لبلوغ مرضاته ورضوانه، وأن كل ما يعبد من دونه باطل، وأن محمداً ﷺ هو المختار المصطفى للدلالة على هذا الرب العظيم، ودعوة الناس جميعاً إلى مرضاته، وتحذير العالمين من معصيته، وعلى أساس هذه الكلمة اجتمع الأسود والأحمر، والعربي والأعجمي.

لقد كان للعرب دورهم الفريد في نصر الدين ولا يزال، ولكن الكلمة والدعوة لم تكن خاصة بهم، ولا حكراً عليهم، وإنما اختص الله العرب لمميزات فيهم ولم تكن لغيرهم من حب للبذل والتضحية، وشجاعة فائقة، وشهامة ومروءة ونجدة وإيثار للمتع النفسية والروحية على المتع الحسية والجسدية، فقد كان أحدهم يهب ماله في سبيل بيت من الشعر، ويعرض نفسه وأهله للخطر في سبيل حماية غريب يلوذ به. وكانت صفاتهم هذه مع ما كانوا يتصفون به من الأمانة والصدق والشجاعة مؤهلاً عظيماً لحمل رسالة الإسلام، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

ومع ذلك فإن الشعوب التي حملت الإسلام بعد ذلك كان لكثير منها بلاء عظيم في حمل الرسالة ونشر الإسلام، ولكن هذا الهدف الأسمى، والغاية العظمى قد نافستها في أرضنا غايات تافهة تحولت بها الأمة إلى أمم، فقد زاحمت هذه الغاية غايات دنيوية هزيلة، وذلك بعد أن قسمت بلاد المسلمين إلى دويلات صغيرة، وقام في كل إقليم منها حكم ضعيف أصبح همه أن يحمي كرسيه فأصبحت غايته أن يرتقي بشعبه في سلم الماديات والحياة، فيعيش الناس في مساكن جميلة وشوارع نظيفة، وحدائق غناء، وفي سبيل ذلك نسي الهدف الأسمى للأمة، والغاية العظمى التي أخرجت من أجلها. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وإذا كان الناس في عمومهم على دين ملوكهم.. فإن غاية الحكام أصبحت غاية للشعوب والأفراد أيضاً.. فتجد الفرد منهم يقضي نهاره وشطراً من ليله سعياً في هذه الدنيا، وكدحاً فيها، واستمتاعاً بها، وليس وراء ذلك من شيء!! وأصبحنا بذلك على حال يهرم عليها الكبير ويشب عليها الصغير، فما

يكاد الوليد فينا يعقل حتى يكون أول درس نلقنه إياه: ماذا ستكون؟؟.. طبيباً أو مهندساً أو طياراً؟؟ وفي سبيل ذلك نمنعه الصلاة إن كانت معطلة له عن الهدف الذي رسمناه له، ونزجره عن الدين خوفاً عليه من القصور أو التقصير في حياته الدنيا.

وباختصار لقد ضاع الهدف الذي كان لنا حيث كنا أمة لها رسالة وغاية في الوجود، وضاع منا الهدف أيضاً كأفراد خلقوا لغاية، واستخلفوا في الأرض لعبادة ربهم وخالقهم.. وعلاج هذه المشكلة أن نعود من جديد إلى أول الطريق، ونمسك مرة ثانية بطرف الحبل، فنوجه الأفراد الوجهة التي خلقهم الله من أجلها، ونعلن في الأمة الغاية التي أخرجهم الله لها لتكون خير أمة أخرجت للناس.

ثانياً: التفرق والخلاف هو الذي أذهب ريح هذه الأمة:

المشكلة الثانية التي يواجهها مجتمعنا وأمتنا.. هي التفرق والاختلاف، وذلك لضياع الهدف أولاً ثم لضياع حقيقة الدين أو بالأحرى للاختلاف على حقيقة الدين الذي يريده الله منا.. ونعني بحقيقة الدين، نموذجه الأسمى، وصورته الصحيحة، فعقيدة التوحيد التي لا يقبل الله أحداً دون أن يعتقدها قد أصبح عليها جدل طويل.. فحقيقة الألوهية والربوبية وأصول الإيمان، كل ذلك وقع فيه بين المسلمين خلاف يفرقهم إلى مسلم وكافر، وموحد ومشرك، ومتبع ومبتدع.

وحقيقة الشريعة كذلك أضحى فيها الخلاف بين المسلمين ليس في فرعيات بعينها فقط، بل أيضاً وفي الأصول التي يرجع إليها عند الاختلاف، فالمسلمون اليوم بين متبع يرى لزاماً عليه اتباع الكتاب والسنة، وكذلك رد كل خلاف إليهما، وملفق يستبيح لنفسه تلفيق دينه من الإسلام ومن غير الإسلام، ومناهج التربية والتهذيب.. امتد إليها الاختلاف والتفرق، فنشأت التربية الصوفية بكل ما جرت على المسلمين من ويلات الانحراف عن العقيدة الخالصة، والانزواء عن مقارعة الباطل، وإدخال شعائر الكفار والزنادقة إلى دين الإسلام.. ونشأت أيضاً التربية الحزبية الدينية الضيقة، التي جعلت كل مجموعة من المسلمين أمة برأسها، وحزباً منفرداً يوالي أهل حزبه وجماعته فقط، ويعادي ما دون ذلك، ولا يرى حقاً إلا مع نفسه وجماعته، ولو أعطى ألف

دليل، ونشأت التربية الوطنية والإقليمية الضيقة، فعمقت الاختلاف والتفرق، وزرعت الفتنة والبغضاء، وللأسف إن كان الفكر المسموع لهذه التربية الإقليمية كثيراً من الفكر المكتوب والمقروء.

ولقد جاوزت التربية الإقليمية والوطنية التحزب للوطن كجزء من العالم العربي والأمة الإسلامية إلى الاعتزاز بماضي هذه الأوطان قبل الإسلام، فمجدت لذلك الجاهلية الفرعونية، الآشورية والبابلية والفينيقية، واليعربية الجاهلية، فأصبحت أصنام هذه الجاهليات وآثارها جزءاً من التراث المقدس المعتز به.

ونشأت كذلك الحزبية السياسية، فاخترعت أيضاً عقائد خاصة، ومناهج خاصة في التربية والموالاة والتشريع.

وتفرق المسلمون في حقيقة الدين.. فكانوا شيعاً وأحزاباً، وافترقوا كذلك بأسباب الدنيا تعصباً للوطن أو الجنس أو الحزب الذي يخترع عقيدة مناهضة للإسلام وبعيدة عنه، وهذه في الحقيقة مشكلة المشاكل أمام الأمة الإسلامية، والمجتمع الإسلامي، مشكلة المشاكل التي هدت قوى هذه الأمة، وأذهبت ريحها، وشتتت شملها. ولا نتصور أن يقوم للمسلمين قائمة في الأرض، أو تبنى لهم أمة صالحة إلا بعلاج هذه المشكلة، ولا علاج لها إلا بالتنادي للالتفاف من جديد حول الكلمة التي وحدتهم، والتشريع الذي جمعهم، ولا شك أن الوصول لذلك مستحيل إلا بالرجوع إلى مصادر الدين الأساسية.. الكتاب والسنة وفهمهما على المنهاج الذي فهمه السلف الأول الصالحون من الصحابة ومن سار على دربهم وطريقهم، وكذلك فلا بد من محاربة العصبية والحزبية أيا كان لونها وشكلها، عصبية للوطن أو القوم أو المذهب أو جماعة الدعوة،أو أي مسمى من المسميات الجاهلية أو الإسلامية، وقديماً ذم الرسول ﷺ التعصب للأنصار عندما نادى منادي المنافقين ليحزبهم ضد المهاجرين. فقال: **«دعوها فإنها منتنة»** [متفق عليه].

ولذلك فالمسلم الصالح هو الذي يكون تمسكه بالكتاب والسنة، وتعصبه للحق أيا كان، وللدليل أين وجد منصفاً من نفسه، شاهداً بالحق ولو على نفسه، قائماً بالقسط عاملاً به، ولا شك أن هذه التربية تقتضينا أن نبحث عن

حقيقة العقيدة والإيمان. . الذي يريده الله، الشريعة، والصراط الذي يحبه الله ويرضاه. . وحقاً أن هذا المضمن في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولكنه يحتاج منا تعلقاً به، وتحركاً له، واستنباطاً منه وأن نستصغر كل قول يخالف ذلك مهما كان صاحب هذا القول قريباً منا، حبيباً إلينا.

ولا شك أيضاً أن الجهاد ليكون هذا المنهج في التربية معمولاً به في جامعاتنا ومدارسنا، ومحاضننا الفكرية والتربوية، هو بداية الطريق للتأسيس والبناء، وذلك لينشأ لنا بعد زمن الجيل الموحد الذي يتناسق ويتفق في توجهاته وأفكاره، بدلاً من هذا الجيل الضائع المشتت بين هذه الأنماط المختلفة والأشكال المتباينة من العقائد والأفكار والآراء.

وبذلك أيضاً تختفي أو تقل مظاهر الاغتراب التي يعاني منها كثير من شبابنا ورجالنا الذين يشعرون أنهم يعيشون في مجتمع لا يفهمهم، ولا يدرك مقاصدهم وأهدافهم. . أو لا يفهمونه ولا يستطيعون الانسجام معه، ومشاركة آلامهم وآمالهم.

وتختفي أيضاً مظاهر الانفصام والتذبذب الفكري، وازدواج الشخصية، والانتقال من النقيض إلى النقيض دون شعور بالفرق والنقلة. . وهذا المرض بات يهدد معظم شبابنا ورجالنا ونسائنا، حيث التربية المزدوجة والمناهج المختلطة، والحشو الزائف، والتقليد الأعمى لكل ناعق بخير أو بشر حتى فقدنا لذلك الشخصية المستقلة، والفكر الناقد.

وبالتربية الإسلامية ستختفي أيضاً قوافل التقليد، وجحافل الدهماء التي باتت تفرزها هذه المناهج العمياء التي تقوم على فكر القطيع.

ثالثاً: غلبة أهل الكفر على أهل الإسلام:

المشكلة الثالثة التي تعترض سبيل أمتنا وتحول بين عودة مجتمعاتنا إلى الدين القويم، هي وقوع أوطان المسلمين تحت سيطرة دول الكفر زماناً طويلاً. . هذه الدول التي مزقت أوطان المسلمين، وجعلتهم دولاً، وغرست في كل وطن مشكلات تستعصي على الحل، فقد أقامت تشريع الكفر مكان تشريع الله، ووضعت منهاجا للتعليم والتربية لا يخرج إلا اتباعاً وأذناباً لكفر الكافر

المستعمر، وربت مجموعات من العملاء والموالين.. لا يزالون يتولون أفضل المناصب في توجيه الأمة، وأقامت بذلك واقعاً جديدا من الحكومات السياسية، والأحزاب، والحدود السياسية، والقوانين الاقتصادية، والاجتماعية، وغرست أنماطاً من السلوك والتقاليد والعادات والميول تتفق مع أخلاق الكفار.. واستطاعت أيضاً تحويل طائفة عظيمة من المسلمين عن عقائدهم الراسخة في الإيمان بالله، ووجوب حمل رسالة الإسلام إلى الإيمان بالحياة الدنيا وحدها هدفاً وغاية وسعياً.

والخلاصة.. أنه قد نشأ في أرض الإسلام واقع جديد يناهض الإسلام ويعاديه ويناقضه، وهذا الواقع يتمثل في القوانين الوضعية، والمناهج التربوية، والفكر الثقافي الموالي لدول الكفر، وكذلك يتمثل هذا الواقع في كثير من آداب السلوك والعادات والتقاليد.

ولا شك أن الجهاد لتغيير هذا الواقع يحتاج إلى جهود كبيرة في كل تلك الميادين حتى ينشأ واقع جديد ينبع من الإسلام.. فتعديل القوانين الوضعية في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي يحتاج إلى جهود علماء ومتخصصين ودعاة بعد أن ركدت حركة الاجتهاد الفقهي زماناً طويلاً.. وأصبح من يتصدر للعلم والدعوة والفتيا، لا يحملون من علوم الإسلام إلا شيئاً قليلاً.. وهذا القليل مختلط بغيره من الفكر الدخيل على الإسلام.

وكذلك فالجهاد لتحويل آداب السلوك والعادات والتقاليد، والأخلاق بوجه عام لتتفق مع الشريعة الإسلامية.. يحتاج أيضاً إلى جهود هائلة، من التوعية والتوجيه، وضرب المثال، وإبراز أخلاق الإسلام وآدابه.. في الطعام والشراب واللباس والزينة، والأفراح، والأحزان، والمناسبات الخاصة والعامة، وذلك حتى ينشأ جيل جديد يعتز بتراثه الإسلامي.. وبذلك تمحى الآثار العقائدية والفكرية والثقافية والاجتماعية، التي خلفها الاستعمار.

رابعاً: الغزو الفكري والثقافي الدائم:

يعيش العالم اليوم وكأنه قرية واحدة.. فما يقع في أقصى الأرض من أحداث يتأثر بها من يعيش في أدناها.. وما يبتدع من لباس أو زينة أو عادة أو

فكر أو عقيدة ينتقل في وقت قصير ليعم شرق الأرض وغربها، وذلك عبر وسائط ومنافذ لا يكاد يخلو منها قطر اليوم أو بلد.. فالمحطات الفضائية والتلفزيون والراديو، والشريط المسجل.. مرئياً ومسموعاً.. الصحيفة والكتاب والسياحة، والمؤتمرات العامة.. كل ذلك جعل الناس يتأثر بعضهم ببعض، وينقل بعضهم عن بعض.

وكل ذلك يحتاج - إذا أردنا حماية مجتمعنا الإسلامي - وناشئتنا الإسلامية إلى جهود هائلة.. ليس لمجرد المنع وإغلاق المنافذ والأبواب، فقد أضحى هذا مستحيلاً، وإنما للتوجيه والبيان والإرشاد، والرد على الشبهات والأفكار الواردة، والعقائد المسمومة، وكل هذا ولا شك يحتاج إلى علماء ومتخصصين، على مستوى الحدث، فهماً له، ومعرفة بجذوره، وإدراكاً لمغازيه ومراميه، وقدرة على الرد.

ونأسف إذا قلنا أن أمتنا لا تملك أمام الغزو الثقافي والإعلامي بجيوشه الجرارة، وأسلحته الفتاكة إلا مقاومة قليلة، ولا تملك أيضاً من وسائل القوة والعلم للتصدي لمثل هذا الغزو إلا شيئاً يسيراً جداً.

خامساً: أخطاء في مناهج الإصلاح:

بالرغم من هذا الواقع الاجتماعي والفكري والثقافي الجديد الذي تعيشه أمتنا.. فإن هناك من يظن أو يعتقد أنه يستطيع تغيير هذا الواقع بمجموعة من القوانين، يصدرها حاكم، أو زعيم ما.. أو كما يقولون: يمكن تغيير هذا الواقع بجرة قلم وهذا بعيد جداً عن الصواب.. لأن الإسلام ليس امتثالاً لظاهر من الأعمال فقط بل هو قبل ذلك.. إيمان يملأ القلب، ويجعل العمل الظاهري ثمرة لذلك الإيمان القلبي والإيمان لا يفرض بقانون.

نعم.. الإيمان يحمى بقانون ونحن في الحقيقة نحتاج أولاً إلى وجود الحقيقة الإيمانية في عامة الشعب أو جمهوره.. وذلك حتى يلاحق القانون الشواذ والقلة، ولا يوضع القانون لملاحقة الكثرة والعامة، فإن القانون إذا لاحق الكثرة استحال تطبيقه إلا عن طريق الإرهاب والإكراه.. وهذا بحد ذاته منفر من الإيمان والإسلام.

وكذلك هناك من يظن أن التربية كالصناعة المادية حيث تصنع الخامة من المعدن أو القطن أو الصوف في جانب من المصنع لتتلقاه سيارة وثلاجة قماشاً في الجانب الآخر. . وهذا خطأ كبير لأن التربية الإنسانية الفعلية بطيئة بطء النمو الجسماني. . فتربية الأفكار والعقائد وآداب السلوك يحتاج من الزمن ما يحتاجه النمو الجسماني.

ومثل المستعجلين في التربية. . كمثل من يريد جنيناً بشرياً في أقل من تسعة أشهر، ومن يريد إخراج رجل كامل في أقل من السنين التي تستلزم ذلك، والحال أننا نحتاج لنعيد الأمة إلى جادة الحق وصراط الله. . إلى عدد من السنين يناسب الوقت الذي في مثله يتربى الجيل.

والخلاصة: أننا نحتاج أن نلقي البذرة وأن ننتظر النمو الطبيعي الفطري لنباتها، ثم نتعهدها بالسقي والرعاية، وإبعاد الأذى والآفات عنها، حتى تشب وتقوى، وتصبح شجرة باسقة تقوى على مقاومة الريح وهضم الآفات. . والبذرة التي نزرعها هي الكلمة الطيبة. . فلنطرق بها كل أذن. . ولننتظر حتى تعمل عملها في القلب والنفس. . ولنتعهدها حيث ألقيناها بدوام التذكير، ولنحمها من الآفات والسموم، ولنصبر منها على الضعف الذي يعتريها حتى تصل إلى الكمال الذي قدره الله لها.

وكذلك الأمر مع المجتمع والأمة. . نحتاج إلى غرس الفضيلة، ونشر الوعي، والانتقال خطوة نحو الكمال والإصلاح.

سادساً: التصور الخاطىء للمجتمع الصالح والإنسان الصالح

يقوم هناك تصور خاطىء، وخاصة في عقول بعض المربين والدعاة، إذ يظنون أن المجتمع الصالح، مجتمع بلا جريمة، ولا شرور. . والإنسان الصالح إنسان بلا خطيئة.

وهذا التصور الخاطىء جعل المجتمع المطلوب مجتمعاً مثالياً، مثالية خيالية لا وجود لها في عالم الواقع. . والإنسان المطلوب أو المرتجى إنساناً مثالياً ملائكياً لا وجود له، وهذا التصور الخاطىء أوصل كثيرين من الدعاة والمربين والعلماء والمصلحين إلى اليأس أو الإحباط وذلك عندما شاهدوا البون

الشاسع بين ما يطمحون إليه ويظنون أنهم بالغوه، وأنه ممكن التحقيق، وبين الواقع الذي يصلون إليه بالفعل في التربية والإصلاح.

وتصحيحاً لهذا المفهوم الخاطىء.. نقول: إن إصلاح المجتمع الإنساني كله، وهداية الناس جميعاً.. أمر مستحيل، بل هو أصلاً مخالف لسنة الله تبارك وتعالى فقد شاء أن يكون في الأرض مؤمن وكافر، وأن يكون جنة ونار، وأن تمتلىء هذه وتلك.. وهذا الأمر جار وفق حكمته ومشيئته سبحانه وتعالى.. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

وقال تعالى مسلياً رسوله ﷺ ومهوناً عليه: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: ٣٥].

ولذلك فإن الكفر لن يمحى من الأرض ما دام الإنسان عليها، بل سنة الله أن يبتلي المؤمنين بالمجرمين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١]. هذا في الدوائر الإنسانية العامة.

وأما في الدائرة الإسلامية.. أعني دائرة أهل الإيمان فإن الخطيئة والجريمة لم تنقطعا من مجتمع المؤمنين مطلقاً، فولدا آدم قتل أحدهما أخاه، وكتب الله القصاص في القتلى بين المؤمنين من أجل ذلك. كما قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: ٢٧-٣٠].

وقد عقب الله على ذكر هذه الجريمة بتذكيرنا أن الأخ الشقيق يقتل شقيقه ظلماً إذا قدر على ذلك.. عقب الله على ذلك بقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا

عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٢-٣٣].

وكذلك كان مع نوح ابنه وزوجته يتظاهران بدينه وليسا كذلك، وفي بني إسرائيل يوم كانت أمة مهتدية قائمة بأمر الله في الأرض كان فيها آنذاك من عبد العجل، ورفض الانصياع لأحكام التوراة، وطلب من موسى عبادة الأصنام، واتهم موسى بقتل هارون، ومن آذى موسى، ومن نكل عن الجهاد والغزو وجبن أمام الأعداء، ومن سرق فقطع، ومن قتل واتهم الأبرياء بأنهم قتلوا قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾ [البقرة: ٧٢] أي درأ كل منكم التهمة عن نفسه، واتهم غيره وكل ذلك ونبيهم معهم ورسولهم بين ظهرانيهم.. وكل ذلك أيضاً صدر من المؤمنين الذين يعيشون في رحاب الوحي، بل ويشاهدون المعجزات كل يوم أمام أعينهم.. فقد شاهد هؤلاء انشقاق البحر، وتحول العصا إلى حية، وخروج يد موسى من جيبه بيضاء من غير سوء، وضرب آل فرعون بالسنين، وتسليط القمل والضفادع عليهم، وإحياء القتيل بضربة من قطعة من لحم بقرة مذبوحة.. كما قال تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣﴾ [البقرة: ٧٣)

ولكنهم مع ذلك كانوا كما ذكر الله: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وكذلك كان في تلاميذ عيسى عليه السلام من وشى به ودل الحكام الظلمة عليه، وهو يعلم أنهم يطلبونه للقتل!!!

وبالرغم أيضاً من أن مجتمع المسلمين أتباع محمد ﷺ كان خير مجتمع،

وأصحابه كانوا خير الأصحاب، إلا أنه كان فيهم أيضاً من شرب الخمر فجلد، ومن زنى فرجم، ومن سرق فقطعت يده، ومن أصابه ضعف فأفشى سر الرسول لأعدائه، ومن اتهم زوجة النبي -برأها الله- بالزنا ثم جلد، وكان منهم أيضاً من ترك الرسول في يوم جمعة وهو قائم يخطب عندما سمع أنه قد جاءت تجارة.. وكذلك كان فيهم البدوي الجلف الذي يبول في المسجد، ومن يجذب الرسول ﷺ بحاشية ردائه حتى تؤثر في رقبته.. وكل هؤلاء كانوا من المؤمنين الصالحين، وأما المنافقون فقد كان مجتمع المدينة مليئاً منهم، وهو خير مجتمع وجد على سطح الأرض، وفي عهد النبي ﷺ وقد تمالأوا مع اليهود والمشركين، وخانوا النبي ﷺ، وتآمروا على قتله، وكادوا أن يقتلوه غير مرة، وسبوا الرسول والمهاجرين.. وقالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون:٧]. وقالوا: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨].. وقالوا أيضاً عن المهاجرين: (ما نرانا وهؤلاء إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك) [قالها رأس النفاق عبد الله بن أبي في غزوة بني المصطلق.. راجع البداية والنهاية ج٤ ص/١٥٧.. وتفسير سورة المنافقين].. ومع ذلك فقد كانوا يصلون مع النبي، ويحجون معه، ويجاهدون الكفار، ويخرجون في الغزو معه، ويتكلمون فيعجب السامع لكلامهم ويسمع لهم من حلاوة منطقهم وحلو حديثهم.

وكان فيهم كذلك الجاهل الأحمق الذي قال: اعدل يا محمد فهذه قسمة منا أريد بها وجه الله.

ولا شك أن الآفات والجرائم والأخطاء والضعف التي كانت بعد ذلك في مجتمع الراشدين، ومن بعدهم، كانت أعظم من هذا بكثير، والمقصود من كل ذلك.. التنبيه على أن المجتمع الصالح ليس مجتمعاً تختفي منه الجريمة، ويمحى منه الشر، وتزول منه الأثرة والطمع والشح والبخل زوالاً كاملاً.. كلا.. فإن مثل هذا المجتمع لا وجود له في عالم الواقع.

ولكن المجتمع الصالح هو الذي لا يقر هذا الباطل، ويعمل على تلافيه وعلاجه، فالجريمة مسيطر عليها، نافذ حكم الله في أصحابها.. والضعف

يعالج بما يناسبه.. شدة ولينا، ومسامحة وتنكيلاً. حسب ما تقتضيه المصلحة الشرعية، ويتطلبه الموقف.

والمقصود من سرد ذلك كله أن نبين الجانب الآخر من الصورة. وذلك بعرض المواقف الحسنة والجوانب المثالية الطيبة.. فقد كانوا ينظرون إلى المجتمعات الفاضلة نظرة غير واقعية، وغير صحيحة، ولذلك فقدوا الأمل في إصلاح مجتمعاتنا المعاصرة التي تعج بالفساد، واعتقدوا أنه يستحيل الوصول إلى الصورة التي تخيلوها.. فانصرفوا عن الدعوة والعلاج، بل رجعت طوائف منهم عن الإيمان وهلكت أيضاً عندما رأوا أن أشخاصهم وذواتهم لا يمكن أن ترتقي للمستوى الذي تخيلوه للفرد الصالح.. ولو عرف هؤلاء حقيقة النفس البشرية لم ييأسوا من علاج أنفسهم وغيرهم. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣١-٣٢].

فجعل الله الذين أحسنوا هم الذين يجتنبون الكبائر وتقع منهم الصغائر التي يغفرها الله، وهذا هو المحسن وكذلك أدخل الله في جملة المتقين من يفعل فاحشة ثم يتوب منها.. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ثم وصف الله سبحانه هؤلاء المتقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤-١٣٦].

خاتمة

هذه هي أهم العقبات التي تعترض سبيلنا وتحول بين المصلحين وبين إعادة بناء هذه الأمة من جديد، وهي عقبات ليست مستعصية على الحل وذلك إذا عرفنا هدفنا وغايتنا جيداً، واتخذنا الطريق المناسب لذلك، واتبعنا سنن الله في خلقه التي لا تتبدل ولا تتغير واتخذنا السياسة الشرعية التي سار فيها رسول الله ﷺ وأصحابه. فقد عرفوا غايتهم قبل أن يسيروا خطوة واحدة على الدرب.. عرفوا أن غايتهم هي عبادة الله الواحد لا شريك له، وتكوين أمة على هذه الغاية تقوم بأمر الله، وتجاهد بسبيله، ومن ثم وحدوا كلمتهم ونسوا أحقادهم القديمة، وتركوا كل ما تفتخر به الجاهلية من الأحساب والأنساب، واعتصموا بحبل الله جميعاً وواسى كل فرد منهم أخاه، وفاداه بروحه ونفسه ثم عرفوا من هم أعداؤهم على الحقيقة واتخذوا السياسة الشرعية في حرب هؤلاء الأعداء، ولم يحاربوهم جميعاً دفعة واحدة، وإنما حاربوا من حاربهم واعتدى عليهم، حتى قويت شوكتهم وعظم أمرهم وأقاموا أعظم أمة عرفتها الأرض، وشهدتها هذه الجزيرة، ثم توجهوا بعد ذلك خارج هذه الجزيرة ينشدون الخير للناس جميعاً والهداية للبشر كلهم فأعلوا كلمة الله في الأرض، ونشروا الإسلام في العالمين، وحافظوا في كل ذلك على نقاء عقيدتهم ونظافة فكرهم، وأقاموا بعد ذلك المجتمع الكامل الذي يعلو فيه الخير، ويقل فيه الشر، وكانوا بذلك خير أمة أخرجت للناس واليوم نحن مطالبون أن نقتفي أثرهم، ونتبع سبيلهم متوكلين في كل ذلك على الله وحده سبحانه وتعالى. وقد تكفل الله لكل مجاهد في سبيله أن يهديه السبيل وينير له الدرب كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ فلنكن كما كان سلفنا الصالح ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز.

* * *

كتاب

القضايا الكلية للاعتقاد في الكتاب والسنة



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً.

وبعد،،،

فقد مضى للآن عشر سنوات تقريباً على إخراج أول طبعة من (القضايا الكلية للاعتقاد) وقد طبعت بعد ذلك طبعات كثيرة بعضها مصور في أماكن شتى من العالم الإسلامي حيث تلقاها الناس بالقبول، والحمد لله على نعمائه، ولقد كان الهدف من إخراج هذه الرسالة المختصرة هو وضع كليات المعتقد أمام إخوة الإسلام ليتصور المسلم الصورة الكلية لمعتقده، وذلك جرياً على سنة سلفنا الصالح من العلماء الذين ألفوا العقائد المختصرة لهذا السبب، وقد راعينا بحمد الله أن تكون هذه (القضايا الكلية) مكتوبة بأسلوب ميسر ومفصلة بالأرقام ليسهل إدراكها وحفظها. وقد كنت أنوي أن أشرع فوراً في كتابة شرح مختصر لهذا المعتقد ولكن انشغالي بالكتابة في الموضوعات اليومية الملحة والردود العاجلة صرفني عن كتابة شرح لها. ولكن الله سبحانه وتعالى وفق بشرحها في دروس ومحاضرات متتابعة سجلت على أشرطة في نحو خمسة وأربعين شريطاً سارت بها الركبان - بحمد الله - شرقاً وغرباً، وانتفع بها طلاب العلم في أماكن كثيرة من العالم الإسلامي.

وفي هذه السنوات العشر التي مضت على إخراج أول طبعة وإلى يومنا هذا اصطدمنا بكثير من الفتن العقائدية، والانحرافات والتحريفات والإلحاد في

أسماء الله وصفاته مما استوجب وضع ضوابط تكفل للمسلم العصمة من الزيغ عن سواء الصراط، فمن المعلوم أن العقيدة الإسلامية تتعلم بطريقين:.

الطريق الأول:

الخبر المجرد، كما في قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

فهذه السورة إخبار من الله سبحانه وتعالى عن نفسه، يعرفنا الله فيها بذاته العليا وصفاته السنية، وأنه سبحانه أحد فرد صمد لا ند له ولا شبيه له، وأنه لم يلد ولم يولد. وقد روى الإمام أحمد في المسند والحاكم في المستدرك في سبب نزول السورة أن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك. فنزلت. وسواء كان هذا أو غيره فإن هذه السورة ومثلها كثير نزل من الله إخباراً عن نفسه دون أن يتعلق ذلك بالرد على شبهة ما أو عقيدة باطلة كانت موجودة فجاءت الآيات رداً عليها.

الطريق الثاني:

أن يأتي تعليم العقيدة من خلال الشبهات التي تكون منتشرة، فينزل الله الآيات التي تبدد هذه الشبهات وتضع الحق في نصابه وذلك كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ الآيات. فهنا رد الله على عقيدة باطلة كانت موجودة لدى مشركي العرب، وهي زعمهم أن الملائكة بنات الله، فنفى الله هذا عن نفسه وبين لهم أن الملائكة عبيده المكرمين وليسوا بناته كما يزعمون..

ومثل هذه الآيات كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝١٤٨ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٤٩﴾.

وهذا النوع من تثبيت العقيدة وبيانها من خلال الرد على الشبهات كثير جداً، بل تكاد تكون عامة الآيات في العقائد والإيمان ردوداً على مفاهيم خاطئة في العقيدة. ولا شك أن تعليم العقيدة من خلال الرد على الشبهات عظيم جداً، لأن

الأشياء تعرف بأضدادها والنور لا يعرف إلا بالظلام والحق لا يهتدى إليه إلا من خلال العلم بالباطل كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ وهذا يعني أنه لا بد أن يكون علم بالطاغوت حتى يكفر به.

وقد جرينا في جمع هذه القواعد وترتيبها وفق معتقد أهل السنة والجماعة حيث نرسي التصور الصحيح لمعتقد السلف في إطار قضايا كلية كفيلة - بحول الله - بالعصمة من الوقوع في الباطل، ولم نترك - بحمد الله وتوفيقه - عقيدة من عقائد أهل السنة والجماعة، ولا مسألة عامة إلا وذكرناها مستوفين بذلك ما كتبه علماء الإسلام الأجلاء قديماً وحديثاً، فقد ضمنا هذه العقيدة (القضايا الكلية) ما هو موجود في عقيدة الإمام ابن تيمية التي لخصها في فتاواه والعقيدة الواسطية التي أوجزت معتقده، والطحاوية وعقيدة أبي زيد القيرواني السلفي. هذا مع ما استجد من شبهات كثيرة كان لا بد من الرد عليها ووضع قواعد تعصم من الانزلاق إلى الباطل في هذه الشبهات الجديدة والفتن الحادثة.

ومعلوم لكل من درس شيئاً من تاريخ الكتابة في العقائد أن كثيراً من فروع الدين قد جاء وقت أصبحت فيه من أصول الدين ومن شؤون العقائد كالمسح على الخفين مثلاً، وإمامة الصديق أبي بكر، وتحديد من هم أهل بيت الرسول، ونكاح المتعة ونحو ذلك من الفروع الفقهية. وذلك لما ترتب على الخلاف في مثل هذه الأمور من الطعن في أصحاب النبي ﷺ - وتكفيرهم والقول بنقص القرآن، وهكذا يأتي على الناس وقت قد يبالغون فيه في الخلاف حول قضية فرعية حتى يصل بهم الأمر إلى الخطأ في قضية أصولية.

وكذلك قد يقع الخطأ في قضية أصولية فيستتبع ذلك أخطاء في قضايا فرعية تنبني على الخطأ الأصولي. والمشاهد لما عليه أهل الأهواء المتفرقون عن الدين الصحيح أن خلافهم في الأصول بدأ بخطأ يسير في قضية فرعية ثم تطور الانفراج عن الحق والبعد عن الدين بإضافة خطأ إلى خطأ حتى نشأ لكل فرقة فقه خاص ومن ثم دين ونحلة خاصة.

ويشبه هذا ما تورط فيه كثير من الناس في الوقت الحاضر في جعل جماعة صغيرة تدعو إلى الله هي جماعة المسلمين وأن من عداهم كفار أو

مشركون، فأصل هذه القضية خلاف حول أمر فرعي ولكنه تطور حتى صار فيه كفر وإيمان، وجماعة (مشروعة) وجماعة (غير مشروعة) وكذلك الشأن والأمر في معاملة غير المسلمين والسبيل إلى نصر الدين، ومناهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو هذا من مسائل كثيرة يتنازع فيها الناس الآن،هذه المسائل أصلها من مسائل الفروع كرجم الزاني المحصن والزواج بأربع، وعورة المرأة.. الخ ولكنها تطورت حتى أصبحت من مسائل وقضايا الأصول لما ترتب عليها من الفصل بين القرآن والسنة في الاحتجاج والاستدلال، ومن وقوع الفرقة والشقاق بين المسلمين.

وهذا الذي حدانا إلى جمع هذه القضايا جميعاً في معتقد واحد شمل عقيدة المؤمن في: الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وما يندرج تحت هذه الأركان من مسائل اختلفت فيها الناس قديماً وحديثاً، وكذلك العقيدة الواجبة في أصول الفقه والاستنباط، وكذلك موقف المؤمن من أمة الإسلام، وكذلك من غير المسلمين. وبهذا شملت هذه العقيدة ـ بحمد الله ـ عامة القضايا الأساسية التي لا يجوز لمسلم أن يجهلها وعلى كل مسلم تعلمها ليصحح معتقده ويقيم إيمانه على أسس ثابتة وتمسك بالصراط المستقيم.

وهذا المعتقد هو بحمد الله معتقد أهل السنة والجماعة الذي كان عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين وأتباعهم من أهل القرون الثلاثة الأولى الذين شهد لهم الرسول بالخير، فقال ـ ﷺ ـ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**». وقد كان فيهم بعد أصحاب النبي ﷺ أئمة الفقه المشهود لهم بالخير كالأئمة الأربعة ورجال الحديث النبوي من أمثال الإمام البخاري، وابن معين، وابن المديني، ومسلم بن الحجاج، وسفيان الثوري وابن عيينة، وغيرهم ومن سار على درب هؤلاء واتبع طريقهم في المعتقد والعمل كالإمام شيخ الإسلام وناصر الدين ورافع ألويته ابن تيمية الحراني الدمشقي وتلاميذه الأفذاذ علماء الإسلام، ابن القيم، وابن كثير، والحافظ المزي وغيرهم، ثم الشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب ومن جاء بعده ممن تتلمذ عليه، وعرف الدين الحق من خلال دعوته وجهاده. وهذه الدعوة السلفية ـ بحمد الله ـ هي

دعوة الحق وأهلها من الصحابة ومن سار على دربهم في المعتقد والعمل هم الفرقة الناجية الذين قال فيهم النبي ـ ﷺ ـ «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يقاتل أخرهم الدجال**».

وهذه العقيدة السلفية هي العقيدة الوحيدة التي بفضلها يمكن جمع المسلمين على كلمة سواء لأنها عقيدة الكتاب والسنة التي أجمعت عليها الأمة في عصورها المشهود لها بالخير، والتي لا تنتمي إلى رجل بعينه وإمام بذاته، والتي جانبت كل البدع العقائدية والعبادية وقامت على مر العصور بتخليص المسلمين من الانحراف، والإلحاد، والتحريف وهي العقيدة التي حارب حاملوها كل المذاهب الباطلة والنحل المتفرقة، فكانوا ـ بحمد الله وفضله ـ هم الفرقة المنصورة الناجية الذين قال فيهم النبي ـ ﷺ ـ «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة**» [رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة].

فالسلفيون الذين ساروا على منهج الرسول وأصحابه ـ ﷺ ـ هم الجماعة أهل الحق المعتصمون بكتاب الله وسنة رسوله المائلون عن كل طرائق الشرك والباطل والبدعة.

وخلاصة الدعوة السلفية وعقيدة الفرقة الناجية هي ما ضمناه هذه الرسالة ـ بحمد الله وتوفيقه ـ وقد راعينا أن تكون بأسهل عبارة لأننا نكتب لعامة الناس، ولا نخاطب بهذه العقيدة فئة بعينها بل أملنا ـ في الله ـ أن تصبح هذه العقيدة في كل قلب وأن يحملها كل مسلم ويبشر بها كل داع إلى الله والحمد لله رب العالمين، والأمل في الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن ييسر لي قريباً إخراج شرح مختصر لهذه القضايا يوضح مستند كل قضية من كتاب الله وسنة رسوله، والله المسؤول أن يجعل هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن يجنبنا الزلل في المعتقد والقول والعمل إنه هو السميع العليم.

القضايا الكلية للاعتقاد في الكتاب والسنة

أولاً: الإيمان:

يؤمن أهل السنة والجماعة ويشهدون، ونؤمن معهم بحمد الله ونشهد بأن:

وجود الله تعالى:.

(١) الله هو الإله الحق الذي شهد بوجوده وربوبيته ووحدانيته كل موجود.

توحيد الذات:

(٢) ونؤمن أنه سبحانه وتعالى بذاته فوق عرشه مستو على النحو الذي يليق بجلاله، كما مدح بذلك نفسه في سبع آيات من كتابه، وأن عرشه فوق سبع سماواته.

(٣) وأنه سبحانه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء وأن صفاته - كلها - كما هي أبدية فهي كذلك أزلية ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انتهاء.

(٤) وأن ذاته سبحانه وتعالى لا تشبه شيئاً من مخلوقاته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

(٥) وأنه سبحانه وتعالى لا يحل في شيء من مخلوقاته، ولا يحل فيه شيء من مخلوقاته، وأن كل ما سواه فمخلوق بأمره خاضع لمشيئته.

توحيد الصفات:

(٦) وأنه سبحانه الحي القيوم بذاته، المقيم لكل ما سواه، فالعرش والكرسي والسماوات والأرض وكل ما فيها لا قيام لشيء من ذلك إلا به، ولا بقاء لعرش ولا كرسي ولا سماء ولا أرض ولا ملائكة ولا جن ولا إنس إلا بإقامة

الله لهم ورعايته وحفظه. . فكل شيء مفتقر إليه ولا يفتقر هو إلى شيء جل وعلا.

(٧) وأنه سبحانه وتعالى العليم الخبير الذي يحيط علمه بالأولين والآخرين، ولا يغرب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه ما من حركة ولا سكون إلا وقد علمه قبل وقوعه ويعلمه حال وقوعه وأنه سبحانه لا يضل ولا ينسى.

(٨) ونؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو رب كل شيء ومليكه والمتصرف فيه، وأنه لا شريك له في ملكه، ولا ظهير له ولا معين له.

(٩) وأنه سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، وتنزه عن الظلم والجور.

(١٠) وأنه سبحانه وتعالى العليم الحكيم الذي يضع كل أمر في نصابه والذي لا يفعل شيئاً سدى وعبثاً.

(١١) ونؤمن أن ربنا سبحانه وتعالى يحب ويرضى، ويفرح ويضحك وكذلك يسخط ويمقت ويكره ويغضب وفي كل ذلك لا يشبه شيئاً من خلقه.

(١٢) وأنه سبحانه وتعالى يلطف ويرحم، وينجي عباده المؤمنين، كما أنه يخذل ويعذب وينتقم ويستدرج ويمكر بعبيده الظالمين.

(١٣) ونؤمن أنه سبحانه وتعالى يتكلم كما يشاء كما قال ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ وينزل ويقترب من عباده كما يشاء (ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا عند ثلث الليلة الآخر) وأن له وجهاً ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ ويداً (مالك ألا تسجد لما خلقت بيدي) وقدماً (فيضع رب العزة قدمه فيها) وساقاً: (يكشف ربنا عن ساقه) وأن شيئاً من صفاته سبحانه وتعالى لا يشبه صفات المخلوقين.

(١٤) ونؤمن أنه سبحانه وتعالى القوي العزيز وأنه على كل شيء قدير، وأنه لا يعجزه شيء، ولا يؤوده حفظ السموات والأرض، ولا حول ولا قوة لأحد ولا لشيء إلا به سبحانه، وأنه الفعال لما يريد.

(١٥) ونؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو الجواد الكريم ذو الفضل والإحسان الذي ما من نعمة إلا منه، وما من عطاء إلا من عنده، وأنه لا راد لإحسانه ولا ممسك لفضله.

(١٦) ونؤمن أن الله سبحانه أعظم وأجل من أن يحيط أحد من خلقه علما به ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ وأنه ليس بعد سلطانه سلطان، ولا بعد ملكه ملك. وأنه لا يستطيع أحد أن يثني عليه كما أثنى هو على نفسه، ونؤمن أنه لا يعلم الله على حقيقته إلا الله سبحانه وتعالى.

حكمة الخلق:

(١٧) ونؤمن ونشهد أن الله سبحانه وتعالى ما خلق الخلق من ملائكة وجن وإنس وسماوات وأرض إلا ليعبدوه ويسبحوه، وأنه ما من شيء إلا وهو يسبح بحمده ويقدس له بلسان مقاله أو بلسان حاله.

(١٨) ونشهد أن كل من تأبى عن تقديس الله وعبادته من ملائكة أو جن أو إنس يطرده الله ويلعنه كائناً من كان، وأن من نازع الله في ألوهيته ودعا إلى عبادة نفسه أو عبادة غير الله يلعنه ويعذبه ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

(١٩) ونؤمن أن العبادة التي لا يقبل الله من أحد غيرها هي الطاعة المطلقة لله سبحانه فيما عقل معناه، وما لم يعقل معناه مع كمال الذل والخضوع والحب لله سبحانه.

(٢٠) ونؤمن أن الدين الذي لا يقبل الله سواه من ملك أو جن أو إنس هو الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ والإسلام هو الاستسلام لله بالطاعة والخضوع.

(٢١) ونشهد أنه سبحانه لما خلق الخلق جعل لكل شيء قدراً ومقداراً ومنزلة. فللملائكة أقدارهم ومنازلهم، وللجن كذلك وللأنس كذلك، وأوجب على كل أحد أن يلزم قدره ومقداره ومنزلته.

(٢٢) ونشهد أنه سبحانه وتعالى أمر الجن والإنس بعبادته، ولم يخلقهم إلا من أجل هذه العبادة وأنه ابتلاهم بالخير والشر، واختبر طاعتهم، وأن الجن والإنس كل منهم يكسب الخير والشر باختيار نفسه، ولكن أحداً منهم لا يوقع الخير إلا بتوفيق من الله وإعانة، ولا يوقع الشر جبراً على الله، ولكن في إطار إذنه ومشيئته.

(٢٣) ونشهد أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم من طين هذه الأرض بيديه سبحانه، خلقاً مستقلاً، وأمر جبريل الذي هو روح الله أن ينفخ فيه فصار بشرا ينفخه جبريل، وأن ذلك كان في السماء، وأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس الذي أبى استكباراً وكفراً وعناداً ، ولذلك طرد الله إبليس من رحمته، وحذر آدم منه.

(٢٤) ونشهد أن الله خلق حواء من ضلع آدم وجعلها زوجة له، واختبرهما الله بأن يأكلا من نكل ثمار الجنة إلا شجرة واحدة فأكلا منها فأهبطهما الأرض ليعمراها بنسلهما جيلاً بعد جيل وليختبرهما فيها بالطاعة والإنابة والإسلام له، فمن أطاع أرجعه إلى الجنة ومن عصى فمصيره النار.

توحيد الألوهية - (القصد والطلب):

(٢٥) ونشهد انه لا يبلغ عبد التوحيد الخالص إلا إذا كانت محبته ورغبته وخوفه وخشيته وتعظيمه لله عز وجل أعظم من كل مخلوق، وإلا إذا كان توكله على الله وحده، وحسبه لله وحده.

(٢٦) ونشهد أن الركوع والسجود والذبح والصوم والنذر والحلف كل ذلك لا يجوز إلا لله ، ومن صرف شيئاً من ذلك لغيره فقد أشرك.

(٢٧) ونشهد أنه لا طواف إلا ببيت الله، ولا تقبيل -عبادة- إلا للحجر الأسود. ولا شد رحال - عبادة - إلا للمسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ والمسجد الأقصى.

(٢٨) ونشهد أنه من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد وأن الغيب لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى اطلاعاً على الغيب أو اللوح المحفوظ فهو كافر مشرك.

(٢٩) ونشهد أن رسول الله - ﷺ - حمى جانب التوحيد، وسد كل الذرائع الموصلة إلى الشرك ، فحرم بناء المساجد على القبور ونهانا أن نطريه كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، ونهى عن الصور والتماثيل.

(٣٠) ونشهد أن الكرامة حق لعبد صالح مؤمن ، وأن خرق العادة قد يكون للفسقة والمجرمين كما هو للدجالين والكذابين ، ومن علم حقيقة الدين

استطاع أن يفرق (بين أولياء الله وأولياء الشياطين).

(٣١) ونؤمن أن لله سبحانه وتعالى الكبرياء والعظمة والمجد، وأن سبحانه لا يشفع عنده إلا بإذنه، ولا يتألى عليه، ولا ينازع في كبريائه وعظمته ولا يعقب على أمره وحكمه.

(٣٢) ونؤمن أن أخبار الله كلها صدق، وأحكامه كلها عدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

(٣٣) ونشهد ونؤمن أن لله الخلق والأمر ، وأن الحكم له وحده، وأنه هو الذي يشرع لعبادته ويأمر وينهى، وأن من نازع الله في شيء من ذلك فقد أشرك.

(٣٤) ونشهد أن كل من أطاع سيداً أو أميراً أو حاكماً في غير طاعة الله مريداً لذلك راغبا عن طاعة الله فهو كافر مشرك. وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

الإيمان بالملائكة:

ويشهد أهل السنة والجماعة ونشهد معهم ونؤمن بحول الله وقوته:

(٣٥) أن الملائكة خلقهم الله من نور وأقامهم في طاعته وعبادته ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

(٣٦) وأن الله سبحانه يبعثهم ويقيمهم في أعمال كثيرة عدا التسبيح والتحميد له ، كإرسال رسالاته إلى رسله من البشر، وتثبيت المؤمنين في القتال، وإحصاء أعمال الناس خيرها وشرها ، وحفظ البشر من الحوادث التي لم يردِ الله أن يصابوا بها. وقبض الأرواح وسوق السحاب ونفخ الروح ، وغير ذلك مما بينه الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

(٣٧) ونحب الملائكة ونؤمن بهم لمحبتهم للمؤمنين ودعائهم لهم ولاشتراكنا معهم في الإيمان بالله وتعظيمه وتقديسه. ولا نفرق بين ملك وملك كما فعلت اليهود بل نحبهم لطاعتهم لربهم وسيرهم في مرضاته.

الإيمان بكتب الله:

(٣٨) ونشهد ونؤمن أن الله سبحانه أنزل كتباً وصحفاً على رسله، وأنها جميعها عند تنزيلها منزهة من العيب والنقص والغلط لأنها كلام الله، ونشهد أن كل الكتب السابقة على القرآن حرفها أهلها وغيروها. عدا القرآن الذي حفظه الله من التغيير والتبديل ، وسيبقى كذلك إلى قرب قيام الساعة فضلاً من الله ورحمة حيث يرفعه الله من الأرض.

(٣٩) ونشهد أن القرآن المنزل على محمد ـ ﷺ ـ كلام الله حقاً وصدقاً ليس بمخلوق، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه معجزة حية باقية تحدى الله به الأولين والآخرين أن يأتوا بسورة مثله بياناً وبلاغة ومعنى وإحكاماً ، وأن أحداً مهما أوتي من العلم والفصاحة والبيان لا يأتي بذلك.

(٤٠) ونشهد أن الله قد أنزل القرآن تبياناً لكل شيء مما يصلح الناس في دنياهم وأخراهم، وأنه لا خلاف بين آياته، وأن الله تعبدنا بتلاوته وتدبره، وجعل خيرنا من تعلمه وعلمه.

الإيمان برسل الله:

(٤١) ونشهد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ اختار من البشر أنبياء ورسلاً لهداية الناس ودعوتهم إلى طريق الله ، وأن أولهم آدم وآخرهم وخاتمهم محمد ـ ﷺ ـ وأنهم جميعاً إخوانه في الدين دعاة إلى رب العالمين وإن اختلفت شرائعهم فعقيدتهم واحدة.

(٤٢) ونشهد أن جميع الرسل معصومون عن الكذب على الله أو الحكم بالهوى، أو الوقوع في الفواحش أو الزيادة والنقص في الدين ، وأنهم مسددون دائماً من الله في اجتهاداتهم ، وأن الله لا يقرهم على خطأ أخطأوه باجتهادهم.

(٤٣) ونشهد أن هؤلاء الرسل بشر مثلنا خلقوا من طين الأرض وليس منهم من خلق من نور الله أو نور عرشه كما يقول كفار المسلمين في شأن نبينا محمد ﷺ، أو من كلمة الله كما يقول كفار النصارى في شأن عيسى، وأنهم يموتون كما يموت البشر، وينسون ويمرضون ويتألمون ويكابدون كما يكابد البشر.

(٤٤) ونؤمن أن الرسل ما شرفهم الله إلا لتحقيقهم العبودية لله في أنفسهم،

فهم أكمل المؤمنين إيماناً وأعظمهم لله خشية وأعلمهم به وأنه ليس منهم من أحد دعا الناس إلى تعظيمه وعبادته بل دعوا جميعاً الناس إلى عبادة الله وحده.

(٤٥) ونشهد أن الرسل لا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه ونشروه في الناس وأنهم لم يكتموا شيئاً مما أوحاه الله إليهم.

(٤٦) ونشهد ونؤمن أن محمدا ﷺ هو خاتم الرسل وسيدهم وأفضلهم عند الله، وأعلاهم منزلة ، بلغ البلاغ المبين، ولم يكتم شيئاً مما أوحاه إليه رب العالمين.

(٤٧) ونشهد ونؤمن أن أحداً من الناس لا يؤمن إيماناً كاملاً إلا إذا أحب رسول الله أكثر من حبه لأبويه وأولاده ونفسه التي بين جنبيه، وعزر الرسول ووقره واتبع ما جاء به وقدم طاعته على طاعة كل مخلوق.

(٤٨) ونؤمن بشفاعة الرسول العظمى يوم القيامة حيث يشفع للناس في فصل القضاء وخروج الناس من المحشر وحيث يأذن الله له فيمن يشفع فيهم من المؤمنين فيدخلون الجنة. ونشهد أن شفاعة الرسول حق لعصاة المؤمنين ، ونقر ونشهد أن الرسول لا يشفع إلا لمن أذن الله له.

(٤٩) ونؤمن أن محمداً ﷺ قد أرسله الله إلى الناس كافة عربهم وعجمهم منذ بعثته وإلى قيام الساعة وأنه رسول الله إلى الإنس والجن جميعاً.

(٥٠) ونؤمن أن رسول الله ﷺ قد ثبتت له المعجزات الباهرة والبراهين الناصعة على صدقه وأمانته ، فقد أنزل عليه القرآن المعجز، وأسري به إلى القدس من مكة في ليلة واحدة، ويشهد المؤمنون أنه عرج به إلى السماء في ليلة الإسراء وشاهد الملائكة والمرسلين وكلمهم وكلمه الله سبحانه وتعالى، وأكرمه وفرض عليه وعلى أمته خمس صلوات في اليوم والليلة.

(٥١) ونشهد أن الرسول ﷺ قد نبع الماء من بين أصابعه وأطعم المئات من الناس بطعام لا يكفي العشرات. وحن الجذع إليه، وسبح الحصى والطعام في يديه، واشتكى إليه البعير.

(٥٢) ونؤمن بما فضل به محمدا ﷺ على الأنبياء وما خصه به من النصر بالرعب، وإحلال الغنائم وجوامع الكلم، وجعل الأرض مسجداً وطهوراً، وبعثه

إلى الناس كافة، وختم النبيين به ، ونشهد أن حوض الرسول حق. ونسأل الله أن يسقينا منه.

الإيمان باليوم الآخر:

(٥٣) ونؤمن أن الله قد جعل لكل نفس أجلاً، وللحياة على الأرض أجلاً تنتهي فيه بالنفخة الأولى في الصور. ثم ينفخ فيه نفخة أخرى فيقوم الناس لرب العباد لفصل القضاء بينهم.

(٥٤) ونشهد أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، وباقيتان أبداً وسرمداً، وأن أهل الجنة داخلوها ولا شك يوم القيامة وأهل النار مواقعوها ولن يجدوا عنها مصرفاً.

(٥٥) ونشهد أن الله يخرج عصاة المؤمنين من النار التي دخلوها بسبب معاصيهم التي لم يغفرها الله لهم، ولم يكفرها عملهم الصالح.

(٥٦) ونؤمن بأن نعيم الجنة حق، نعيم حسي ومعنوي وعذاب النار حق حسي ومعنوي وأنهما كما وصف الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

(٥٧) ونشهد أن أهل الجنة واجدون فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ونسأل الله أن يجعلنا منهم، وأهل النار واجدون فيها من العذاب والآلام ما لم يخطر ببالهم، وأكثر مما تتوهمه عقولهم.

(٥٨) ونؤمن بأن من مات من أهل الجنة فإنه ينعم في قبره، ومن مات من أهل النار فإنه يعذب فيه فنعيم القبر وعذابه حق وسؤال الملكين حق.

(٥٩) ونؤمن ونشهد أن بيننا وبين الساعة علامات كبرى وصغرى ذكر الله بعضها في كتابه وفصلها الرسول ﷺ في خطابه، وأن من العلامات الكبرى الدابة، والدجال ويأجوج ومأجوج ونار تخرج من قعر عدن تحشر الناس إلى أرض المحشر، ونزول المسيح عيسى ابن مريم من السماء في دمشق حيث يحكم بالقرآن ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية.

(٦٠) ومن العلامات الصغرى: تقارب الزمان، وظهور الفتن والقتل، وكثرة النساء وقلة الرجال، وقتال المسلمين لليهود حتى يقول الحجر والشجر [متفق عليه]. واتفاق المسلمين والنصارى على قتال قوم كفار من دونهم، ثم

قتال المسلمين للنصارى وانتصار المسلمين عليهم.

(٦١) ونؤمن أنه لن تقوم الساعة حتى تفتح روما كما فتحت القسطنطينية، وحتى يخرج المهدي من أمة محمد في آخر الزمان يواطىء اسمه اسم الرسول واسم أبيه عبد الله، وأنه ليس المهدي الذي زعمته الشيعة في محمد بن الحسن العسكري.

(٦٢) ونؤمن بأن يوم القيامة طوله كخمسين ألف سنة من سنة الأرض، وأن الناس يقومون فيه لربهم لفصل القضاء بينهم، وأنهم يتفاوتون في المحشر حسب إيمانهم ودرجاتهم، وأن الميزان حق والصراط حق والحوض حق، وشفاعة سيد المرسلين حق، وشفاعة الشافعين حق.

الإيمان بالقضاء والقدر:

(٦٣) ونؤمن ونشهد أن الله سبحانه وتعالى خلق كل شيء بقدر، وأنه كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وأنه ما من شيء يقع في السموات والأرض إلا وعلمه الله وقدره قبل أن يقع ولا يَعزب عن علم الله شيء.

(٦٤) ونشهد أن أهل السعادة قد سجلت لهم السعادة وأهل الشقاوة قد سجلت لهم الشقاوة وأن كل ذلك لا يتغير ولا يتبدل وأنه قد جفت الأقلام وطويت الصحف ولا تبديل لكلمات الله.

(٦٥) ونشهد أن الخير والشر بتقدير الله ومشيئته، وأن كل إنسان يكسب الخير والشر باختياره، ومشيئته، ولكن لا يوقع الخير إلا بتوفيق من الله وإعانة، ولا يوقع الشر جبراً على الله ولكنه في إطار إذن الله ومشيئته.

(٦٦) ولا نقول كما قالت الجبرية ليس للإنسان فعل وأن الإنسان مجبور على عمله ولا خيار له، ولا نقول كما قالت القدرية أن كل إنسان يخلق فعله ويختار عمله وأن اختيار الله له تابع لاختيار الإنسان.

ثانياً: الأمة الإسلامية

(٦٧) ويؤمن أهل السنة والجماعة أن الرسل والأنبياء جميعهم وأتباعهم أمة واحدة هي (أمة الإيمان) امتثالاً لقوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً

وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾.

(٦٨) ونوالي كل مؤمن من السابقين إلى آدم ومن اللاحقين إلى من يقاتلون الدجال آخر الزمان ونحبهم جميعاً، من عرفنا منهم ومن لم نعرف، وندفع عن أعراضهم.

(٦٩) ونؤمن أن أتباع محمد ﷺ من أول مسلم إلى آخر مسلم في الأرض أمة واحدة (هي أمة الإسلام والإيمان) تجمعهم عقيدة واحدة وتشريع واحد مهما اختلفت أجناسهم وتعددت ديارهم وأوطانهم، نواليهم جميعا ونعتقد أن المؤمنين إخوة.

(٧٠) ونوالي أهل أمتنا الإسلامية بالحب والنصر ولا نعين عليهم كافراً ولا عدواً.

(٧١) وكل ما يفرق وحدة الأمة الإسلامية من عصبيات لجنس أو وطن، أو شيعة خاصة أو مذهب خاص أو جماعة خاصة نحاربه ونبغضه.

(٧٢) ونشهد ونؤمن أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ هو أبو بكر الصديق فعمر بن الخطاب فعثمان فعلي. وخير قرون الأمة القرن الذي بعث فيه الرسول ثم الذي يليه كما جاء بذلك الحديث.

(٧٣) ونحب أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين ونواليهم ونعتقد أنهم خير أصحاب الأنبياء لأنهم نصروا الدين، وجاهدوا مع سيد المرسلين ونكفر من كفرهم لأنه يرد بذلك شهادة رب العالمين.

(٧٤) ونسكت عما وقع بين الصحابة من خلاف، ونعتقد أنهم كانوا مجتهدين مأجورين، وليسوا رسلاً معصومين.

(٧٥) ونعتقد أن المؤمنين يتفاوتون في درجات الإيمان فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، وكلاً وعد الله الحسنى على تفاوت درجاتهم وأعمالهم.

(٧٦) ونشهد لأي إنسان بالإسلام إذا أعلن الشهادتين أو عمل عملاً من أعمال المسلمين سواء عرفناه أو لم نعرفه.

(٧٧) ولا نخرج من الإسلام أحداً فعل مكفراً إذا كان جاهلاً أو متأولاً،

أو مضطراً أو ظاناً أن هذا من المصالح الشرعية ما لم تقم الحجة عليه في كل ذلك.

(٧٨) ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله.

(٧٩) ولا نشهد بالجنة لأحد إلا لمن شهد الله لهم في كتابه أو شهد لهم رسول الله ﷺ. والرؤى والأحلام ليست دليلاً قاطعاً للشهادة. ونرجو للمحسنين الجنة ولا نجزم لهم بها.

(٨٠) والمؤمنون والمؤمنات جميعاً أولياء للرحمن وكلما ترقى العبد في مدارج الإيمان كلها زادت ولايته لله وولاية الله له، ونشهد أن الله لا يوالي أحداً دون إيمان أو عمل كما يدعي زنادقة الصوفية.

(٨١) ونحكم على المسلمين بالظاهرة ونكل سرائرهم إلى الله سبحانه وتعالى.

(٨٢) ونشهد أن الصلاة حق واجب خلف البر والفاجر من أئمة المسلمين، ونجاهد أعداء المسلمين مع أئمة العدل والجور، ولا نشترط التقوى للجهاد والصلاة.

(٨٣) ولا نرفع السيف على أحد من أمة محمد إلا أن يكون معتديا فندافع عن أنفسنا، مع اعتقادنا أن ترك الدفاع أولى، ولا نستحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني وقاتل النفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

(٨٤) وكل دعوة تستهدف دمج المسلمين في غيرهم من أمم الكفر وترك المسلمين لشيء من دينهم أو رضاهم عن دين الكفار أو بعضه دعوة باطلة سواء سميت بالإنسانية أو الوطنية أو الحزبية. ونبرأ إلى الله سبحانه من كل تجمع يناقض الإسلام ويحاربه.

(٨٥) وكل جماعة من المسلمين اجتمعت على خير وبر وجهاد ودعوة هم إخوان لنا ما لم يجعلوا تجمعهم هذا هو جماعة المسلمين، مكفرين سواهم أو متعاونين فيما بينهم على الإثم والعدوان.

(٨٦) الأمة الإسلامية هي خير أمة أخرجت للناس على مدى العصور، وهي

وارثة دين الله والداعية إليه إلى آخر الدنيا. وهم الآخرون الأولون يوم القيامة.

ثالثاً: أصول الدعوة الى الله سبحانه وتعالى

(٨٧) والدعوة إلى الله مهمة هذه الأمة الإسلامية، وكل مسلم مكلف بذلك حسب استطاعته.

(٨٨) وغايات الدعوة أربع: هي هداية الناس إلى دين الله، وإقامة الحجة على المعاندين والمخالفين. وأداء الأمانة التي كلفنا الله بها، وإعلاء كلمة الله في الأرض.

(٨٩) وثمرة الدعوة في الدنيا (إيجاد المسلم الصالح والمجتمع الصالح).

(٩٠) والمسلم الصالح هو الموحد المطيع لله بقدر استطاعته القائم في حدود الله، والمجتمع الصالح هو الذي يقيم حدود الله، ويتعاون أفراده ويتكافلون ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج].

(٩١) وثمرتها في الآخرة الفوز برضوان الله وجنته.

(٩٢) وكل مسلم رأى منكراً وجب عليه تغييره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه. وليس وراء ذلك إيمان.

(٩٣) ويشترط في تغيير المنكر شروط أربعة: أن يكون الناهي عن المنكر عالما بما ينهى عنه، وأن لا يغير المنكر بمنكر، وألا يكون تغيير هذا المنكر سيؤدي إلى منكر أكبر منه وأن يكون الناهي عن المنكر من أهل البراءة من هذا المنكر حتى لا يقع في قوله تعالى ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾؟.

(٩٤) ويجب البدء في الدعوة بالأهم فالأهم. وتوحيد الله هو البداية والنهاية وكل عمل يجب ربطه بالتوحيد.

(٩٥) والدعوة إلى الله وسائلها كثيرة أهمها الدعوة بالسلوك والمثال وهي أن يجعل الداعي من نفسه قدوة لغيره فيمتثلوا وإن لم يحثهم على ذلك. وهذه أبلغ الوسائل، والدعوة بالكلمة والدعوة بالمال والإحسان.

(٩٦) وكل من حمل علماً ولو كان قليلاً شرع له إبلاغه.

(٩٧) ويجوز أن توجد للدعوة جماعات ومنظمات في بلاد المسلمين،

وفي غير بلادهم، وبإذن الإمام وبغير إذنه لأن الدعوة فريضة دائمة ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

(٩٨) وتعدد جماعات الدعوة جائز شريطة الالتزام بوحدة المسلمين ومراعاة الأخوة الإسلامية والتعاون على البر والتقوى، وأي جماعة دعوة تدعي اليوم أنها هي جماعة المسلمين فقط وتكفر غيرها فإنما هي جماعة خوارج وشقاق يجب حربها والقضاء عليها.

(٩٩) وليس لجماعة الدعوة قبل التمكن في الأرض وقيام خلافة الإسلام أن تقيم الحدود أو تقتل المخالفين أو المنشقين.

(١٠٠) ويجب في الدعوة اتباع السياسة الشرعية ورعاية مصالح الأمة، واتخاذ الحكمة سبيلاً وطريقاً، عملا بقوله تعالى ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

(١٠١) والعرب هم وعاء الإسلام، وحملة رسالته ولم يقبل منهم غيره أو القتل، ولذلك يجب تقديمهم، وحملهم على هذه الرسالة.

(١٠٢) والجهاد والغزو فريضة ماضية إلى يوم القيامة، ومن لم يغز أو يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق.

(١٠٣) ولا يجوز أن نقاتل إلا بعد إعلان الحرب وتميز الصفوف.

(١٠٤) وللقتال في الإسلام أهداف عظيمة فقد شرع للدفع عن المؤمنين وتخليص المستضعفين وتمكين المؤمنين في الأرض حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

رابعاً: الموقف من غير المسلمين

(١٠٥) ونشهد أن: الناس جميعاً لآدم وآدم مكرم عند الله. وهم مخلوقون لعبادته. وعلى الدعاة إلى الله بذل الوسع لتعريف الناس بمهمتهم التي خلقهم الله من أجلها.

(١٠٦) والناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا.

(١٠٧) وكل إنسان وجد على الأرض منذ بعثة الرسول إلى آخر الدنيا هو من أمة محمد (أمة الدعوة) ومن آمن كان من أمة محمد (أمة الإجابة).

(١٠٨) وكل من سمع برسالة الرسول محمد ﷺ ولو كان يهودياً أو نصرانياً وقامت عليه الحجة فلم يؤمن ومات على دينه فهو كافر وهو من أهل النار.

(١٠٩) والمسلمون مأمورون بقتال العرب خاصة حتى يؤمنوا، فإن آمنوا فقد عصموا دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله.

(١١٠) وغير العرب من النصارى واليهود والمجوس وغيرهم يقاتلون حتى يؤمنوا أو يدفعوا الجزية وهم صاغرون.

(١١١) والمصالحة والمهادنة (الهدنة) والموادعة والمحالفة كل ذلك جائز بين المسلمين وبين الكفار إلى آخر الدنيا وعلى المسلمين اختيار ما ينفعهم ويقويهم ويعصم دماءهم وأموالهم.

(١١٢) ولا يجوز للمسلمين أن يتنازلوا للكفار عن شيء من دينهم وعقيدتهم أو أن يترضوا عن شيء من دين الكفار الباطل.

(١١٣) ولا يجوز مصالحة الكفار واستنزالهم على حكم الله وحكم رسوله وإنما على حكم إمام المسلمين وحكم من معه.

(١١٤) والمسلمون مأمورون بالقتال والجهاد حتى تكون كلمة الله هي العليا في الأرض كلها.

(١١٥) والسياسة الشرعية مع غير المسلمين واجبة الاتباع.

(١١٦) وعلى حكام المسلمين عدم اتخاذ بطانة من الكفار.

(١١٧) وموالاة الكفار المحاربين بالمحبة، أو النصرة على المسلمين أو الرضا عن دينهم الباطل، أو التنازل لهم عن شيء من الإسلام كفر وردة.

(١١٨) والكافر غير المحارب يستحب صلته والإحسان إليه والبر به.

(١١٩) ومقام الدعوة إلى الله يقتضي اللين والرفق ومقام القتال يستلزم الغلظة والشدة.

خامساً: أصول الفقه

ونؤمن ونشهد أن:

(١٢٠) والحكم في كل أمر وكل شأن هو لله تعالى وحده ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

(١٢١) والرسول ﷺ مشرع بأمر الله لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. ولا يشرع من عند نفسه.

(١٢٢) والدين الذي تعبدنا الله به هو كلامه وكلام رسول الله ﷺ فقط.

(١٢٣) والإسلام صبغة عامة لحياة المسلمين جميعاً (العقائدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية). والتزام تام بحدود الله وشريعته وإيمان كامل بكل ما أخبرنا به.

(١٢٤) ولا يكون مسلماً على الحقيقة إلا من أسلم قلبه، ووجهه، وجوارحه لله رب العالمين ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾.

(١٢٥) ونشهد أن كتاب الله القرآن هو كلامه المنزل على محمد ﷺ وهو معجزة الإسلام الحية الخالدة الذي تعبدنا الله بتلاوته، وهو الأساس الأول لدراسة الإسلام وهو هذا القرآن الذي بين أيدينا في أقطار الأرض ومن زعم غير ذلك أو أنه مخبوء عند أمام غائب أو غيره فقد كفر.

(١٢٦) هذا الكتاب فصل الله فيه أحكام كل شيء مما يصلح أمر العباد في دنياهم وأخراهم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

(١٢٧) ولا خلاف بين جزئياته بأي وجه من الوجوه، وآياته في المعنى الواحد لا يؤخذ الحكم في شيء منها منفرداً بل يضم بعضها إلى بعض.

(١٢٨) ولأنه لا يفهم القرآن إلا وفق معناه وبيان الرسول ﷺ وعمل سلف الأمة.

(١٢٩) والقرآن لا يخالف ظاهره باطنه ولا باطنه ظاهرة، ومن آتاه الله فهماً في القرآن وعلمه التأويل يأتي بما يوافق القرآن لا بما يناقضه.

(١٣٠) وقد حفظ الله كتابه من التغيير والتبديل والزيادة أو النقصان إلى آخر الدنيا ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

(١٣١) والنسخ واقع في القرآن للحكم دون التلاوة وللتلاوة دون الحكم، وللحكم والتلاوة معاً.

(١٣٢) والقرآن ينسخ السنة متواترة وآحاداً، والسنة كذلك تنسخ القرآن متواترة وآحاداً. وكل واقع وكل من عند الله.

السنة:

(١٣٣) والسنة هي كل ما صدر عن الرسول ﷺ غير القرآن مما يقصد به التشريع للأمة من قول أو فعل أو تقرير.

(١٣٤) ولا تقبل إلا بإسناد صحيح حسب القواعد التي وضعها علماء الحديث لذلك، ولا يحتج أو يعمل بما لم يثبت عن النبي ﷺ.

(١٣٥) والسنة بمنزلة كتاب الله عز وجل في وجوب الإيمان والعمل بها، وفي اعتقاد أنها من عند الله سبحانه، إلا أن الله تعبدنا بمعناها فقط وتعبدنا بلفظ القرآن ومعناه.

(١٣٦) والسنة لا تخالف القرآن لأنهما من مصدر واحد كما قال تعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ وقال أيضاً ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥﴾ فكل ما اجتهد فيه الرسول ﷺ من أمر الشريعة فهو حق لأن الله لا يقره بباطل أبداً.

(١٣٧) وكل ما ثبت عن الرسول ﷺ بخبر العدل الضابط عن مثله إلى رسول الله يجب اعتقاده والعمل به سواء جاءنا متواتراً أو آحاداً.

(١٣٨) وإجماع جميع صحابة الرسول ﷺ لا يجوز خلافه البتة لأن الأمة لا تجتمع على ضلالة.

(١٣٩) وسنة الخلفاء الراشدين واجبة الاتباع ما لم تخالف نصاً من الكتاب والسنة.

(١٤٠) ونفهم الإسلام كما فهمه السلف الصالح وهم الصحابة على وجه الخصوص لأنهم أعلم بالتنزيل، وأفقه للغة العرب، وقد شاهدوا الوقائع.

(١٤١) وجميع علماء المسلمين بعد رسول الله ﷺ من الصحابة فمن دونهم يصيبون ويخطئون، ولا يقبل قول قائل منهم يخالف نصاً عن الله أو عن رسوله ﷺ.

(١٤٢) والحكام والعلماء والفقهاء والآباء والمربون والأزواج والأولياء لا طاعة لأحد منهم إلا فيما وافق أمر الله ومرضاته «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**».

(١٤٣) والآراء العارية عن الدليل متساوية ويجوز العمل بأي واحد منها إذا اطمأن إليه قلب المكلف، والتعصب لواحد منها ضلال.

(١٤٤) وطاعة ولي الأمر المسلم فيما يجتهد فيه لمصالح المسلمين واجبة، والنصح له واجب، ولا يجوز مخالفته إلا إذا أمر أمراً صريحاً بمعصية الله عز وجل. ويجوز الإفتاء بغير ما يراه إذا كان الدليل بخلاف رأيه، وطاعته في الأمور العامة إذا كان مجتهداً متأولاً واجبة.

(١٤٥) ولا يجوز للحاكم المسلم أن يحكم في أمر من مصالح المسلمين إلا بعد مشورتهم، ويجب عليه الإذعان لرأيهم إذا اتفقت كلمتهم.

(١٤٦) ورجوع الإمام إلى رأي الأغلبية المسلمة سنة ثابتة ومصلحة شرعية.

(١٤٧) والعبادات على التحريم ولا يجوز إحداث عبادة لم يشرعها الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، وكل عمل ليس عليه أمر الرسول فهو رد.

(١٤٨) والأصل في الأشياء والمعاملات الإباحة إلا ما جاء النص بتحريمه.

(١٤٩) وإثم من حرم ما أحل الله كإثم من أحل ما حرم الله.

(١٥٠) والقياس الشرعي بشرائطه حق والدين الحكيم لا يفرق بين متماثلين ولا يجمع بين مختلفين في حكم واحد.

(١٥١) والاجتهاد والاستنباط والفقه والعلم باق في الأمة إلى قيام الساعة، وليس كل من حمل علماً فقيهاً، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.

(١٥٢) والاجتهاد والاستنباط للأحكام الشرعية فرض كفاية على المسلمين

وذلك لضبط أعمال الناس وأقضياتهم وما يستجد لهم حسب النصوص الشرعية ومقاصد الدين.

(١٥٣) ولا يجتهد إلا من هو أهل لذلك، وأجرأ الناس على الفتيا أجرؤهم على النار.

(١٥٤) وتتحقق أهلية الاجتهاد لمن كان عالماً بالكتاب والسنة ولغة العرب وأصول الفقه وواقع الناس ومشكلاتهم مع عقل راجح وحكمة وعلم بمقاصد التشريع وتقوى الله.

(١٥٥) والاجتهاد هو بذل الوسع والجهد للوصول إلى حكم الله في قضية ما أو ما يظن أنه حكم الله.

(١٥٦) والناس في الاجتهاد ثلاث طبقات:

أ) العامي (الأمي) وعليه أن يتبع من غلب على ظنه أنه من أهل العلم والدين. وأنه أفتاه بحكم رب العالمين.

ب) وطالب علم لديه بعض العلم والفهم فعليه اتباع العلماء وطلب الدليل وتحري الحق.

ج) وعالم استوفى شروط الاجتهاد فعليه أن يتعرف الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية.

(١٥٧) وكل خلاف ينشأ بين المسلمين يجب أن نرده إلى كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

(١٥٨) والخلاف شر ولكنه من طبائع البشر ويستحيل أن يجتمع المسلمون على رأي واحد في كل مسائل الدين، ولذلك يلزم الحرص على الجماعة، وإسداء النصيحة، وترك السرائر إلى الله سبحانه وتعالى.



كتاب

خطوط رئيسة لبعث الأمة الإسلامية



مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد فمنذ ثلاث عشرة سنة تقريباً كتبت هذه الرسالة التي كنت أهدف من ورائها إلى تحديد نقطة البدء للشباب المسلم الذي بدأ يسأل أين الطريق، وذلك بعد الهزيمة الماحقة في عام ١٩٦٧م هذه الهزيمة التي أحدثت دوياً هائلاً، وزلزلة عظيمة في نفوس أبناء الأمة، وأرجعت الجم الغفير منهم إلى صوابهم ورشدهم. وأحمد الله سبحانه وتعالى فقد ساعدت هذه الرسالة بما قدره الله لها. في وضع كيفية البداية لشباب الأمة، وقد تلقفها الشباب في أماكن كثيرة بالدراسة وقامت جهات عديدة بطبع هذه الرسالة مرات عديدة وانتشرت بحمد الله على نطاق واسع. وشغلت أنا عن إعادة طبعها بكتابات أخرى ملحة. وكانت هذه الكتابات بحمد الله في عمومها بياناً لخطوات أخرى على طريق بعث الأمة الإسلامية. أعني أنها كانت استكمالاً لهذه الخطوط الرئيسة لتحقيق البعث الكامل للأمة الإسلامية. وكان من أهم هذه الكتابات -بحمد الله وتوفيقه- فصول من السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله، والطريق إلى ترشيد حركة البعث الإسلامي، والمسلمون والعمل السياسي.

ولقد آتت هذه الكتابات بحمد الله ثمارها وأسهمت بحمد الله في حركة التوجه الإسلامي المعاصر بما شاء الله لها أن تسهم، وهذه آثار هذا التوجه -بحمد الله- قائمة شاهدة.

ولما كانت حركة البعث الإسلامي المعاصر في حاجة دائمة إلى كل هذه الخطوط الرئيسة، وكانت هذه الرسالة التي تمثل الخطوة الأولى في الطريق قد نفدت منذ زمن طويل، فإننا نقدم لأبنائنا اليوم هذه الرسالة كما صدرت في أول

صدورها ونعتقد أن الزيادة التي كان يجب أن تزاد عليها هي ما كتبناه منفصلاً بعدها في هذا الخط وأهم ذلك ما ذكرناه آنفاً.

وإني لأسأل الله سبحانه وتعالى أن يهيىء لأمتنا سبيل العز والنصر والتمكين، إنه هو السميع العليم، وأن يجعل هذا العمل خالصاً من أجل وجهه وفي سبيل مرضاته وإعلاء كلمته والحمد لله أولاً وأخيراً، وصلاة وسلاماً على المبعوث بأقوم سبيل، والمخرج لأعظم أمة في التاريخ.

عبد الرحمن عبد الخالق

الكويت في ١٨ من رمضان المبارك سنة ١٤٠٦هـ

الموافق ٢٦-٥-١٩٨٦م

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد وآله وبعد:

فقد كنت ألقي خطبة الجمعة في بعض مساجد الكويت، وكان من عادتي أن أعيش مع المصلين في مشكلاتهم الحاضرة وأن أبين ما ينبغي على المسلم عمله ليفوز برضوان الله في الآخرة، وليحيا الحياة الطيبة الطاهرة.

وقبل حربنا الأخيرة مع اليهود في عام ١٩٦٧ وقفت في الجمعة التي سبقت بدء الحرب مباشرة، وقلت للناس: لا شك أن الجميع إلا ما قل من الناس اليوم - في بلاد العرب- ينتظر للعرب نصراً مؤزراً، وذهاباً لليهود في البحر، ولا شك أن هذا، أمنية كل مسلم، ولكن أحب أن أقول إن المطلع البصير على أحوالنا، وأحوال أعدائنا يجزم بأننا لن ننتصر!! وشده الناس !! وحملقوا !!

فقلت إن لله سنناً في الأرض لا تتغير، ولا تتبدل. ومن درس هذه السنن وعرفها علم يقيناً أن النصر في هذه المعركة سيكون من نصيب أعدائنا. وإليكم بياناً لبعض الأسباب التي من أجلها نهزم ومن أجلها أيضاً ينتصر عدونا.

إننا ندخل هذه الحرب بكل تفرقنا، وشتاتنا، وتناقضاتنا، - وقد كان هذا جلياً قبل المعركة بأيام - ولا يمكن أن يكون نتيجة الفرقة والشتات نصر لأن هذا يخالف سنة الله في أرضه وعدونا يدخل وقد رص صفوفه، وألف بين فصائله، وهذا ينتج قوة وعزماً.

إننا ندخل المعركة وليس لجنودنا عقيدة دافعة، ولا هدف سام إلا مجرد الفخر والظفر والكلمة الجوفاء (العزة للعرب) هذه عقيدة تذوب إذا قابل جنودنا أي (سخونة) من رصاص الأعداء. وعدونا يدخل بعقيدة (الشعب المختار) الذي

خلقه الله ليسود ويعلو وأنه لا بد له من ذلك، وأن يستعيد مجده وتراثه وتراث آبائه الذين وعدهم الله هذه الأرض. وهذه العقيدة -مع ضلالها- أقوى من عقيدة جنودنا.

إننا ندخل المعركة مع مذيعين قد عودونا أنهم يكذبون وينافقون ويخادعون، ويقولون ما لا يفعلون!! فلماذا لا يكون تضخيمهم لقوة أنفسهم تغريراً بنا، وما قالوه من ضعف عدونا كذباً علينا! لماذا نصدقهم الآن وقد بلونا الكذب عليهم مراراً؟

كيف ننتصر يا قوم وضباطنا يستعدون لليلة ساهرة ترقص فيها الراقصات، وتشرب فيها الخمور فرحاً بالنصر المحقق لا محالة!! والعدو على الأبواب!!

ثم قلت: أنا أعتقد أنه إن كان هناك نصر فقد تغيرت سنن الله -وهي لا تتغير- أو أن عقلي قد ذهب - وما أظنه كذلك -أو أنها فتنة عظيمة نسأل الله منها العصمة.

وإن هزمنا - وهذا هو المنتظر ولا حول ولا قوة إلا بالله - فما هو إلا نتيجة حتمية لمقدمات نسير فيها. وخاتمة لطريق نسعى فيه سعياً حثيثاً..

وفي يوم الاثنين -أي بعد يومين من الخطبة- قامت المعركة وتسمر الناس حول المذياع، وسهروا الليالي الأولى حتى يسمعوا دخول الجيوش العربية (تل أبيب). وقالت الزوجة التي تعبت من السهر لزوجها الذي يحيا بجوار المذياع بكل أحاسيسه وعواطفه: " إذا دخل العرب (تل أبيب) فأيقظني ! ".

وكنت فيمن سهر - للأسف - وعقلي يقول لي: (لا نصر ولا مخالفة لسنن الله) وعاطفتي تشدني وتقول لي: (انتظر فقد تتبدل السنن، وقد تكون مخطئاً في تقديراتك).

ولاحت أمارات الهزيمة يوم الأربعاء، ثم تتابعت حتى ظهرت للعيان يوم الخميس ثم انجلت صبيحة الجمعة لكل ذي عينين، ولكن الدهماء والعامة - وما أكثرهم- أبت أن تصدق وقالت هي خطة!! ولا بد بعدها من كرة !!

وجاء يوم الجمعة ولم أحضر خطبة! وماذا عساي أن أقول أكثر مما قلت في الخطبة السابقة ! وماذا أقول! والهزيمة الشرسة تحطم قلبي !! والضياع

البعيد يلف أمتي !! وعلى القلوب أقفالها، وعلى العيون غشاوة !! وفي الأسماع أثقال لا ينفذ الكلام بين طياتها!!

ووقفت أمام الناس لأخطب لهم فحمدت الله، وأثنيت عليه. ثم قلت ما معناه:

أيها الناس لقد حدثتكم - في الخطبة السابقة أننا لن ننتصر في هذه المعركة - ولم أكن متنبئاً بغيب، فلا يعلم الغيب إلا الله!! ولست عميلاً لأحد إلا للإسلام، وإنما هو القرآن فيه الهداية، ومن قرأه قراءة الفاحص المدقق فإنه حتماً سيعرف ما عرفت!!

مضت هذه الحقبة، وظننت أن الناس بعد الهزيمة الماحقة التي لا مثيل لها في تاريخ الأمم قديماً وحديثاً -اللهم إلا أن يجتاح جيش الإيمان جيش الكفر!!- سيرجعون إلى الله، وأنهم قد عرفوا أخطاءهم، وأن الأمة ستباشر فوراً تصحيح الأخطاء، وتقويم المعوج - وكان ظني هذا ساذجاً وسطحياً إذ قامت أبواق الشر أولاً من علماء الدين! وخطباء المساجد لتقول: وماذا في الهزيمة! لقد هزم الرسول في أحد!! وهزيمتنا هزيمة جزئية كهزيمته (ولا تهنوا، ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)!.

وتملكني الغضب، وأخذت أنظر في إشفاق وحنين لهذه الأمة. التي يكذب عليها ناصحوها. أو من فرض فيهم أن يكونوا ناصحيها.

فسرت في سلسلة طويلة من الخطب لأبين فيها أن هزيمتنا ليست نكسة بعدها نسترد قوتنا ونحارب. وإنما هي هزيمة محتمة لطريق ندفع للسير فيه. ولا يمكن أن يكون هناك نصر إلا بأخذ أسبابه. وشرعت في سلسلة ثانية أبين هذه الأسباب.

وماذا تصنع خطب كهذه في مساجد يحضرها غثاء من المسلمين وقليل من المصلين الحقيقيين !!

وظننت أيضاً أننا سنعرف الصديق الحقيقي -من دول العالم- والعدو في ثياب الصديق بعد أن كشف الغطاء، وظهر المكتوم. ولكن كنت أيضاً ساذج الظن، لأن الضلال البعيد الذي تعيش فيه الأمة يحرمها الرؤية الصحيحة وإن ظهرت الشمس.

وبعد أن كادت الأمة تفيق فتكشف الكاذبين، وتعلم المنافقين الخادعين !!

وإذا بها تنام مرة ثانية على هدهدة الغشاشين الذين باتوا يفتلون في غاربها ويؤملونها في النصر القريب!! وصرخت على منبري الصغير في زاوية من زوايا عالمنا العربي الإسلامي. فوصلت بعض الأسماع فوعت والحمد لله وصرح غيري ممن عرف الحق فأسمع من كتب لهم الهداية، ولكن سواد الأمة ما زال يعيش في حيرة وضلال: لماذا هزمنا؟! وما طريق النصر!!؟

والكل من أمتنا المبتلاة يفتي ويجيب!! وكل العرب مفتون وفقهاء وسياسيون وخطباء!! وقليل من يعرف الطريق ويتبين الصواب!!

واليوم وقد مضت خمس سنوات ونصف ما زال السؤال قائماً! وما زال الجواب غائباً!! وما زالت الهزيمة واقعة وما زالت تطرح الحلول الهزيلة التي لا تؤدي إلا إلى الهزائم المكررة.

وأظن بل أعتقد وأؤمن أن ما أقدمه اليوم هو الحل -إن شاء الله- لبعث أمة طال نومها. ولإحياء جيل -تتبعه أجيال- وقد أذلته الهزيمة وأماته الهوان ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

اللهم فاجعل هذا خالصاً لوجهك. واهد قومي إلى الأخذ بأسباب قوتهم ومنعتهم حتى تعزهم كما أعززت أسلافهم، إنك أنت السميع العليم.

عبد الرحمن عبد الخالق

الكويت: المحرم لعام ١٣٩٣

لمن أكتب هذه الرسالة؟

أكتبها أولاً: للمؤمنين المخلصين الذين يعيشون في هذه الحقبة العصيبة من حياة أمة الإسلام. فأرض المسلمين مغتصبة، وكرامتهم في الرغام، وحكومة الإسلام -التي تجمع المسلمين تحت لواء واحد، فتنافح عن عقيدتهم، وتخلص مستضعفيهم الذين يستذلون في كل مكان، وتجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى- غائبة، وثرواتهم نهباً لأعدائهم، وأموالهم ومقدراتهم مضيعة. وأعداؤهم يهددون كل شبر من أرضهم حتى مثوى رسولهم ﷺ. أكتبها مبيناً طريق الخلاص وخطة العمل.

ثانياً: للمسلمين الذين يقدرون وضع أمتهم، ويريدون عزتها، ونصرتها، ولكنهم يلبسون غير الإسلام لباساً ظناً منهم أنه واصل بهم طريق العز والرفعة، وهو غير ذلك. مبيناً الطريق السوي المستقيم.

ولا أكتب هذه الرسالة للغافلين الضالين، الذين لا يهمهم إلا أن يملأوا بطونهم، ويحيوا أي حياة رخيصة ولو في ظل أعدائهم، فهؤلاء لن يستفيدوا من كتابي شيئاً بل قد يبعث على سخريتهم واستهزائهم منه.



الباب الأول
منطلق أمتنا للنصر

١ - هذا الباب هو بمثابة المقدمة لموضوع هذا الكتاب، والمسلمون المؤمنون بعقيدة الإسلام لا يخفى عليهم المنطلق الذي يبدأون منه، ولكن تعوزهم الرؤية الواضحة له، ولكن أغلب المسلمين الذين ورثوا الإسلام فقط ولم تتحرك قلوبهم بالإيمان به لا يعلمون منطلقهم إلى النصر وبهذا تاهوا في خضم العقائد الزائفة التي زينها لهم أعداؤهم. ولذلك فإن هذه المقدمة من أجل أولئك الذين ضلوا بداية الطريق. ولن أستقصي براهين هذا الأمر والشبهات التي ترد عليه، ولكني سأكتفي بالعرض المدعم بالأدلة. دون إغراق في التفصيلات.

٢ - السؤال الذي يطرح نفسه - في هذه المقدمة - ما هويتنا؟ هل نحن مسلمون فقط؟ أم عرب فقط؟ أم نحن مسلمون عرب؟ أم نحن أهل أوطان متفرقة، ولكل وطن شعبه الذي يجب أن يعيش له ويعمل من أجله ولصالحه أولاً؟ أم نحن أهل مذاهب وعقائد غير عقائد الإسلام؟ وبالإجابة عن هذا السؤال نستطيع تحديد موقفنا، وبالتالي معرفة الذي يجب علينا.

٣ - أما كوننا عرباً فنعم نحن عرب ولكن العروبة لا تعطينا بذاتها عقيدة عن الحياة، ولا نظاماً لها، وما خلفته الجاهلية لا يعدو أن يكون ضروباً من الشعر والنثر والخطابة في أغراض تافهة محدودة وتاريخاً مليئاً بالفرقة والشتات مع بعض الأخلاق الحميدة التي تطغى عليها أضدادها من القبيح، ولقد جربنا أن ندخل حروباً -قديماً وحديثاً- باسم العروبة فقط فبؤنا في جميعها بالخيبة أمام القومية التركية والقومية اليهودية، والقومية الإيرانية، والقوميات الأوروبية، وأسباب هزيمة القومية العربية في كل حروبها كثيرة منها:

أ - أن الأصول لمن يتكلم العربية الآن مختلفة. فالقاطنون في البلاد العربية الآن منهم القبط (أهل مصر قبل الإسلام)، والبربر، والأكراد، والزنوج، والإيرانيون، والآشوريون، والبابليون، وبقايا الصليبيين، والترك، والمغول، ومن هؤلاء من يحن لقوميته القديمة، وخاصة بعد بعث الدعوة إلى القومية العربية، وهذه الأصول المختلفة لا شك أنها تجعل أهواءنا ورغباتنا وآمالنا مشتتة متفرقة.

ب - الناطقون بالعربية الآن يتبعون ديانات مختلفة منها: الإسلام والنصرانية واليهودية وغير ذلك، ولا شك أن جل هؤلاء ولاؤه لدينه أكبر من ولائه لعروبته، وإذا قرأنا التاريخ علمنا أن النصارى العرب فرحوا بالاستعمار ورحبوا به، وقاتلوا في صفوفه، وأن بعض اليهود العرب هربوا أموالهم إلى دولتهم في فلسطين، وهاجروا إليها، وحاربوا في صفوف أبناء قوميتهم ودينهم ضد أبناء أوطانهم ولسانهم.

ج - القومية العربية لا تعطي أبناءها عقيدة يعيشون لها، ويموتون في سبيلها، وإذا جردت عن الإسلام فليس لها تاريخ مشرف يبنى عليه، ويدفع أصحابه إلى احتذائه.

د - القومية العربية بالإسلام محتوى وعقيدة تكون أمراً ذا بال، ودعوة ذات كيان، ولكنها مع ذلك تحمل التناقض وبالتالي الخيبة.

التناقض لأن شعار العروبة أصغر من الإسلام فلا شك أن العرب هم مادة الإسلام وحاملو لوائه، والمبشرون به قديماً وحديثاً، ولكنهم بالعروبة وحدها لم يكونوا شيئاً يذكر. فلما جاء الإسلام جعل منهم أمة واحدة، وهذه أولى درجات المجد والعز، ثم وضع لهم ومن آمن معهم العقيدة الكاملة، والتشريع الكامل، ودفعهم إلى دعوة الناس جميعاً للإيمان بدعوتهم، وكانت هذه هي الدرجة الثانية في سبيل عزهم ومجدهم، وفي سبيل تحقيق ذلك أمرهم بالعلم والقوة، وكل ما يؤهلهم للسيادة، ففعلوا، وبذلك صاغهم الإسلام صياغة جديدة، وجعلهم على مستوى المسؤولية التي كلفهم بها، فلما رجعوا إلى شعار العروبة مرة ثانية -وهذا بدفع أعدائهم- وجدوا أنهم لا شيء مطلقاً، فكيف

نقدم بعد هذا شعار العروبة على شعار الإسلام؟!!

إذن فنحن مسلمون أولاً لأنه بالإسلام كان عزنا ومجدنا، وعرب ثانياً، ويشرفنا ذلك لأن الله اختارنا لرسالته الخاتمة التي يؤهلنا بها لنكون هداة للعالمين جميعاً، ولم يكرم شعباً كما كرمنا، نحن مسلمون عرب هذه هويتنا، وليست العروبة عندنا عصبية نتعصب لها، فنظلم بها المسلم غير العربي أو نقدم بها الكافر العربي على إخواننا في الدين مهما كانت جنسيتهم ولونهم.

٤ - أما كوننا أهل أوطان لا أهل وطن واحد فإنما كان ذلك بفعل أعدائنا، وتمزيقهم لأرض أمتنا التي قامت عليها. وما هذه الحواجز والسدود بين دولنا العربية، إلا أثر سيىء من آثار أعدائنا، وليس هناك مسلم حق يتعصب لهذه التجزئة، ويراها نهاية لمطاف أمته!! ولقد أثبت هذا التمزيق أنه أنفع سلاح في يد الأعداء، فلم تستطع ولن تستطيع دولة واحدة منا أن ترد عن نفسها أي عدو من الشرق أو الغرب، والوقائع شاهدة بما أقول.

وإذا كنا نستطيع أن نحل دعوة الإسلام مكان الدعوة إلى القومية العربية بجهد قليل نسبياً، فإننا لن نستطيع أن نقضي على الدعوة للتعصب الوطني المخالف للإسلام إلا بعد جهد طويل، وجهاد شاق، وذلك أن للتعصب الوطني الآن دولاً وحكومات، وأعلاماً، وأناشيد وطنية، وشعوباً كاملة ترى في هذه التجزئة نفعها المادي، ومراكزها المرموقة، ولذلك فلا بد أن يسبق ظهور الوطن الواحد دعوة صادقة إلى الأخوة والمحبة، ووضع أسس ثابتة تحفظ لكل ذي حق حقه، وإلا كان الاندماج نوعاً من الاستغلال، والسيطرة، وبذلك يقع الظلم، وتتضرر دعوة الإسلام.

٥ - ولسنا، ولا ينبغي أن نكون أهل عقائد، ومذاهب، وأحزاب تخالف دعوة الإسلام فإن هذا انسلاخ من الإيمان إلى الكفر وانسلاخ من العروبة أيضاً، فليس العربي إلا مسلماً، وكل عربي -غير مسلم- فإنما هو عربي لساناً فقط وأما جنساً فلا، فدعوة الإسلام صوت العرب جميعاً تحت لوائها ولم يبق عربي واحد في صدر الإسلام غير مسلم إلا ما ذكر عن نصارى تغلب من العرب، وقد فرض عمر بن الخطاب عليهم الجزية، ولا شك أنهم آمنوا بعد ذلك

ودخلوا دين الله أفواجاً بعد ما رأوا آيات صدق الإسلام. والدعوات الجديدة التي غرسها الأعداء في بلادنا هي تمزيق جديد لوحدة الأمة، ولا بد لها من الزوال إن أردنا العز والنصر، وشعار العروبة الذي تلبسه أحياناً شعار زائف لأنه سريعاً ما يظهر أنهم يعملون ضد العروبة وضد الإسلام لمصلحة أعداء هذه الأمة.

٦ - وبهذا تتضح الآن هوية الأمة ومنطلقها نحو النصر، إنه الإسلام - الأرض الصلبة التي نقف عليها- ثم العروبة - وهذا تشريف يحمل في طياته تكليفاً عظيماً لأن العرب اختارهم الله لحمل هذه الرسالة، فلا انفكاك لهم عنها إلا إلى الكفر والتمزق والضياع.

والأوطان المختلفة وضع شاذ يخالف طبيعة الأمة الواحدة ولا بد أن يعمل الجميع -مخلصين- القادة والشعوب للقضاء على هذا الشذوذ بما يحقق العدل والخير ويحفظ لكل ذي حق حقه ويجعل أمة الإسلام ذات وطن واحد.

٧ - وأعتقد أنني بهذا قد مهدت الطريق أمام وضع الأسس التي نستطيع بها أن نبعث أمتنا من جديد. وذلك بعد أن عرفنا المنطلق نحو النصر القريب بإذن الله سبحانه وتعالى.

الباب الثاني
أسباب انتصار الأمة الإسلامية قديماً

١ - علمنا في الباب الأول أن الإسلام جعل من العرب، ومن انضوى تحت لوائهم أمة، وأنه هو الذي دفعهم إلى العز والمجد الذي حققوه في وقت قصير من الزمان، ولا بد أن نسأل أنفسنا هذا السؤال: كيف انتصر المسلمون في صدر الإسلام؟ في معاركه الشاملة حيث كانت الأمة جميعها معبأة للحرب، وفي معاركه الجزئية -كانتصارهم على الصليبيين- حيث لم تكن التعبئة عامة شاملة.

٢ - وللجواب عن هذا السؤال أقول ليس هناك إلا سببان رئيسان للنصر. ثم أسباب ثانوية أخرى وهي نتائج للسببين الرئيسين: - أما السبب الأول فهو أنه قام عهد بين من آمنوا برسالة الإسلام وبين الله سبحانه وتعالى يقوم المسلمون - وفاءً به- ببيع أنفسهم وأموالهم لله عز وجل، وأن الله تبارك وتعالى قد وعد في مقابل ذلك بالنصر والتمكين في الدنيا، والجنة في الآخرة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٣﴾ [الصف: ١٠-١٣].

ولقد خاض المسلمون في صدر الإسلام غمار هذه التجارة، وربحوا ثمرتها العظيمة فلقد باعوا أموالهم وأنفسهم لله عز وجل، ولقد وفى الله سبحانه وتعالى وعده معهم فأتاهم النصر القريب، ولا شك أنه قد آواهم الآن في جنته.

٣ - لقد كان هذا العقد والعهد هو صلب عقيدة الإسلام وغايتها وثمرتها. فلئن كان الرسول ﷺ قد دعا الناس في مكة إلى الإيمان بالله وتوحيده فإن ثمرة هذا هو بذل النفس والمال في سبيل الدعوة، بل إنه مجرد قبولها إبان دعوة الرسول كان معناه تعريض النفس والمال للخطر، ولقد كان هذا مفهوماً عند كل من دعاهم الرسول للإسلام. ولذلك قال وفد بني شيبان عندما دعاهم الرسول للإسلام في الموسم: "لقد جئتنا يا هذا بحرب الملوك، ولا طاقة لنا بذلك!!".

وبيعة العقبة في حقيقتها كانت قبولاً بهذا العهد مع الله. فالبيعة التزام من الأنصار ببذل المال والنفس دفاعاً عن دعوة الإسلام ووعداً من الله بالجنة في مقابل ذلك. وكذلك بيعة الرضوان كانت على الموت في سبيل الله، ليس في المعركة المنتظرة والثأر لعثمان بن عفان الذي أشيع أنه قتل بمكة وإنما للدوام والاستمرار ولذلك ناداهم الرسول بهذه البيعة في غزوة حنين (يا أصحاب الشجرة!!) عندما فر المسلمون في أول المعركة.

ولقد أخبر الله أنه أنفذ هذا العقد وأبرمه، وأمضاه، عندما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] وهذا يدل على أن من لم يدخل في هذا العقد فليس بمؤمن لأنه قال ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بـ "أل" التي تستنفد هذا الجنس.

٤ - ولك أن تنظر بعد أي عقيدة دافعة محركة للعمل والبناء هذه العقيدة التي يشعر المرء فيها أن طاقاته جميعاً مسخرة نحو هدف واحد وغاية واحدة!! إنها العقيدة التي تجعل المرء مسؤولاً عن كل فلس يملكه وكل قطرة دم يريقها. وانظر توضيحاً لهذه العقيدة في كلام الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

٥- وبهذا نخلص إلى أن السبب الأول في انتصار المسلمين قديماً وحديثاً

هو إيجاد الفرد المستعد لأن يبذل دمه وماله في سبيل غايته. وليس هناك عقيدة في الأرض أقوى من هذا، ولا فرد في الأرض أقوى من هذا الفرد، الذي يؤمن بهذه العقيدة.

٦ - وأما السبب الثاني: فهو ما يأتي:

لقد وجد الفرد المؤمن ذو العقيدة الدافعة القوية وهذا عمل عظيم جداً!! ولكن هذا الفرد وحده لا يصنع شيئاً ذا بال في تغيير مصير أمة بل أمم ولذلك كانت الخطوة الثانية هي تآخي هؤلاء الأفراد في وحدة جامعة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً قبل ذلك. وحدة متماسكة يفدي فيها الأخ أخاه بنفسه وماله.

إذن لقد كان السبب الثاني هو الوحدة الجامعة والرابطة القوية التي ربطت بين المسلمين جميعاً وبهذا وجدت الأمة.

وهذه الوحدة لم تكن بنت يوم وليلة، ولا وليدة خطبة حماسية وإنما كانت وحدة وأخوة مبنية على قواعد ثابتة من صنع الله تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٣] وهذه القواعد معلومة مدونة: وهي باختصار عقيدة كاملة واحدة ونظام تشريعي كامل موحد، ونظام أخلاقي اجتماعي فريد يقدم العفو على المقاصة، ويأمر بالفضل والإحسان قبل المماثلة في العقوبة، ويجعل الذي يقابل السيئة بالحسنة في أعلى درجات الناس. والذي يؤثر غيره على نفسه أعظم شأناً، وأعلى مكاناً من الذي يقدم نفسه عليهم، ثم هو نظام كامل في رفض الفرقة والشتات وتحريم كل ألوان الخلاف: الصغير منها والكبير.

٧ - وماذا تنتظر بعد من أمة تكونت على هذا النحو: عقيدة دافعة متأججة، وأخوة غامرة حانية. إن أمة هذه حالها لا تقف أمامها سدود ولا يعوزها مفقود، ولا ينتصر عليها أحد. وقد كان!! لقد ساحت هذه الأمة بمجرد تكونها على النحو السابق في الأرض شرقاً وغرباً، وهي تتوقد حماسة، وتمتلىء رقة وعطفاً ورحمة، تشتد فتكون ناراً محرقة، وتلين فتكون ماء عذباً زلالاً، وتصفو وتشف وتكون نوراً وهداية ورحمة، ولذلك لم يقف أمامها سد من

السدود، ولا استطاع ملاقاتها أمة من الأمم، وذلك بالرغم من قلة العدد والعدة.

٨ - لا شك أنه كانت هناك أسباب أخرى لانتصار المسلمين كتعلمهم فنون أعدائهم في القتال، ولكن هذا السبب وغيره من الأسباب الصحيحة إنما كان نتيجة للسببين السابقين، وأكرر القول إن الأمة التي تتكون على ذلك النحو لا يعجزها شيء مما قدر للبشر أن يبلغوه: لا يعوزها علم، ولا قوة، ولا سلاح، ولا خبرة لأنها بذاتها ستوجد ذلك وفي أسرع وقت ممكن، وتفعل العصا في يد أحدهم ما لا يفعل السيف في يد غيرهم.

٩ - ولا أنكر أن قوة الله وإمداده كانت فوق ذلك، ولكن هل العقيدة الصحيحة في القلب المؤمن إلا قوة من قوة الله لا تقهر ولا تغلب، هل العقيدة السليمة إلا لقاء وموالاة بين البشر والملائكة والشمس والأرض. لقد نزلت الملائكة في حروب المسلمين لأن هناك التقاء على عقيدة واحدة؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لقد استغفروا لارتباطهم بالمؤمنين برابطة الإيمان، والحب في الله، والشمس وقفت للعبد المؤمن يوشع لأنها مأمورة وهو مأمور، وقد وقع لكثير من الصحابة في فتوحاتهم شيء يشبه هذا، وسيقع هذا مع المؤمنين عندما يفتحون فلسطين ويستردونها من أيدي اليهود: «**لتقاتلن اليهود حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي ورائي فاقتله**»، وما زال كثير من هذا يقع لكثير من المؤمنين في حروبهم.

إن العقيدة في الله قوة لا تعدلها قوة لأنها تستمد قوتها من خالق السماوات والأرض سبحانه وتعالى.

١٠- وأرجو أن أكون بهذا قد بينت الأسباب الحقيقية لانتصار المسلمين في صدر الإسلام وبعده، والذي يريد تفصيلاً لهذا فليقرأ التاريخ الذي سطرته أيدي المسلمين، أو الكفار المنصفين، وسيرى مصداق ما قلت، ولنقرأ أولاً كتاب الله ولننظر أي قوة غرسها هذا الكتاب في صدور أتباعه، وأي نظام وضع لهم، وأي أخوة ومحبة سجلها وكتبها لتلك الطائفة الطيبة التي عاشت والقرآن ينزل.

الباب الثالث
أسباب الهزيمة في الوقت الحاضر

١- سنعجب جداً عندما نرى أن هذا الغثاء من المسلمين، الذين ضربوا أبشع الأمثلة في الهزيمة، والخزي والعار، هم من سلالة أولئك الفاتحين، وهم وارثو هذا التاريخ المجيد المشرف. وهنا يبرز أمامنا هذا السؤال: كيف وصلنا إلى هذا الحال؟ وما أسباب هذه الهزيمة ؟

٢- وللإجابة عن هذا السؤال أقول: لقد كانت الهزيمة نتيجة حتمية لنقض سببي النصر، وهذا أمر منطقي، فإن الأمة انتصرت بأسباب، وغياب هذه الأسباب لا شك أنه يؤدي إلى غياب النصر. وباختصار: لقد فقدت الأمة عقيدتها الدافعة، وأخوتها ووحدتها. وهذا ماثل أمامك تماماً، فحب الدنيا وكراهية الموت والبخل بالمال والشح أصبح صفة غالبة على الناس (المسلمين) في زماننا. وليس بين أمة في الأرض (الآن) من التمزق والتشتت ما بين أمتنا - للأسف- فكيف يكتب النصر لأمة هذه حالها: حب للحياة، وبخل ببذل المال، وفرقة وشتات وخلاف؟!

٣- وكل الأسباب التي ستذكر بعد هذين السببين إنما هي نتائج لهذين السببين: فالضعف، والجهل، والتردي الخلقي والجبن كل ذلك كان نتيجة لذهاب العقيدة الدامغة، والأخوة الموحدة الضامة المؤلفة.

٤- وحتى يكون هذا الأمر جلياً واضحاً أقول: لقد أدرك أعداء هذه الأمة قديماً سر قوتها، ومنعتها وأنه ذلك العهد الذي بايعت ربها عليه، وأنه ذلك الإخاء البديع والنظام المحكم الذي تآلفت عليه. فجعلت غايتها: أن تفرط هذا النظام أولاً ثم تقطع هذه الصلة بين الله والأمة - ثانياً. . أما لماذا اختارت فرط

النظام أولاً ثم بعد ذلك إضعاف العقيدة، فلأن فرط النظام وإذهاب الأخوة أيسر منالاً من إضعاف العقيدة، فالعقيدة تغرس في القلب، وتكتسب ببطء شديد وممارسة طويلة، وأما التفريق فإنه ينبعث سريعاً بقليل من الشرر وقليل من الخلاف.

ألم تر كيف كاد الأنصار من الأوس والخزرج أن يقتتلوا عندما ذكر اليهودي أمامهم شعراً من شعر جاهليتهم وحروبهم في (بعاث)؟ وكيف كاد المهاجرون والأنصار أن يقتتلوا في إحدى الغزوات على سقاية بعض الماء؟ وكيف كادوا أن يقتتلوا أمام الرسول ﷺ وهو يخطب طالباً منهم أن يكفوا عنه شر عبد الله بن أبي الذي آذى رسول الله بسبب زوجته؟ وكيف تخاصم عمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق يوماً في حياة الرسول حتى أنه غضب وقال: «**أما أنتم بتاركي لي صاحبي**»؟

إن الخلاف والشقاق أسرع انتشاراً في النفوس من النار في الحطب، فإن عَزَّ الماء أتت النار على كل شيء، ولذلك يستطيع الفرد الواحد من الأعداء أن يأتي على أمة بأكملها شقاقاً، وتفريقاً وتمزيقاً. وأما العقائد فلا لأن إخراجها من النفوس يحتاج إلى أجيال متطاولة، حتى لو كانت العقيدة باطلة!! فكيف بعقيدة الإسلام القوية الساطعة النيرة!!

وهذا الذي كان من أمر تمزيق الأمة وإذهاب عقيدتها، لقد استطاعت قوى الشر أن تبذر بذور الشقاق في الأمة وأن تثمر هذه البذور في أقل من خمس وعشرين سنة من وفاته ﷺ «**أشد ثمارها مرارة**» حيث قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه. وهذا ما حذر منه ﷺ حيث قال بعد أن أرسى قواعد العقيدة: «**إن الشيطان يئس أن يعبد بأرضكم هذه! ولكنه قنع بالتحريش بينكم**» ويا لها من قناعة شيطانية. لقد علم الشيطان أن العقيدة لن تزول سريعاً وخاصة من الذين تلقوا الوحي غضاً طرياً، وعاينوا الآيات على صدق الرسول عياناً، ولكنه قنع بما يستطيعه ـ في هذه الأمة – من الشر وهو التحريش بينهم. (ويا له من تحريش!!) بلغ من فظاعة آثاره تلك الحروب الطويلة القاسية التي طحنت كثيراً من أصحابه ﷺ! والتي تقشعر أبداننا اليوم ونحن نطالعها. والذي سيطالعها بعين

الحق والنزاهة وترك التعصب والجهل سيعلم أن هناك يداً خفية كانت تشعل الفتنة من وراء ستار، وتشفي قلوبها الجريحة الحاقدة وهي ترى آثار الدماء التي تخلفها هذه الفتنة.

والقارىء لسيرة اليهودي (عبد الله بن سبأ) الذي ادعى الإسلام بعد مقتل عمر بن الخطاب وحضر إلى المدينة قادماً من اليمن سيعلم أن بذور الشر التي غرسها في أهل الحج من المصريين والعراقيين وأهل الشام البعيدين عن دار الخلافة. قد آتت ثمارها بمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه بحجة عجيبة وهي: الغيرة على خلافة الإسلام أن تنحرف وأن تخالف سنة الشيخين أبي بكر وعمر وسنة رسول الله ﷺ.

ولست في هذه الرسالة مؤرخاً ولكني فقط أحب أن أضع يد قومي وأبناء أمتي في وقتنا الحاضر على موطن الداء من علتهم المزمنة (الفرقة) حتى يتبينوا طريق خلاصهم. ولقائل أن يقول: لقد خالف عثمان شيئاً من سنة سابقيه. وأقول مهما كانت هذه المخالفة فإن عقوبتها لا يجوز بتاتاً أن تكون قتلاً لهذا الخليفة الراشد رضي الله عنه، ويا له من قتل غادر يدعي فيها المجرم أنه بذلك يحافظ على نظافة الخلافة !!

وإن تعجب من شيء فليكن عجبك أشد من أستاذ للتاريخ بإحدى جامعاتنا يشكك في وجود رجل اسمه (عبد الله بن سبأ) يزعم أن هذه شخصية أسطورية لا يمكن لرجل أن يصنع كصنيعه، ولو علم هذا المسكين الذي يدرس لأبنائنا التاريخ الإسلامي أن أمماً انهارت بكاملها بفعل جاسوس واحد لصدق ما كتب عن عبد الله بن سبأ، ولو قرأ أيضاً عن تنظيمات اليهود السرية قديماً وحديثاً لعرف كيف يستطيع رجل واحد أن يهدم أمة بكاملها. ولو قرأ شيئاً صالحاً عن النفس البشرية وكيف أن الشقاق أسرع إليها من سرعة النار إلى الهشيم لعلم أي محنة من الممكن أن تقع فيها أمة إذا بذرت بينها بذور صغيرة من الشحناء والبغضاء.

٥- ولم يقف أعداء الأمة عند حد في تمزيقها، بل داوموا هذا التمزيق والتشتيت منذ ذلك الوقت وحتى زماننا حتى أصبح للتمزيق قواعد وأصول يكاد

الدهر يزول ولا تزول. أليس مما يقتل القلب كمداً وحسرة أن يطلع المسلم على مقدار الهوة السحيقة بين مذاهب المسلمين العقدية؟ حيث إن لكل مذهب أصوله وأركانه وفلسفته وتاريخه وبنيانه الذي ينهدم الزمان ولا ينهدم. وأليس مما يذهب النفس حسرة وراء حسرة أن نرى لكل مذهب من المذاهب الفقهية الفرعية عند أهل السنة وحدهم أصوله الخاصة التي ينبني عليها مئات بل آلاف الفرعيات التي تخالف ما عند الآخرين؟ وسيقول قائل جاهل: إن الخلاف في الفروع لا يضر، ولو اطلع لعلم أن آثار هذا الخلاف الفرعي الفقهي اليسير قد أضحت تشريعات مستقلة ومناهج منفصلة يكاد بها أن يكون كل مذهب شريعة مستقلة.

ولقد كان من آثار ذلك ترك العمل بالشريعة جملة وتفصيلاً ثم استيراد الشرائع الكافرة، ثم ضياع العقيدة الإسلامية بالتالي. وإنني بهذا البيان القصير لأطوي الحوادث طياً، وأجملها إجمالاً وسيكون للتفصيل في هذا الأمر مجال آخر -إن شاء الله تعالى- والمهم الآن في هذا المقام هو أن نفتح الأعين على مقدار هذا الركام من الخلاف الذي لم يترك اثنين من أمتنا على قلب رجل واحد.

٦- ثم جاء بعد هذا كله العقائد (الأيديولوجيات) الوافدة من الأعداء فنقلت الأمة أو كادت عن عقيدتها، وقطعتها عن تاريخها، ثم أعملت فيها التمزيق والتشتيت، حتى انقسم أبناء الرجل الواحد، ولعن بعضهم بعضاً بل وقتل بعضهم بعضاً، ناهيك عن أبناء البلد الواحد والوطن الواحد. وبذلك أصبحنا مضرب المثل في التفرق والتمزق والضياع.

٧- وبهذا كانت الهزيمة أو الهزائم المتكررة أثراً لازماً لهذا التفكك والخلاف والتمزق. وهذا سبب ثان رئيس يضاف إلى السبب الأول الآنف وهو فقد العقيدة الواضحة النيرة الواحدة التي توحد الغاية وتجمع الصفوف.

وبهذا نصل إلى السؤال الآتي: كيف ونحن على هذا الحال - نستطيع أن نبعث الأمة من جديد؟

وقد خصصت - بمشيئة الله - الباب الآتي للإجابة عن هذا السؤال..

الباب الرابع
الطريق إلى بعث الأمة الإسلامية

لا نستطيع أن نتصور أمة صالحة كاملة إلا بتصور جماعة لها عقيدة واحدة ومنهج واحد في الحياة، وبهذا تتحدد مقومات الأمة على النحو التالي: الجماعة، العقيدة (الإيمان)، والمنهج (التشريع).

أما الأفراد المسلمون فهم كثير والحمد لله، فهم يعدون بمئات الملايين. ولكن حالهم هي كما عرفت في الفصلين السابقين، وأما العقيدة الواحدة فموجودة باقية ولكنها تحتاج إلى أمرين:

الأمر الأول: تخليصها مما علق بها عبر القرون من الانحراف والتأويل السخيف المشوه لحقيقتها، والخرافة.

الأمر الثاني: نقلها من بين الآيات والأحاديث وبطون الكتب إلى الصدور.

وأما المنهج الواحد فموجود أيضاً باق إلى يوم القيامة ولكنه يحتاج إلى أمرين أيضاً:

الأمر الأول: تنقية هذا المنهج من البدع والانحراف، والتأويل الباطل، والغلو والتفريط.

الأمر الثاني: وضع هذا المنهج موضع التنفيذ.

وبهذا سيتحدد العمل في ثلاث دوائر أساسية ولكنه سيتفرع إلى شعب كثيرة:

الدائرة الأولى: تحديد العقيدة الواحدة وتصفيتها من الشوائب.

الدائرة الثانية: تخليص الشريعة الإسلامية وتنقيتها من البدع والغلو والتفريط.

الدائرة الثالثة: تهيئة الفرد المسلم ليقبل العقيدة الناصعة الواضحة والشريعة الغراء السمحة الكريمة.

وهذا الكلام فيه إجمال واختصار وهنا ترد هذه الأسئلة:

ما صفات هذه العقيدة الواحدة وكيف نحكم بأن هذا تأويل باطل؟ وهذا حق ؟ وما المنهج لتنقيتها وتصفيتها ؟ وما صفات الشريعة السمحة وكيف نستطيع أن نجمع المسلمين على كلمة سواء في العمل بالشريعة وقد اختلفت الآراء، والمذاهب والفتاوى ؟! وما المنهج والضابط لهذا التميز بين ما هو من صلبها وما هو خارج عنها ؟

وما الطريق لوضع هذه العقيدة والشريعة موضع التنفيذ؟؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة أقسم هذا الموضوع إلى ثلاثة فصول:.

الفصل الأول

العقيدة الواحدة (مسائل الإيمان)

١- ليس هناك في الأرض اليوم عقيدة واحدة ناصعة واضحة في عقول أتباعها إلا العقيدة الإسلامية وذلك لأن مصدرها الأول (القرآن الكريم) ما زال موجوداً على النحو الذي نزل عليه والحمد لله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾، ومصدرها الثاني (الحديث الشريف) ما زال محفوظاً والحمد لله مع ما ناله من اختلاطه بالضعيف والموضوع، ومع ذلك فمقدار الاختلاف والتفرق الذي يصل إلى حد التمزيق والشتات حاصل وحادث بين أفراد هذه الأمة، وما دمنا نسعى إلى التوحيد الكامل للأمة فلا بد من انتزاع الخلاف، والقضاء عليه مهما كان صغيراً لا يؤبه له.

٢- والمسلمون الذين خلفهم رسول الله ﷺ كانوا أصحاب عقيدة واحدة (في الله، والكون، والجنة، والنار، والملائكة والرسل والقضاء والقدر. . الخ). وإنما حصل الخلاف بعد ذلك.

٣- ولست هنا مؤرخاً لكيفية الخلاف وتطوره وإنما يهمني أسبابه وطريق القضاء عليه.

٤- وقبل أن أشرع في ذلك أود أن أوضح ماهية العقيدة الإسلامية.

أولاً: العقائد قسمان: قسم من صنع الإنسان ونظره وفكره سواء أكان في شيء غيبي كالبوذية والوثنية والمجوسية. .

أو ما كان في شيء مادي بحت كالشيوعية التي تنادي بنظام للحياة - تراه صالحاً - وتنزل يقينها في صحة هذا النظام وعدالته منزلة الإيمان الغيبي.

ولا شك أن هذا القسم بشقيه خرافة وتحكم وقصور نظر. فالغيب مصدره

الله وليس الإنسان. والحكم على نظام للعدل - من وضع البشر - تحكم وقصور؛ فالإنسان دائماً يهدم اليوم ما بناه الأمس من نظريات وقوانين والحياة شاهدة.

والقسم الثاني: عقيدة من تنزيل الله تبارك وتعالى وقد أنزلها على رسله الذين اختارهم لإبلاغها للناس، وهذه حق وصدق ما دمنا قد تحققنا من صدق الواسطة التي بلغتها وهي (الرسول) وهذا القسم يلحقه تحريف الناس وأوهامهم وخرافاتهم وتأويلاتهم الباطلة كما صنع اليهود بعقيدتهم، والنصارى بعقيدتهم، وجهال المسلمين بعقيدتهم.

٥ - فإذا وضح هذا، وهي أن مسائل الإيمان (العقيدة الإسلامية) وحي من الله تبارك وتعالى، وعلمنا أن هذا الوحي محفوظ مضبوط والحمد لله أولاً وأخيراً، وأنها تخالف عقائد البشر التي صنعوها لأنفسهم، وظنوها حقاً بلا برهان ولا دليل. فإن الخلاف في هذه العقيدة قد نشأ بأسباب أجملها فيما يلي:

أ - قياس أمور الغيب على أمور الحياة المشاهدة.

ب - إعمال العقل في غير مجال عمله.

ج - محاولة تكييف أمور الغيب والآخرة. وأعني بالتكييف إعطاء صورة مماثلة للغيب حسب الصور المشاهدة في الدنيا. (قياس الآخرة على الدنيا).

والحق أن السببين الأخيرين راجعان إلى السبب الأول، وهما من آثاره. فكيف يعمل الإنسان في غير مجاله ؟

العقيدة الإسلامية (الإيمان) لا بد لها من العقل والفهم، وهي تبنى على قضايا منطقية كقضايا الحساب الذي لا شك فيه، وذلك عند من يفهم ويدرك ويعي. وحقائقها الأولية تبدأ كما يلي:

١- الإيمان بخالق هذا الكون. وهذا شيء فطري لا يحتاج إلى كبير نظر وتأمل طويل، فما على أي إنسان عاقل إلا أن يفكر في نفسه وما حوله ليعلم يقيناً أن هذا الكون ليس فلتة، ولا صدفة، ولا مخلوقاً خلق نفسه، وإنما هو عن تدبير مدبر، وإحكام حكيم. وهذا القدر من الإيمان لا يجوز مطلقاً أن يختلف فيه عاقلان على سطح الأرض، وأما (جهال الناس، ودواب البشر)

الذين يخالفون هذه العقيدة الفطرية الساذجة السهلة الميسورة الوصول إليها فللكلام معهم مناهج وطرائق أخرى، ومجال غير هذا المجال.

٢- الإيمان (بالواسطة) الرسول الذي يختاره هذا الإله لإبلاغ الناس ما يريد ربهم منهم، والشأن الذي خلقهم له، ومبدئهم ونهايتهم. وهذه (الواسطة) الرسول لا بد من وضعه تحت مجال البحث والتدقيق في أمره، واختياره بكل الطرق حتى يثبت يقيناً صدقه فيما بلغه عن ربه جل وعلا. ولا يمكن أن نصل إلى ذلك إلا بإعمال طويل للعقل حيث سنبحث سيرته، ونتعمق في كلامه، ونختبر معجزته وآية صدقه حتى يتبين لنا أمره على الحقيقة إذ مجال الرسالة من الممكن أن ينتحله ويدعيه الكاذبون.

وإلى هنا ينتهي مجال التدقيق والتشريح فيما يقوله الرسول (ﷺ)، ويبدأ العقل مرحلة أخرى هي مرحلة الفهم والتطبيق. إنها مرحلة (سمعنا وأطعنا) فإذا أخبر الرسول بالجنة ونعيمها، والنار وأهوالها، وعذاب القبر وعجائبه، فليس أمامنا قياس ولا تشبيه ولا إجراء لسنن الحياة على سنن الآخرة فإن الأمر مختلف. وإذا أخبرنا الرسول عن ربنا تبارك وتعالى وصفاته وكلامه، وضحكه، وفرحه، واستوائه، وغضبه، ورضاه، وحبه لأناس ومقته لآخرين، قلنا (سمعنا وأطعنا) دون إعمال للعقل بالتشبيه والقياس أو بالنفي والتعطيل، أو بالرد والتأويل البعيد السخيف. وإعمال العقل في هذه الأخبار الغيبية قياساً وتشبيهاً، أو نفياً وتعطيلاً، وتأويلاً يجر إلى الكفر وتمزيق العقيدة وبالتالي تشتيت المسلمين وضياعهم.

٦- وبهذا يظهر جلياً -إن شاء الله- أن العقيدة التي تجمع المسلمين ولا تفرقهم، وتوحدهم ولا تشتتهم هي عقيدة السلف التي جمع الرسول ﷺ الصحابة عليها. وعلمهم إياها. وأنه ليس أمامنا خيار في انتحال غيرها، أو فتح المجال لسواها. (وعقيدة السلف) تقوم على الأسس السهلة التي قدمتها آنفاً والتي لا يأباها عقل سليم. وهي الحق من الله تبارك وتعالى لأنه ليس فيها شيء من صنع الإنسان.

٧- وأما التأويل الذي حدث في العقيدة بعد فإنما هو محاولة إنسانية في

الغيب يجب علينا رده مهما كان مصدره فلسفة يونانية، أو فكراً وثنياً برهمياً، فيحارب عقلية لعلماء سموا أنفسهم بالفلاسفة المسلمين. ويكفينا ويكفي المسلمين تلك العقيدة السهلة السمحة الميسورة القريبة الفهم من الناس جميعاً على اختلاف مستوياتهم.

٨- ولا شك أن المسلم سيفهم هذه العقيدة فهماً كاملاً سليماً حكيماً إن هو قرأ كتاب الله القرآن، وسنة الرسول ﷺ وكان له حظ من فهم لغة العرب، ولم يتدنس بدنس المحاولات البشرية لفهم الغيب دون اللجوء إلى الرسل، وهذه المحاولات البشرية هي ما سميت بالفلسفة. وقد سميتها دنساً لأنها تشوه الذهن والفطرة السليمة بكثرة ما فيها من التناقضات والأغاليط والاختلاف والقضايا التي تعد مسلمات وليست هي كذلك. وأمثال هؤلاء الذين تدنسوا - باعتناق هذه الثقافات لا بمجرد قراءتها والاطلاع عليها - يصعب عليهم فهم عقيدة الإسلام السهلة الميسورة. إلا بكثير من العناء، والمجاهدة، والتخلص مما علق بالذهن من هذا الركام.

٩- ولا شك أن إبراز هذه العقيدة وإفرادها للقراءة والبحث بأسلوب العصر سيعد عملاً جليلاً، وهذا هو أول عمل فكري يجب أن تتوجه الأقلام بالكتابة فيه (تصنيف العقيدة الإسلامية كاملة في مصنفات بلغة العصر، على منهج السلف الصالح الذي يجمع ولا يفرق، والذي هو منهج العلم والحكمة والسلامة من كل العيوب والنقص).

وكل منهج غير هذا المنهج في كتابة العقيدة فإنه سيبقي الفرقة قائمة، والشحناء مستحكمة.

١٠- وهناك أمور أخرى ما كانت في أصل وضعها من أمور الإيمان والغيب ولكنها أضحت كذلك بعد الخلفاء الراشدين، وهذه الأمور هي خلافة المسلمين، ومن الأحق بها، وتسلسلها وطريقة تحقيقها. فبالرغم من أن هذه الأمور هي من الأحكام الشرعية العملية إلا أنها تطورت في الفكر والعمل والاستدلال حتى أضحت قضايا عقدية مزقت المسلمين قديماً. وما زال هذا على صورة رهيبة إلى اليوم. فالذي قسم المسلمين إلى سنة وشيعة، وقسم

الشيعة إلى مذاهب وعقائد مختلفة وجعل بين هؤلاء وأولئك أخاديد من الفرقة وركاماً هائلاً من الخلاف والشقاق وشحناء طويلة وحروباً ودماء إنما هو الخلاف في أمر (الإمامة والخلافة..) وهذا الخلاف وإن كان قد بدأ يسيراً زهيداً إلا أنه قد تعمق مع الأيام وتأصل وتباعد حتى لكأن السنة والشيعة أصحاب دينين مختلفين.

أقول: هذه المسائل من الخلاف بدأت في العمل ثم تعمقت حتى وصلت إلى مسائل العقيدة والإيمان، وهذا شأن الخلاف دائماً يبدأ يسيراً في أمر قد يكون تافهاً ثم يتطور ويتأصل ويتفرع حتى يصبح عميقاً بعيداً.

الفصل الثاني
الشريعة الواحدة

١- قيل إن الخلاف في الفروع لا يضر. وقيل إن الخلاف في الفروع رحمة وتوسعة (واختلاف الأئمة رحمة)! ومثل هذه الأقوال تحجب الرؤية الصحيحة للوضع المتردي الذي وصل إليه التشريع الإسلامي في عصوره المتأخرة. والذي ورثناه بكل تبعاته وأوزاره.

فأما أن الخلاف الفقهي يضر فنعم والوقائع شاهدة. وهذه الوقائع أكثر من أن تحصى وحسبك معرفة بعض آثارها السيئة فكم من مرة امتنع المتعصبون ممن يزعمون تقليد الإمام أبي حنيفة رحمه الله ورضي عنه الصلاة خلف إمام شافعي والعكس أيضاً. فما شعور إمام حنفي يصلي صلاة المغرب مثلاً وبعد أن ينهي الصلاة يقوم رجل شافعي فيعلن للناس أن هذه الصلاة باطلة لأن الإمام لم يجهر بالبسملة ؟! وما الفرقة التي كانت في صلاة المسلمين قبل نصف قرن فقط، وما زالت بعض جيوبها إلى اليوم إلا أثراً من آثار الخلاف الفرعي، وذلك أن عامة المسلمين كانوا يصلون في المساجد الشهيرة بأربع جماعات وأربعة أئمة!! شافعي، وحنفي، ومالكي وحنبلي. وكيف لا يضر الخلاف وهو يصل أحياناً حد التناقض حيث يوجب البعض ما يراه الآخر حراماً أو مكروهاً. فالرأي عند الأحناف أن قراءة الفاتحة للمأموم في السرية مكروهة كراهة تحريمية وغيرهم يرى قراءتها واجبة بل ركناً من أركان الصلاة إن تركها بطلت صلاته.

وليس هذا الخلاف في مسائل فرعية محدودة بل يكاد يكون في كل شيء تقريباً إلا فيما عرف من الدين ضرورة، وتضافرت الأدلة الكثيرة على بيانه وإثباته.

وتعظيمنا لأمر الخلاف **لسببين**: **أولهما**: أنه يخالف بين القلوب -ولا

شك- مهما كان يسيراً. **وثانياً**: أنه يكبر ويتأصل، ويتشعب مع مرور الزمن فيصبح الخلاف الفقهي العملي خلافاً عقدياً إيمانياً. كما رأينا في مسألة الإمامة. وفي فتنة التكفير والتجهيل والتبديع التي يتراشق بها المقلدون المتعصبون، والسلفيون المتطرفون. فقد انتقل معهم أمر الخلاف الفقهي إلى أمر العقيدة والإيمان. وإذا كنا نريد أمة سوية يحب كل فرد فيها الآخر فيجب علينا أن نقطع دابر الخلاف مهما كان يسيراً صغيراً.

وسندنا في ذلك نهي الله عز وجل عن التفرق في الدين حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣] وكذلك تعظيم الرسول ﷺ لأمر الخلاف، وإنكاره عليه. حيث يقول: «**اقرءوا القرآن ما اجتمعت عليه قلوبكم، فإذا اختلفت فقوموا**» [رواه مسلم]. وفعل الصحابة من بعده حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل الصحابة في مسألة الغسل هل هو من لقاء الختانين أو الإنزال فيقول قوم بهذا وقوم بهذا، فيرسل إلى عائشة فتقول: قال رسول الله ﷺ: «**إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل**» فيقول: والله لا يفتي أحد بغيره إلا جعلته نكالاً. أي لقد وضحت الحجة وظهر حكم الله في هذه المسألة بحديث الرسول ﷺ فلا يجوز لأحد - بعد - أن يفتي بخلاف ذلك.

ومن تتبع هذا الأمر وجد كيف عظَّم الله أمر الخلاف في الدين ولام أهله، وبين أنه عقوبة وهلاك، وعلم كيف عظم سلف هذه الأمة أمر الخلاف، وذموا أربابه. ويكفينا في هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ والنهي عن التنازع هنا إنما هو حول أمر شرعي عمل وهو من شؤون القتال. ولا شك أنه من فروع الدين. فالأمة لا يمكن أن تكون يداً واحدة. وقلباً واحداً إلا إذا قضت على جميع أسباب الخلاف بينها.

١- وهنا سنصل إلى هذا السؤال وهو: كيف نقضي على الخلاف في أمر التشريع؟

وللإجابة على هذا السؤال لا بد أن نعرف أولاً أسباب هذا الخلاف، وهذه الأسباب تنقسم إلى قسمين:

أ - خلاف معقول لا بد منه، وهذا الخلاف بعضه قد وقع كثيراً في الأمة، ولا بد أن يقع في أمور تستجد، ويجتهد لمعرفة أحكامها. وهنا لا بد من وضع ضوابط للقضاء على آثار هذا الاختلاف الذي يجب أن لا يتعدى الرأي والاجتهاد.

ب - وخلاف غير معقول، قد وقع في الأمة وقد ظهر لكل ذي عين سليمة أنه باطل، وهذا لا يجوز التمسك به، ولا حتى روايته، ويجب أن يدفن وينتهى منه ويصبح مقصوراً على دارسي تاريخ التشريع فقط.

٣- فأما الخلاف المعقول فأسبابه غير محصورة، ومن ذلك علم أحد المجتهدين بالحديث - الذي ينص على الحكم - وجهل الآخر به فيفتي برأيه، والاختلاف في فهم المعنى اللغوي، واطلاع أحدهم على وجه من وجوه الرواية في الحديث الواحد واطلاع الآخر على وجه آخر واطلاع ثالث على الوجهين، والاختلاف في تقدير السنة والبدعة، وعدم العلم بالمخصص، والإفتاء بحديث ضعيف يحسبه المجتهد صحيحاً وهو غير ذلك. وتفاوت النظر في استنباط العلة، وعدم التوفيق في الجمع بين حديثين ظهر منهما التعارض، وعدم العلم بالناسخ والمنسوخ.. الخ.

هذه الأسباب جميعها وغيرها كثير تجعل الحكم في المسألة الواحدة مختلفاً. وهذه الأسباب وغيرها هي التي من أجلها ظهر التفاوت والخلاف في فتاوى المفتين، واجتهادات المجتهدين. وكثير من هذه الأسباب أصبح القضاء عليه سهلاً ميسوراً بعد حركة الطبع والفهرسة والتنظيم للتراث الإسلامي والتي أصبح ميسوراً بواسطتها الاطلاع على مجموع الأحاديث المتفرقة في المسألة الواحدة، وكذلك الاطلاع على آراء المفتين وفتاواهم. ولا شك أن كثيراً من الآراء والفتاوى القديمة التي كانت تخالف الكتاب والسنة أصبحت مهملة الآن بفضل الاطلاع الجيد لعموم الناس على كتب الحديث والفقه. ولولا التعصب الشائن الذي ظل عليه بعض المتفقهة والمتأكلين بالدين لكانت وحدة التشريع -

وعلى الأقل في أمر العبادة - حقيقة قائمة بالفعل.

ب - وإذا كان الخلاف قديماً بأسبابه التي ذكرنا بعضها آنفاً خلافاً معقولاً ومقبولاً. فإن استمرار هذا الخلاف في أمور وضح فيها الحديث الصحيح، والفهم السليم للقرآن من غيره يصبح خلافاً غير معقول ولا مقبول بل هو تعصب مذموم، يؤدي كثيراً إلى تحريف كلام الله. ورد كلام رسوله ﷺ، وهذا أمر خطير جداً.

فلا عذر اليوم لعالم ينهى أتباعه عن قراءة الفاتحة في الصلاة السرية ولا عذر لإمام ينهى أتباعه عن وضع أيمانهم على شمائلهم في الصلاة، ولا لإمام يرى كراهية دعاء الاستفتاح والبسملة والاستعاذة في الصلاة، ولا عذر لعالم يفتي لأتباعه بجواز شرب قليل الخمر إذا لم تكن من غير العنب، ولا عذر لإمام يجيز لامرأة أن تتزوج دون ولي مهما كانت شريفة، ولا لإمام أو عالم يسمح لامرأة أن تسافر مع غير محرم وقد وضحت الحجة في كل ذلك من الحديث الصحيح الصريح. محتجاً بأن كل هذه الفتاوى صدرت عن أئمة الفقه والاجتهاد!!

وليس معنى هذا أنه لن يكون هناك خلاف في أمور الشريعة إطلاقاً بل سيكون هناك خلاف ولكنه خلاف لا بد منه في أمور محددة نستطيع ضبطه أيضاً والقضاء عليه.

سيكون هناك خلاف في الحكم على ما يستجد من أمور في حياة الناس: أطعمة وأشربة جديدة. ومعاملات مستحدثة اختلط فيها الحرام بالحلال ويختلف فيها نظر المجتهدين. وسيكون الضابط في الوصول إلى الحق في هذه المسائل: الرجوع إلى الكتاب والسنة، وعقد مؤتمرات للعلماء العاملين وهو أمر ميسور في هذه الأيام. وتقدير المنافع والمضار وذلك ميسور في عصر تقدم فيه فن الإحصاء ومتابعة النتائج.

سيكون الخلاف في مثل هذه الأمور منطقياً ومعقولاً ومقبولاً ولكن بقاء الخلاف في أمر العبادات التي لا تتطور ولا تتغير بتغير الزمان والمكان خلاف مذموم غير معقول ولا مقبول بل ويجب القضاء عليه، وجمع المسلمين جميعاً

فيها -أعني العبادة- على كلمة سواء وفعل واحد. ونبذ تلك الصور الشائنة للخلاف والتعصب فيها.

٤- وليس القضاء على هذا الخلاف الفقهي شيئاً ميسوراً - وإن كانت بوادىء هذا الأمر قد ظهرت والحمد لله - ولكنه عمل يحتاج إلى جهد طويل وعمل، متواصل وأستطيع أن أجمل طرائق القضاء على هذا الخلاف في الأمور الآتية:

أ - العمل على توحيد مصادر التشريع الإسلامي عليها. وهي: الكتاب والسنة، والإجماع والقياس.

فأما الكتاب فقد كفانا الله مؤونة الخلاف فيه بأن حفظه سبحانه وتعالى من الضياع والشتات. ولقد كان للعمل العظيم الذي صنعه الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو جمع المسلمين في الأمصار على حرف واحد من القرآن أطيب الأثر في جمع المسلمين. ولولا أمره رضي الله عنه بحرق كل ما يخالف القرآن الذي جمعه لكنا اليوم أمماً شتى، لكل أمة كتاب، لا أمة واحدة ذات كتاب واحد.

وإن تتمة هذا الأمر هو وضع موسوعة قرآنية تحرر فيها المعاني اللغوية لألفاظه، والمعاني الشرعية لأحكامه، والمعاني التاريخية لأخباره، والمعاني الصحيحة السليمة لعقائده ثم نبذ كل خلاف ورأي مجانب للصواب في كتاب الله وخاصة ما يسمى بالتفسير الباطني الذي لا ضابط له من لغة ولا شرع، وإنما هو ما تمليه الشياطين والوساوس. وقد سارع من يسمون أنفسهم بالمفسرين العصريين إلى النقل من هذه المباءات!!

وأما الأصل الثاني فهو الحديث الشريف، وهذا المصدر العظيم بالرغم من أنه يعادل القرآن في كثرة أحكامه واتساع بيانه إلا أنه قد اختلط بغيره مما افتراه أهل الأهواء الباطلة والسياسات الخبيثة والنحل المختلفة، وإن كان جهابذة العلم من أهل الحديث قد وضعوا الضوابط والقوانين لتمييز الصحيح من الضعيف وقام رجال مخلصون منهم بالتمييز والتنقية إلا أننا نحتاج اليوم إلى فصل كل ما ثبت عن الرسول ﷺ من كل ما افتري عليه، ووضع الثابت من

ذلك في موسوعة حديثية واحدة يقال للناس بعدها: هذا ما صح عن الرسول فاحفظوه وارووه واستشهدوا به، ثم نقوم بحرق وإتلاف كل ما سوى ذلك، وسيكون ذلك من أسعد أيام حياتنا عندما نرى أن سنة الرسول قد ضمها كتاب واحد كما ضم كلام الله المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ كتاب واحد. وعندها نستطيع أن نحكم على كل خطيب ومؤلف وفقيه هل استدل حقيقة بكلام الرسول أم لا. وقد كتبت في هذا الموضوع رسالة صغيرة سميتها: (حاجتنا إلى موسوعة حديثية) بينت فيها الأدوار التي مر بها تدوين الحديث، وكيف اختلط بغيره وواجبنا اليوم نحو حديث الرسول ﷺ والطريق السليم لجمع حديث الرسول ﷺ في كتاب واحد.

وأما الأصل الثالث فهو الإجماع وهو مصدر من مصادر التشريع بعد الكتاب والسنة ومعناه: إجماع أصحاب رسول الله، أو علماء المسلمين ومن يعتد بقولهم في عصر من العصور على مسألة معينة من مسائل التشريع.

والإجماع حسم للخلاف في مسائل كثيرة، ولكنه يُدَّعى حيث لا يكون، ويُفتقد حيث ينبغي أن يكون. فكم من عالم ادعى الإجماع في مسائل ولم يكن هناك إجماع، وكم من عالم أنكر الإجماع وادعى الخلاف، وقد كان الإجماع.

وضبط هذا الأصل يحتاج إلى لجنة من علماء المسلمين تتبع كل ما ادعي فيه الإجماع ثم تقوم بتحقيق ذلك، فإن كان ثابتاً أثبتته وإن كان مجرد دعوى نفته، ثم تصدر كتاباً تجمع فيه -مبوباً- كل المسائل التي كان فيها إجماع، وبذلك تحدد أيضاً هذا المصدر.

ولا شك أن الإمام المسلم في زماننا يستطيع استخدام هذا المصدر حديثاً للقضاء على كثير من الخلاف في المسائل الشرعية الحادثة كالأطعمة والأشربة الحادثة التي كثر حولها الجدل والخلاف وصنوف المعاملات الحادثة كالتأمين والمضاربات والسندات.. الخ وذلك بجمع العلماء المشهود لهم بالخيرية والعلم للنظر في هذه المسائل وإعطاء الرأي والحكم فيها وبذلك ينبذ الخلاف وينقطع الجدل.

وأما المصدر الرابع فهو القياس، وهو أصعب المصادر ضبطاً وتطبيقاً

ولكن من الممكن وضع ضوابط محددة لهذا المصدر وطرق محددة مبسطة لطريقة استخدامه في استنباط الأحكام الشرعية. وبذلك يصبح هذا الميزان صالحاً معلوماً مفهوماً للمجتهدين في شتى بلاد الإسلام.

وباختصار نحن في حاجة إلى توحيد المسلمين في عباداتهم حتى تصبح صلاتهم وصيامهم وزكاتهم وحجهم، ومناسكهم واحدة لا خلاف فيها.

وإنني في هذا الصدد لأحمد الله تبارك وتعالى إذ انتشر في المسلمين اليوم الدعوة إلى فقه الكتاب والسنة على النحو السهل الميسر الذي تعلم به السلف الصالح وأصبحت الدعوة إلى التمسك بالكتب الفقهية المعقدة قاصراً على طوائف تندثر تباعاً، ويندثر معها التعصب والتعقيد والجهالة.

ولا شك أننا سنستفيد كثيراً عندما نطالع وندرس كتب الفقه التي صنفها أئمة المذاهب أو التي ألفت بعد عهدهم بقليل، هذه الكتب التي ذكر الإمام فيها رأيه ودليله من الكتاب والسنة وناقش الآخرين في آرائهم وأدلتهم.

وارتضى ما وفقه الله له. إننا بذلك سنطلع على مبلغ علم من سبقنا بالإيمان والعلم والعمل وسيكون لآرائهم النيرة هداية لنا في مشكلاتنا الحاضرة. ولكنها لن تكون جميعاً كذلك فإن ظروف البيئة التي عاشوا فيها جعلتهم يفتون في كثير من المسائل بآراء لا يمكن لنا الآن قبولها. ولا العمل بها.

٥- وبعد... إذا استطعنا توحيد مصادر الشريعة وضبطها ووضع النظم والقواعد للاستفادة من تراثنا الفقهي التشريعي. فإن الخطوة التالية هي الجهاد لإحلال هذه الشريعة الغراء مكان الفوضى التشريعية التي نستوردها من الشرق والغرب. وهذا واجب دعاة الإسلام الذين سيبتلون ويحاربون في سبيل ذلك. وستكون الغلبة لهم إن شاء الله.

وإن واجب واضعي المناهج في الجامعات الإسلامية التي تدرس الدين فقط أن يحلوا تدريس القوانين والمعاملات المدنية الإسلامية بتوسع وشرح مقارنة بين الإسلام والكفر أن يقتصدوا جداً في تعليم الطلاب آداب الحاجة، وشروط المياه.

وأما جامعاتنا المدنية التي اقتصرت على تعليم شؤون الدنيا فإن واجب

القائمين عليها هو إدخال تعليم الدين من الكتاب والسنة بنظافته وطهارته وسموه فإن فيه حلاً لمشكلاتنا الحاضرة، وتقريباً لوجهة النظر وتوحيداً لأمتنا التي يلعب الموج بسفنها في كل اتجاه.

إننا إن فعلنا ذلك فإنه سيخرج في وقت قصير من الزمان علماء أجلاء يفهمون الشريعة الإسلامية على مستوى العصر. ورجال - أجلاء من أهل الدنيا - مهندسون وأطباء وصيادلة وتجار وأدباء يفهمون الدين على مستوى العصر أيضاً ؛ وبذلك يجد الجميع بغيتهم في الوحدة.

إننا نريد علماء على مستوى العصر علماً وثقافة وأدباً وخلقاً وشجاعة وإقداماً وفهماً لأساليب الكيد والدس على الإسلام.

لو وجد هذا الصنف من العلماء فإنه سيكون الرباط القوي الذي يحزم هذه الأمة المفككة في رباط تشريعي وخلقي واحد.

وهذه دعامتنا الثانية نحو وحدة أمتنا الشريعة الواحدة التي يقوم عليها ويحرسها علماء أجلاء يعيشون على مستوى عصرهم فهماً وعلماً وعملاً.

٦- لعلي بهذا الاستطراد السابق لم أشط بك أيها القارىء الكريم ؛ فما زلنا في سعينا نحو تحقيق وحدة شريعتنا. وقد ذكرت في الفقرة السابقة أن ذلك لن يكون إلا برجال على مستوى عصرهم فهماً وعلماً، وذلك أن (الحكم على الشيء فرع عن تصوره) ومعنى هذه العبارة: إنك لا تستطيع أن تحكم على شيء إلا إذا تصورته تصوراً صحيحاً. والعلماء الذين يراد منهم الحكم على ما جد من أمور في حياة الناس لا بد أن يعلموا أن هذه الأمور والأحكام الإسلامية تشمل السياسة والمعاملة.

ومعاملات الناس في عصرنا متشعبة معقدة، وما لم يوجد لدينا رجال للإسلام يفهمون السياسة الحاضرة بدروبها ومنحدراتها والتوائها ليحكموا عليها، وليوجهوها نحو الإسلام فلا أمل في خلاص هذه الأمة مما هي فيه. وأولى أمور الناس في الشريعة بالبحث والحكم هي أمور السياسة التي يحتكرها اليوم أناس ليسوا من أهلها بأي حال. وأهل السياسة الحقيقيون هم رجال الإسلام وعلماء الأمة الذين سيحققون العدالة الحقة والمساواة الحقة، ويقودون الأمة

بشجاعتهم وشهامتهم نحو النصر. والحكم على المعاملات الجارية من بيع وتجارة ورهن وضمان وتأمين يجب أن يكون لرجال الإسلام الذين يفهمون الموازين العادلة التي أنزلها رب السماوات والأرض. وإذا كان هؤلاء العلماء أصحاب مصادر واحدة للحكم، وثقافة واحدة للحياة فإن أحكامهم على هذه الأمور ستكون متقاربة إن لم تكن واحدة. وهذا ما نفقده ونسعى إليه. ونصرخ في أذن الأمة لتسعى إلى إيجاده.

٧- وحتى نصل إلى ذلك وقد يكون بعيداً نسبياً فإن ثمة موازين عاجلة إن استعملناها في وقتنا الحاضر يسرت علينا سبيل هذه الوحدة وجعلت أحكامنا على الأمور صائبة:

أ - الأمر الأول الذي أنصح به علماء المسلمين الذين يتصدرون للفتيا والتشريع أن يطلعوا على آراء غيرهم وأدلتهم قبل أن يفتوا ؛ فقد يكون الحق والحجة مع غيرك.

ب - والأمر الثاني أنه لا يجوز أن يفتي الناس من لا يعرف دليل فتواه من كتاب أو سنة. ولا يكفي أبداً أن يفتي المفتي بقول ينسبه إلى أحد الأئمة المجتهدين. وقد قال الإمام العظيم رحمه الله ورضي عنه أبو حنيفة النعمان: "حرام على من لم يعلم دليلي أن يفتي بقولي " فلنتق الله ولا ننشر رأياً في الناس إلا بعد علم دليله من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ.

ج - وأما الأمر الثالث: فإن واجب العلماء أن يتهموا آراءهم في الدين ؛ فكم من قائل رأياً اليوم عائد عنه غداً. فلنتهم آراءنا، ويكفينا في ذلك كلام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: (أيها الناس اتهموا الرأي في الدين. فوالله لقد كدت أن أرد على رسول الله ﷺ أمره يوم حادثة أبي جندل) [رواه الطبراني وقد جاء أيضاً من قول سهل بن حنيف وابن مسعود] وكان ذلك في فتح الحديبية عندما وقع الرسول شروطاً لم يرتضها المسلمون وظنوها ظلماً لهم، ورضاً بالدنية والذل، وقد كانت بفضل الله غير ذلك بل كانت أعظم فتح في الإسلام. فالواجب على كل عالم من علماء المسلمين اتهام رأيه في الدين وخاصة في أمور السياسة الشرعية والدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وما يستجد

من أمور في حياة الناس، فيسارع إلى التكفير بغير دليل، أو التفسيق أو التحليل أو التحريم فيقول الله له: كذبت لم أحرم هذا !! أو يقال له كذبت لم يكفر فلان بهذا الفعل بل كفرت أنت!! ومن قال لأخيه المسلم يا كافر فقد باء بها أحدهما.

د - وأما الأمر الرابع فإن الواجب على كل مسلم أن يعذر أخاه ويسامحه في الأمور الخلافية التي لا يتحدد فيها معنى النص تحديداً يجعل ما سواه باطلاً، وكم من وقائع كان فيها خلاف بين الصحابة، ولكن بعضهم عذر بعضاً، وسامحه. وترك له رأيه.

هـ - ولم يبق بعد إلا أمر أخير وهو أن يتقي الله امرؤ يتكلم عن الله وعن رسوله (ﷺ) يتكلم باسم الله وباسم رسوله (ﷺ) فليحذر من الكذب عليه.

هذه موازين خمسة أرجو إن وزن بها علماؤنا أن يوفقوا دائماً إلى الحق، وبذلك نحقق الشريعة الواحدة ونخرج مما نعيش فيه من فوضى تشريعية في جميع نواحي حياتنا.

الفصل الثالث

بعث آداب السلوك والخلق

١- لو قيل إننا أمة بلا أخلاق لما كان هذا القول كذباً ! ولو قيل إن من أسباب نكبتنا الحاضرة ضعف أخلاقنا لكان هذا قولاً صواباً، ولو قلنا إننا في نهضتنا الحاضرة يجب أن نسعى إلى بناء أخلاقي متين لكانت هذه الدعوة واجبة بل هي دعوة الإصلاح الحقيقية. فما الأخلاق؟ وما منزلتنا منها؟ وكيف نكون أمة ذات خلق؟

٢- لن أبحث هنا بحثاً فلسفياً عن الأخلاق وموازينها وأهدافها وغاياتها وإنما أريد أن أبحث حيث يكون الاتفاق عاماً، والقضايا لنصل إلى ما نريد دون عناء وإعنات.

أ - لا ينكر أحد أن أخلاق علمائنا -إلا من شاء الله منهم- وقادتنا ومفكرينا وأصحاب الأقلام منا في غاية السوء. فالصدق والشجاعة وهما دعامتا الأخلاق كلها يكادان أن يكونا مفقودين بين أولئك وبين عامة الشعب - إلا أفراداً قلة - يهمل حكمهم لقلتهم وندرتهم.

ب - ولا ينكر قيمة الأخلاق في ميزان الواقع إلا جاهل، وأعني بذلك أن فائدة الأخلاق وقيمتها المادية قد تكون أكبر من المال والعلم والشهادة والخبرة. ومثال ذلك تاجر يملك مائة دينار وهو ذو خلق، وتاجر يملك مائة دينار وهو خلو من الأخلاق الطيبة، في ميزان الواقع والمادة لو كانت خبرتهما بالتجارة سواء لربح الأول أضعاف ما يربح الثاني. ولأفاد مجتمعه أضعاف ما يفيده الثاني، بل التاجر الخالي من الأخلاق قد يضر مجتمعه بالاحتكار والغش وغير ذلك.

وجندي ذو خلق أفضل في الميدان من مائة جندي بلا خلق، فمن الأخلاق الشجاعة وهي مطلوبة في الميدان، ومن الأخلاق الأمانة. وإذا لم يكن الجندي أميناً فهو عدو. ومن الأخلاق الإيثار والتضحية، ولا ينتصر جيش إلا بإيثار وتضحية، وأما جيش يحرص كل فرد فيه على حياة نفسه، فإنه لا يذوق طعم النصر.

وعالم ذو خلق سيكون تأثيره في مجتمعه أضعاف أمثاله الخائفين الممالئين المنافقين، بل إن أولئك وإن حملوا العلم وحفظوا المسائل هم دعاة إلى الشر صادون بفعلهم وقولهم وسيرتهم عن سبيل الله.

وحاكم ذو خلق هو رحمة الله في الأرض، ولا أقول هو خير من حكام غيره ليس عندهم أخلاق بل الحاكم إذا عري من الصدق والشجاعة والأمانة والرحمة فلن يكون إلا ذئباً جائعاً مسلطاً على رقاب الناس وأعراضهم. وأظن بعد ضربي لهذه الأمثلة أنه لا ينكر فضل الأخلاق إلا جاهل غبي، ورحم الله شوقي إذ يقول:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وإن من الشعر لحكمة!! فأمتنا ذهبت يوم ذهبت أخلاقها. ولن تعود للحياة إلا يوم تعود هذه الأخلاق التي جعلت منا أمة في السابق.

٣- قد يقال إننا في حاجة إلى علم وتقدم مادي وسلاح وخبرة ولا ننكر هذا ولكنه دون سعي إلى بناء أخلاقي فإنه ضائع ذاهب، فنظرة واحدة إلى طبيب قد كفلت له المقدرات المادية والمقدرة العلمية الطبية، وهو عار من الأخلاق سترينا كيف تهدر نقودنا هباء، ويعود مرضانا بعلل أكبر من التي ذهبوا بها إلى مستشفياتنا. ونظرة أخرى إلى مهندس حاذق قد أؤتمن على مشاريع الأمة وأموالنا سترينا كيف ضاعت هذه الأموال هدراً، وكيف فقد سيادة المهندس حذقه وتجربته وعلمه يوم فقد أمانته وأمانة أمته. كيف غشها لنفسه، وسرق مالها لجيبه.

ونظرة ثالثة - مقنعة - سترينا كيف أن قوادنا ورؤساءنا الذين كان الأمل فيهم أن يسهروا لننام !! وأن يخاطروا بأنفسهم لننجو نحن، وأن يقدموا

أرواحهم لتحيا أمتهم. كيف أنهم ناموا آمنين محاطين بالحراس !! ونمنا خائفين متوجسين من أعدائنا. وكيف شبعوا وجاعت بطون شعوبهم. وكيف قدمونا للموت وجلسوا خلفنا يرسلون الدموع.

علموا شعوبنا الخلق قبل الطب والهندسة وفنون الحرب والقتال!! نحن في حاجة إلى بعث خلقي كامل من الرأس إلى القدم من السيد إلى الخادم. فكيف نبني هذه الأخلاق ؟؟!!

٤- في مطلع هذه الرسالة انطلقنا من منطلق محدد وهو الإسلام، وأحب أن أذكر به ثانياً حتى لا نتيه بفعل ثقافتنا المتغايرة ونظرتنا المختلفة إلى الأخلاق إذ ما من حق كثر حوله الخلاف ما كثر حول الأخلاق، فالنظرة إلى الخلق مختلفة باختلاف العقيدة، والمذهب والاتجاه، وتبعاً لذلك البيئة حيث يتجمع أناس تسود بينهم عقيدة واحدة. وأمثلتي السابقة التي شرحتها وبينتها لن تفيد جاهلاً يقول: الأخلاق نظام برجوازي وضعه الأغنياء ليستذلوا به الفقراء فيعلموهم الأمانة حتى يحافظوا على أموالهم والصدق حتى يسودوا عليهم.. ولن تفيد ساقطاً آخر يقول ما للجنس والأخلاق تلك حاجات وحريات شخصية لا دخل للأخلاق بها. ولن نذهب لنناقش هؤلاء وهؤلاء ما هم فيه من عماية وجهل. وقد كتبت رسالتي هذه لأبناء أمتي التي لم تتدنس فطراتهم بعد، والذين يملكون قدراً سوياً من الفهم والخلق والذين يشتاقون إلى رفعة أمتهم وعزتها ولكنهم يجهلون الطريق إلى ذلك.

وأعود بعد هذا الاستطراد إلى الجواب عن السؤال الذي طرحته آنفاً: ما الأخلاق؟ وأقول لقد كفانا الله مؤونة هذا البحث الذي وصل فيه الناس قديماً وحديثاً. الأخلاق التي نريدها هي تلك التي بينها الله في كتابه وبينها رسول الله (ﷺ) بقوله وعمله.

وليست رسالته إلا تتميماً لمكارم الأخلاق. ويكاد يكون الدين كله خلقاً فتوحيد الله خلق لأنه اعتراف بالحق، وشكره خلق لأنه عرفان بالجميل، وعبادته خلق لأنه مجازاة للإحسان بالإحسان، وضوابط المعاملات خلق، لأنها أخذ بالعدالة، والشجاعة خلق وقد أمر بذلك والأمانة خلق وقد أمر بذلك، وليس

هناك من نهي إلا وهو نهي عن خلق سيئ. فديننا دين أخلاق ومن كان عارياً منها فليس بمسلم قطعاً. هذه قاعدتنا التي نقف عليها، أخلاق الإسلام الحميدة من شجاعة وتراحم وأمانة وصدق وعرفان بالجميل وشكر على الإحسان، وعفو عند المقدرة، وصبر على البلاء ومجالدة الأعداء وغير ذلك من أخلاق لن يحوي دستور العالم أجمع قطرة من بحر دستور الإسلام في الأخلاق.

٥- ولكن يا حسرة على المسلمين. إنهم من أكثر الأمم عرياً من الأخلاق وانغماساً في الرذيلة، وإغراقاً في الفوضى والقذارة والانحطاط!! والله إن الإسلام من هذا براء!! فمن هذا شأنه ليس من الدين في شيء.

٦- وهنا يبرز هذا السؤال: عرفنا الخلق الذي نريد بعثه ونشره وعرفنا حال الأمة. عرفنا الدواء وعرفنا المريض فكيف نعالج؟ كيف نصيب هذه الأخلاق المكتوبة لتكون نماذج حية متحركة؟ كيف نبعث أخلاق أمتنا من جديد؟ وتفصيلات هذا الجواب ليست من موضوعات هذه الرسالة، ولقد بحثت هذا الأمر مفصلاً في (أصول الدعوة وقواعدها - الأصول العلمية للدعوة السلفية) للجواب عن هذا السؤال:

هناك ثلاث دعائم رئيسة لتعليم أي سلوك أو خلق أو عقيدة، أما الدعامة الأولى فهي البيان. ونعني بالبيان إيضاح الفكرة المقصودة سواء كانت عقيدة أو سلوكاً أو خلقاً. وللبيان أساليبه الكثيرة المتعددة.

وأما الدعامة الثانية: فهي بيان الغاية والمقصد لهذه الفكرة وبيان الغاية بمثابة الحافز للعمل. ومن دون هذا الحافز لا تندفع النفس للعمل والامتثال.

وأما الدعامة الثالثة: فهي امتثال الداعي إلى الخلق بما يقول به، والتزامه بكلمته.

وعلى الأسس السابقة سنبين دعوتنا إلى الأخلاق، بيانها أولاً من الكتاب والسنة بأي أسلوب سواء كان خطابة أو كتابة أو شعراً أو نثراً أو مقالة أو تأليفاً. وثانياً قرنها بالغاية والهدف منها، وبيان آثارها في النفس والمجتمع والحياة الدنيا والآخرة. وثالثاً امتثالنا نحن لما نقول به، فلا يصدر منا إلا ما نستطيع فعله، وما نقدر نحن على أدائه.

وعلى أساس من القواعد السابقة سنحاسب أنفسنا على ما نقول ونفعل ونحاسب غيرنا على ما يقول ويفعل؛ سنحاسب أنفسنا على الأخلاق سواء كانت شيئاً مهماً عظيماً كأمانة الحاكم وصدقه وشجاعته، أو شيئاً يسيراً كإلقاء قارورة فارغة في الطريق أو تقذير مكان عام!!

وعلى أساس من القواعد السابقة سنعاقب على مخالفة مبادىء الأخلاق كما نعاقب على مخالفة لوائح القوانين. ويجب عندئذ أن نقدر الغرامات المادية والأدبية لكل مخالفة لخلق نتفق عليه.

لماذا لا نفرض عقوبة مقدرة لمن يسب الأعراض؟ ويلعن الوالدين؟. بل ويلعن الدين والرب والرسول! وأي مقدرات لنا بعد انتهاك حرمات الدين والعرض والرسالة والألوهية!! أيسن القانون لسب الحكام وتقدر العقوبات الزاجرة لذلك ولا يسن القانون لمن يهدم عقيدة الأمة وخلقها وعرضها وتاريخها ودينها!.

يجب أن نطالب بوضع قانون أخلاقي كامل يقدر العقوبة على إساءة الخلق من سب الرب ابتداءً إلى البصق في الشارع انتهاءً، ويحق أن يكون كل فرد فينا حارساً لهذا القانون ابتداءً من الحاكم المنصب وانتهاءً بأقل فرد من عامة الناس.

لست أدري كيف نرشح للطب والهندسة والقيادة الحربية والتربية والتعليم والوعظ والإرشاد والخطابة أناساً غير ذي خلق ؟ لماذا لا يوضع قانون أخلاقي يحاسب كل أولئك على أخلاقهم وسيرتهم قبل أن يحاسبهم على عملهم وثقافتهم ؟!

ولست أريد بذلك أن أجعل السيف مصلتاً على رقاب الناس عند كل صغيرة وكبيرة. كلا! بل أريد أن نلتزم بتنفيذ فقط ما نتفق عليه وذلك أن تساهلنا في صغائر الأمور يجرنا إلى التساهل في عظائمها.

لقد أصبحنا ننظر إلى كذب الحاكم على شعبه بنفس النظرة التي ننظر بها إلى أب يكذب على ابنه، ويوم نلوم أباً يكذب على ولده لحرصنا أن لا يتعلم طفل من أطفال الأمة الكذب، فإننا سنعظم هذا الأمر من المسؤول والحاكم.

إن الجريمة الخلقية جريمة سواء ارتكبت مع فرد واحد أو أمة وشعب ويجب أن تعظم الجريمة لذاتها قبل أن نعظمها لآثارها المباشرة. فالله سبحانه وتعالى يدخل امرأة النار في هرة لأنها حبستها حتى ماتت جوعاً، لأن هذا الفعل في ذاته جريمة خلقية بصرف النظر عن أثر هذه الجريمة المباشرة وأنه موت قطة!!

٧- إن أول عمل سنقوم به لننشر الأخلاق الكريمة هو استنكار ما نراه من إساءة للخلق بأي صورة من الصور ومن أي فرد من الأفراد.

٨- إن أبناء أمتنا يزورون بلاد الغرب، ويكون جل حديثهم وإعجابهم على ما شاهدوه من حسن المعاملة، لا ما شاهدوه من تقدم وحضارة. وبعد أن فتحت الضفة الغربية ليزورها أبناء العرب فإنهم يشدهون بحسن معاملة الجندي الإسرائيلي لامرأة عربية تحمل طفلاً فيحمل عنها طفلها حتى تنجز معاملاتها ويعطي طفلها الحلوى والبسكوت ويهش له، ثم يودعها بكلمة طيبة. فإذا انتقلت إلى الشاطىء الآخر شاطىء العرب سمعت الإهانة، ورأت الشماتة، وعطش وليدها ولم يجد شربة ماء، ولم تنجز معاملتها إلا بعد أن ينفد صبرها!! وهذا هو الخلق الحسن يحمل عدوك على احترامك وهذا هو الخلق السيىء يحمل صديقك على عداوتك، وكيف تعيش أمة وتحيا يسود بين أفرادها مثل هذه الأخلاق التي نعرفها جميعاً؟ إننا جميعاً مطالبون باستنكار كل صور الإهانة الخلقية لأي فرد منا في أي موطن من المواطن، وإن كل فرد منا مطالب بأن يسلك أمثل الأخلاق في معاملته لإخوانه، ليس مسلماً من يتعدى الصفوف ليقطع تذكرة! أو ليدخل على طبيب، أو ينجز معاملة!! وإخوانه ينتظرون في ذلة مهينة، وفوضى مخزية، فمتى نفيق لتغيير هذا الواقع المرير.

٩- إن بعث هذه القضايا الخلقية سيجعلنا نضع حساباً لكل مسؤول يستخدم المسؤولية التي أناطتها الأمة به في سبيل مصلحته ومصلحة معارفه وأقاربه. إن الأمة لا تستفيد من مقدراتها، ومالها وإمكانتها إلا بجزء يسير وأما الباقي فإنه يصرف في المصالح الخاصة وهذه قضية خلقية خطيرة يجب أن نضع لها حساباً وقانوناً فليس خلقاً أن تؤمر الشعوب بعيش الكفاف والتقشف ويعيش

الملوك وأشباه الملوك في الحرير والديباج.

١٠- وفي نهاية هذا الفصل أقول: نحن بحاجة إلى وضع قانون أخلاقي للأمة بأسرها، فلا نرفع إلى مستوى المسؤولية إلا من هو أهل أخلاقياً وننحي بواسطة هذا القانون عن المسؤولية من ينتهك حرمة هذه الأخلاق، وبذلك نضع الأمة جميعها في موضع الحارس لأمانة الأخلاق التي من دونها لا نستطيع النهوض والحياة مرة ثانية.

من هم أعداؤنا؟

١- إذا استطاعت أمتنا أن تعرف منطلقها نحو النصر، وأرضها التي تقف عليها وأنها الإسلام، واستطاعت في ظل الإسلام أن توحد عقيدتها، وأن تنظم تشريعها وتوحده، وتنزل به إلى واقع الحياة، واستطاعت بعد أن تبني أخلاقها بناءً سوياً متكاملاً فليس أمامها بعد إلا إن تعرف أعداءها، لتحذرهم ولتواصل سيرها نحو العز والمجد. فمن أعداء هذه الأمة الإسلامية؟

وقبل أن أجيب على هذا السؤال، أحب أن أبين القاعدة التي يبنى عليها اعتبار العداوة وانتفاؤها.

إن أسباب العداوة بين الأمم غير الإسلامية كثيرة منها العداوة من أجل الجنس، والعداوة بسبب اللون، والعداوة بسبب المصالح ومناطق النفوذ، والعداوة بسبب الدين. وكل هذه الأسباب تؤجج حروباً، وتدمر بلاداً. وتفني شعوباً. وقد يتفق هؤلاء الأعداء الذين فرقتهم الأسباب السابقة إذا وصلوا إلى حلول رضيها الجميع وهنا ينمو ما يسمى بالتعايش السلمي. وقد تكون هذه الحلول تنازلاً من كلا الطرفين عن جزء مما يعتقد به، ويسعى من أجله. ولكل ما سبق أمثلة كثيرة يعلمها من اطلع على تاريخ الأمم وحروبها ومشاكلها.

والأمة الإسلامية ينبع اعتبارها للأعداء ابتداء من عقيدتها. فأعداء هذه الأمة هم أعداء دينها، وكذلك من يساعدهم ويظاهرهم ويشد أزرهم في حربها. وعلى هذا الأساس، لا نقبل صداقة أمة وشعب يتودد إلينا بالمساعدة المادية ويحارب ديننا وعقيدتنا. وبالمفهوم السابق تصبح كلمة (كافر) في الشريعة تعني (عدواً) بالصفات المذكورة لذلك. فالكفار المحاربون لعقيدتنا

ولمن ينتمي إليها أيا كانوا لا يجوز اعتبارهم أصدقاء إلا إن أردنا انسلاخاً من رسالة الإسلام.

وهؤلاء الكفار في وقتنا الحاضر المحاربون لنا ولعقيدتنا هم الشيوعيون الملحدون، والنصارى المتعصبون الداعون لحرب الإسلام وقتل المسلمين، واليهود المتعصبون المحاربون، وطوابير المنافقين المنبثين في صفوفنا. والوثنيون المتعصبون المحاربون للإسلام.

أما اعتبار كون هؤلاء أعداء لنا شرعاً فلا مجال للنقاش فيه لأنه حكم يعلمه كل مسلم مطلع على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١].

وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

ولقد كان تفكك صف المسلمين وضعف قوتهم من جراء موالاة أعداء الله تبارك وتعالى والبوح بأسرار المسلمين لهم، والتاريخ القديم والحديث شاهد أمين على ذلك.

وإن أعظم خطر على الأمة هو هؤلاء العملاء الذين ينبثون في صفوفنا باسم (الخبراء) وخاصة في شؤوننا العسكرية والحربية ولقد كان البلاء كل البلاء من اطلاعهم على عوراتنا، وتسلمهم زمام أمورنا، واستشارتهم وطلب نصحهم

في حربنا مع بعض أعدائنا وهم من ألد أعداء أمتنا.

ولست أعني بذلك أن نعلن الحرب منذ البدء على كل أولئك، وإنما أردت اعتبارهم من البدء أعداءً -مهما بالغوا في إظهار عطفهم ومحبتهم- ثم اتخاذ السياسة الشرعية في حربهم، فلا هجوم على عدو إلا باستعداد مماثل لاستعداده، وبقوة مقاربة لقوته، وتقديم الأهم على المهم واجب، والعدو الملاصق قبل العدو البعيد ولا شك أن المسلمين في أثناء ذلك لا بد لهم من مهادنة بعض الأعداء ليتفرغوا إلى بعضهم، ويحدد هذا السياسة الشرعية الواعية المرحلية.

وعندما ذكرت اليهود والنصارى والمجوس فإني ذكرت فقط المتعصبين منهم الداعين لمذهبهم الباطل، المريدين للمسلمين الكفر الساعين بينهم بالفساد والإفساد، وأما المعتدلون منهم. الذين يعيشون في أوساطنا، وقد انتموا إلى عروبة هذه الأمة. ولم يكرهوا دينها، ولم يحاربوا رسالتها فلهم حقوقهم وعليهم واجباتهم، ولهم منا كل بر وإقساط وعدل ومرحمة.

ولن تفلح الوسائل السطحية التافهة، والخطب الرنانة الجوفاء -بعد- في حرب المتعصبين للمذاهب الباطلة من أعدائنا. فإن المكر والخداع والخبرة الطويلة في قرون متعاقبة - لحرب الإسلام والمسلمين من أولئك قد مكنهم من معرفة الأساليب الخبيثة. والمفرقة في الكيد والمكر. ولذلك لا بد من دراسة واعية مستفيضة لكل أساليب حرب الإسلام والمسلمين، وإذلال دولته حتى يكون التصدي لهذه الأساليب على مستواها، وإلا كان جهاداً هزيلاً يظهر للعالم ضعف الإسلام لا ضعف المسلمين، وما هابه الإسلام في أعين كثير من الناس إلا يوم هاب المسلمون عن رد كيد أعدائه، وضعف شأنهم في رد مكرهم. وقد يكون الرد الساذج التافه على أعداء الإسلام، والتصدي الضعيف الواهن، والجهاد الخاطىء أشد إفساداً لرسالة الإسلام وإضعافاً للمسلمين من كيد الأعداء أنفسهم.

ولذا لا بد وأن يكون المسلمون على مستوى مسؤولياتهم في العصر الحاضر.

فعلماؤنا الفضلاء الذين لا يدرون شيئاً عن الجمعيات السرية للأعداء، ولا يدرون كثيراً عن مخططاتهم، ولا يدرسون شبهات أعدائهم، ودسهم لن

يصلحوا بتاتاً في الرد على كيد أعدائهم، ولن يستطيعوا تخليص شباب الأمة من مخالب هذا الكفر البغيض.

وقد أُلِّفَتْ والحمد لله عدة مؤلفات تبين كثيراً من هذا الدس الخبيث قديماً وحديثاً أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ليستنير بها دعاتنا الكرام، وعلماؤنا الأفاضل في حربهم لأعدائهم: (التبشير والاستعمار، والغارة على العالم الإسلامي، حصوننا مهددة من داخلها، وفي وكر الهدامين، وبروتوكولات حكماء صهيون، واليهودي العالمي، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر). هذا بالإضافة إلى كتب الجاسوسية الأمريكية، وفضائح المذابح الشيوعية وحرب الإبادة للمسلمين في بلادهم، ومنشوراتهم الرهيبة لحرب الإسلام والمسلمين.

إن هذه المعرفة بهؤلاء الأعداء ستنير لنا الطريق، وتوضح لنا معالمه، وبذلك نأمن في مسيرتنا نحو النصر هذه الأفاعي الخبيثة المبثوث بعضها في طرقنا بل وفي بيوتنا وداخل حصوننا.

وما لم تكن هذه الكتب وأمثالها مدروسة مقروءة على المستوى الإلزامي العام، ومقروءة على المستوى الشعبي الجماهيري، ومفهومة لدى الداعين الواعين فإن هذه الأمة ستظل في التيه والحيرة لا تدري من هو العدو ومن هو الصديق، ومن الذي يصادق، ومن الذي يحذر.

والمشكلة في هذا أن العدو الداس الواحد يستطيع تفريق الأمة، وتشتيت رجالها إن هو أحسن استخدام أساليب المكر والخداع وكم من أعدائنا من يحسن ذلك !!

ما حجم قواتنا؟

لم يبق في هذه الرسالة إلا هذا الفاصل، أحببت أن أختم به نفيري لأمتنا العزيزة معرفاً رجالها وقادتها -وكثير منهم يعلم- حجم قوتها، ومقدرتها.

وإذا كانت الفصول السابقة من رسالتي هي بناء أو محاولة لبناء الجانب العقدي الإيماني في رجالنا. فإن هذا الفاصل المجمل هو لبيان الجانب المادي، المقومات المادية لأمتنا.

وإذا كانت أمتنا تحتاج - حتى تكون على مستوى سوي أفراداً وجماعات - العقيدة الواحدة الدافعة (الإيمان) والتشريع الواحد، والخلق الكامل. فإنها تحتاج كذلك في بنائها المادي إلى التنظيم الشامل الكامل.

فما مقدرات أمتنا المادية؟ وما مقدرتنا نحن على استخدامها؟

لن أطيل كثيراً في هذا فليس هذا من اختصاصي ولكني سأذكر خطوطاً عريضة فيه أراها لازمة لقيام أمتنا وبعثها من جديد.

فأما الله سبحانه وتعالى فإنه قد مَنَّ على هذه الأمة بكل مقومات القوة: فالموقع الهام في العالم، والمناخ الأفضل، والأنهار الجارية. والمياه المتوفرة، والتربة الصالحة، والأرض الخالية، والرجال الأقوياء، والكنوز المدفونة، والعدد الصالح العظيم، والاستجابة للحق عند رجالها، والشهامة والمروءة، كل هذا والحمد لله متوفر، لم يحرم الله منه أمتنا. ولكن كلنا يعلم أن جميع هذه المقدرات ضائعة تالفة.

فموقعنا الممتاز أصبح نهباً للأعداء، وأرضنا، وأنهارنا بلا استغلال أو باستغلال تافه، وأموالنا في مصارف أعدائنا. وفي أيدي سفهائنا، ورجالنا في شتات وضياع فأهل العلم المادي والخبرة منا يهملون في أوطانهم ويهانون، ويكرمون عند أعدائنا فيهربون إليهم ويكونون عوناً لهم علينا، وكنوزنا من الذهب الأسود لا نستفيد منها إلا قليلاً لعدم قدرتنا على التحكم في استخراجها والهيمنة على شركاتها وكنوزنا من الذهب الأصفر والعملة السائلة مودعة في مصاريف أعدائنا يستغلونها كل الاستغلال حتى في حربنا وإنهاك قوتنا ومساعدة عدونا.

ولست أدري كيف كان يمكننا أن نحارب إسرائيل، ومالنا ليس بأيدينا، والمال عصب الحرب الطويلة الناجحة. إننا نحتاج قبل هذه الحرب إلى أن تكون أموالنا بأيدينا - وأعني بهذه الكلمة أن يكون حفظ غطائها الذهبي - ببلادنا، وأن يكون لنا عملة معترف بها دولياً، وأن تكون استثماراتنا لنا، ونحن الذين نهيمن على أموالنا، وبالطبع لن نستطيع فعل ذلك إلا إذا استقر الأمن والنظام ببلادنا، وانتهت مظالم تأميم الأموال والشركات، وأصبح رأس مال

الأغنياء الشرفاء يتمتع بالحماية والأمن. وبذلك تبرز رؤوس الأموال المخبوءة ببلادنا، ويفد إلينا ما غاب عنا بمصارف أعدائنا. وبالطبع سيعمل هذا على رواج الصناعة والزراعة في مجتمعاتنا المنكوبة. وسيكون هذا عماداً لحرب طويلة مع العدو.

وأما الرجال فنحن نملك منهم ما نستطيع أن نسود به الدنيا لو ربوا التربية الإسلامية العسكرية الجادة، وعلموا كيف يبذلون أرواحهم ودماءهم لا يبغون إلا أن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى. ولكن لا يقف دون هذه الغاية إلا خوف ضعاف حكامنا على مراكزهم، ولكن ليعلموا أن تسليح شعوبهم، والنهوض بها عسكرياً وإيمانياً هو أقوى الدعائم التي تحفظ لهم ملكهم وعزهم، وذلك أن الشعوب والأمم مفطورة على حب وتعظيم الحكام المخلصين الصادقين.

وأما الخبرة العلمية فهي متوفرة في رجالنا المسلمين المخلصين ولكنهم يحاربون في أرزاقهم ونبوغهم من ذوي النفوس الضعيفة الذين يحبون السيطرة بجهلهم ولذلك يعادون العلم وأهله، ويقدمون المنافقين المتزلفين، ولذلك يرحل أهل الخبرة والعلم المادي من بلادنا إلى بلاد الكفر حيث يلاقون هناك التكريم والتبجيل والدرجات العلمية، والثراء!! ولكن إذا سرت الروح التي أرجو أن أكون قد أوضحت طريقها في هذه الرسالة -في أمتنا- فإننا سنعرف لأهل الفضل فضلهم، وسنكرم علماءنا، وأهل الشجاعة والقوة منا،! وسيعود إلينا أبناؤنا المغتربون إذا علموا أن بلادهم وأمتهم أصبحت حيث يستطيعون أن يفدوها بأرواحهم. ولا تعجب إن رحل إليك من يشرح الله صدره من علماء الذرة الذين يشرح الله صدورهم للإسلام، وهم موجودون ولكنهم يريدون فقط الأمة التي يبذلون لها أرواحهم وأنفسهم.

لقد سرق الغرب (أمريكا) والشرق (روسيا) أسرار القنبلة الذرية من العلماء الألمان، واستطاعت الصين وفرنسا بطرقهما سرقة ذلك أيضاً، واستطاعت إسرائيل أيضاً الحصول على شيء من هذا، ولا تعجب إن كانت تملك القنبلة الذرية الآن. فلماذا نكون أقل حتى من إسرائيل. والحرب خدعة.

إنني لن أطيل في هذا الفصل ولكني أضع خطوطاً عريضة فيه، وذلك أنه ثمرة حتمية لبعث روح هذه الأمة، وجمع صفوفها فما علينا إلا أن نبعث الروح وإذا بهذا الجسم الخامد الخامل ينتفض عملاقاً لا يستطيع أحد أن يقف في طريقه بعون الله، وذلك أن روح هذه الأمة نابعة من نور الله، وأن حبلها موصول بالسماء، وأمة هذه روحها لا تغلب، وأمة هذا حبلها لا ينقطع. ولقد انتصر سلف هذه الأمة على قلة وضعف وهزموا أضعاف أضعافهم قوة وجمعاً، فكيف ولدينا القوة والجموع؟

من أين نبدأ وكيف نبدأ؟

أظن أنني بما قدمت -في رسالتي هذه- قد أوضحت الإطار العام الذي يجب أن نعمل فيه لبعث أمتنا من جديد وهو باختصار يشمل ناحيتين:

الأولى: بعث روح الأمة، وتوحيد صفوفها: وذلك ببث العقيدة الواحدة الدافعة (الإيمان الكامل) ووضع التشريع الإسلامي الواحد موضع التنفيذ، وبناء الخلق الكامل في رجال أمتنا ونسائها.

الثانية: البناء المادي الكامل للأمة وذلك باستغلال الأمة ما وهبها الله من مميزات جغرافية، وبشرية، واستعادتها لثرواتها الضائعة، وكنوزها المنهوبة.

وبذلك يصبح البناء كاملا : الجسم والروح.

وهنا سيأتي هذا السؤال: من أين نبدأ، وكيف نبدأ ؟

أما نقطة البدء للعمل في بعث أمتنا فلا يجوز أن تكون ناحية واحدة من النواحي السابقة تعطل لأجلها النواحي الباقية. فبعض المصلحين المخلصين يقولون: ندعو إلى الإيمان أولاً فإننا أشبه ما نكون بالعصر المكي من دعوة الرسول (ﷺ) وآخرون يقولون القوة المادية أولاً. وآخرون يقولون بل نحرر الأرض المحتلة أولاً! ولقد وضعت الرسالة خصيصاً لمن يقول نحرر الأرض أولاً ومبيناً أنها نتيجة لبعث الأمة، ولا يمكن أن تحرر أرضنا المحتلة أمة بهذا الموات والتفكك والضعف.

والحق أن نقطة البدء في الإصلاح لا يجوز أن تكون في ناحية واحدة ولكنها يجب أن تبدأ حيث يوجد كل فرد فينا. فأهل الحكم مطلوب منهم

إصلاح حكمهم ليكون إسلامياً، وأهل المال مطلوب منهم إصلاح نظام ثرواتهم واستثماراتهم حتى يكون إسلامياً. وأهل العلم الديني مطلوب منهم إصلاح أنفسهم ومعاملاتهم. وتوحيد فتاواهم واجتهاداتهم وترك تعصبهم المذموم لما عرفوه، ومعاداتهم الجاهلة لما جهلوه، وجمع الناس على كلمة سواء، وشعراؤنا وكتابنا مطلوب منهم أن يبعثوا روح الأمة بالكلمة الطيبة، سواءً كانت قصةً أم شعراً، أم مقالة..

إن الإصلاح يجب أن يكون دعوة عامة تسري في الأمة جميعها سريان الدم من القلب في جميع الأعضاء لتحيا الأمة كلها.

وأحب وأنا أعين نقطة البدء أن أقول وأكرر أن تحرير فلسطين يستحيل عقلاً وعادة أن يكون نقطة بدء لحياة الأمة ولكنه سيكون ثمرة من ثمرات حياتها وسأسوق الأمثلة والبرهان. لقد دخلت الجيوش العربية المعركة الأولى في فلسطين ولقد كانت أقوى من جيش اليهود بعشرات المرات ولكنها هزمت للأسباب التي يعرفها الجميع وكان من هذه الأسباب ما قال عنه جمال عبد الناصر في كتابه فلسفة الثورة: " إني أيقنت أن تحرير فلسطين لن يأتي إلا بإصلاح الحكم ". ولقد عاد هو ورفاقه بعد أن أسروا في (الفالوجة)، وذاقوا مرارة الهزيمة ليشعلوا ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، وقد مكنهم الله من الحكم ولقد كان الهدف الأول لهم هو تحرير فلسطين ولكنهم خابوا في ذلك بعد عشرين عاماً مضت لهم فيه، والسبب في ذلك أن الإصلاح لم يكن شاملاً، لقد كان الإصلاح للجيش أولاً ولقد ظنوا أن إصلاح الجيش هو العتاد الجيد، فلما جاءت المعركة لم يغن العتاد الجيد من بأس العدو شيئاً إذ سرعان ما تصدع هذا الجيش في ساعات قليلة، وترك ما خوله الله من هذا العتاد في أرض سيناء للعدو، ولم يقف أمام اليهود على القتال إلا أفراد قلائل باعتراف جمال عبد الناصر نفسه. ثم ظهرت بعد ذلك مشاكل عظيمة في الجبهة الداخلية وفي النظام الأخلاقي المتردي الذي مارسته أجهزة الدولة وخاصة المخابرات والأمن العام. وعدنا من حيث بدأنا نبحث عن الحل!!

ولقد دخل مع الجيوش العربية جماعات من المتطوعين كان من أكبرها

جماعة الإخوان المسلمين. وظنوا أنهم سيستطيعون تحرير فلسطين، وأن ملائكة الله ستنزل عليهم لأنهم مؤمنون ولكنهم سرعان ما أيقنوا أيضاً أنهم لن يستطيعوا ذلك لأنهم عادوا إلى المعتقلات والسجون.

وها نحن نعيش تجربة المقاومة الفلسطينية. لقد قامت فتح في عام ١٩٦٥بإرسال سرية تغافل حراس الحدود العرب، وتدخل أرض العدو، ثم تعود جماعات منها فرحة بما قدمت من تضحية وما حققت من رعب للعدو ولكنها كانت تلاقي القتل برصاص إخوانها العرب في سوريا، والأردن، وتمنع منعاً باتاً من الدخول من مصر. ولقد كانت فرحة منظمة فتح باشتعال حرب سنة ١٩٦٧ لا توصف لأنها ظنت أنه بمجرد أن تقوم المعركة فإننا سننتصر على العدو، ولكن الجميع خابت آمالهم بعد الهزيمة الماحقة التي أصابتنا، ثم أصبح العمل الفدائي علنياً، وانطبعت عليه مشاكل الأمة، ونزاعاتها، وفرقتها، وخلافاتها فكان ما كان في الأردن، وها هي المقاومة تتقلص شيئاً فشيئاً، وتعود تجربتها إلى الخيبة والتمزق والضياع، وذلك أن الإصلاح لا يكون من هناك، من فلسطين، ففلسطين قد ضاعت لأن الأمة قد ماتت وكان من الممكن أن يضيع جزء آخر غير فلسطين لو كان لأحد غيرنا أطماع فيه وهذا هو المشاهد الآن في كل جزء لنا فيه مشكلات. فنحن نرى دائماً أننا أعجز من أن نحارب أي عدو يغزونا.

والآن تتفجر علينا المشكلات من الشرق والغرب: من شمال العراق وجنوب الجزيرة وشرقها، وشمال إفريقيا، وقلب مصر، وجنوب السودان، وإن لم تصح الأمة فسيكون مصير كل ذلك هو مصير فلسطين.

إن الإصلاح يجب أن يعم كل زاوية وناحية من نواحي مجتمعنا الإسلامي، ولا يجوز أن يقتصر على جانب دون جانب، وإن الذين يملكون هذا الشمول هم الحكام لو أرادوا، وأخلصوا النية لله، وأحبوا أن تجعلهم الأمة مع سلفها الصالح المجاهد وأما الأفراد والجماعات فإنهم لا يملكون إلا نواح ضيقة من الإصلاح والبناء عدا عن وسائل الهدم والتخريب التي لا يستطيعون إيقاف هدمها وتخريبها. ولذلك فكل دعائنا أن يكون في حكام المسلمين من

يصلح الله بهم الأمة. ولكن الأفراد والجماعات لا ينبغي أن تنتظر ذلك، بل لا بد من بعث لروح الأمة، وإيقاظ لرجالها وتوجيه لمصلحيها في الوجهة الصحيحة، وهنا تتحدد نقطة البدء حيث يكون الفرد. فالعالم المسلم يستطيع أن يحدد نقطة بدئه في مجال الإصلاح - حسب هذه الخطة الشاملة- حيث تهيىء له نفسه وإمكانياته وما خول الله فيه، والمهم أن ينسجم هذا العمل مع خطة البعث الكامل وأن لا تتضارب معه، والتضارب مع الخطة يأتي مثلاً من الدعوة إلى العصبيات المذهبية، أو التعقيدات العقدية، أو الخوض فيما لا يعلم.. والعالم (الدنيوي) المسلم يجب أن يكون داعياً بعمله وخلقه إلى عزة الإسلام، وتطبيق شريعته التي هي ثمرة النظر في السماوات والأرض، مسخراً علمه في رفع شأن أمته، وعلو رايتها، وكذلك الأديب المسلم - شاعراً أو قاصاً أو كاتباً - يجب أن يكون بدؤه للإصلاح من كتابته وشعره وقصته فيسخر ذلك في توجيه الأمة لدينها، وحضها على حمل رسالتها، وغسل العار عنها، وهكذا..

وعلى هذا الأساس سنبني، وسيصبح التخصص هاماً ولازماً لكل داع إلى الله عز وجل، لأن بالتخصص يكون الإبداع والعناية، وسيفيدنا هذا التخصص ما دام أن الخطة الكاملة العامة ملتزم بها. فكل هذه الخطوط ستلتقي عند غاية واحدة وهي البعث الجديد لأمة الإسلام.

ولا يبقى بعد إلا أن أحذر مما يقع فيه كثير من الدعاة إلى الله وهو هدم بعضهم بعضا، وذلك لسبب نظرتهم السطحية الجزئية إلى الإصلاح، فالبعض يظن أن الإصلاح لا يأتي إلا من إصلاح الحكم فقط فيجعل همه ذلك ويحطم كل إصلاح قبل هذا وهذا خطأ فاحش، وآخر يظن الإصلاح إنما هو إزالة بدعة ما، أو منكر ما، فيدعو لذلك، ويسفه أحلام من دعا إلى غير ذلك بل قد يحول دعوته من غايتها الجزئية إلى تحطيم من يخالفونه الرأي ويختلف معه في الطريقة. وآخرون يأكل قلوبهم الغيرة والحسد إذا رأوا أن الإصلاح سيأتي عن غير طريقهم فيقللون من شأن الآخرين، ويهدمون ما بنوه ولهذه الأسباب وغيرها يتفرق عمل المصلحين ويتشتت سعيهم ويكون أغلب همهم حربهم لبعضهم بعضا فيغفلون عن غايتهم الواحدة، وطريقهم الواحد.

وأخيراً إن الدعوة لبعث الأمة وإحيائها يجب أن تكون في كل نواحي حياتها، وقد بينت هذا الطريق آنفاً، وإن نقطة البداية يحددها الموقع الذي يكون فيه المصلح، والذي يملك الشمول هم الحكام -هداهم الله- ولا يجوز بتاتاً أن يهدم مصلح عمل آخر بل يجب أن يتم البناء في جميع النواحي دون هدم من بعضنا بعضا.

وأما الإجابة على السؤال الثاني، وكيف نبدأ؟ فهي إجابة سهلة متيسرة لأنه متروكة للاجتهاد والظروف، فلنجاهد في الله حسب الخطة السابقة وليكن الله هو هادينا ومرشدنا إلى كيفية العمل وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذه وسائل ولا يجوز أن تحجر في طريقة ما، ولا في وسيلة ما. ولكن السمة التي يجب أن تطبع دعوتنا إلى إحياء الأمة هي (السلمية والعلنية) نحن دعاة سلم لأمتنا وحرب على أعدائنا فقط وأعداؤنا هم أعداء ديننا فليس لنا مطامع خاصة، ولا مآرب ذاتية، وإنما مطمعنا ومأربنا هو وحدة أمتنا وعزتها، ومأربنا هو إرضاء ربنا والفوز برضوانه. والعلنية طريقنا فليس عندنا ما نتستر به، أو نخاف من أجله، ليس عندنا إلا قال الله، قال رسوله فقط وكل قول يخالف هذا فباطل، وما زال في صدور أبناء أمتنا فسحة لتسمع عن الله وعن رسوله (ﷺ).

خاتمة

لا يسعني بعد وأنا أودعك - أخي القارئ - إلا أن أحمد الله إليك وأشد على يديك، وأقول لك: لقد أهديتك زهرة شبابي، وثمرة عمري، صغتها في كلمات أرجو أن يشرح الله صدرك لها فإن وجدت فيها بغيتك، وخلاص أمتك، فاعلم أنك قد حملت بذلك أمانة عظيمة يسر الله لك سبيل حملها والسير فيها. وإن لم تكن قد أعجبتك. فأرجو أن تعاود الكرة فتقرأها مرة ثانية - فوالله ما افتريت فيها شيئاً - وإن كنت قد رأيت ذلك أملاً بعيداً، ومنالاً لا يوصل فاعلم أن أمتك قد بلغت بمثل هذه الخطة آمالها؛ ولن تبلغ أملها الحاضر إلا بها، واعلم أن حياة الأمة بالإسلام أسرع من حياة زرع قد اشتد عطشه بالماء، فالرجل الكافر بكل ما في الكفر من موت ومتناقضات كان يقول لا إله إلا الله فيكون رجلاً آخر، والأمة العربية كانت ما تعلم من التمزق والضياع فبلغت في أقل من مائة سنة حدود فرنسا والقرم شمالاً وبلاد الصين شرقاً والمحيط غرباً وأواسط أفريقيا والمحيط الهندي وبحر العرب جنوباً، وإياك وقول العوام (نحن في آخر الزمن) يعنون أنه لا فائدة من الإصلاح، فذلك باطل، بل الجولة القادمة لنا، ولا بد لنا والله من إخراج يهود من فلسطين طال الزمن أم قصر بهذا أخبر الصادق المصدوق رسول الله: «**لتقاتلن اليهود حتى يقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله ورائي يهودي فاقتله**» فليشدك الحنين إلى رفعة أمتك أن تكون فرداً من جنودها يسير في هذا الركب المظفر: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤﴾.

وختاماً "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب".

* * *

كتاب

فصول

من السياسة الشرعية

في الدعوة إلى الله



تقديم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد الأمين الذي أرسله تبارك وتعالى رحمة للعالمين، بشيرا للمؤمنين، ونذيرا للكافرين، وعلى آله وأصحابه، ومن سلك سبيله واهتدى بهديه إلى يوم الدين،

وبعد..

أخي المسلم: هذه فصول في السياسة الشرعية كتبتها بحمد الله في أوقات متفاوتة، ونشرت بعضا منها في الصحف، وبعضها الآخر كتبته أخيرا ولم أنشره، ثم رأيت بعد إلحاح بعض الأخوة أن أجمعه في هذا الكتاب الذي بين يديك، وذلك من أجل المساهمة في ترشيد الشباب المسلم المقبل على ربه ودينه، وقد ناقشت في هذه الفصول أهم القضايا التي تعترض الشباب المسلم في الوقت الحاضر كحكم المجتمع الذي يعيشون فيه هل هو مسلم أم كافر؟ وحكم الحكام الذين يحكمون في بلاد الإسلام الآن، والموقف الواجب منهم، وكيفية الجهاد والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. كل ذلك مع البيان والاستشهاد من واقع المسلمين اليوم، والتدليل على كل قضية بما في الكتاب والسنة، مما يرشد إليها أو ينص عليها.. هذا وقد ضمنت هذه الفصول أيضا آراء وأقوالاً في السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله لبعض علمائنا العاملين من السابقين كالإمام ابن تيمية - رحمه الله - والمعاصرين كإمامنا الجليل الشيخ ابن باز، والشيخ الفاضل سيد سابق، والأستاذ عمر التلمساني وكل ذلك لتستنير السبيل لسالكها ويتضح القصد والهدف، ويستطيع شباب أمة الإسلام إعزاز أمتهم ونصرها.

واعلم - أخي المسلم - أن من أعظم الفتن التي تجابه المسلمين في العصر الحاضر فتنة التكفير، وأعني بها القول والاعتقاد الذي يعتقده ويقول به كثير من أبناء الأمة الإسلامية في أن المجتمع المعاصر مجتمع كافر (هكذا بإطلاق الكلمة) والرمي بالكفر لكل من فعل مكفرا دون نظر إلى الشروط والموانع، أعني الشروط التي لابد من توفرها ليكون فاعل المكفِّر كافرا، والموانع إن وجدت انتفى القول بالكفر.

ولقد كان من آثار إلقاء القول بالكفر على عواهنه أن رتب بعض من لا علم عندهم ولا فقه أن ديار الإسلام المعاصرة ديار حرب تستباح فيها الأموال والنساء، ولا تجوز فيها الجمعة ولا الجماعة، ولا حرمة فيها إلا لمن عرف معتقده على الحقيقة، واستبان أمره ظاهرا وباطنا. . وكذلك كان من آثار ذلك أن اعتقد وظن كل من يرى كفر المجتمع أنه وحده أو من يدين بدينه هم أهل الإيمان والإسلام فقط فسمى نفسه "جماعة المسلمين" وإن كان واحدا، وإن كانوا أكثر من ذلك، جعلوا أنفسهم جماعة المسلمين دون غيرهم ولذلك بايعوا أحدهم وأعطوه ما يعطى الإمام العام من الطاعة والنصح، ورأوا أن كل خارج عن بيعة أميرهم خارج عن الإسلام يستباح ماله وعرضه إذا قدر على ذلك.

ولقد كان من آثار هذه العقيدة أيضا أن نفي باب الاضطرار في الشريعة، وجعل الجاهل في التكليف كالعالم، والمتأول كالمعاند، ونفيت المصالح الشرعية جملة وتفصيلا، وجعلت الشريعة الإسلامية بلا حكمة ولا عقل، وعندما سنتعرض - إن شاء الله - لضرب أمثلة من الفقه الجديد الذي خرجت به الطائفة الجديدة التي تتزعم هذه الفتنة سنرى إلى أي حد تنتفي كل الحكم عن الشريعة المطهرة التي جعلها الله رحمة للعالمين.

في زيارتي الأخيرة لمصر (كان ذلك في صيف سنة ١٩٧٩) تلقيت أكثر من ألف سؤال حول موضوع واحد: هل الجاهل معذور أم لا؟ وكنت أقول سبحان الله، وهل الجاهل مكلف؟! والله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ويقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ فكيف يكون الجاهل مكلفا قبل

وصول العلم له؟! ولكن من فروع المشكلة (فتنة التكفير) أن كل إنسان على ظهر الأرض الآن مكلف بفروع الشريعة، ومسائل الإيمان وقضايا التوحيد صغيرها وكبيرها سواء أوصلت سمعه أم لم تصل، عرفها أم لم يعرفها، فالحجة قائمة على الجميع بلا استثناء، ولا عذر لأحد قط، وكنت أقول لهؤلاء الذين يردون مثل هذا القول سأعرض على أحدكم عشرات المسائل في التوحيد وأصول الدين أنتم تجهلونها الآن، فهل أنتم كفار بهذا؟!

ولقد كان أيضا من آثار القول بالكفر بإطلاقه القول بحرمة التعامل مع المجتمع، ووجوب العزلة عنه، والبدء في الدعوة إلى الإسلام من جديد كما بدأ رسول الله ﷺ مع أهل الجاهلية الأولى، بل لقد كان من آثار هذه الفتنة العقائدية ظهور الفتن الدموية التي تستباح فيها دماء كثير من المسلمين الغافلين.

ولهذا رأيت من واجبي تحديد البيان لرفع هذه الغمة - بحول الله ومشيئته - بعد أن كنت قد كتبت فصولا عن ذلك في كتاب الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، وكتاب الولاء والبراء - نفع الله بهما من شاء من عباده - وكذلك أصدرنا بحمد الله رسالة (الطريق إلى ترشيد حركة البعث الإسلامي) التي كان لها قبول طيب بحمد الله وتوفيقه. وهأنذا أجمع هذه الفصول لتكون بين أيدي الأخوة الحريصين على جمع وحدة هذه الأمة، ورفع لوائها، والوصول بها إلى المكانة التي يحبها الله لها وهي العزة والتمكين.. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وأسأل الله أن يتقبل عملي هذا ويرزقني فيه الإخلاص والتوفيق إنه سميع مجيب.

عبد الرحمن عبد الخالق

الكويت: الاثنين ١٧ من محرم سنة ١٤٠٤هـ

الموافق ٢٤/ ١٠/ ١٩٨٣م



الباب الأول
مبادىء في الدعوة إلى الله

١ - أنواع الجهاد في سبيل الله:

من المسلمات عند دارس الإسلام أن هذا الدين دين زاحف وذلك أنه يجعل التبشير به والدعوة إليه واجبا على كل مسلم حسب استطاعته وذلك أن الإسلام الذي بعث به النبي محمد ﷺ ليس دينا خاصا بشعب أو مدينة أو حقبة من الزمان بل هو دين عام للناس جميعا. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وقال تعالى أيضا: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي ومن بلغته النذارة. ومعلوم أن النبي ﷺ لم يعش ليبلغ الإسلام للناس جميعا وإنما بلغ من حوله من العرب وأرسل الكتب إلى ملوك الأرض حوله يدعوهم للدخول في دينه.. ولكن أصحابه وأنصاره وأتباعه من بعده قاموا بهذا الأمر امتثالا له ودخولا في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾، فأتباع النبي ﷺ هم وارثو هذه الدعوة، وهم المكلفون بحمل هذه الرسالة إلى العالمين.

وفي صدر الإسلام حيث تفجر نهر الدعوة إلى الله، وخرج المسلمون من هذه الجزيرة مبشرين ومنذرين استطاعوا نشر الإسلام في معظم المعمورة في أقل من نصف قرن من الزمان، ثم فترت همة الأمة وقل الدعاة المبشرون ولكن الأرض لم تخل منهم قط مصداقا لقول النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**» [متفق عليه] وأمر الله الذي عناه النبي ﷺ هو ما فسره به في حديث آخر حيث قال: «**حتى يقاتل آخرهم الدجال**» [رواه أحمد وأبو داود والحاكم].

ولقد كان الإسلام منتصرا في دعوته على سائر أديان الأرض ودعواتها طيلة ثلاثة عشر قرنا مضت ونعني بانتصاره ثبات أتباعه على دينهم واكتسابهم المزيد دائما من أهل الملل الأخرى، ولكن هذا الأمر تغير في القرن الرابع عشر الأخير حيث ابتدأت جموع المسلمين تنسلخ عن دينها انسلاخا عمليا أولا، ثم تبع ذلك الانسلاخ العقائدي والفكري، ولهذا أسباب عدة أهمها:

أن السيف والسلطان كان يحمي العقيدة في القرون السالفة ثم تغير هذا الأمر.

والسبب الثاني الهام أن الغزو الخارجي للإسلام والمسلمين كان أكثره غزوا عسكريا وأقله غزوا فكريا عقائديا، ثم تغير هذا فصاحب الغزو العسكري الاستعماري الحديث غزو عقائدي فكري هو أقوى أثرا وأشد فتكاً.

ولقد وجد أصحاب هذا الدين الإسلامي وأتباعه أنفسهم مبهورين بزخرف القول وحلاوة المنطق الذي صبغ الغزو الفكري العقائدي، كما وجدوا أنفسهم مبهورين حائرين أمام الغزو العسكري المنظم القوي الذي ضم آلات من آلات الدمار والحرب ما كان يحلم أهل الإسلام بها، وبالرغم من الكثرة العظيمة الهائلة للمسلمين في العالم ودخول بعض الأفراد والجماعات في الإسلام - كل يوم وإلى يومنا هذا - فإن هذا الدين يفقد مع كل طلعة شمس مواقع جديدة في فكر أهله وعقائدهم وذلك بفعل الدعاية المنظمة القوية لأهل الدعوات الباطلة الأخرى وللإعلام الخبيث الموجه إلى عقول المسلمين وقلوبهم، وليس هذا التراجع والهزيمة النفسية عند المسلمين مرده ضعف العقيدة ذاتها، وإنما مرده إلى قوة الرسالة الإعلامية الموجهة من أعداء المسلمين إلى نفوس المسلمين وقلوبهم، وضعف الرسالة الإعلامية الموجهة لهذا الغزو الفكري والعقائدي الخبيث.

وأصدق تشبيه وأقربه لفهم القارىء هذه المقارنة: وهي أن نتصور جيشا مسلحا بأقوى أنواع الأسلحة وأفتكها وقد نظم صفوفه وأعد خططه إعدادا محكماً، ويواجه جيشا مشتتا متضارب الآراء ومعه أسلحة بدائية قديمة، وهكذا نجد الدعاة إلى الإسلام اليوم بوسائلهم القديمة وكلامهم المكرور وأساليبهم

المنفرة وباختلافهم وتخاصمهم يواجهون دعايات الإلحاد والإباحية والمذاهب الهدامة بكلامهم المنمق وأساليبهم المتطورة، ووسائلهم الحديثة التي يسرتها علوم العصر، فنجد أن المعركة غير متكافئة ونجد أن النصر في النهاية لذلك الغزو الشرير، وهذا يعني التخلص التدريجي من عقائد الإسلام وأحكامه والتحول التدريجي إلى الكفر والانحلال.

وفي هذه الدراسة سيجد إخواني الذين شرفهم الله سبحانه بنعمة الجهاد والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى الأصول والقواعد الضرورية للدعوة الناجحة المثمرة وللإعلام القوي المؤثر، وللطرق السليمة لمجابهة الإعلام الخبيث الموجه.

أنواع الجهاد في سبيل الله:

ماذا تعني هذه الكلمة "الجهاد في سبيل الله"؟!

تطلق هذه الكلمة كثيرا ولكن قليلا من الناس منْ يعي معناها على الحقيقة بالسعة والشمول الذي وردت به في الكتاب والسنة.

وخلاصة ذلك أن الجهاد مشتق من الجهد والجهد هو الطاقة والوسع، والجهاد هو المبالغة واستفراغ الوسع والطاقة في الحرب أو اللسان أو أي جهد يثمر إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى وإعزاز دينه.

وبالمعنى اللغوي السابق يدخل القتال، وهو القمة في بذل الجهد وتدخل الدعوة باللسان ومقارعة الكفار بالقول والحجة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ والضمير في (به) يعود على كتاب الله سبحانه وتعالى.. ومعنى هذا أن الدعوة القولية جزء من الجهاد وهذا لا يختص بالكفار وحدهم بل وبالنصح لكل مسلم كما قال ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**» [رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم]، ولاشك أن السلطان المشار إليه في الحديث مسلم ولكنه ظالم فدعوته ونصحه بالقول من أفضل الجهاد عند الله سبحانه وتعالى ونستطيع على ضوء هذا التعريف للجهاد أن نقسمه إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: الإعلام وهو مطلق الإخبار وهذا المعنى الذي تردد كثيرا في القرآن

بالتبشير والنذارة، وكذلك بالردود الكثيرة والحجج والبراهين الدامغة لشبهات الكافرين وافتراءاتهم، وهذا كله دعوة قولية.

ثانياً: التربية والتقويم، وهما جانبان عظيمان من جوانب الجهاد، ويدخل فيهما أساليب كثيرة يشملها القول وغيره وسيأتي تفصيل هذا في حينه إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: قتال الكفار وهو قمة الجهاد في سبيل الله والقتال له قواعده وفقهه وقد تنوسيت هذه القواعد وهذا الفقه بابتعاد الأمة عن رفع أعلامه وبعث جيوشه.

٢ - النبي المعلم ﷺ:

من أخص صفات النبي ﷺ أنه كان معلماً، وقد امتن الله علينا بهذا فقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

فعمل النبي (ﷺ) وجهاده مع إخوانه المؤمنين كان في تعليمهم الكتاب الحكمة وتزكيتهم وتطهيرهم وقراءة القرآن عليهم. وقد جاء معنى هذه الآية في آيات كثيرة من القرآن. فكيف استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب (التعليم) في دعوته ؟!

أ - كلنا نعرف أن النبي ﷺ استخدم أولا العلاقات العامة فكان يعرض دعوته (بضاعته) على كل من يقابله ممن يظن أنهم يقبلون بها أولا في سرية الدعوة ثم جميع من يستطيع الوصول اليهم بعد أن أمره ربه بالجهر بالدعوة. وكان لابد من لقاء خاص مع المؤمنين به للتلقي والتعليم والتزكية فكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم المدرسة الإسلامية الأولى. كان المسلمون يصلون إلى هذه الدار سراً، وإننا لنعجب من حيطة المسلمين وحذرهم في هذا الوقت كيف تمكنوا من أن يجتمعوا بهذه الدار ويتلقوا العلم من الرسول لعدة سنوات ولا يعلم بهم أحد غيرهم وذلك في دار وسط مكة.. المهم أن طلاب هذه المدرسة كانوا يصلون إليها في غاية الخفاء وقد كانوا أشتاتاً حر وعبد وشريف

ووضيع وصغير وكبير ولنا أن نتصور ونتخيل تلك الدروس التي كان يعلمها النبي ﷺ في هذا الوقت، ولو كان المسلمون يملكون في ذلك الوقت الوسائل السمعية والبصرية للتعليم لكنا نملك أعظم ثروة في أساليب التعليم والتربية من أعظم معلم عرفته الأرض، ولكن حتى الأخبار الكاملة لهذه المدرسة لم تصلنا، فلم يصلنا الآن إلا أن النبي (ﷺ) كان يعلم أصحابه هناك ويقرأ عليهم القرآن. لكن كيف كان يعلم؟ وكيف كان يبدأ درسه وينهيه؟ وكيف كان يناقش طلابه؟ وكيف عولجت مواضيع العقيدة والدعوة التي طرحها الرسول عليهم في تلك الفترة؟ لا نملك شيئاً كثيرا عن هذا.. ولكننا نتخيل فقط أن تلك الدروس كانت في منتهى الحياة والنشوة الروحية والنفسية، والسمو والعزة التي تملأ هذه الفئة التي جلست تستشعر أنها تتلقى بواسطة الرسول عن الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون، وأنهم محاطون من قبل هذا الإله الواحد بالعناية والرعاية وأن عليهم أن يقوموا بأمره، وأنه ناصرهم ومؤيدهم ولنا أن نتصور كيف كانوا ينقلون مشاكل الدعوة إلى الرسول وينتظرون جواب الله عليها في لهفة وشوق وكيف كانوا يخرجون بعد كل اجتماع ودرس من هذه المدرسة الفريدة ورؤوسهم تطاول السماء عظمة وعزة، وظهورهم تنوء بالحمل الثقيل الذي حملوه من أمانة الدعوة والتبليغ.

ب - يبدو أن النبي ﷺ لم يقتصر على هذه المدرسة في مكة فقد كان يعلم أصحابه في بيته وفي منازلهم وفي الطرقات وفي رحلاته للدعوة فقد جاء في السيرة أنه كان يسمر كل ليلة (تقريبا) في منزل صديقه أبي بكر الصديق، وهذا ابن مسعود يأخذ السبع الطوال من القرآن من فم النبي ﷺ، وكان من عادته ﷺ أن يعلم بعض أصحابه ويده في أيديهم ثم يسمع منهم بعد أن يقرأ عليهم.

ولكن بعد أن تحول النبي ﷺ إلى المدينة كانت فرصة التعليم أكبر بل تحولت حياة النبي كلها تقريبا إلى تعليم، وكان المسجد أفضل مكان معدٍ لهذا ولم يكن أيضا المكان الوحيد.

ج - وإذا طالعنا منهج النبي ﷺ وأسلوبه في التعليم وجدنا أنه أكمل أسلوب عرفته الأرض للآن فقد كان النبي ﷺ يعتمد في التعليم على الصحبة،

وهذه الصحبة تقتضي المحبة والملازمة وهكذا كان أصحابه معه رضوان الله عليهم أجمعين وعلى قدر هذه الصحبة كانت الإفادة والتلقي، ولم يكن يتكلف في درسه شيئا أصلا لا طريقة للجلوس ولا زياً خاصا بحضور الدرس، ولا ميعادا معينا، فقد كان ﷺ يحدث أصحابه وهو جالس أحيانا وهو واقف أحيانا وهو مضطجع أخرى كما جاء في الحديث: «**ألا أدلكم على أكبر الكبائر؟ قلنا بلى يا رسول الله، قال: الشرك بالله، وعقوق الوالدين. وكان مضطجعا فجلس فقال: ألا وشهادة الزور ألا وشهادة الزور ألا وشهادة الزور..**» [رواه البخاري] الحديث، وهذا يدل على أن النبي ﷺ بدأ درسه مضطجعا وهنا تجاوز في قولنا بدأ درسه لأن دروسه لم يكن لها نقطة بدء بالمعنى المعروف الآن.

وكان ﷺ يستخدم وسيلة الإيضاح المناسبة فكان يستخدم يديه وتعبيرات وجهه (في غير تمثيل أو اصطناع) وكان يرسم ما يريد أحيانا على الأرض كما رسم لهم صراط الله كخط مستقيم وسبل الشيطان بخطوط معوجة، وكما رسم لهم مربعا وقال هذا أجل الإنسان ورسم دائرة في وسطه وقال هذا هو ابن آدم ورسم دائرة خارجة من المربع وقال هذا أمله ورسم خطوطاً معترضة بين الدائرة الوسطى (الإنسان) وبين الدائرة الخارجة (الأمل) وقال عن هذه الخطوط هذه الأعراض (أي المشاكل والحوادث التي تعرض للإنسان قبل الأجل). ويريد بهذا ﷺ أن يصور أن الإنسان يموت قبل أن يصل إلى مراده وأمله فصورها بصورة حسية عجيبة.

د - وكان ﷺ يستعمل المواعظ بحذر شديد ولا يعظ إلا بين فترة وأخرى، وذلك أن الموعظة إذا كثرت تبلد الشعور والإحساس وتشيع الملل واحتقار النفس، وإذا كانت قليلة مناسبة أيقظت الشعور ووجهت إلى العمل (فمتى يعلم هذا معلمونا ومشايخنا الذين لا يحسنون إلا سب الناس وإلقاء المواعظ المكررة)!!؟

وكان يغضب أحيانا في موعظته إذا اقتضى الأمر هذا كما غضب على معاذ لما علم أنه يطيل الصلاة بأصحابه، وغضب على أسامة لما علم أنه قتل رجلا في الحرب بعد أن قال لا إله إلا الله.

هـ - وكان ﷺ واسع الصدر في التعليم لم يعنف سائلا قط لسؤاله، ولا معترضا قط لاعتراضه فقد كان يسأل ويناقش ويغلظ عليه أحيانا في المسألة وكل هذا وهو حليم واسع الصدر وكان يأتيه الأعرابي الجاهل فيبول في المسجد فيقع الصحابة به فيقول لهم: «**لا تزرموه.. دعوه حتى يتم بوله**» [متفق عليه] فتركه ليكمل بوله في المسجد ثم يعلمه أن هذا لا يجوز لأن المسجد مكان وضع لعبادة الله والصلاة. وصلى معه أعرابي مرة فعطس أحد الصحابة فقال له الأعرابي: (يرحمك الله) فنظر الصحابي إليه أن اسكت فصرخ الأعرابي بأعلى صوته قائلا: (وا ثكل أماه ما لكم تنظرون إليَّ هكذا) وبعد أن انتهت الصلاة تبسم له الرسول ﷺ وناداه وعلمه فقال الأعرابي: (اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا) فضحك النبي ﷺ وقال له: «**لقد حجرت واسعا**» أي ضيقت رحمة الله وهي واسعة تسع كل مؤمن، وخرج الأعرابي وهو يقول: بأبي هو وأمي ما رأيت معلما قط ارحم منه، فوالله ما ضربني ولا شتمني ولا كهرني ولكن قال لي: إن هذه الصلاة لا يصلح لها شيء من كلام الناس.. الحديث.

والمهم أن منهج النبي ﷺ في التعليم كان أكمل المناهج ولو ذهبنا نتتبع وقائعه وحوادثه لطال بنا المقال، ولكن المهم التنبيه إلى بعض قواعد هذا المنهج النبوي الكريم في التعليم، وذلك أن التعليم هو أعظم أسلوب عُرف حتى الآن لنقل العلم وتهذيب الأخلاق وتزكيتها، وللتعليم قواعد وآداب لابد من مراعاتها، وصفات لابد وأن يتصف بها المعلم وطالب العلم حتى تكون هذه العملية كاملة تؤتي ثمارها، والتعليم في الدعوة غير التبليغ والإعلام.

٣ - كيف حدث الانقلاب العقائدي والاجتماعي والسياسي والأخلاقي في صدر الإسلام؟

هذا الانقلاب العقائدي الاجتماعي السياسي الأخلاقي والفكري الذي أحدثته دعوة النبي ﷺ في معاصريه من العرب وغيرهم مخطىء من يظن أنه كان نتيجة لاستعمال السيف والقهر، وإنما كان نتيجة للدعوة والإعلام الناجح والتوفيق العظيم الذي يسَّره الله لخاتم أنبيائه محمد ﷺ، وهذا الانقلاب الذي أحدثته دعوة النبي ﷺ في العرب شيء لا خلاف عليه بين الناس، وهذه

الشهادة من دائرة المعارف البريطانية على هذه القضية: "جاء محمد بدعوة جديدة هي دعوة الإسلام، وكان هذا الرسول أوفر الأنبياء والشخصيات الدينية حظا من النجاح، فقد أنجز في عشرين عاما من حياته ما عجزت عن إنجازه قرون من جهود المصلحين من اليهود والنصارى، رغم السلطة الزمنية التي كانت تساند هؤلاء، ورغم أنه كان أمام الرسول تراث أجيال من الوثنية والخرافة والجهل والبغاء والربا والقمار، ومعاقرة الخمور، واضطهاد الضعفاء والحروب الكثيرة بين القبائل العربية، ومئات الشرور الأخرى [مادة قرآن - دائرة المعارف البريطانية].

ويقول توماس أرنولد أيضا في كتابه الدعوة إلى الإسلام: "دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب، وإنما كان انقلابا كاملا لمثل الحياة التي كانت من قبل".

وليس هناك أوضح من هاتين الشهادتين - وهما من مصدرين غير إسلاميين - على مدى نجاح دعوة الرسول ﷺ وتغييرها لمناهج حياة الناس في عهده ﷺ، ودراستنا للأساليب والوسائل التي اتبعها النبي ﷺ ترينا مدى اتباع النبي ﷺ لأبلغ الأساليب وأحكمها في نجاح مهمته الإعلامية.. ودراستنا أيضا للوسائل التي استخدمها النبي ﷺ في دعوته سترينا مدى استفادة النبي ﷺ من جميع الوسائل الإعلامية التي وجدت في عصره ﷺ. ولاشك أن دراستنا الواعية لهذه القضايا سنستفيد منها عدة فوائد: -

الأولى: هي التأسي والاتباع، وهذا أمر واجب لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وخاصة في هذا الأمر العظيم أمر الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

الثانية: أنا واثق أن دراستنا الفاحصة لهذا الجانب المهمل من جوانب سيرة النبي ﷺ سيرشدنا إلى استخدام وسائل كثيرة استخدمها النبي ﷺ وأصبحت الآن في حقل الدعوة الإسلامية نسيا منسيا، وكذلك سيرشدنا إلى الاستعمال الصحيح للوسائل والأساليب التي استخدمها النبي ومازالت تتخذ الآن، ولكنها تستخدم استخداما منفّرا يصد عن سبيل الله سبحانه وتعالى.

ولسنا نشك أن نجاح النبي ﷺ معزو أولا وأخيرا إلى توفيق الله ورحمته، فهو الذي أتم نعمته وفضله عليه، وقوَّم خطواته خطوة خطوة، وأرشده بفضله وتوفيقه إلى اتباع الطرق، وأنزل عليه هذا القرآن الكريم الذي كان له الفضل الأول في انقياد القلوب وانشراحها لهذه الدعوة الإسلامية.. ولذلك فدراستنا لهذه القواعد والأساليب في دعوة النبي لا تعني أننا ندرس اجتهاد النبي الشخصي في نشر دعوته فقط، بل وأيضا القواعد الإسلامية التي اتبعها النبي وأوجبها الله سبحانه وتعالى عليه من فوق سبع سماواته ولا نشك أيضا أن اجتهاد النبي واجب الاتباع مادام أن الله سبحانه وتعالى قد أقره عليه.

والآن، هذا أوان بيان القواعد التي اتبعها النبي ﷺ في دعوته والتي كفلت تحطيم دعوة الإسلام لكل دعوات الجاهلية التي سادت في وقته ﷺ.

أولا: الإسلام عقيدة عُليا:

لما جاء النبي ﷺ بدعوته لم يقل يوما أن هذه الدعوة دعوة منافسة للدعوات القائمة، أو مشاركة لها في شيء أو على الأقل متعايشة مع غيرها من الدعوات ولقد دُعِي النبي ﷺ كثيرا إلى لقاء بين دعوته ودعوات الجاهلية فيتنازل عن شيء من دينه ليتنازلوا عن شيء من دعوتهم، فكان رد الله سبحانه وتعالى وأمره له أن يقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾.

لقد جاء النبي ﷺ ليقول للناس من أول يوم أن دعوته ورسالته هي الدعوة الوحيدة الواجبة الاتباع في كل شؤون الحياة، وأنه لا تنازل عن صغير أو كبير منها، ولا خلط بتاتا بين الحق الذي جاءت به والباطل المتلبس بكل دعوة غيرها. وجاءته الأوامر الكثيرة الصريحة في هذا الصدد، من هذا قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ الآيات، وحاول النبي ﷺ في إبان دعوته أن يستميل أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى دينه فالأصل أنهم مؤمنون بالله وبعض أنبيائه، ومنهم من يؤمن بالبعث، فكان النبي يوافقهم في بدء حياته في المدينة فيما لم ينزل

عليه فيه نص بالمخالفة، ولكن الله سبحانه وتعالى نهاه عن ذلك نهيا قاطعا حيث قال سبحانه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ﴾.

وقال سبحانه وتعالى له أيضا: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

فأمر بألا نسلم لأهل الكتاب إيمانهم إلا إذا كان إيمانا مطابقا لما جاء فيه من الله سبحانه وتعالى.

فانظر إلى هذا واعجب اليوم من المؤتمرات التي تُقام بين علماء من المسلمين ورهبان النصارى وقساوستهم لعمل لقاء بين العقيدتين وعقد صلح بين الحق والباطل.

الإسلام من أول يوم جاء ليقول للناس هذا الحق حده وكل ما سواه باطل، وهذا النور وحده وكل ما سواه ظلام، وجاء ليقول للناس: (فماذا بعد الحق إلا الضلال) ؟! وهذا المعنى يتكرر في القرآن كثيرا بصورة عجيبة، انظر إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾، فينبغي ألا يكون اليهود والنصارى - وهم أقرب الناس إلى الإسلام - على شيء من الحق مطلقاً إلا إذا أقاموا التوراة والإنجيل.. وإقامتهم التوراة والإنجيل معناه الإيمان بمحمد ﷺ واتباع الإسلام ومصداق هذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ..﴾.

وبهذا جاء النبي من أول يوم ليعلن كفر أهل الأرض جميعا - إلا من آمن بدعوته وحمل رسالته - وضلالهم وخلودهم في النار، ولم يخبىء النبي ﷺ هذا الإعلان والإعلام من أول يوم، بل جابه به الناس جميعا: مشركي العرب واليهود والنصارى ومجوس فارس وجميع أمم الأرض.

والثمرة الإعلامية التي استفادها النبي ﷺ من وراء تفجيره لهذه القنبلة: أنه أثار اهتمام الناس جميعا وفتح آذانهم على الرغم منها، وكيف لا يسمع الناس له وهو يصرخ بأعلى صوته: أنتم كفار إن لم تسمعوا دعوتي وتستجيبوا لي.. الله خالقكم وربكم أرسلني إليكم. وأنا منذر للعالم أجمع، وديني هذا سيظهر على جميع الأديان ويحطم جميع العقائد والأوثان، إن هذا الكلام في هذا الوقت يسمع له الوادي والجبل والصخر الأصم فضلا عن الإنس والجن. وهكذا جعل النبي ﷺ الدنيا جميعا آذانا لدعوته، ولم يضره بالطبع آثار هذه الدعوة وهذه الصراحة، فقد جرّت عليه الاتهام بالجنون، إذ كيف يعقل الناس في زمانه أن هذا النبي ومعه جماعة قليلة مستضعفة تستطيع أن تمشي آمنة في بلاد الروم وفارس وتعلن مخالفتها لعقيدة أولئك الملوك العظام، فضلا عن أن تدك هذه العروش وتقيم على أنقاضها حضارة أخرى للتوحيد.

لقد كانت هذه الدعوة من الغرابة والصراحة والقوة أن حملت الناس حملا على السماع لها.. وهذه هي المهمة الأولى في الرسالة الإعلامية الناجحة أن يسمع الناس لها.

٤ - توثيق المصدر ضرورة إعلامية

يتوقف قبول الناس لأي رسالة إعلامية على مدى إيمانهم بصدق القائمين عليها، ونزاهتهم، وبعدهم عن الغرض. ففي اليوم الذي يثق الناس فيه بصاحب دعوة ما ويتأكدون من صدقه ونزاهته يقبلون كلامه ويدخلون في دعوته إذا وافقت اقتناعا ورضى.. وكثيرا ما يقتنع الناس بحق ما ولكنهم إذا شعروا بكذب قائله، أو علموا أن له غاية وهدفا وراء هذه الدعوة فإنهم ينفضُّون عن دعوته، ويصمُّون الآذان لها.

ولذلك حرص النبي ﷺ على توثيق مصدر رسالته الإعلامية منذ بدأها،

ففي مراحل دعوته الأولى لم يدع إلا رجالا قد خالطوه وعرفوا صدقه وأمانته ونزاهته، وبعده عن الغرض. وفي أول لقاء إعلامي مع الناس كان أول عمل قام به هو أن وثّق مصدر رسالته، أعني أن أخذ إقرارا من الناس بصدقه وأمانته، فلقد وقف النبي ﷺ على الصفا، ثم قال (واصباحاه!! واصباحاه!!)-وهذه تعني عند العرب إنذاراً بالحرب والخطر- فاجتمع الناس حوله من كل شعب من شعاب مكة، وبعد أن تكامل وجودهم لديه ناداهم بأسماء بطونهم: «**يابني هاشم، يا بني عبد مناف، يا بني لؤي.. يا بني فلان**» ثم قال لهم: «**لو قلت لكم أن خيلا خلف هذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟!!**» فقالوا: (ما جربنا عليك كذبا)!![متفق عليه].

وهكذا استطاع النبي ﷺ أن يأخذ إقراراً جماعيا وهو أشبه بالإجماع على صدقه وأمانته وذلك من هذا الجمهور الذي يدعوه إلى الإسلام. وكان هذا الإقرار الجماعي هو الأرض التي وقف عليها النبي ﷺ ليعلن دعوته إليهم، أو هو الباب الذي دلف النبي من خلاله إلى عقولهم وقلوبهم.

إذا كان صدق المصدر شرطاً أساسياً في قبول أي خبر، وفي نشر أي رسالة إعلامية، فإنه لشرط لا غنى عنه مطلقا في الإسلام وللرسول بالذات وذلك أن كل ما يبلغه النبي ﷺ ليس هناك من دليل مادي لإثباته غير دليل صدق النبي ﷺ. فقد نتفق أن الإسلام دين يوافق العقل، ويوافق الفطرة، ويقبله كل ذوق سليم، ونفس مستقيمة، ولكن مع ذلك تبقى عقائد الإسلام وأخباره الغيبية عرضة للشك والريب، ما لم يكن المؤمن قد صدّق جازماً بصدق النبي ﷺ ولذلك لم يكتف النبي ﷺ بذلك الإقرار الجماعي على صدقه ممن يدعوهم إلى الإسلام، بل لم يترك مناسبة إلا وجدَّد لأتباعه وأعدائه على السواء أنه رسول الله صدقاً، وأنه لم يكن ليكذب على الله، وأن الذين آمنوا به ما آمنوا إلا تصديقا له، وإقرارا بأن ما جاء به هو الحق.

وهكذا كانت أحاديث النبي ﷺ كثيرا ما تصدر بـ (والله)، والذي نفسي بيده، وايم الله، ولا يكف عن قوله: لا ومقلب القلوب، أي ومقلب القلوب. يحلف ويقسم بكل هذه الأيمان إشعارا لمن يبلغهم أن ما يقوله حق وصدق.

وتقرأ القرآن فلا تكاد تجاوز صفحة من صفحاته إلا وقابلك قسم من الله على صدق نفسه سبحانه، وصدق رسوله ﷺ، وأن ما يأتيهم هو الحق الذي لا شبهة فيه، ولا ريب.

فمن ذلك قوله جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ وقوله: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ ومثل هذه الآيات التي تصدر بالقسم كثيرة جدا. وذلك للإلحاح على قضية واحدة وهي توثيق المصدر وبيان أن ما جاء به النبي حق وصدق.

وقد كان النبي ﷺ أحيانا يخبر الناس بأشياء يستغربونها، ولا يكادون يصدقون بها فها هو البخاري يروي أن النبي ﷺ يقول: «**بينما رجل ممن كان قبلكم يركب بقرة إذ التفتت إليه فقالت: إني لم أخلق لهذا!!! فقال الناس سبحان الله: بقرة تكلم!! فقال: إني لأؤمن بهذا وأبو بكر وعمر**» [متفق عليه]، يقول هذا مؤكداً قوله وأنه لا يقول إلا حقاً.

ولذلك كان أول واجب على الدعاة إلى الإسلام أن يكونوا صادقين، بعيدين عن الغرض والهوى، ولذلك كان السقوط في هذه القضية سقوطاً كاملاً لدعوتهم. ولعل مما يحسن التدليل به هنا على انهيار الرسالة الإعلامية بالكذب هو تلك السياسية التي اتبعها الإعلام العربي في العقدين الأخيرين من القرن العشرين تطبيقا لنظرية (جوبلز) في الإعلام وهي: اكذب ثم اكذب ولابد أن يصدقك الناس. فقد رأينا كيف وصل المواطن العربي إلى عدم الثقة بإعلانات وبلاغات حكوماته العسكرية وتصريحات زعمائه وكيف تحول إلى إذاعات العدو وبلاغاته.

وإذا كان الكذب مستنكرا مع غير المسلمين فإنه أشد نكرانا مع المسلمين ولذلك يعجب المرء منا طويلا وهو يرى أناسا ينتحلون الدعوة إلى الله سبحانه ثم يستحلون الكذب مع خصومهم ومنافسيهم وإخوانهم، زعما منهم أن هذا لمصلحة الدعوة، وليس من مصلحة الدعوة الإسلامية قط أن يتصف أربابها بالكذب.

٥ - العلاقات العامة أسلوب من أساليب الدعوة في عهد النبي ﷺ

عندما كلف الله رسوله محمدا ﷺ بدعوة الناس إلى دينه أوحى إليه (بالعلم) الذي يجب عليه نشره وإبلاغه للناس وهذه القضية لا اجتهاد مطلقا للرسول فيها، ولكن الله ترك للنبي ﷺ حرية اتخاذ الوسيلة المناسبة لنشر هذا العلم وإبلاغه فلم يقل له مثلا ادع فلانا ثم فلانا، واستخدم هذه الوسيلة ولا تستخدم هذه الوسيلة، وإنما وضع له حدودا وضوابط عامة في هذا الصدد كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ فأمره أن يكون بدؤه بالعشيرة قبل عموم الناس. وقال له: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ فنفَّذ الرسول هذا بأن صعد على الصفا وخطب في بطون قريش جميعها فكانت خطبته هذه تأويلا وتنفيذاً لأمر الله له بالصدع بالدعوة.. والشاهد أن الوسيلة التي اتخذها الرسول في مراحل دعوته إلى الله كانت من اجتهاده.

ولقد استخدم الرسول ﷺ في دعوته جميع الوسائل المعروفة في عصره، فقد استخدم العلاقات العامة، والدروس الخاصة (دار الأرقم والمسجد) والخطبة، والمناداة، والاتصال الفردي والجمعي، والبعوث والسرايا، والرسائل إلى الملوك والأمراء والقصيدة الشعرية، والمشاعر والشعائر، والجدال والمناظرة، واستخدم الإسلام أسلوبا للدعوة جديدا على العرب - وكان أعظم أسلوب على الإطلاق، ومازال- وهو القرآن الكريم، ثم الحديث الشريف.. وسنتكلم بالتفصيل عن كل أسلوب من هذه الأساليب من حيث هو أسلوب للدعوة لا من حيث العلم (الموضوع) الذي يتضمنه هذا الأسلوب أو ذاك.

العلاقات العامة:

عرف في الدراسات الحديثة (للإعلام) الآن وسيلة من أهم وسائل الترويج للأفكار وهي العلاقات العامة، ويستخدم هذه الوسيلة الآن المؤسسات الفكرية، والتجارية وأيضا التربوية والرياضية، فأي مؤسسة فكرية ناجحة الآن لابد لها من اتصالات بالوسط الذي يحيط بها، ويتعامل معها، ويشاركها الغاية نفسها، وتكون مهمة هذه الاتصالات هو الترويج لبضاعتها الفكرية، وتعريف الناس بها

أو التعاون مع المؤسسات المشابهة، أو التعرف على نواحي القصور في المؤسسة.. وهذا النوع من الأساليب الإعلامية ليس اختراعا ولكنه فقط اكتشاف لأسلوب فطري عرفه الإنسان منذ عرف نقل الأفكار منه إلى الآخرين وشعر بالحاجة إلى ذلك.. وكان هذا الأسلوب هو أول الأساليب التي استخدمها النبي ﷺ في دعوته. فقد عمد النبي صلوات الله وسلامه عليه إلى نشر رسالة الإسلام أولا في الوسط الذي يحيط به عن طريق العلاقات العامة فدعا أولاً زوجته، وخادمه، وابن عمه، وأصدقاءه، ومعارفه والتقى مع كل غريب ووافد إلى مكة في حج أو تجارة، سواء كانوا أفراداً أو وفوداً وجماعات واتصل بأقاربه وعشيرته جميعا ودعاهم إلى الإسلام اتصل بهم في أماكنهم وبيوتهم، وصنع لهم ولائم متكررة في منزله ودعاهم إلى الطعام ثم عرض عليهم رسالته، وهكذا فعل أيضا كل من آمن بالنبي ﷺ تقريبا.. وكان من أنشطهم في ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث آمن له سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام وكثير من العبيد والموالي والضعفاء.

وعن طريق هذه العلاقات العامة غشي رسول الله الأسواق التي كانت تقيمها العرب للتجارة والشعر وتبادل المعلومات فغشي عكاظ، ومنى وأماكن الحجيج، وسافر إلى الطائف ليعرض الإسلام على كبرائها ورؤسائها، وغشي الأماكن التي يتجمع أهل مكة فيها في الحرم وغيره، وفي المدينة كان يذهب أول الأمر إلى أماكن تجمع اليهود والمشركين من العرب ويعرض عليهم الإسلام، وأحيانا كانوا يردون عليه رداً قبيحاً، كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول، وذلك قبل أن يسلم، قبل بدر حيث قال للنبي (ﷺ) بعدما دعاه وهو في مجموعة من اليهود والمشركين والمسلمين: "يا هذا اجلس في رحالك فمن أتاك فحدثه ولا تغشنا في مجالسنا بما نكره!!".

فقام عبد الله بن رواحة - وكان مسلماً - وقال: "بل اغشنا يا رسول الله فإنا نحب ذلك". وسب عبد الله بن أبي بن سلول وكادت تنشب المعارك لذلك فهدَّأهم النبي ﷺ ثم ذهب. [رواه الشيخان].

وهكذا استخدم النبي ﷺ هذا الأسلوب الفطري القديم من أساليب الدعوة وترويج الأفكار ولكن على خير وجه فلم يترك صغيراً ولا كبيراً حراً ولا عبداً التقى به إلا وأبلغه رسالة ربه، لم يمنعه من ذلك ضعف العبد وفقره، ولا صغر الغلام وضعفه وإنما بذل الإسلام لكل أحد يملك التمييز.. وكذلك لم يخص بدعوته الضعفاء والمساكين - وإن كانوا أسبق الناس إليها - وإنما تصدى أيضا للكبراء والملأ، فدعاهم إلى الإسلام ورغبهم فيه.

والشاهد من كل هذا أن النبي ﷺ لم يجلس في منزله وعلّق لافتة في جداره تقول "هذه دار محمد رسول الله" أو ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وانتظر حتى يقرأ الناس (لافتته) وإنما خرج من منزله داعياً ومبشراً ومنذراً في كل صوب يستطيع أن يصل إليه وعرض الإسلام على كل من قابله من حر وعبد وامرأة ورجل وشريف وضعيف لم يصده عن ذلك عزة الرسالة، وسوء الرد من كثير من الناس كأن يقال له "أما وجد الله غيرك حتى يرسله!!؟" وهذه كلمة لو قيلت اليوم لعالم من علمائنا حمل شهادة واحدة لما خرج إلى الناس بدعوة قط!! والعجب أيضا ممن يزعمون القيام بالدعوة واقتفاء أثر الرسول ويقولون نجلس في أماكننا ومن أراد الهداية فليأت إلينا!! بل وجب على كل من حمَّله الله علما من علوم الدين أن يغشى الناس في أماكنهم وأن يعرض عليهم بضاعته النظيفة الطيبة وأن يدعوهم إلى الخير الذي وفقه الله إليه.

وفي سبيل استخدام هذه الوسيلة (العلاقات العامة) لم يترك الرسول (ﷺ) الذهاب إلى أسواق الجاهلية -مع ما فيها من المنكرات والآثام- ولم يترك أيضا بيوت الملأ والكبراء -مع ما فيها من ذلة للداعي واستهزاء به- ولم يترك النبي أيضا دعوة الكفار إلى منزله للطعام والشراب مع ما في هذا مما ينكره بعض المسلمين اليوم. وهذا كله أقوله لأدلل على فساد فهم الدعوة اليوم لدى كثير ممن يدعون إلى الله الذين اتخذوا الدعوة وظيفة وحرفة وشرفا وكهانة ولا يطمعون إلا في الدنيا، ولأبيِّن أيضا السبيل لمن أراد أن يقتفي أثر النبي المصلح الداعي إلى الله سبحانه وتعالى.

٦ - أسلوب القرآن في عرض رسالة الإسلام:

الأمور التي يدعو الإسلام إليها في غاية العظم، فالإسلام لا يأمر أتباعه بأمور تافهة أو ثانوية من حياتهم، بل إنه يفرض على أتباعه أن تكون حياتهم كلها من أجله، وموتهم في سبيله، وسيرهم في الحياة على نهجه. باختصار إن الإسلام يطلب من اتباعه أن يبيعوا أنفسهم وأموالهم لله، وأن يصبغوا حياتهم كلها بصبغته وأن يكونوا في قيامهم وقعودهم وتقلبهم (أحوالهم المختلفة) ملتزمين بشرائعه وأحكامه وآدابه.

ومن يطلب منك نفسك ومالك لابد وأن يقدم لك عند هذا الطلب عوضاً مكافئاً، وإلا كانت دعوته لك في غير محلها بل إن أي عاقل لا يرضى أن يُطلَب منه شيء من ماله دون عوض نافع له سواء كان عوضا ماديا أو معنويا فالمال لا ينفقه الناس ولا يتخلون عنه عادة إلا في سبيل منافعهم المادية المختلفة أو الشهرة والجاه والذكر، وكلها منافع معنوية، فكيف بمن يأتيك ويقول لك: ابذل مالك كله في هذا السبيل ولا تنفقه إلا حيث آمرك بل ولا تكتسبه إلا من حيث أرشدك، ولا تتصرف في شيء من أمورك إلا وفق هذه الشريعة وهذا المنهج. لاشك أن من يقول لك ذلك ولا يقدم لك مبررا معقولا ولا جزاء مجزيا فإنك ترفض كلامه وتهجر قوله.

ولما كانت دعوة الإسلام لا ترضى من أتباعها بجزء من حياتهم، بل تطلب حياتهم كلها ومالهم كله وتصرفاتهم جميعها، وكان صاحب هذه الدعوة هو الله سبحانه وتعالى، وكان القرآن هو كلامه المتضمن دعوته هذه فإن الله قد أحاط دعوته بأسباب الأخذ بها حتى لا يترك لمعترض اعتراضاً، ولا لمتكاسل مجالاً، ولا لمراوغ مهرباً، ولا عجب فإن الرب سبحانه هو الحكيم العليم، وكتابه هو الكتاب البلاغي المعجز نظماً ومعنى، ولذلك كان التزام الدعاة إلى الله بأسلوب القرآن في العرض لا أقول ضرورياً، بل لا إلزام بغيره أصلاً، ولذلك قال الله سبحانه لرسوله ﷺ: «**ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً، فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً**»، فالجهاد للدعوة إنما يكون بالقرآن عرضاً وتلاوة وشرحاً وتفسيراً، ولذلك كان نهج النبي ﷺ في خطبة الجمعة أن

يفعل ذلك. فيروي مسلم بإسناده عن عمرة بنت عبد الرحمن عن أخت لعمرة قالت: "أخذت (ق، والقرآن المجيد) من في رسول الله ﷺ يوم الجمعة، وهو يقرأ بها على المنبر في كل جمعة".. فهذه صحابية لا تحفظ سورة من القرآن إلا من كثرة ترديد النبي لها على المنبر يوم الجمعة، ومعلوم أن خطبة الجمعة كانت أهم عمل (إعلامي) في زمن النبي ﷺ -كما سيأتي بعدُ إن شاء الله تعالى- ويروي مسلم أيضا بإسناده عن صفوان بن يعلي عن أبيه أنه سمع النبي يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ﴾.

كيف عرض القرآن لدعوة الإسلام؟

إذا تصفحت القرآن الكريم لتعلم كيف عرض الله سبحانه وتعالى الدعوة إلى الإسلام وجدت مصداقا لما حدثناك عنه آنفاً.

فهذا أول أمر في القرآن قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾. الآيات.

وفي الآيات نرى أن الله دعا الناس إلى عبادته معلنا أنه ربهم، وأنه خالقهم، ومعنى هذا أن من حقه أن يأمر وأن يطاع سبحانه والدليل على ربوبيته وخلقه أنه خلق لهم الأرض حال كونها فراشاً وجعل لهم السماء بناء ومعنى ذلك أنها حافظة لهم من شرور فوقهم وهذه الشرور لم نعلمها على وجهها الصحيح إلا حديثا بعد معرفة ما يسمى بالأشعة الكونية القاتلة، والصواعق والنيازك المحرقة، وأنه أنزل من السماء ماء ليخرج به من الثمرات رزقاً لكم و.. و..

ثم بيَّن سبحانه الغاية من هذه العبادة وهي التقوى والتقوى معناها أن تتقوا عذابه، إذ الواقع والمرتب على التكذيب.. وهذا تهديد وترغيب أيضاً لأن التقوى منزلة في الإيمان والتقرب أيضا ثم قدّم الدليل على صدق هذه الدعوى وهي صدق الرسول الذي جاء بهذا الكلام الذي يتحدى الله به الأولين والآخرين

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ الآيات.. ثم عقب بأن كل محاولة لإثبات كذب الرسول مردها إلى الفشل وأنه لن تأتي الأيام إلا بما يصدّق دعوته فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ وهذا أبلغ تهديد بالعذاب والنكال لمن لم يقبل هذه الدعوة، ثم بشّر الطائعين فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾. الآيات، وهذه البشرى ليست هناك في الأرض بشرى تعادلها لأنها تتضمن الحياة السرمدية في أهنأ مكان وأسعده وأي عاقل لا يتمنى ذلك!! وهكذا مع تفصيل هذا الكلام وتصوره تصورا صحيحا ووزنه وتقديره يجد العاقل نفسه أنه لا فكاك له من قبول هذه الدعوة والإذعان لها والدخول في طريقها، بل يجزم كل متبع لهذه الدعوة - إذا كان مؤمنا بها بحق - أن المجنون وحده هو الذي يرفض هذه الدعوة، وإذا لم يعترف هذا الرافض بسفهه وغروره وضياع عقله في هذه الدنيا فسيأتي وقت ليفعل ذلك وهذا عندما يعاين حقيقة الأخبار التي أخبر بها الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى عن النار وأهلها: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾.

ولا شك أن العاقل يقدّر ما يسمع، وخاصة إذا كان موجّها إليه، لا يجد حيلة ولا ذريعة في ترك الإذعان لهذه الدعوة، فكيف إذا انضاف لهذه الدعوة مئات من الآيات البليغة في هذا الصدد لتعالج هذا الموضوع من كل زاوية من زواياه.

وهذا العرض المعجز المدعّم بالأدلة المحيطة بجوانب الأمر لا يتوقف على الأمور العامة الشاملة، بل يشمل جميع المواضيع والجزئيات والفرعيات التي يعرض لها القرآن. ولن تستطيع أن تقف على هذا وقوفاً كاملا إلا بالدراسة الواعية والتدبر لكتاب الله عز وجل. فانظر مثلا إلى الآيات النازلة في شأن

الطلاق، أو الميراث، أو الجهاد، أو الصدقة والزكاة، لقد عالج القرآن كل موضوع من المواضيع السابقة.. إنه ليتركك في أمر كالطلاق تفكر ألف مرة قبل أن تقدم عليه، وفي أمر كالميراث تخشى أن تضع منه عودا في غير محله، ويجعلك في الجهاد والصدقة -إذا عقلت- تفضل ما أنفقته على ما بقي في يدك، وتفضل أن تموت الآن قبل الغد في سبيل الله.

وإذا قرأ المسلم الدارس كتاب الله وعرف ما فيه على هذا النحو، يعجب من العرض السخيف الذي تُعرَض به رسالة الإسلام اليوم على الناس من كثير ممن يتصدرون للدعوة والإرشاد والتوجيه.

٧ - أ - كيف نقدم الإسلام للناس (الإسلام ليس عقيدة منافسة)

إن من أكبر عوامل الفشل في الرسالة الإعلامية الإسلامية في العصر الحاضر أننا نبشر بالإسلام على أنه عقيدة ودعوة (أفضل) من غيرها من الدعوات القائمة، وأن الدعوات القائمة الآن لا تحقق الخير للناس كما يحقق الإسلام، وأن الإسلام (أفضل) من الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية.. وأن.. وأن، فهذا العرض السخيف مرفوض ممن لا يؤمن بعقيدة الإسلام، لأنهم يرون في الإسلام قيودا يرونها مناقضة لدعوى أن الإسلام يسعدهم، وهم يرون السعادة في اتباع أهوائهم وشهواتهم، ويرون أن ما يصرح به دعاة الإسلام الذين يعرضون الإسلام على هذا النحو ليس هناك في العصر الحاضر ما يؤيِّده، ويرون أن استدلال الدعاة إلى الإسلام بسعادة القرون السابقة بحكم الإسلام لا ينسحب على العصر الحاضر، لأن وسائل الناس المادية وأفكارهم وعقائدهم قد تغيّرت وتطورت، ونعيب على هذه الدعوة أيضا ما يرون من أحوال المسلمين، حيث يعيشون في الشقاء والجهل والتأخر. ولاشك أن دعاة الإسلام المعاصرين لهم ردود على هذه الشبهات، كأن يقال مثلاً وإن الإسلام ليس مطبقا تطبيقاً سليماً في الوقت الحاضر، وإن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، ولكن مما لا شك فيه أن هذه الدعوى أيضا حولها شبهات جديدة وهكذا يدور دعاة الإسلام في حلقة ودوامة من الردود والشبهات وتكون الغلبة بالطبع لأعداء هذا الدين لأنهم يملكون وسائل أقوى وأساليب أبلغ وبهذا يجهل الدعاة اليوم القاعدة

الأولى من قواعد الإعلام الإسلامي الناجح وهو أن يعرض الإسلام على أنه العقيدة العليا بل العقيدة الواحدة المهتدية وأن غيره هو الضلال.

يجب أن يُعرَض الإسلام على أنه لا خيار للناس في الأخذ به أو رده إن أرادوا النجاة من عقاب الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة، وما السعادة الدنيوية إلا ثمرة من ثمرات الإيمان.. ولاختلاف الناس في مفهوم السعادة، فنحن لا نجعلها فيصلا وغاية في قبولهم للإسلام أو رفضه، بل حتى لو شقوا بعد إيمانهم بعذاب الكفار وفتنتهم لهم، وجهادهم المتواصل في سبيل الله، فلا يجوز بتاتا أن يحملهم هذا على التخلي عن الإسلام لسواه.

باختصار: نحن لا نساوم الناس بالسعادة ليدخلوا في هذا الدين، فمقاييس السعادة غير متفق عليها بين البشر، ولكننا نعرض الإسلام في مقابل الهداية والفوز برضوان الله سبحانه وبأنه الطريق الذي لا خيار لأحد في تركه إذا أراد السلامة والنجاة، ولا يمنع هذا أن يبشرهم بالعزة والنصر والحياة الطيبة التي هي ثمرة من ثمرات الإيمان والعمل الصالح، وهذا الذي يجب علينا أن نسلكه إزاء عرض دعوة الإيمان وبيان أصول الإسلام يجب علينا أن نسلكه أيضا في عرض أحكامه وتشريعاته فمن الجهل المطبق أن تعرض تشريعات الإسلام لما تحقق من خير وما يترتب على رفضها من شر. فالقول بأن الصلاة تعلم النظام والنظافة وتقوي الأبدان، وأن الصوم يصح الجسم والخمر يضر بالمعدة ولحم الخنزير يحمل الأمراض والجراثيم و.. و.. هذا كله عرض سخيف يرد عليه أعداء الإسلام بأن المنافع التي تتحقق ببعض تعاليم الإسلام نستطيع تحقيقها بغيرها والأضرار التي تتحقق من بعض ما حرم الإسلام نستطيع تفاديها بالإقلال من تعاطيها مثلا، أو باستخدام العقاقير الحديثة والعلوم الحديثة في إصلاحها وتطهيرها.. الخ.

وبهذا نجد أن طريقة العرض على هذا النحو مردودة وتحتاج إلى أن ندور مع المعارضين في دوامات طويلة من النقاش والردود والاستشهاد بأقوال الأطباء من شرقيين وغربيين، والخبراء الاجتماعيين والنفسيين والعلماء من كل حدب وصوب ويا للأسف لماذا لا نتمسك بكلام رب العالمين؟ باختصار اتخذ

الإسلام عند عرضه لمسائل الإيمان موقفاً محدداً، وهو نقاش الكفار حول وحدانية الله سبحانه وتعالى وتفرّده بالخلق والإيجاد ورتب على هذا وجوب أن يكون هو الإله الواحد المعبود وحده المطاع وحده سبحانه وتعالى، ولذلك مكث رسول الله في مكة ما مكث يدعو إلى توحيد الله وعبادته وحده وكان النقاش حول هذا الموضوع وحده وما يلازمه من وجوب طاعته وحده وترك كل طاعة تخالف طاعته.

ولذلك نقول الدعوة إلى التوحيد أولا.. التوحيد بكل معانيه: توحيد الربوبية، والألوهية، وتوحيد أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى.

وأما الدعوة إلى الاتباع والشريعة والأحكام، فهي دعوة خاصة بالمؤمنين، ويجب على المؤمن أن يتعلم أن يقول عند أمر الله ونهيه: "سمعت وأطعت"، ولا بأس بأن يتعلم المؤمن أثر العبادة والطاعة في نفسه ومجتمعه وأن يستمتع بثمرة ذلك فإن هذا من الخير المعجل للمؤمن في الدنيا. فاطمئنان قلب المؤمن بذكر الله سبحانه، وانتهاء الجريمة والقضاء على الشر بتطبيق الحدود الإسلامية، وكون الرخاء والخير منوطان بالطاعة، أقول بيان هذه الثمرات وقرن الدعوة الإسلامية لتطبيق شريعة الله بثمرات ذلك أمر لازم ولابد منه ولكن يجب أن نضع هذا في مواضعه وهو أن هذه الثمرات الدنيوية نتيجة للإيمان، وليس بلازم أن تتحقق في كل جيل فقد يجد بعض الجيل ثمرة الإيمان والطاعة من العز والتمكين والأمن في الدنيا، وقد لا يجدونها لوجود أسباب أخرى من غربة الإسلام مثلا وكثرة أعدائه، وتأخُّر النصر عن القائمين بالدعوة إليه. يقول جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه: آمنا برسول الله وصدّقناه، فمنا من مات لم يأخذ من أجره شيئا، منهم مصعب بن عمير قُتِل يوم أحد، فلم نجد ما نكفِّنه به إلا شملة إن غطينا بها رأسه بانت رجلاه، وإن غطينا بها رجليه بان رأسه، فقال رسول الله ﷺ «**غطوا بها رأسه وضعوا على رجليه من الإذخر**».[رواه البخاري] وهكذا وُجِدَ من أصحاب النبي ﷺ من مات في إبان دعوة الإسلام مجاهدا صابرا فقيرا، لم ينعم بليلة من ليالي الأمن ولا يوم من أيام الرفاهية، وإنما آمن ابتغاء تلك الثمرات العظيمة الأخرى التي تترتب على

الإيمان بالله سبحانه وتعالى وهي الفوز برضوان الله وجنته والهداية إلى طريقه المستقيم.

باختصار: إن الإسلام يعني الحياة والكفر يعني الموت.. إن الإسلام يعني البصر والسمع والعقل، والكفر يعني العمى والصمم وعدم العقل، كما قال سبحانه وتعالى مخبرا عن الكفار يوم القيامة: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ الآية، فأخبر تعالى أن الكفار لا عقل لهم ولا سمع في رفضهم لهذه الدعوة التي هي دعوة الحق والنور.

يجب أن يُعرَض الإسلام على الناس على أن الحياة من دونه دم وجهل وحمق وجاهلية، وخروج عن طاعة خالق هذا الكون سبحانه وتعالى. وتسخير للإنسان في غير ما خُلق له، فقد خلق ليعبد الله وحده لا شريك له سبحانه وتعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، وبهذه الإحاطة نقدم الإسلام للناس.

ب - كيف نُقرِّب رسالة الإسلام لفهم الناس؟

تعقيد العلوم الإسلامية حال دون الاستفادة منها استفادة كاملة، وأخرج علماء لا يستوعبون الأهداف العالية للإسلام ورسالته في الأرض، بل ويحصرونه في القضايا الجزئية التي لم يحسنوا غيرها، ولذلك اضطر هؤلاء العلماء إلى الحلول السطحية للمشكلات التي تواجهها الأمة، وذلك أنهم أرادوا أن يحكموا بواسطة الجزء الذي تعلموه على الكل الذي يواجهونه، ولذلك كان الإفتاء السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي يصدر عن علماء المسلمين بوجه عام ضيقاً سطحياً، ولذلك أصبح الفكر الإسلامي -إلا في الحالات الشاذة- فكراً تابعاً ذليلاً للفكر السياسي والاجتماعي، والاقتصادي السائد. وكان من الواجب أن يكون الاجتهاد الإسلامي اجتهاداً رائداً موجِّهاً لسياسة الأمة واقتصادها ونظم الاجتماع فيها.

ولذلك وجب على الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى أن يكونوا على مستوى حركة الأمة وواقعها، ولا يفترض بالضرورة أن تكون حركة الأمة موافقة للإسلام تماماً ولا أن يكون واقعها واقعاً إسلامياً راشداً، وإلا فما مهمة أهل

العلم من المسلمين إن كان الناس سيسيِّرون هذا الدين تلقائيا عفوياً. هذا لا يتأتى إلا في مجتمع الملائكة، وأما في مجتمع البشر فلا.

ولا يمكن أن يكون العلماء على مستوى حركة الأمة وواقعها إلا إذا اتسمت بحوثهم وخطبهم ومحاضراتهم بالحكم على الواقع وترشيده، وكانت تصحيحا لحركة الأمة وسير حركتها في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتعليم والتربية والأخلاق، وأما الاكتفاء بهذا الوعظ الأبله، والعيش في أمجاد الماضي ومثالياته - دون نقل هذه المثاليات والنظم والقوانين للعمل والتطبيق في الحاضر - يبدو هذا أمراً تافهاً للغاية.

وإذا كنا بصدد تسهيل مهمة فهم الإسلام وجعله -كما شاء الله- رسالة شعبية وعقيدة وخلقاً ومنهجاً للناس جميعا، فإنه يتحتّم علينا نفي التعقيد اللفظي والكهانة الدينية.. وخير ما يقال في هذا الصدد هو حديث النبي ﷺ: «**وأبغضكم مني وأبعدكم عني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون**» [رواه أحمد والترمذي وابن ماجان].

فالتشدق هو إدارة الكلام في الأشداق، وملء الفم به تفاصحاً خلق ذميم يعطل الفهم ولا ييسره، وكذلك التفيهق بل الواجب على دعاة الإسلام وعلمائه أن يكونوا كما أمر الله رسوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

ولتسهيل هذه المهمة الإعلامية بالإسلام يجب أن تتبع الخطوات الآتية:-

أولاً: فهم الأهداف والحكم العالية من رسالة الإسلام في الأرض، ويعني هذا الإجابة عن الأسئلة الآتية: ما الحكمة التي خلقنا الله من أجلها؟ لماذا فرض الله هذا الدين بالذات؟ أعني لماذا أرسل الله الرسل وأنزل الكتب؟ ولماذا يجب على الناس أن يكونوا مسلمين؟ وما ثمرات ذلك؟ وما مضار النكوص عن تحمُّل هذه الأمانة؟.. والأجوبة السطحية على هذه الأسئلة لا تعني شيئا، بل لابد من استقراء الكتاب والسنة لفهم الإجابة الموضوعية عليها.

ثانياً: التصور الإسلامي الواضح للحلول لمشاكلنا الجزئية في السياسة والاقتصاد والاجتماع وشتى شؤون حياتنا، ولا يتأتى هذا التصور بالإجابات العمياء التي تصدر عن فراغ من العلم بالكتاب والسنة، أو فراغ من العلم بواقع

الناس، أو رغبة خبيثة في تطويع الإسلام للواقع المنحرف.. بل لابد للإفتاء في هذه القضايا من العلم بالكتاب والسنة، ثم العلم بواقع الناس، ثم النزاهة ومراقبة الله في تطويع الواقع للدين، لا تطويع الدين للواقع.

ثالثاً: بث هذا التصور الإسلامي في القضايا الجزئية بأسلوب البناء لا الهدم، أعني بإصلاح فساد المجتمع - ولو جزئياً - بدلا من انتظار انهياره الكامل لإقامة صرح الإسلام من جديد. فالذين ينتظرون وصول المسلمين إلى حالة الانهيار الكامل وسقوط السلطات الحاكمة ليؤسِّسوا الخلافة الراشدة غوغائيون لا يفقهون الإسلام ولا يعرفون غاياته.. والمسلم يرحب بالإصلاح الجزئي ويسعى إليه وليس الإصلاح الجزئي هو هدفه النهائي بل هدف المسلم هو الإصلاح الشامل للبشرية كلها إن استطاع وقد دعا الله سبحانه وتعالى الكفار - وهم كفار - إلى كثير من الأوامر والفرعيات، كالتفكر في شأن الرسول (ﷺ) وترك تقليد الآباء والأجداد، ورفع الظلم عن المسلمين. وعقد رسول الله الموادعات مع اليهود والنصارى والمشركين ولم يكن هذا هو نهاية مراده وأمله فيهم ومعهم ولا نهاية حركته ودعوته معهم أيضا فقد أتى وقت أنهيت فيه هذه العهود وألغيت فيه هذه المواثيق دون خيانة من الرسول - بالطبع - وابتدأ الرسول معهم صفحة جديدة من الجهاد والدعوة.

فالحركة الدائبة للدعاة المسلمين في الإصلاح الجزئي لأي ناحية من نواحي حياتنا العديدة، العبادية أو السياسية أو الاجتماعية أو الخلقية هو صلب الدعوة وطريقها. وأما النظريات (الخارجية) في بناء هيكلية دينية تعيش في فراغ اجتماعي ولا تتعامل مع المجتمع الذي سموه (جاهليا) إلا بالانقضاض والحرب فهو فكر مدمر للدعوة والإسلام وإن كنا نفترض الصدق في نيات حامليه ومروِّجيه، إلا أننا نخالفهم الرأي والاجتهاد ونرى أن الإصلاح الجزئي هو خطوة في الطريق للإصلاح الكلي، وقد قلت سابقا إن الإصلاح لا يعني تطويع الإسلام للواقع بل تطويع الواقع للإسلام والإسلام الذي ندعو إليه هو إسلام الكتاب والسنة.

وإسلام الكتاب والسنة أهم صفاته: أنه إسلام رشيد لا يُحابي أحداً ولا

يشهد إلا بالحق لأنه من الله والله هو الحكم العدل سبحانه.

٨ - أ - موقف المسلم من الحرب الإعلامية المضادة للإسلام:

منذ صدع النبي ﷺ بدعوته والحرب الإعلامية المضادة له ولدعوته لم يهدأ أُوارها، وكان ومازال من أساليب المعارضين لدعوة النبي محمد ﷺ إلقاء الشبهات حول هذا الدين، والبحث عن مطاعن فيه ينفذون من خلالها إلى صد الناس عنه، وتزهيد الناس فيه.

ولم تخل عقيدة للإسلام ولا شريعة له من اعتراض معترض وطعن طاعن، وتكاد أن تكون المطاعن والشبهات الجديدة ترديدا - ببغاوياً أحيانا - للشبهات والمطاعن القديمة، فقلوب الكافرين متشابهة في كل عصر ومصر، وشيطان الشبهات واحد.

فقديماً اتهم الرسول ﷺ بالجنون، وأن القرآن الذي أوحي إليه ما هو إلا أساطير سطرها الأولون، وقالوا أيضا بل تعلمها من غلام رومي بمكة، وقالوا بل افتراها واختلقها من عند نفسه، وقد ساعده في هذا الافتراء قوم آخرون لا ندري عنهم، وقالوا: بل هو ساحر يفرق بين المرء وزوجه والمرء وأخيه وأبيه، وقالوا: ما أراد بهذا إلا ملكا ورئاسة، وقالوا: بل أراد أن يبطل دين الآباء والأجداد، وأن يفرق جماعتنا، ويشيع الفتنة في مجتمعنا، وقالوا: بل هو شاعر شأنه شأن زهير والنابغة، فانتظروا موته لتستريحوا كما مات أولئك وأصبحت رواياتهم وشعرهم تاريخا.

وقالوا أيضا في أصحابه الأقاويل، فقد زعموا أنهم من الأوباش والشذاذ وأهل الجرائم السابقة، وما تجمعوا حوله إلا لأغراض في أنفسهم، ويوم يحين الجد يتفرقون عنه ولا يبقى حوله أحد. بل قالوا: لو كان هذا الدين الذي جاء به محمد خيراً ما سبق هؤلاء إليه، فنحن لمكانتنا وشرفنا أحق بالخير وبالهداية منهم فما هؤلاء في ميزان الله؟..

وقالوا: ما الآخرة التي يدعيها الرسول إلا وهم وخرافة، فيستحيل عقلاً إعادة الحياة إلى عظام بالية قد أرمت، وضلت في الأرض.. وما الزقوم الذي يهددنا به الرسول إلا تمر يثرب بالزبد، ثم إن أشجار الزقوم هذه التي يدعي

محمد أنها تنبت في النار دليل على كذبه، فإن النار تحرق الشجر فكيف ينبت فيها؟ ثم ما هؤلاء الملائكة عند الله إلا بناتاً. وإن كان على النار تسعة عشر منهم -كما يدعي محمد- فإننا نستطيع التغلب عليهم ثم نقفل النار فلا يدخلها أحد ممن يهددهم هذا الرسول وأما هذه الجنة فويل لهؤلاء المستضعفين لو فكروا أن يسبقونا إليها، فسندخلها قبلهم ونحرمهم منها.

وانطلقوا حول النبي لا يسمعون آية من القرآن إلا استهزأوا بها، ولا تقع حادثة يرونها في صالح إثمهم وفجورهم إلا عيَّروا الرسول بها، فقد عيَّروه بانتصار الفرس - دولة الأوثان - على الروم -دولة النصرانية والإنجيل- وذلك أنهم شبَّهوا أنفسهم بالوثنيين، وشبَّهوا الروم بالنبي محمد ﷺ وإن سمعوا أن أمته ستسود هللوا وصرخوا وصفروا وأخذوا هذا الكلام دليلا جديدا على جنون الرسول عندهم، وعلى أنه يتكلم بالخرافات والأماني لما يشاهدون من ضعفه وضعف أصحابه وهوانهم واستطاعتهم سحق المؤمنين به لو أرادوا!!.

وما كاد يخبرهم بخبر إسرائه إلى بيت المقدس حتى أعماهم الضحك، وأذهب صوابهم التندُّر والسخرية، ثم حملوا أمر إنقاذ المسلمين والمؤمنين بالرسول من هذا التخليط في نظرهم، فقاموا يناشدون المسلمين أن يرجعوا إلى دينهم ودين آبائهم وأن يتركوا هذا النبي الذي يهذي ويكذب، فليس أدلَّ على كذبه عندهم من أن يذهب في ليلة واحدة إلى الشام ثم يعود وهم يمكثون شهرا في الذهاب وشهراً في الروحة. وجاء ناصحهم إلى أبي بكر يزعم أنه يستنقذه من إفك محمد، فقال لهم يا قوم: إني أصدقه فيما هو أبعد من ذلك، إنني أصدقه في خبر السماء!! فتحيَّروا من هذا الكذب الصراح في نظرهم، وهذا الإيمان العميق في أصحاب النبي ﷺ.

ولما حرَّم الله الميتة على المسلمين - وكانت العرب تأكلها- جادلوه بالقدر، وأن الله هو الذي يميتها، فهل ما يذبحه الله في الليل بسكين من ذهب أقل شأنا وقدرا من الذي تذبحونه أنتم معشر المسلمين؟!

وفي المدينة تعرض الإسلام والنبي لحملة أشد، فاليهود أهل الخسة والمكر والدهاء والكذب والبهتان يرمون كل يوم بشبهة، ويقذفون كل نهار

بأراجيف، وضعاف الإيمان والمنافقون يسمعون لهؤلاء ويشيعون ما يقولون، البعض بقصد، والآخرون بغير قصد، وأحيانا يتعالى همسهم ويرتفع صوتهم، فيجابهون النبي بالتكذيب ويقولون: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾ وهكذا انطلقت شبهات اليهود والمنافقين حول تحويل القبلة والإفك المفترى على الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها وعن أبيها وكذلك حول أخبار النبي بنصر الله له وحول الصلاة ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًاۚ﴾ فما كانوا يسمعون المؤذن حتى يتعالى ضحكهم واستهزاؤهم وكل هذا أين؟ في المدينة المنورة وحول مسجد الرسول ﷺ!!.

ليس هذا فقط بل ما يخرج الرسول في غزوة حتى يقولون لن يعود منها ويشيعون بأنه قتل وفعل به الأعداء ما فعلوا، فيبكي النساء والأطفال في المدينة وضعفاء المسلمين، ولا يقعد هو مرة حتى يقولوا خاف وقعد وأرسل غيره!! ولا يُخلِّف رجلا كعلي بن أبي طالب حتى يقولوا: خشي على زوج ابنته وابن عمه لأنه سيقابل الروم.. ولن يعودوا.. ويلحق علي بن أبي طالب النبي باكيا، ويناشده أن يرحمه من أقاويل المنافقين، وأن يأخذه معه إلى تبوك وأن يُخلِّف غيره، فيقول له: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟! غير أنه لا نبي بعدي**».

هذه وتلك بعض من الحروب الإعلامية التي جابهها النبي ﷺ في حياته، بل إنها نزر يسير منها فكيف بالحرب بعده منذ أبي بكر للآن؟! هذه الحرب المضادة للمسلمين والإسلام لم يهدأ أوارها ولم تطفأ نارها ولن تزال إلى يوم القيامة واليوم حول كل عقيدة عشرات الشبهات وحول كل شريعة آلاف الاعتراضات. فالصوم تعطيل للإنتاج، والزكاة نظام بالٍ لا يصلح لمتطلبات العصر، ولذلك فالضرائب خير منه، والحج لا معنى له. بل هو إهدار للجهد والوقت، وقطع يد السارق وحشية، وقتل القاتل ليس عدلا بل هو انتقام والانتقام ينافي العدل.. زعموا إباحة الطلاق مشايعة للظلم، وتعدد الزوجات بدائية وهمجية والرق ينافي الإنسانية، بل يقولون الشريعة لا تصلح جملة لعصر الطائرة والصاروخ.. وصل الناس إلى القمر ومازلتم تصلُّون وتأمرون النساء

بالحجاب؟!! ويتغامز بالمسلمين كل أفاك ويقولون: انظروا إلى لحاهم القذرة وثيابهم القصيرة وصلاتهم بالليل.. ثم يقولون: أتظنون أنكم بهذا سترجعون فلسطين؟! وستحررون الأقصى؟!.

ب - موقف المسلم من الحرب الإعلامية المضادة للإسلام

لأن الشبهات والاعتراضات حول الإسلام بالغة عنان السماء، مسموعة ومقروءة كل يوم، ولأن هذه الشبهات والاعتراضات تشكل عند بعض الناس عقبة حقيقية تمنعهم من الإذعان للإسلام والإيمان به، والدخول في سلك المؤمنين، كان لابد من رد علمي شامل لأصول هذه الشبهات.

ولأن كثيرا من مثيري هذه الشبهات والاعتراضات لا يريدون بها إلا إشغالا للمسلمين وإنهاكا لقواهم وإهدارا لإمكاناتهم ورفعتهم، كان الواجب أن يقابل هؤلاء بما أمر الله سبحانه وتعالى، حيث يقول: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ فأحيانا لا يكون في الوقت فسحة للرد على سخافات السخفاء واعتراضات العُمي البلهاء، وإلقاء حجر في فم كل كلب نابح، وصدق القائل:

لو كل كلب عوى ألقمته حجرا   لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

أعني أن إشغال الأوقات بالردود على كل جاهل مضيعة للوقت، وهذان المسلكان أو قل الموقفان ضروريان لكل داع: -

(١) الرد العلمي الذي يعتمد الدليل والبرهان على شبهات المضللين، واعتراضات المعترضين.

(٢) والصفح الجميل والإعراض بالحسنى عن جهالات الجهلاء وسفاهة السفهاء، وكلا الموقفين ثابتان بالكتاب والسنة.

فدليل الموقف الأول هو هذا الحشد الهائل من آيات القرآن التي نزلت جميعها ردا على شبهات واعتراضات المشركين واليهود والنصارى، فلم يترك الله سبحانه وتعالى شبهة لهم إلا وكشف زيفها وبطلانها ولا اعتراضا إلا ودمغ القائلين به بالحق الذي لا يبقى معه إلا الإذعان أو الجحود والكفران. من هذا على سبيل المثال اتهام النبي بافتراء القرآن، قال تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ﴾، وقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا

مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: كيف يسمح الله لمن يكذب عليه ولا يعاقبه بل يتركه يكذب ويفتري عليه؟! وقال أيضا: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي ما كنت قارئا ولا كاتبا حتى تنقل مثل هذه الأخبار عن الأمم السابقة، وقال: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: كيف أمكث فيكم أربعين سنة من عمري لا أنطق بكلمة من هذا ثم ابدأ في الكذب المطلق والافتراء على الله وقول هذه الآيات التي لم يكن عندي علم بشيء منها قط، وقال أيضا: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ وقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ - أي موسى- حتى تعلم ما دار هناك من حديث وقال: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ وقال ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾، وذلك عن إخوة يوسف، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾، وقال﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.. وهذا بعد أن ذكر الله سبحانه ما فعل بقوم نوح.

وهكذا.. نجد أن الله لم يترك مناسبة إلا ورد فيها على هذا الاعتراض الذي يتوجه إلى صلب رسالة الرسول والتشكيك في أمانته وصدقه، وتحدى المجادلين والمكذبين له أن يأتوا بدليل واحد يثبت دعواهم في كذب الرسل، ولذلك لم يعد أمامهم إلا الإذعان أو الكفر والنكران، ولذلك قال تعالى عن المكذبين: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وفي الاعتراض على البعث ناقشهم الله سبحانه وتعالى، وأتاهم بالدليل تلو الدليل لإثبات البعث والنشور، فقال لهم سبحانه وتعالى ما معناه: "إن البعث الذي تكذبون به لا يختلف عن النشأة الأولى التي تنسبونها إلى الله، وأن الذي تقرون له بخلق السماوات والأرض -وهي أكبر من خلقكم- قادر على إعادتكم للحياة مرة ثانية بعد أن تموتوا، وأن إحياء الأرض بعد موتها لا يختلف عن خلق الحياة في الأجساد الميتة، ثم إن الرب سبحانه وتعالى قد أعاد إلى الحياة أناسا وبهائم وطيورا بأعيانها، كقتيل بني إسرائيل، وعزيز وحماره،

وطيور إبراهيم، وموتى عيسى ابن مريم، وكل هذا ثابت لكم بالخبر الصادق الذي جاء على لسان محمد ﷺ وفي الكتاب الذي تحداكم الله سبحانه وتعالى به.

وهكذا في كل الشؤون العقائدية والإيمانية جادل القرآن أرباب الشبهات ودمغ باطلهم كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وفي الأوقات التي يضعف فيها المسلمون يتعالى استهزاء الكفار بالإسلام وأهله، ويؤدبنا الله في مثل هذه الأوقات بآداب الإسلام من الصفح الجميل، والتذرع بالصبر، والإعراض عن الجاهلين، والفزع إلى الصلاة، والاستئناس في هذه الفرية بحب الله ومرضاته، وحسن التضرع إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾، وكون الساعة آتية يعني أن كل مستهزىء سيبلغ جزاءه. وقال أيضا: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ وكل من لم يعرف ربه وخالقه وخالق هذا الكون، وفيم خلق وإلى أين يسير فهو جاهل، وما أكثر هؤلاء الجهلة في عصرنا الحاضر وإن كانوا أمام الناس يحملون شهادات سموها (دكتوراه) وهم من أجهل الناس وأكفرهم وذلك بجحودهم لخالقهم سبحانه وتعالى: وهل هناك أظلم قلباً، وأعمى فؤاداً ممن لم يعرف خالقه وربه، وهل هناك أشد غباوة وإثما ممن لم يقدم شيئا لآخرته ينجو به من عذاب الله وسخطه؟!.

والشاهد: أن مقابلة هؤلاء الجاهلين بالصبر والصفح أحيانا، وبدمغ باطلهم أحيانا أخرى هو المنهج الرباني الذي يجب أن يلتزمه الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى، ولكل حدث حديث.

٩ – عقبتان في سبيل الرسالة الإعلامية الإسلامية:

لنجاح أية رسالة إعلامية لابد من اتصافها بالسهولة واليسر فهماً وتطبيقاً، أعني أن المادة الإعلامية المراد نشرها إن لم تكن مادة ميسرة يفهمها عموم الناس على اختلاف ثقافاتهم وذكائهم وقدراتهم العقلية بقيت محصورة أو

فاشلة. .والرسالة الإسلامية (كمادة) يراد نشرها وإقناع الناس بها هي في ذاتها ميسرة سهلة فهماً وتطبيقاً.

ولكن هذه (المادة الإسلامية) أو لنسمها العلوم الإسلامية قد تعقدت تعقيدا سيئا للغاية وشوهت تشويها بليغا وبهذا التعقيد والتشويه تعثر الإعلام الإسلامي الذي يبغي نشر الإسلام وتعميم نوره في مشارق الأرض ومغاربها وهذه أهم أسباب هذا التعقيد والتشويه وبعض المظاهر من ذلك:-

١ - مادة الإسلام الأساسية (الكتاب والسنة) في غاية اليسر والسهولة فهما وحفظا وإدراكا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ وحديث النبي قد صيغ بلغة سهلة بليغة يستطيع الفرد العادي أن يفهمه بقليل من الشرح، وهذه المادة فهمها العرب في صدر الإسلام على اختلاف درجات ذكائهم، بل فهمها الأحرار والعبيد والنساء والصبية. . وإذا قارنا بين النبي والفيلسوف علمنا أن النبي ﷺ لم يأت بفلسفة عقلية يصعب على الفرد العادي تصورها وهضمها كما هو الشأن في كل الفلاسفة الذين لا يفقه كلامهم إلا الخاصة من الناس.

ولكن الكتاب والسنة قد تناول علومهما المختلفة (العقائد)، والتشريع العملي، (والأخلاق والسلوك) علماء اتخذوا الدين صناعة وحرفة لا هداية وخلقا، وكان هذا يقتضي أن يجعلوا هذه العلوم (كهانة) لا يعلمها غيرهم وبذلك تحوَّل كل فرع من هذه الفروع إلى كهانة حقيقية. فعلم العقائد والذي سمي بعلم الكلام أصبح مسائل فلسفية عقلية لا يستطيع أن يجاري العامة من الناس أهل هذا العلم في قليل ولا كثير بل يصاب المثقف العادي الذي لم يدرس هذا العلم بالدوار (وجع الرأس) لو حاول أن يقرأ منه صفحة كاملة، والفقه عُقِّدت قضاياه وطرق استنباطه تعقيدا، بحيث أصبحت مجرد قراءة الفاتحة قراءة سليمة في الصلاة تحتاج معها إلى أن تعرف وتحفظ ثماني عشرة قاعدة قد تفني شهرا من عمرك ولا تستطيع أن تستحضرها، ويسمونها في الفقه شروط قراءة الفاتحة في الصلاة!! وأنا أشهد أننا أمضينا عاماً كاملاً في الجامعة نتعلم فيه آداب قضاء الحاجة والفرق بين النجاسة والطهارة!! فمتى يتفرغ

المتخرجون -وهم يحملون شهادات علمية دينية عالية- لدراسة نظام الإسلام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والحضاري؟ أنا واثق أن هؤلاء يجهلون جهلا كاملاً كيف يمكن للإسلام أن يقيم نظامه الحضاري في العصر الراهن؟!.

وأما علوم الأخلاق والسلوك، فقد يظن البعض أن دعاة الإسلام والعلماء الحاليين، إلا من قد فهموه ودعوا إليه -والحق أن المؤلفات الإسلامية في هذا الصدد أيضا- هي في غاية التعقيد، بل والتخريف.. فللأسف إن التصوف الذي جعل واجبه الأول هو السمو الأخلاقي والنفسي قد أتى علماؤه والكاتبون فيه بنظريات مدمرة للأخلاق والقيم بل والحضارة بأسرها وقد ناقشنا هذا في كتاب الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة وسنزيد هذه القضية إيضاحا في جولة جديدة إن شاء الله تعالى.

وبهذا أصبحت العلوم الإسلامية مجموعة من المعميات والأحاجي التي لا يستطيع الفرد العادي أن يلم إلا بنُتَفٍ يسيرة منها، ولذلك جهل كثير من المسلمين المعنى الشمولي للرسالة الإسلامية الخالدة، وبقي فهمهم محصورا في القضايا الجزئية التي مجَّتها الأسماع لكثرة تردادها في المناسبات والأعياد، والتي لا يُحسِن معظم الدعاة إلى الإسلام غيرها.

٢ - وأما المشكلة الثانية التي تقف عقبة دون فهم الإسلام ونشر رسالته في العالمين، فهي هذه النظرة الجزئية للإسلام من المتأصلين باسمه والمحسوبين عليه، فهؤلاء العلماء الذين يأخذون رواتبهم من مال الأمة لتفرغهم لنشر الإسلام وتعليم أهله، ينطلقون في دعوتهم من منطلقات ضيقة جدا هي المعرفة المحدودة التي درسوها -على الرغم منهم- في الجامعات حتى نالوا هذه الشهادات العالية، والعالمية، والدكتوراه.. الخ هذه الألقاب والنعوت.. وهذه المنطلقات الضيقة لا تسعفهم على الإجابة عن أسئلة الناس واستفساراتهم في شؤون الحياة، فالإسلام ليس عبادة فقط، والعالم الذي يصعد المنبر يُسأَلُ من الناس في الصلاة والاقتصاد بشتى مشاكله والأخلاق والنظم والقوانين والسياسة، ويخشى إن قال في بعض هذه الأمور لا أدري أن يتَّهم بالجهل وقلة المعرفة، ويدفعه غروره واعتلاؤه المنبر فوق الناس، وحفاظه على وظيفته وهيبته أن يفتي

في كل شيء، ويشمِّر عن ساعده في كل قضية، ومن هنا يأتي بالمضحكات وبالتفسيرات السطحية الضيقة التي تُنسَبْ بالطبع للإسلام وبذلك يضطر المثقف العادي أن يحكم على الإسلام بالتخلف والبعد عن المنطق والواقع، والصحيح أن التخلف والبعد عن المنطق هو في فتوى هؤلاء العلماء وخطبهم لا في الإسلام.

وقد يزيد الأمر تعقيدا أو الطين بلَّة -كما يقولون- أن يتطوع الشيخ من نفسه لكسب (الشعبية والجماهيرية) أن يفتي ويخطب في هذه الأمور دون دراية وعلم، وبذلك يأتي بالدواهي العظيمة، وينظر الناس إلى الإسلام نظرة السخرية والامتعاض، والذي يُعقِّد هذه المشكلة أكثر من هذا أيضا أن كثيرا من هؤلاء العلماء والمشايخ لا يقدِّمون حلولهم لمشاكلنا، وآراءهم في السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والدعوة على أنها فهمهم الذي توصلوا إليه لكلام الله وكلام رسوله بل على أنها حكم الله وحكم رسوله، وأن مخالفهم كافر ومارق وماجن.. الخ هذه النعوت التي يسمعها المصلون في كل جمعة تقريبا.. ولو تواضع هؤلاء العلماء وقالوا إنها غاية ما توصلوا إليه من اجتهاد وبحث، ووقفوا من العلم والمعرفة حيث هم فعلا، ولم يفتوا في قضية إلا بعد التحقيق فيها لكان للدعوة الإسلامية اليوم شأن آخر.

هاتان عقبتان أساسيتان تقفان في سبيل نشر الإسلام أو في سبيل الرسالة الإعلامية الإسلامية وما لم نعمل جميعا على إزالتهما فليس هناك أمل في نجاح رسالة الإسلام العالمية.

١٠ - الحرب الإعلامية

علمنا أن الإعلام في الإسلام جزء من الجهاد والدعوة، والإعلام يعني التعريف بالإسلام ونشر مبادئه وتعاليمه في العالمين، وتبشير المطيعين لهذه التعاليم بالجنة، وإنذار العاصين لها بالنار.. ومحاربة الأفكار والمبادىء المناوئة للإسلام.

ونحن نعيش اليوم في عصر أقل ما يوصف به أنه عصر الحروب الإعلامية والصراع البارد لنشر الأفكار والمبادئ، ولقد كان هذا من ثمرات

الحرب العالمية الثانية واكتشاف الأسلحة الرهيبة الجديدة.

لقد عرف العالم منذ وُجِد الإنسان صراع الخير والشر، والحق والباطل، هذا الصراع الذي كان نتيجة لاختلاف البشر وتباين عقائدهم واختلاف مصالحهم، وحب كل منهم - إلا من رحم الله - للعلو في الأرض وتحصيل أكبر قدر من الخير لنفسه ولو على حساب الآخرين، ورغبة كل منهم في إبعاد الشر عن نفسه ولو على رؤوس الآخرين.

ولقد أرسل الله سبحانه وتعالى رسله إلى أهل الأرض مبشرين ومنذرين ومعلمين للناس طريق ربهم -تبارك وتعالى- ليعبدوا الله وحده لا شريك له، وليقيموا العدل فيما بينهم، وقام الصراع بين حق الرسل واتباعهم وباطل المكذِّبين ومن على شاكلتهم وسيظل هكذا إلى قيام الساعة كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

ولقد حارب البشر بعضهم بعضا أيضا لاستلاب أموالهم، واحتلال أراضيهم واستعبادهم، ولقد وجد أمثال هؤلاء أنفسهم في مأزق خطير بعد اختراع آلات الدمار الحديثة، ولذلك فكّر هؤلاء الشياطين في حروب أخرى يصلون من خلالها إلى مآربهم في استلاب خيرات الآخرين وعلوهم عليه، وكانت هذه الحرب الجديدة هي الحرب الإعلامية.. وهذه الحرب تزداد أهميتها يوماً بعد يوم للأمور الآتية:

أولا: إنها أصبحت بديلا لا مفر منه للحروب التقليدية القديمة فلقد كانت الحروب الساخنة هي الملجأ الذي يلجأ الأقوياء إليه لفرض أفكارهم وعقائدهم أو سلطانهم أو احتلال أراضي الآخرين وسلب الخيرات التي بين أيديهم، ولقد تصارع الأقوياء في الأرض فيما بينهم تسابقا على الفريسة وتسلطا على الآخرين، واليوم وجد الأقوياء من الدول الغاشمة أنفسهم على شفا الهلاك إن استخدموا ما بأيديهم من السلاح الذري وغيره ضد بعضهم بعضا في سبيل الاستعمار والسيطرة، ونشر المبادىء والأفكار والأنظمة.

ثانياً: لقد برز الرأي العام (رأي الشعب) كقوة سياسية لها أثر في تغيير أنظمة الحكم وتبديل الرئاسات بعد انتشار مبادىء الحريات السياسية

والشخصية، وبروز الأحزاب والجمعيات، وغياب العقائد القديمة في أحقية الحاكم بالحكم استنادا إلى التخصيص الإلهي.

ثالثاً: لقد توسعت معاني الحرية الشخصية والسياسية في حياتنا الراهنة وتبع ذلك كثرة المذاهب والأفكار والعقائد، ووجد كل مذهب وعقيدة وفكرة نفسه مرغما على إجادة فن الإعلان والدعاية والإعلام ليجد لنفسه مكانا تحت الشمس في هذا العالم، وبذلك أصبحت الحرب الإعلامية من الأفكار والمبادىء قائمة على قدم وساق، ولذلك ازدهرت سوق الإعلام والدعاية.

رابعاً: إن توق الناس ولهفتهم إلى جديد من الاختراعات المادية عوَّدهم التبرُّمَ بالقديم والثورة عليه وهيأ نفوسهم إلى الاحتفال بالجديد دائما وفي غمرة هذه الانقلابات الخلقية تجددت المفاهيم والقيم والعقائد تجدُّدَ النماذج الحديثة للمخترعات والسيارات والملابس، وبذلك بات الناس يجددون عقائدهم وأفكارهم تماما كما يغيرون نماذج سياراتهم، وزخرفة بيوتهم، وأزياءهم. والحرب بين أنصار القديم والجديد من الأفكار والعقائد والقيم حرب إعلامية.

خامساً: الوسائل الضخمة للإعلام التي يسَّرتها المخترعات الحديثة جعلت للدعاية والإعلام شيئا آخر، فلقد أصبح العالم الآن كقرية صغيرة أمام الموجات التي تنقل ليس الصوت فقط، بل الصوت والصورة، وبذلك تخطت الحروب الإعلامية الحدود السياسية لتدخل إلى عقر دار المخالفين، بل إلى مخادع الزوجات، وهكذا خلقت الآلات الحديثة (الراديو، التليفزيون، والصحافة) عالما جديدا هو عالم الصراع الفكري والإعلامي.

والإسلام - كعقيدة ونظام يتصل بحياة الناس صغيرها وكبيرها - يجد اليوم نفسه في صراع رهيب مع هذه الأنظمة والعقائد والأفكار الكثيرة الكثيرة، التي تملأ الأرض شرقا وغربا.

ومن سوء حظ المسلمين في هذا العصر الرهيب أن أعداءهم قد سبقوا إلى امتلاك هذه الوسائل الرهيبة من وسائل الإعلام، وأجادوا فنونه إجادة خيالية تفوق الوصف، وبذلك يجد دعاة الإسلام أنفسهم اليوم في حرب إعلامية غير متكافئة، حرب قد امتلك فيها الباطل وسائل عظيمة لنشر أفكاره ومحو أفكار

الآخرين وعقائدهم، ولم يبق في المسلمين إلا وسائل بدائية لا تقوى حتى على إبقاء ما لدى المسلمين من عقائد وإيمان، هذا فضلا عن أن الكثير من الدعاة يجهلون الأساليب الحديثة للإعلام الناجح، فلا هم يملكون الوسيلة الإعلامية القوية المؤثرة، ولا هم يعلمون الأسلوب المثالي للإعلام الناجح، ونحن في هذه الدراسة نريد أن نبيِّن الأساليب الواجب اتباعها للدعاة إلى الله سبحانه وتعالى علهم يستطيعون مجابهة هذا الإعلام الخبيث الذي يريد استئصال دينهم وعقيدتهم.

١١ - التعبئة الإعلامية

لم يخصص النبي ﷺ أناسا للوعظ والإرشاد، وآخرين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفئة ثالثة للدعوة والتعليم، وإنما جعل من كل مسلم داعية، ومعلماً، وآمراً بالمعروف وناهيا عن المنكر، وحمَّل أمانة تبليغ العلم لكل من حمل علما، وبهذا عبَّأ المسلمين جميعا إعلاميا، فقال رسول الله ﷺ: «**نضَّر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها فأدَّاها كما سمعها، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع**» وقال: «**بلِّغوا عني ولو آية**» وقال: «**من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» وجاء القرآن الكريم كتاب الله ليعلن للمسلمين أنهم جميعا أمة مرسلة إلى الناس، وأن شأنهم هو الدعوة حيث قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ هنا ليس معناه التبعيض بل معناه ابتداء الغاية كما هو معلوم في القواعد، أي لتكونوا أمة يدعون إلى الخير كما أقول لك ليكن منك رجل صالح أعني لتكن أنت رجلا صالحا وجاء أيضا قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي هذه صفتكم: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، ومعلوم أن الموصوف بصفة لا يكون موصوفا بها إلا إذا كانت ملازمة له فإذا انفكَّت عنه لم يوصف بهذا الوصف، ومعنى هذا أن الأمة الإسلامية لا تكون خير أمة إلا بتحقق هذه الأوصاف الثلاثة الآنفة.

وكذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ والشهادة على الناس من لوازمها العلم بما عند الناس، وإقامة الحجة عليهم، ولا تقوم الحجة إلا بالعلم والدعوة والجهاد والصبر.

وهكذا عبَّأ القرآن المؤمنين جميعاً للجهاد والدعوة، وحمّل كل مسلم أمانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحكم على الذي لا ينكر المنكر بوسيلة من وسائل الإنكار الثلاث: اليد واللسان والقلب، أنه ليس على شيء من الدين، بل جرَّده من أقل الإيمان المنجِّي من عذاب الله وهو مقدار حبة الخردل، وبهذا جعل الله سبحانه وتعالى من كل فرد آمن مع الرسول داعية، ولم يحتج النبي ﷺ إلى أن يجعل فئة خاصة تتولى هذا الأمر.

وهذه التعبئة الإعلامية جعلت من كل فرد حارساً للشريعة وقائماً بأمر الله سبحانه وتعالى.

ولقيام الحق بهذه المهمة جُعِلَت "الحصانةُ" لكل من قال كلمة الحق سواء من اعترض بها على الحاكم أو من قذف بها في وجه شريف، فكل مبلِّغ عن الله ورسوله آمن مادام في دائرة الحق، ومادام أنه يملك الدليل.. وبهذا استقامت أمور الرعية في صدر الإسلام، وفي كل زمان كفل فيه الحاكم حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، ولم تفسد الأمور إلا بعد أن كُمِّمت الأفواه ومُنعت كلمة الحق من أن تصل إلى الظالمين، ولكن الرسول ﷺ لم يكتف بأن يحمل أمانة الدعوة للمسلمين في اليسر، وإنما حمَّلهم هذه الأمانة في الشدة والعسر، فقال ﷺ: «**إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»، وبشر الذين يستشهدون في سبيل هذا النوع العظيم من الجهاد بأعظم شهادة فقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «**سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله**» وحذر من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن عليكم ذلا فلا يرفعه عنكم حتى تعودوا إلى دينكم**»، فجعل الذل نتيجة لترك جهاد الكلمة وجعل العودة إلى جهاد الكلمة هو العودة إلى الدين.

فهل يقدِّر دعاة الإسلام اليوم جهاد الكلمة؟! وهل يعلم المسلمون أن الدعوة واجبة على كل فرد فيهم؟ وهل يعلم الذين يكتمون العلم ويشترون به الدنيا أن الله قال فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾؟.

١٢ - لون من ألوان تحطيم الباطل

لم يكتف النبي ﷺ في دعوته ببيان الحق الذي يعتقده، والذي أمره الله سبحانه وتعالى بإبلاغه للناس، بل قام بهدم جميع الباطل من حوله عقيدة وفكرا ورجالا وقوميات ودولا، وواجه هذا كله جميعا، معلنا بصراحة ووضوح أن طريقه هو الطريق الوحيد الذي يجب على البشر جميعا اتباعه، ولا يجوز لهم بتاتا اختيار غيره، وإن كل هذه الطرق والسبل -غير طريقه- طرق وسبل باطلة، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، وإنه لا تعايش مع هذا الباطل إلا بأن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

ولم يرض ﷺ من أتباعه أن يعلنوا اعتناقهم لدينه وتصديقهم له دون كفرهم بكل دين سواه، وتكذيبهم كل ما يخالفه.. وأعلن القرآن لهم هذا صراحة وبلا مواربة، قال تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى).

والطاغوت كل ما جاوز حده من معبود ومتبوع غير الله سبحانه وتعالى ورسوله، فلا عبادة إلا لله، ولا طاعة مطلقة إلا لله ورسوله، وكل ما سوى ذلك فلا قدسية له إلا بالمقدار الذي يقدسه الله ورسوله، وكل ما وضعه الله ورسوله فهو وضيع إلى يوم القيامة مهما عظَّمه الناس ورفعوه.

وقام النبي ﷺ مسفهاً عقائد قومه مستهزئا بآلهتهم، واصفاً عقولهم بكل نقيصة، وعيونهم وأسماعهم بالعمى والصمم، وحوَّل جهده إلى اليهود الذين زعموا احتكار الهداية واختصاصها بهم، فنشر فضائحهم وأخرج مخازيهم التي تعاهدوا دهورا على كتمها والتستر عليها حتى من أولادهم وجهلتهم، وجاءه النصارى يجادلون بالباطل فأفحمهم ببيان ضلالهم، وجهلهم في معبودهم

ورسولهم وأحكام ملتهم، وهكذا لم يترك النبي ﷺ مخالفا له إلا فاجأه بضلاله وتناقضه وجهله وعماه.

ترى القرآن يستهزىء من آلهة المشركين ويتهكم، فتراه يقول: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

فكأنه يقول لهم: يا معشر الأغبياء!! هل نظرتم إلى اللات والعزى (اللات صنم لرجل صالح كان يلت السويق للحاج، فلما مات نصبوه على قبره ودعوه من دون الله، والعزى بيت بالطائف كانوا يزعمون أن الجن تكلمهم منه)؟ وهل نظرتم أيضا وتفكرتم في شأن مناة هذه الثالثة الأخرى التي دعوتموها (ومناة حجر كان بساحل البحر قرب جدة وهو للأوس والخزرج خاصة)؟ ثم يسكت فلا يجيب عنها، وكأنه يقول ماذا في هذه الأحجار حتى تُدعى وتُسأل من دون الله؟! ثم يقول لهم هل يرزقكم الله بالذكور من ذريتكم ويختص نفسه بالإناث؟ (وقد زعموا أن الملائكة إناث وهن بنات الله! تعالى الله عن قولهم).

ثم يقول لهم: هذه قسمة جائرة أن تعطوا البنات لله، - وأنتم تكرهون البنات - وتختصوا أنفسكم بالبنين!! وكأنهم هم الذين يوزعون ويقسمون.. ومثل هذا الأسلوب البليغ - وكانت العرب تقدر الأساليب البليغة، وتُميِّز بين جيد الكلام ورديئه - يحطم عقائد الضلال تحطيماً.

ويأتي النبي إلى الأشخاص فيشوِّه سمعتهم بالحق لا بالباطل، ويصفهم بما هم فيه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

ومثل هذا الكلام غاية في بيان الفساد والجهل، وفي أن يُبقي من وُصِمَ به معيبا أبد الدهر، وإذا كان سيدا في قومه فلا قيام له ولا بقاء لسيادته بعد انطلاق هذه الكلمات من فم النبي الطاهر الذي لا ينطق عن الهوى، والذي جرَّب أعداؤه قبل أصدقائه معه الصدق، وأنه لا يُلقي الكلام على عواهنه.

ويأتي النبي ﷺ إلى سيد مكة -رجل يكنيه قومه بأبي الحكم- فيبدل النبي كنيته التي تشعر بالحكمة والقيادة إلى أحط الكنى فيسميه "أبا جهل" وتصبح

هذه الكنية الجديدة علماً عليه فلا يعرف إلا بها وبهذا ينهدم ركن من أركان الفساد والباطل ينهدم معنويا وينتظر المسلمون بعد ذلك أن يهلكه الله كما أهلك أسلافه من قبل.

ويأتي عم النبي أبو لهب فيعلن في جمع مكة - الذي جمعه النبي لسماع أول إعلان بدعوته - يعلن العداوة، ويبدأ الرسول بالشر، ويقول له: "تبا لك سائر اليوم!! ألهذا جمعتنا؟!" فينزل القرآن بالهزء والسخرية به وبزوجته: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

ويقرأ المسلمون في صلاتهم بالليل هذه الكلمات تثبيتاً لعقيدتهم، واستهزاء بأعدائهم، ويقف المشركون مشدوهين أمام هذا الأسلوب البليغ المعجز، الذي جاء يزلزل الأرض تحت أقدامهم، فلا عقائدهم هي العقائد المهتدية ولا رجالهم هم القدوة، ولا عقولهم وأحلامهم كما كانوا يعهدون: علماً وحجى وفهماً وأحلاما تزن الجبال، كما كانوا يظنون، بل كل ذلك داسه النبي بأقدامه وزلزل أركانه وبنيانه.. والعجب أن كل ذلك يحدث والنبي في قلة قليلة من المؤمنين!!.

١٣ - الإعلام الخبيث وموقف الإسلام منه

نعني بالإعلام الخبيث انتحال الكذب، وتلفيق الأقاويل، ونشر الإشاعة، وذلك لهدم العدو، وصرف الناس عن دعوته، وتخذيل أتباعه، وهذا النوع من أساليب الإعلام هو من أشدها فتكاً، وأعظمها تدميرا وهدماً.

وبالرغم من أن الإسلام منذ بدأ قابل أناسا استخدموا معه هذا الأسلوب الخسيس من أساليب الإعلام إلا أن الله لم يبح لنا أن نعاملهم بالمثل، فنفتري الكذب كما يفعلونه، ونلفق الأقاويل كما يصفون، بل نعالج هذا ببيان زيف أقوالهم، وكذب ادعاءاتهم.. ولقد وقع الإعلام العربي في هذا الربع الأخير من هذا القرن في أحابيل هذا النوع الخبيث من الإعلام فقد انطلق الإعلام بوسائله المختلفة: الصحافة، والإذاعة، والتلفزيون إلى تضخيم قوة العرب، وإظهارها بغير حجمها، واستصغار قوة العدو وتحقيرها، وبيان تفكك مجتمع الأعداء،

واختلاف قادته، وانهيار اقتصاده حتى ليكاد الفرد أن يشعر أن العدو زائل بنفخة واحدة، بل ومن دون هذه النفخة.. إلخ، هذه المزاعم التي هدهدت الفرد العربي وأعاقته عن التفكير الجدي، ثم صحا من نومه على غير ذلك تماما، وبذلك انهار إيمانه بصدق الرسالة الإعلامية العربية، وابتدأ يثق بكلام عدوه.. والشاهد أن الإعلام الكاذب قد يظهر لمروجيه أنه نافع لهم بعض الوقت، ولكن مآله عليهم بالخسران المبين، وما كان الله ليحل لنا هذا الأسلوب من أساليب الحرب مع أعدائنا.

ولذلك وجدنا النبي ﷺ لم يتبع مع أعدائه إلا الصدق المحض، ولا يدخل في هذا الباب بالطبع بيان العيوب الحقيقية عند العدو، بل لا تقوم الرسالة الإعلامية الإسلامية مع العدو أصلا إلا على هذا الأسلوب، فبيان عوار الشرك والمشركين، وفضح اعوجاجهم، ونشر فضائحهم الحقيقية وظلمهم وغشمهم، وبيان فساد أخلاقهم وأعمالهم هو أهم أركان الرسالة الإعلامية الإسلامية.

ولذلك تنزل القرآن على النبي ﷺ ببيان فضائح اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين، وأحيانا يُسمي أشخاصا بأعيانهم ويصفهم بما هم فيه من شرك وضلال وانحراف.

والدعوة إلى الإسلام لا تعني فقط الدعوة المجردة إلى فضائل الإسلام ومحاسن عقيدته وشريعته، وبيان فساد ما يخالف هذه العقيدة من عقائد وتصورات وشرائع، بل يشمل أيضا الدفاع عن حملة هذا الدين وتصحيح مواقفهم، وتبرير أعمالهم بالحق لا بالباطل، وفضح مخازي أعدائهم وظلمهم وغشمهم.

فالإسلام لا يقوم من فراغ، ولكنه يقوم برجال يدافعون عنه ويؤمنون به، ويجاهدون في سبيله، وهؤلاء الرجال بشر لهم خطؤهم وصوابهم، وضعفهم وقوتهم، وكذلك فأعداء الإسلام ليسوا أعداء وهميين خرافيين، ولكنهم بشر وقوى حقيقية تعيش على هذه الأرض، وتحارب الإسلام بأعمال وأساليب متطورة وغير منظورة.

والحرب الإعلامية مع هؤلاء الأعداء لا يجوز بتاتا أن تتخذ حملات الكذب والافتراء والتشويه، بل يجب أن تتخذ الصدق والأمانة المطلقة في النقل والحكاية، فتحميل العدو ما لم يقل، واتهامه بما ليس فيه، وإلقاء الكلام فيه على عواهنه، واستحلال الكذب عليه لأنه عدو ولأنه كافر.. كل هذا مناقض للإسلام الذي بُعث به محمد ﷺ.

وللأسف! لقد وقعت طوائف كثيرة في هذا ممن ينتحلون الدعوة إلى الله سبحانه فكأن الله قد أباح لهم أعراض أعدائهم فرموهم بكل ما استطاعوا أن يرموهم به من العمالة للأجنبي والكفر والردة والمجون والخلاعة، وقد يكونون في كل ذلك متحاملين جاهلين.

وليت الأمر اقتصر على هذا النوع من أنواع الإعلام الخبيث، على رمي بعض المسلمين لأعدائهم بالكفر في غير محله، وبالعمالة للأجنبي بغير دليل، بل تعدى هذا إلى رمي بعضهم بعضاً بمثل هذه الأوصاف وأبشع منها فلا يكاد يحدث بين بعضهم بعض خلاف أو تنافس حتى تبدأ حرب الاتهامات والتشويه، وانتحال الكذب والافتراء، والرمي بالعمالة للأجنبي، والاستخدام (للسلطات) والقبض من الحكومات، ثم يتعدى هذا إلى التشكيك في النوايا والحكم على ذوات الصدور، ومكنونات الأفئدة.. وكثيراً ما يكون الدافع إلى كل هذا الكذب والافتراء ليس هو الخلاف والتنافس بل هو البدايات للدعوة والجهاد، وكأن الدعوة إلى الله لا تبدأ إلا من تشويه العاملين في صفوفها وانتحال الكذب والباطل على من سبق فيها.

وبالطبع لا يدخل في "الإعلام الخبيث" النقد الموضوعي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالتقويم والنصح هو واجب كل مسلم نحو الإمام العام ونحو عامة المسلمين كما قال رسول الله ﷺ: «**الدين النصيحة (ثلاثاً) قلنا لمن؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم**» فإظهار الخطأ الواقع والعيب المتعمد أمر ضروري حتى تتجنب الأمة أخطاءها ولا تقع في تقديس رجالها تقديساً يمنع عامة الناس أن يعرفوا خطأ المخطىء وإذا ضاع خطأ المخطىء فقد ضاع أيضا صواب المصيب، وذلك أنه إذا انتشرت أخطاء من

نعظمهم ونحترمهم، وتُركَت دون بيان وتحذير، فإننا نصل حتماً إلى فوضى عامة يختلط فيها الصواب بالخطأ، بل ويصبح الخطأ أعظم رواجاً وأرجى قبولا، وذلك أن هذا الخطأ يحتمي بالأشخاص العظام الذين نحبهم ونحترمهم، ولذلك فإنه لا يجوز بتاتاً أن نسكت عن باطل مادام أن هذا الباطل يجد من يحمله ويروِّجه، استناداً إلى أن عظيماً قال به، وهذا الذي نقوله هو أعظم حق ضيَّعه من يعيشون على الدعوة إلى الله، لا من يعيشون للدعوة في سبيل الله، وللأسف! استعاض هؤلاء عن بيان الحق وإظهار النصح والتحذير من الأخطاء بالكذب المتعمد والتشويه الظالم واستخدام أسلوب (الإعلام الخبيث) الذي بيناه آنفاه وحذَّرنا منه.

وباختصار، فإنه لا يجوز بتاتاً للمسلمين في رسالتهم الإعلامية أن يتعمدوا الكذب على أعدائهم، وأن يلصقوا بهم تهمة باطلة، أو أن يصفوهم بوصف ليس فيهم، وإذا كان هذا مع العدو الكافر محرَّما، فهو مع المسلم أشد حرمة وفتكاً (ولعن المؤمن كقتله).

وأما إظهار العيوب الحقيقية، وبيان الظلم الواقع، فهو أمر مطلوب ومرغوب، سواء اتصف بهذا الظلم والعيب عدو كافر أو أخ مسلم، والاختلاف إنما يكون فقط في أسلوب بيان هذه العيوب، وباب الأساليب باب واسع لأنه يختلف من حالة إلى حالة ومن فرد إلى فرد، ولكل مقام مقال، والمهم أن أصل هذا المشروع، بل هو من قواعد الدعوة إلى الله وآدابها، وهذا ما امتازت به الدعوة السلفية عبر القرون وذلك أنها دعوة تتمسك بالحق ولا يطغى حب الفرد واحترامه وتقديسه فيها على بيان عيبه وخطئه إذا كان ثمة عيب وخطأ، كما قال عمر بن الخطاب وهو سيد من سادات السلف الصالح رضي الله عنه: "وإذا أسأت فقوِّموني" والتقويم يعني النصح وبيان الخطأ، ولذلك ناقشه الصحابة في أمور كثيرة، وردُّوا عليه في قضايا كثيرة، وليس بلازم أن يكون الحق مع الناصح، بل يلزمه أن يعتقد أو يغلب على ظنه على الأقل أن ما ينصح به حق.

وأما الكذب والافتراء والتشويه واتهام النيات التي لا يطَّلع عليها إلا الله،

فهو أسلوب الماكرين والجاهلين والمفسدين، والله لا يصلح عمل المفسدين.

لا كلال ولا ملل.

تُشبَّه الرسالة الإعلامية الموجَّهة للمؤمنين بالنهر في جريانه ونفعه، فطالما أن النهر يظل يجري طالما انتشر الري والنماء فيما حوله، فإذا توقف النهر عن الجريان توقفت الحياة حوله، وهكذا الرسالة الإعلامية للإسلام، طالما قام الداعون لها والمؤمنون بها بدعوتهم الدائمة المستمرة، طالما انتشر الدين والإسلام والفضيلة، وفي اليوم الذي تنقطع فيه الدعوة إلى هذا الدين سينقطع هذا الدين، ولا يقال في الأرض الله.. الله، ومعنى هذا أن الداعين إلى الإسلام لا يجوز بتاتاً أن يظنوا أنه سيأتي يوم يلقون فيه عصا التسيار ويركنون إلى الدنيا، ويظنون أن الناس يسيرون وفق ما سلف تبليغه ونشره.

وتشبه الرسالة الإعلامية المضادة التي يجب أن يقابل بها الداعون للإسلام المحاربين له، تشبه هذه الرسالة الحرب الحقيقية، بل هي حرب حقيقية تتصارع فيها الأفكار والعقائد، وميدانها هو العقول والقلوب، وبالتالي الأخلاق والأنظمة، ونظم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتعليم والتربية.. هذه الميادين الإنسانية هي ميادين الحرب الإعلامية، بين الإسلام والكفر، وبين الحق والباطل، ولن يزال هذا الصراع إلى قيام الساعة، ليس بين الإسلام والكفر، بل وبين كل رأي ورأي، وفكر وفكر، ونظام ونظام.. فالعلوم الإنسانية مازالت ولا تزال ميداناً للصراع حتى قيام الساعة، وذلك بعكس العلوم الطبيعية التجريبية التي لا يختلف الناس كثيرا حول الحق والباطل فيها، لخضوعها للحس والبرهان التجريبي.

وفي اليوم الذي ينهي فيه أهل رسالة ما حربهم الإعلامية للنظريات والأفكار المضادة، في هذا اليوم يقضون على أنفسهم وعلى رسالتهم، وبالتالي على وجودهم وحضارتهم تماما، كما لو كان هناك جيشان متقاتلان تخلى جيش منهما عن سلاحه، وسلم نفسه وأرضه للجيش الآخر.

والمسلمون اليوم في مثل هذه الحالة، تماما، فقد ألقوا سلاحهم الإعلامي في وجه الأسلحة المضادة، وهجروا الأساس الذي قامت عليه

حضارتهم الآنفة، واقتنعوا واستسلموا لغزو العدو الفكري والعقائدي، وسلَّموا مواقعهم الفكرية والعقائدية موقعاً موقعاً، بل قام من أبناء هذه الحضارة الإسلامية من ينتحل فكر العدو ويدافع عنه، ويكون جنديا مخلصا في صفوف أعداء هذه الأمة.

المهم من هاتين المقدمتين أن نعلم: أنه لا يجوز بتاتا في سبيل نشر الإسلام بين أبنائه أن نظن أن هذه العملية التعليمية الإعلامية يجب أن تهدأ، وأن يصيب أهلها الكلال أو الملل، وليس معنى هذا هو التكرار البليد الغبي لخطب الجمعة والاحتفالات بالمناسبات الدينية، وتكرار دروس مدارس التربية الإسلامية الممل الشائه، وإنما معناه الإبداع المستمر والحركة المتواصلة والتقليب الدائم، والعرض الجديد لمبادىء الإسلام الخالدة.. (ولهذا تفصيل في مقام آخر إن شاء الله تعالى). وكذلك لا يجوز بتاتا أن يظن حملة الرسالة الإعلامية الإسلامية المنافحة عن هذا الدين - والتي تتعرض لهذا التهجم الشرس من أعدائه- أنه سيأتي يوم تهدأ فيه هذه الحرب وتخمد نارها، إلا إذا حكمنا على أنفسنا وحضارتنا بالدمار والاندثار.

وفي المعاني السابقة نزلت الآيات الكثيرة تأمر النبي ﷺ بالصبر في الإبلاغ، وتكرار المرة تلو المرة، والاستمرار في الدعوة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾ وقد أخذ القتال أشكالا وأنماطاً كثيرة عبر التاريخ، فمن الشعوبية السرية، إلى الحملات العسكرية، إلى الحملات الفكرية العلنية، إلى نبش جذور الإسلام والبحث عن خلع أسه وأساسه من النفوس والقلوب، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

باختصار: أهل الدعوة الإسلامية مطالبون بألا يتطرق الكلال إلى نفوسهم: وأن يعلموا أن رسالتهم الإعلامية بالإسلام رسالة أبدية مع المؤمنين بها، ومع المحادِّين والمحاربين لها، وأنهم مطالبون دائما بالتجديد والابتكار في أساليب العرض وأفانين القول، وأن الحق واحد قديم لا يتغير ولا يتبدل، وإنما

تتغير الوسائل والأساليب وأنماط البيان والعرض، وأما هذا التكرار الغبي الأبله فإنه لا يزيد الناس إلا نفورا، وهناك فارق عظيم جدا بين الاستمرار الذكي الناجح، والمداومة الجادة الخلاَّقة، وبين هذه الأنماط الجامدة المحنطة، والموفق من وفقه الله سبحانه وتعالى.

١٥ - الدعوة إلى الله سبحانه شرف في الغاية، وطهارة في الوسيلة

الأهداف التي تريد الدعوة الإسلامية أن تصل إليها أهداف شريفة، فمنها توجيه الناس إلى ربهم وخالقهم - سبحانه - ليعبدوه ويوحدوه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ ولقوله تعالى أيضا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ ومنها إقامة العدل في الأرض وفرض السلام والأمن لقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلنا بالبيِّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾، فالعدل بين الخلق مقرون بتحكيم شريعة الله والإذعان لأمره.

ومن الغايات أيضاً إصلاح النفوس، وإشاعة المحبة والتآلف والتعاطف بين أخوة الدين والعقيدة، والحق أن منافع الدين وغاياته الشريفة الطيبة كثيرة وعظيمة، ولكن السبل إلى تحقيق هذه الغايات في عالم الواقع شاق وصعب وطويل، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد شاءت حكمته أن يبتلى الرسل والدعاة بالمجرمين والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ولكن مع وجود العقبات العظيمة التي تقف في طريق الدعوة، فإن الله سبحانه وتعالى أمر المسلمين بطهارة الوسيلة التي يجب عليهم اتخاذها للوصول إلى أهدافهم، ونعني بطهارة الوسيلة استقامتها وبعدها عن المكر والخديعة إلا في الحروب، والبعد عن المداهنة والغدر والكذب مطلقاً، وكل هذا بالطبع حرام مع الأعداء والكفار كما هو مع الأصدقاء والمسلمين، ومن أهم الوسائل التي حرَّمها الله سبحانه وتعالى:

١ - المداهنة:

وهي إظهار الرضا عن باطل الخصم مع الاعتقاد أنه باطل، وانتظار فرصة

أخرى لإعلان ذلك، قال تعالى لنبيِّه الكريم: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ أي لو تصانعهم في دينك فيصانعوك في دينهم، كما قاله الحسن البصري - رحمه الله - والمداهنة غير اللين في الدعوة فاللين مطلوب والمداهنة مذمومة.. قال تعالى في اللين: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ وهذا في دعوة فرعون إلى الإسلام.

٢ - الغدر:

والمقصود بالغدر نقض العهد بالسلم والهجوم على العدو مع قيام العهد بالأمان.. وفي الصحيحين أن هرقل سأل أبا سفيان عن النبي ﷺ هل يغدر؟ قال: لا. وهذه شهادة من أبي سفيان رضي الله عنه حال كفره وقبل إسلامه. وهكذا كان رسول الله ﷺ طيلة حياته فلم يغدر قط وأوفى الأعداء عهودهم وقد أمر الله بذلك حتى مع تبييت نية الخيانة عندهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ ومعنى انبذ إليهم على سواء: أي أعلمهم أن عهدهم معه مقطوع ومرفوض قبل أن تفاجئهم بقتل أو قتال، وقد قال رسول الله ﷺ في بيان إثم الغادر: «**يرفع لكل غادر لواء تحت استه يوم القيامة يقال فيه: هذه غدرة فلان ابن فلان**» وهذه فضيحة على رؤوس الأشهاد للغادرين. ولاشك أن المقصود بالغدر في الآيات والأحاديث السابقة هو نقض العهود مع الأعداء ولو كانوا كفاراً.

٣ - الكذب:

ولا شك في تحريم الكذب كأسلوب من أساليب الدعوة إلى الله، ولم يُجز النبي ﷺ للمسلم أن يكذب على الكافر إلا في الحرب فقط، كما قال ﷺ: «**الحرب خدعة**»، والحق أن الخداع والمكر في الحروب ممدوح وليس بمذموم، وأما المكر والخداع فيما عدا ذلك فهو مذموم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾ ولاشك أن من أعظم صفات النبي ﷺ أثرا في قبول دعوته أنه كان صادقا أمينا حتى مع أعدائه ولذلك شهدوا بذلك قبل الرسالة وبعدها.

ولاشك أن الدعاة إلى الله إذا اتصفوا بأضداد هذه الصفات المذمومة

فكانوا صرحاء صادقين لا يبطنون غير ما يظهرون ولا يغدرون ولا ينقضون عهداً ولا يخفرون ذمة ولا يفترون كذباً فإنهم بذلك على درب الرسول سائرون.

١٦ - حذار من الأخطاء:

الإسلام مبدأ حق وعدل، لم يعتمد وسيلة في انتشاره إلا الإقناع والحجة والمنطق، وهذا ما يسمى في لغة الإعلام بالانتشار الذاتي.

وذلك أن هناك ثلاث وسائل فقط لنشر أي مبدأ وشيوعه وهي: الترغيب، وذلك بأن نقول مثلا للشخص: إذا دخلت في هذه الجماعة أو اتخذت هذا المبدأ أعطيناك كذا وكذا، فيدخل الشخص في العقيدة أو الحزب رغبة فيما سيدر عليه ذلك من مال أو جاه أو منصب، والثاني هو التهديد كأن يقال للناس: ادخلوا في هذا الدين وإلا أوقعنا بكم من العقوبة كذا وكذا، والثالث هو الاقناع بالفكرة والمبدأ أو الدين، فالشخص يدخل ديناً ما أو يعتقد عقيدة ما إذا علم مقدار الخير الذاتي الذي سيناله منها، أو مقدار الشر الذاتي الذي يناله من جراء تركها، ونعني (بالذاتي) هنا الذي تحققه العقيدة نفسها.

فالمسلم يدخل في الدين راغباً وراهباً، راغبا في الثواب المترتب على القيام بتكاليف هذا الدين، وخائفا من العقوبة الحقيقية المترتبة على ترك هذا الدين.

والنبي ﷺ بمكة لم يكن عنده من المال والمناصب ما يستطيع توزيعه ليدخل الناس في دينه، ولم يكن يملك السيف أو السوط الذي يرهب به من لا يستجيب له، ولذلك دخل من دخل في دينه اقتناعاً وإيماناً، ولم يظهر النفاق إلا في المدينة لا لأن الرسول كان يوزع هناك المناصب لمن يدخل الدين، ولا لأنه كان يرهب من يعارضه، ولكن لأن النفوس الضعيفة تنحاز إلى من يرجون عنده النفع أو يخافون منه الضر.

وإذا كان الدين ينتشر بالاقتناع الذاتي أو هكذا ينبغي أن يكون، فإن الأمور التي ينبغي أن يقتنع الناس بها كثيرة، وأهمها أمران: الأمر الأول مجموع العقائد والشرائع والأخلاق التي يدعو إليها الدين، والأمر الثاني هو السلوك العملي للدعاة بهذا الدين، وإذا كانت مجموعة العقائد والشرائع والأخلاق التي

جاء بها الدين معصومة من الخطأ لأنها من الله سبحانه وتعالى، فإن الأفراد الذين يقومون بتطبيق هذه العقائد والشرائع والأخلاق غير معصومين، بل هم معرضون دائما للخطأ والصواب.

وإذا كان العدو الذي تحاول إقناعه بمبدئك ويحاول هو صرفك عن عقيدتك حريصا على معرفة أخطائك وتلمس عثراتك، فإن الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى يجب عليهم أن يكونوا حذرين من الأخطاء لأنها محسوبة عليهم، وإذا ارتكب الدعاة خطأ لا يستطيعون التخلص منه ولا تبريره ولا العبور فوقه، فمعنى ذلك أنهم قد وصلوا إلى طريق مسدود في حربهم الإعلامية، أعني أن أعداء الإسلام إذا نشروا مجموعة الأخطاء التي يرتكبها الدعاة إلى الله ولم يستطع هؤلاء الدعاة أن يتخلصوا من هذه الأخطاء، فإنهم بذلك يشلون حركتهم ويصرفون الناس عن طريقهم. وإذا كان أعداء الإسلام يلجأون عادة إلى الكذب والافتراء والتشويه، فكيف إذا وجدوا من واقع أحوال الدعاة إلى الإسلام ما يكفيهم عناء الكذب والافتراء.

باختصار إذا أراد أصحاب أي دعوة أن يقفلوا الطريق في وجوه أنفسهم، وأن يفشلوا في رسالتهم الإعلامية، فما عليهم إلا أن يرتكبوا مجموعة من الأخطاء المتعمدة لا يستطيعون الاعتذار عنها، وبذلك يحصلون على تقاعد دائم وإلى الأبد.

وكفار مكة الذين جابهوا دعوة النبي ﷺ كانوا يتمنون أن يجدوا خطأ واحدا يستطيعون إشهاره وتطييره مع الركبان في كل مكان ليحجبوا الناس عن دعوة النبي ﷺ، ولكنهم لم يجدوا هذا الخطأ، فقد التزم النبي والمسلمون معه بمكة جانب الصبر على الأذى، والرد بالحسنى على إساءة المجرمين ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ والدعوة والجدال بالتي هي أحسن، وبذلك جرَّدوا أعداءهم من أي ذريعة يستطيعون التذرع بها لقتلهم وإفنائهم، فما للمسلمين عندهم من جرم إلا أن قالوا ربنا الله!! وهل هي جريمة أن يعرف إنسان ربه، وأن يعبده دون ضغط أو إكراه أو إغراء من أحد.

وعندما هاجر النبي ﷺ وتغيَّر تبعاً لهذه الهجرة موقف النبي ﷺ وابتدأ

إرسال السرايا والبعوث لقطع طريق قريش الشمالي إلى الشام والجنوبي إلى اليمن، كان من هذه السرايا الجنوبية سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه التي التقت بعير قادمة من اليمن لقريش عليها عبد الله بن الحضرمي، وكان ذلك في الليلة الأخيرة من شهر رجب، وهو شهر محرم فيه القتال في الجاهلية، وقد جاء الإسلام بإقرار هذا العرف الجاهلي لما فيه من مصالح عظيمة، وجد عبد الله بن جحش أنه إن هاجم قافلة ابن الحضرمي هاجمها في شهر حرام وإن صبر إلى الليلة التالية دخلت أرض الحرم ولا يجوز فيها قتال أبدا فاستشار أصحابه واستقر على مهاجمة القافلة فقتلوا ابن الحضرمي واستاقوا الغنائم إلى المدينة، ووجدت قريش بغيتها في هذا الأمر، وطيَّرت الركبان بأخبار اعتداء النبي ﷺ على قافلتها في الشهر الحرام، وكانت العرب تُعظِّم الشهر الحرام أيما تعظيم ويلقى الجاهلي فيه قاتل أبيه وأخيه فلا يسل السيف في وجهه، وكان هذا الخطأ كافياً في صد الناس عن دعوة الإسلام.. ولما وصلت السرية المدينة قال لهم رسول الله ﷺ: «**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام!!**» وحزن النبي ﷺ، ولكن الله أنزل قرآنا ليعلمنا كيف نخرج من أخطاء الاجتهاد فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾ أي القتال في الشهر الحرام كبيرة من الكبائر وبهذا الاعتراف امتص النبي ﷺ غضب الناس ونقمتهم فمهما كان ذنبك عظيما ولكنك مستعد للاعتراف به والتنازل عنه فإنه يتحول إلى مخالفة صغيرة... وبعد هذه الامتصاص للنقمة قال تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ أي لقد ارتكبتم أيها الكفار (كفار مكة) ذنوبا أعظم من ذلك فقد صددتم الناس عن سبيل الله وكفرتم به وكفرتم بالمسجد الحرام والشهر الحرام، وأخرجتم أهل هذا المسجد الحرام منه واستحللتم دماءهم وفتنتموهم عن دينهم، هذه الفتنة أي التعذيب أكبر من القتل فهل تعدون أخطاء غيركم وتنسون أخطاء أنفسكم؟ وبهذا رد الله سبحانه وتعالى سلاحهم عليهم وقتلهم به، ثم مسح الله سبحانه على أخطاء المجموعة المجتهدة فقال: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

وبذلك استطاع المسلمون العبور السريع فوق هذا الخطأ، فلم يتبجحوا

بأنه صواب ويكابروا بالباطل، ولم تستطع دعاية العدو وأكاذيبه أن تصيبهم بعقدة الذنب وتقعدهم عن الدعوة، وإنما اعترفوا بخطئهم وتجاوزوه بمقارنته بالأخطاء العظيمة التي يرتكبها عدوهم معهم.

واليوم ابتلينا بمن يتصدر الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى فيستحلون الاغتيالات السياسية والأعمال الهمجية الغوغائية، والاستعانة على الباطل بالباطل، وإذا جئت تنصحهم وتقول لهم إن هذه أخطاء اتهموك بالكفر والزندقة والمروق ومخالفة سبيل المؤمنين والمجاهدين، وإن قلت لهم اعترفوا بأخطائكم لتتجاوزوها زعموا لأنفسهم وقادتهم العصمة أو أنكروا الحقائق وجادلوا بالباطل، ولولا أن الدين الذي يحتمون فيه عظيم -وقد نشره غيرهم- لما وجد أمثال هؤلاء طريقاً إلى قلوب الناس وعقولهم.

الباب الثاني
السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله

١ - لا دعوة إلى الله إلا بالحكمة

فرض الله على رسوله والمؤمنين به أن يدعوا إلى الله سبحانه وتعالى، ولكن الله قيَّد هذه الفرضية بالحكمة والبصيرة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وقال أيضا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ والحكمة تعني قواعد كثيرة وأصولا عظيمة بيَّنها لنا الله في كتابه وبيَّنها رسوله أيضا، إذ هو المبعوث بالحكمة ﷺ، وغاية الحكيم أن يضع كل أمر في نصابه وأن يصل إلى غايته بأسهل الطرق وأقل الأخطار والتضحيات وقد وضع علماء أصول الفقه وأصول الدعوة قواعد أخذوها بالنص من الكتاب والسنة أو بالاستنباط منهما والاستقراء ومن هذه القواعد: «**لا يُلدَغ المؤمن من جحر مرتين**» [متفق عليه]، وهي تفيد وجوب الحذر وعدم جواز الوقوع في نفس الخطأ مرتين، و(دفع المفاسد أولى من جلب المصالح)، وهذه القاعدة مستفادة من ترك الرسول ﷺ لتحطيم الأصنام في مكة، وانتظار امتلاكه للقوة التي مكنته من تحطيمها عند الفتح، مع أنه صلى في مكة إلى الكعبة والأنصاب والأصنام منصوبة عليها، وكذلك صلى في المدينة إلى الكعبة بأمر الله والأصنام عليها، أيضا، وكذلك ترك النبي ﷺ لهدم الكعبة وبنائها على قواعد إبراهيم، وذلك خوف الفتنة وارتداد العرب، كما قال ﷺ في الحديث الذي ترويه السيدة عائشة في البخاري: «**لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لهدمت الكعبة حجراً حجراً وبنيتها على قواعد أبي إبراهيم**»، ولكنه خشي ارتداد العرب الذين كانوا

يعظِّمون الكعبة، وقد يتهمون الرسول بتبديلها فتنفر قلوبهم، فهذا والذي قبله دليل على القاعدة الآنفة وهي: أن دفع المفاسد أولى من جلب المصالح، فلا شك أن في تحطيم الأصنام فائدة، ولكن المفاسد التي كانت ستحصل من وراء ذلك كثيرة عظيمة، فأيسرها إخراج الرسول من مكة في وقت لم يكن هناك بلد مهيأ لاستقباله، وكان من الممكن أيضا أن يقتل المسلمون ويضيق عليهم وبذلك يضيع الإسلام، ولاشك أن الإسلام يضيع بضياع المسلمين كما قال ﷺ يوم بدر: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد**»[رواه البخاري].

ولذلك فإن أعظم مصالح المسلمين يكمن في بقاء جماعة المسلمين، ولذلك شرع الله للمسلمين من السياسات ما يستطيعون حماية أنفسهم، كما أجاز لهم إخفاء معتقدهم أحيانا، وقول كلمة الكفر في الفتنة والاضطرار، وأجاز لهم الخداع في الحرب والاستعانة ببعض المشركين على بعض، ولكل هذا تفصيل إن شاء الله في مقام آخر. والمهم هنا أن قاعدة دفع المفاسد أولى من جلب المصالح قاعدة شرعية مقررة.

وكذلك قاعدة (لا يجوز تغيير المنكر بمنكر أكبر منه)، وذلك كقتل المسلم في معصية لأن قتله منكر أكبر من المعصية إلا أن تكون زنى بعد إحصان، أو قتل قاتل، أو قتل مرتد لا شبهة في ارتداده وكفره وأما غير ذلك فقتل المسلم جريمة أكبر من أي معصية يرتكبها غير الثلاث الآنفة.

ومن هذه القواعد أيضا (ارتكاب أخف الضررين) كما يدفع المسلمون ضرر احتلال الكفار لأرضهم بقتالهم ولاشك أن في القتال بعض الأضرار على المسلمين، من قتل وجراح وفقدان لبعض الأموال وهذا ولاشك مفاسد، ولكن هذه المفاسد أقل من المفسدة العظيمة الأخرى وهي وقوع المسلمين أذلاء تحت سلطة الكافرين. وهكذا إذا تتبعنا أصول الدعوة والفقه والجهاد رأينا أبوابا عظيمة من الحكمة والبصيرة، ولاشك أن اتباع هذه الأصول والقواعد يُبلِّغ المؤمنين غاياتهم من النصر والعز والتمكين.. والحكمة هي أعظم الأسباب التي يتوصل بها إلى ذلك، فمعلوم أن المسلمين لا ينصرون على أعدائهم، ولا يستطيعون نشر رسالتهم إلا إذا تحلَّوا وتمسكوا بهذه الحكمة، ولا يكفي أن نقول نحن

مسلمون وكفى، ونبلِّغ الدين بأي صورة وبكل طريقة دون اتباع الحكمة لأن هذا قول جاهل أحمق، وهو أيضا منافٍ للإسلام الذي أمر بالحكمة وألزم بها.

ولذلك فأول واجب على الدعاة إلى الله أن يتعلموا الحكمة، والبصيرة حتى يفلحوا في دعوتهم ويرضوا ربهم سبحانه وتعالى.

٢ - من الحكمة وضع القتال في موضعه الصحيح

لما كانت الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى من ألزم الواجبات، وكانت هي الطريق إلى عز الأمة ونصرتها وجمع شملها وتوحيد كلمتها، كان واجبا على كل منا أن يعرف طريقها ويتعلم أسلوبها ويتخلق بأخلاق من اصطفاهم الله لحمل مشعلها وهداية الناس إلى طريقها، وهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وعلى رأسهم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، إذ هو رسولنا المباشر وهو أكمل الرسل منهجاً وطريقاً وأعظمهم حكمة وتابعا وهو المأمور بالقتال والجهاد الذي هو أعلى منازل الإسلام، ولم يباشر القتال رسول قبله أبدا لا موسى ولا عيسى ولا إبراهيم ولا نوح، وهم أولو العزم والقتال، وإن كان قد فرض في شريعة موسى، إلا أنه لم يتمكن من تطبيقه في حياته، ولا باشره عيسى في حياته أيضا، فأما موسى، فإن قومه عصوه وجبنوا وذلوا أن يقاتلوا كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، ولذلك مات ﷺ في التيه دون أن يتمكن من القتال الذي فرضه الله عليه وذلك بعصيان قومه وجبنهم.

وأما عيسى، فإنه لم يستطع أن يقاتل الكفار أيضاً لأنه لم يؤمن برسالته إلا قليل، وأحاط به أعداؤه من كل مكان، وألَّب اليهود عليه ملوك الرومان الوثنيين، وتآمروا على قتله لولا أن الله أنجاه وألقى شبهه على غيره ورفعه إلى السماء، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران/ ٥٥].

وأما نوح، فإنه لم يحارب لأن المؤمنين به كانوا قلة، فأهلك الله الكثرة التي عصته بالطوفان.

وأما إبراهيم عليه السلام، فإنه لم يؤمن به إلا زوجته ولوط فقط، ولذلك لم يؤمر بقتال، بل أخرج من بلده في العراق وسكن بعد ذلك في فلسطين ورزقه الله ذرية صالحة مؤمنة، ثم عاش بقية عمره مع أقوام من الكفار لم يؤمنوا به، ولم يأمره الله بقتالهم.

وأما محمد ﷺ فإن الله قد خصَّه بخير الأمم شجاعة وحمية ووفاء بالعهد وقياما بالحق، آمنوا به وعزروه ونصروه وحاربوا معه أعداءه الأحمر والأسود، لم يتخلف عنه إلا قليل من المنافقين، لامهم الله وفضحهم بجبنهم وتخاذلهم كما جاء ذلك في سورة التوبة.

والشاهد من كل ذلك أن رسولنا محمدا ﷺ هو الرسول الخاتم الذي بعث بالرسالة التامة الشاملة، والذي باشر القتال بنفسه، فأكرمه الله بالنصر تارات، وابتلاه وأصحابه بالصبر تارات أخرى حتى يكمل لهم فرحة النصر وكرامة الصبر، وهدى الله على يديه الجم الغفير في حياته، وجعل أتباعه هم خير أتباع الأنبياء إلى قيام الساعة، وأمته خير الأمم، وهذا لا مجال لتفصيله هنا.

الدعوة إلى الله ومواقف الجاهلية:

ولكن مما يؤسف له أن الأمة الإسلامية بعد رسولنا ﷺ ابتليت ببعض طوائف من الجاهلين والمارقين، الذين قاموا يزعمون نصر الدين، فكانوا بلاء ومحنة وشراً على الإسلام والمسلمين، وكان من هؤلاء من قام بنصر الدين جاهلا -وبحسن نية- يريد الحق فأخطأه بجهله وعصبيته، فرفع السيف على أهل الإسلام.. وكفَّروا المسلمين وفسَّقوهم وهم طوائف الخوارج المارقين، وهناك آخرون من الملاحدة الباطنية زعموا نصر الدين وحملوا رايته زورا، وزعموا نصرته، ووقع بسببهم بلاء عظيم أيضا، وهكذا ليس كل من جاهد في الإسلام كان من أهل الحق والإيمان، ومازالت الأمة تُبتلى بأمثال هذه الطوائف المارقة والضالة في كل عصورها، ويكون بسببها بلاء وشر مستطير.

ولما كان المسلمون في أمس الحاجة إلى بيان الصراط المستقيم في الدعوة إلى الله سبحانه، لأنه هو سبيل نصر الدين وإعزاز المسلمين، ولم يكن

كل من تصدى للدعوة والجهاد أهلا للفهم والمعرفة بهذا الطريق، أحببنا بيان بعض القواعد الهامة في هذا الصدد، لعل الله أن ينفع بها من شاء من عباده.

٣ - متى نحكم لإنسان ما بالإسلام ؟

نصل الآن إلى سؤال هام وهو: متى نحكم لرجل ما بالإسلام؟ والجواب أننا نحكم لشخص ما أو لقوم ما بالإسلام إذا ظهر لنا من أحوالهم أو في إشارة ترشد إلى ذلك، كأن نجدهم يصلون أو يسيرون في طرقات المسلمين، أو يلبسون ملابسهم أو يسمون على طعامهم كالمسلمين، أو يشهدون أمامنا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

والدليل على ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، وهذا من الله إنكار على بعض المسلمين الذين قتلوا في الحرب رجلا مع رفع يديه مستسلما للمسلمين شاهداً شهادة الإسلام، ولذلك قال رسول الله ﷺ لأسامة بن زيد الذي قتل في الحرب رجلا بعد أن قال لا إله إلا الله: «**أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله! وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة!!**» فقال أسامة يا رسول الله إنما قالها متعوذا! فقال ﷺ: «**هلا شققت عن قلبه**»!! [متفق عليه واللفظ لمسلم]، وذلك أن هذا الرجل الذي قتله أسامة كان قتل طائفة من المسلمين، فلما علاه أسامة بالسيف قال: لا إله إلا الله! وفي هذه قرينة أكيدة تبلغ درجة الدليل أن مثل هذا كافر القلب، وأنه لم يقل ذلك إلا خوفا من السيف ومع ذلك أمرنا الرسول أن نكف عنه حتى مع عدم أمننا من انقلابه علينا بعد ذلك وقتاله لنا.

وهذا من أعظم الأدلة على أن لا إله إلا الله تحرم علينا دم قائلها حتى لو قطعنا بيقين أنه كاذب في هذه الكلمة.

ومن الأدلة أيضا على وجوب معاملة الرجل معاملة المسلمين حتى لو لم يقم عندنا الدليل على إسلامه - حقيقة قول النبي ﷺ: «**وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**» [متفق عليه]، وقوله: «**إن من علامات الساعة ألا يُسلِّم الرجل إلا على من يعرف**» [رواه الطبراني في الكبير]، فجعل هذا من المنكرات التي لا تظهر إلا قرب قيام الساعة، ولهذا قبل رسول الله ﷺ من كافة الوفود

التي جاءته إسلامها، وشهد لها بذلك، وعاملهم معاملة المسلمين، مع أن كثيرا منهم لم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم بعد، وكثير منهم كذلك كان يجهل حقائق الإيمان، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾، وهذه شهادة من الله سبحانه على أناس أنهم لم يدخل الإيمان في قلوبهم بعدُ، ومع ذلك أمرهم سبحانه أن يقولوا: أسلمنا، ولاشك أن قولهم أسلمنا يلزم المؤمنين أن يعاملوهم بالإسلام، فيكفوا عن دمائهم، ويلقوا عليهم السلام ونحو ذلك من حقوق المسلم على المسلم.

وهذه الأدلة التي قدمناها في الرد على من زعم أن كل عربي وأعرابي في عهد النبي ﷺ عندما قال: لا إله إلا الله كان يفهم معناها الحقيقي، بل كان هناك من جُفاة الأعراب من لا يفهم منها إلا كما يفهم أي جلف جاهل يعيش في أزماننا، ومع ذلك أمر رسول الله والمؤمنين أن يعاملوا أولئك بما ظهر منهم، وما أعلنوا من دينهم.

والشاهد من كل ما قدمنا أننا نحكم لشخص ما أو جماعة ما بالإسلام بمجرد ظهور ما يدل على إسلامهم، كأن يشهدوا الشهادتين -حتى وإن لم يفقهوا معناها- أو يصلوا صلاة المسلمين، أو يصوموا صيامهم، أو حتى كانوا يلبسون ملابس المسلمين ويسيرون في طرقاتهم، فمأجور ولاشك من سلَّم على أمثال هؤلاء، ومن أمرهم بمعروف أو نهاهم عن منكر، أو أعانهم على خير وبر، أو ساعدهم، أو قام بشيء نافع لهم، حتى وإن كان يعتقد أنهم يجهلون حقيقة لا إله إلا الله، ولا يدركون حقيقة الدين ومفهومه الصحيح.

ولاشك أن حكمنا على أمثال هؤلاء لا يدخلهم الجنة كما قلنا آنفا، ولم يكلفنا الله عند هذه الشهادة أن نعرف حقيقة إيمانهم قبلها، لأننا نحكم له بالإسلام الظاهر لا بالإسلام الحقيقي الذي لا يعلمه ولن يعلمه على الحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى.

ومهما بالغنا في معرفة إيمان شخص على الحقيقة فإننا لا ندرك ذلك، ولذلك كاه أصحاب النبي يخشون على أنفسهم أن يكونوا منافقين بالفعل، كما روى ابن أبي مُليكة قال: (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخشى

على نفسه من النفاق)!!. [رواه البخاري] وقد صح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لحذيفة، وكان النبي (ﷺ) قد أعلمه بالمنافقين: (أما سماني رسول الله في المنافقين!!) ولذلك أنكر ابن مسعود رضي الله عنه على من قال: أنا مؤمن، فقال: فليقل إنه من أهل الجنة!!.

فإذا كانت حقيقة الدين في القلب بهذا الخفاء، فلا شك أن من يقول لا نشهد بالإيمان إلا لمن عرفنا حقيقة معتقده هو من أجهل الناس، لأنه لا يمكن أن يصل إلى حقيقة معتقد أحد، وليس هذا إلا لله سبحانه وتعالى المطَّلع على خفايا الصدور وحقائق القلوب، بل لا نحكم إلا بما ظهر لنا، ولا شك أن كل من أظهر شيئا من الدين حكمنا له بالإسلام، ووكَّلنا سريرته إلى الله تعالى، فإن كان عالما بحقيقة الإسلام فذاك، وإن كان جاهلا بحقيقة الإسلام علَّمناه مما علمنا الله - إن كان عندنا علم من ذلك.

ومن هذا الذي قدمنا بالأدلة من الكتاب والسنة وقواطع الدين، نعلم يقينا أن الذي يحكم على المسلمين المعاصرين بالكفر -بدعوى أنه لم يعلم حقيقة معتقدهم- نعلم أنه جاهل محدث في الدين حدثا عظيما لا يملك على فعله دليلا من كتاب أو سنة، بل إن فعله هذا يُعدّ كفرا، لأن من كفر مسلما فقد كفر، والحكم على جمهور المسلمين بالكفر لاشك أنه كفر، أو الانتظار والتبيّن والتوقف الذي ينادون به لاشك أيضا أنه زندقة وابتداع لا دليل عليه من كتاب أو سنة، بل أمرنا الكتاب والسنة بالحكم بالإسلام لكل من أظهر شيئا من الدين وأعلن الدخول في الإسلام حتى لو كان منافقا كاذبا كالأعراب الذين أعلنوا الإسلام ولم يفهموه ولم يعلموا حقائق الإيمان بعد، وكالمتعوذين الخائفين الذين قد يعلنون الإسلام خوفا من السيف، وكالطامعين المنافقين الذين قد يعلنون الإسلام ويخفون من الكفر ما الله به عليم، وكل أولئك أمرنا الله أن نقبل علانيتهم وندع سرائرهم إلى الله سبحانه وتعالى، كما قبل النبي ﷺ علانية المنافقين وعاملهم بذلك، ولم يعاملهم بما أظهر الله سبحانه وتعالى للنبي من أسرارهم، وبما وقف عليه الرسول نفسه من أخبارهم، بل ترك معاقبتهم على سوء نيتهم لله سبحانه وتعالى.

٤ - متى يجوز أن نحكم على المسلم بالكفر؟

المسلم من أعلن شيئا من شعائر الإسلام: شهادة أو صلاة أو إحراما ونحو ذلك، ولو لم نعلم شيئا عن صلاحه أو تقواه، وهذا المسلم المعلم للإسلام يجب أن نجري عليه أحكام الإسلام من إلقاء للسلام عليه ومحبته وموالاته ما لم يخرج من هذا الدين، ولا يجوز لنا أن نُخرِج مسلما من دائرة الإسلام إلا وفق القواعد الآتية:

أولا: أن يعلن الفرد عن نفسه أنه كافر، أو يلتحق بأعداء الإسلام في أرض الحرب فيكون معهم على المسلمين، أو يعبد عبادات الكفار، كمثل هذا لاشك في كفره وردته.

ثانياً: أن يقول قولا أو يعتقد عقيدة من عقائد الكفر غير متأول، كمن قال: إن الله في كل مكان ولم يشهد بأنه سبحانه وتعالى فوق عرشه وأن عرش الله فوق سماواته، أو من قال لا حكم لله إلا في العبادات فقط وأما في السياسات والمعاملات فالحكم لنا أو للأمة، ومن ادعى أن بشرا غير الرسل معصومون عن الخطأ، وأنهم يشفعون عند الله وإن لم يأذن الله لهم، أو من ادعى علم الغيب أو شهد به لغير الله، أو من يطلعهم الله على الغيب من الرسل فقط، هذا وغيره من اعتقادات وأقوال حكم عامة السلف على كفر قائلها ومعتقدها، ولكنهم لا يكفرون قائلها ومعتقدها إلا إذا أقيمت عليه الحجة وعرف أن هذه العقيدة التي يعتقدها والقول الذي يقوله كفر بالله، وكان في ذلك غير متأول لآية من كتاب الله أو حديث من أحاديث النبي ﷺ.

ثالثاً: من عمل عملا حكم الله أو رسوله على فاعله بأنه كافر كمن حكم في قضية ما وهو يعلم أنه يحكم بغير حكم الله سبحانه وتعالى، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وكذلك من ترك الصلاة لقوله ﷺ: «**بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة**» [رواه الطبراني في الأوسط]، وكذلك من رمى مسلماً بالكفر لقوله ﷺ: «**ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك**» [متفق عليه]، أي إلا رجع عليه الوصف، وكذلك من انتسب إلى غير أبيه وهو يعلمه، لقوله: «**ليس من رجل**

لغير أبيه وهو يعلمه **إلا كفراً»** [متفق عليه]. وهذه الأعمال وغيرها مما حكم الله ورسوله (ﷺ) على فاعلها بالكفر، فلا شك أيضا أنه لا يُكفّر فاعلها إلا إذا كان عالما بأن ما يفعله مما نهى الله عنه وكفّر فاعله وذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ وكذلك أن لا يكون مضطرا في ضرورة ملجئة لا حيلة له معها.

وإن كان علماء المسلمين في مثل هذا الباب قد وقفوا موقفين من حيث الحكم بالكفر، فقال بعضهم من عمل عملا قد حكم الله على فاعله بالكفر فهو كافر كفرا مخرجا من ملة الإسلام، وإنّ صاحبه مخلد في النار.. وآخرون رأوا مثل هذه الأعمال كفرها دون كفر الاعتقاد، وهؤلاء لا يجعلون كفرا يخرج من ملة الإسلام إلا الكفر الاعتقادي فقط، وأما الكفر العملي فيرونه كفرا دون كفر لا يخرج من ملة الإسلام وهذا رأي ابن عباس من الصحابة وجمهور العلماء، ومنهم الأئمة الثلاثة أبو حنيفة ومالك والشافعي.

وعلى كل حال فلا يجوز الحكم على مسلم بعينه بمكفر من هذه المكفرات قبل إقامة الحجة عليه والإعذار إلى الله فيه، ومعرفة بواطن أموره ولماذا صنع مثل ذلك.

ووفق هذه القواعد الثلاث نستطيع القول إن حكمنا على مسلم ما بأنه قد كفر يكون حكما صحيحا، وأما إطلاق القول على عواهنه في تكفير كل من فعل مكفّرا وإن لم تقم الحجة عليه، وكل من اعتقد عقيدة كفرية، وإن كان متأولا فلا شك أن هذا باطل وزور.

وأما إطلاق الحكم على مجتمعاتنا كلها بأنها كافرة وجاهلية وبالتالي على من لم يعرف من الإسلام بأنه كافر لأنه يعيش في مجتمع زعموه كافرا فلا شك أن مثل هذا من الضلال البيّن لأنه تكفير للمسلمين وهدم للإسلام.

٥ - هل نستطيع معرفة المسلم على الحقيقة ؟

اعلم أخي أن حكم الله وشهادته تختلف عن حكمنا وشهادتنا وذلك أن الله إذا حكم فإنما بعلمه الذي لا يخطىء ولا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه، وأما أحكامنا فهي قاصرة وظاهرية فقد نشهد ظاهرا لرجل بالإسلام ولا

يكون مسلما بل منافقا يظهر لنا غير ما يبطن، وقد نشهد على رجل بالكفر والردة ولا يكون كذلك عند الله سبحانه وتعالى.. كما قال ﷺ: «**إذا كفّر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما**»، في رواية: «**إن كان كما قال وإلا رجعت عليه**» فعلم بذلك أن المسلم قد يشهد عليه أخوه بالكفر وليس هو كذلك.

ثانياً: الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة

لأن نخطىء في العفو خير من أن نخطىء في العقوبة أعني إذا أخطأنا وحكمنا عل رجل بالإسلام بما ظهر لنا من إظهاره لبعض شعائر هذا الدين، ولم يكن الرجل كذلك عند الله سبحانه وتعالى فلا يضيرنا ذلك ولسنا بهذا ملومين عند الله، ولكن إن حكمنا على أحد من المسلمين بالكفر وهو ليس كذلك عند الله سبحانه وتعالى فقد تورطنا وتعرضنا لسخط الله وغضبه بل قد نخرج بهذا من الإسلام الذي أردنا إخراج غيرنا منه.

هذا ولم يأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نشق قلوب الناس وأن نعرف حقيقة معتقدهم، وإنما أمرنا أن نحكم بما ظهر لنا من أحوالهم كما قال ﷺ لخالد بن الوليد: «**لم أؤمر أن أشق عن قلوب الناس**» كذلك عندما ذكر عنه أن فلانا يقول بلسانه ما ليس في قلبه - [رواه مسلم] وكما قال أيضا ﷺ لأسامة عندما قتل رجلا في الحرب شهد أن لا إله إلا الله عندما رفع السيف عليه قال النبي لأسامة: «**أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله، وما تفعل بلا إله إلا الله**» فقال: يا رسول الله إنما قالها متعوذاً، فقال له ﷺ: «**هلا شققت عن قلبه؟!**» وهذا استفهام استنكاري لأنه لو شق قلبه لم يعرف أمسلم هو أم كافر، وهل قال ما قال مؤمنا أم متعوذا خائفا من السيف فقط.

والمهم في هذا الصدد أن حكمنا بالإسلام لا يدخل أحدا الجنة، وحكمنا على رجل بالكفر والردة لا يدخله النار بالضرورة، فقد نخطىء في هذا وهذا كما قال ﷺ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**» [متفق عليه].

والخطأ في الحكم على الناس لا يسلم منه أحد لأن الإيمان حقيقة قلبية

لا يطَّلع عليها إلا علاَّم الغيوب سبحانه وتعالى، كما قال لنبيه: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

وخلاصة هذه الفقرة أننا إذا أخطأنا وحكمنا لرجل بالإسلام - لما ظهر لنا من أمره - وليس كذلك، فلا يضيرنا هذا عند الله، وليس هذا بمدخله الجنة - إن لم يكن كذلك في الحقيقة والواقع - ولكننا - ولاشك - ملومين عند الله إن أخرجنا رجلا من الإسلام - وهو لم يفعل أو لم يقل ما يكون به كافرا - لتحذير الرسول السابق: «**من قال لأخيه يا كافر وليس كما قال إلا حار عليه**» أي رجع عليه الوصف.. لذلك كان الخطأ في العفو خيرا من الخطأ في العقوبة كما أسلفنا.

هذا ويترتب على إخراج رجل من الإسلام أضرار ومفاسد عظيمة إذا لم يكن كافراً فعلا، فبالحكم على رجل بالكفر يستباح دمه وعرضه وماله، ويجب على المسلمين قتاله وقتله إن تمكنوا من ذلك، ولا يرث أهله تركته، ولا يدفن في مقابر المسلمين إن مات على ما حكمنا عليه به من الكفر والردة، ويجب تطليق امرأته إن كانت تحته مسلمة وهدم نكاحه، وإبطال شهادته مطلقا، ولا شك أن هذه أمور في غاية الخطورة إذا لم تكن في نصابها الصحيح، وذلك أن المؤمن محبوب عند الله سبحانه وتعالى، متوعد من يعتدي على شيء من حرماته بغضب الله وسخطه، بل إن المعتدي على دم المسلم مخلد في النار كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ ولذلك غضب الله على الخوارج وأمر رسول الله بقتلهم وقتالهم مع كثرة صلاتهم وصيامهم كما قال رسول الله ﷺ فيهم «**يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وصيامه إلى صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**» [متفق عليه] ومروقهم من الدين إنما هو لاستحلالهم قتل المسلمين الذين استحلوا قتلهم بمعاصيهم وحكموا عليهم بالكفر وهم -أعني المحكوم عليهم- لم يكونوا كفارا في ميزان الله سبحانه وتعالى، ولذلك لم ينفع الخوارج اجتهادهم في العبادة مع قتلهم للمسلمين، ولهذا قلنا إن المفاسد العظيمة التي تتأتى من الجهل والخطأ بإخراج

مسلم من الإسلام لا يعدلها شيء، لأنها في الحقيقة تعادل المروق من الدين والخلود في النار.

وأما الحكم على مسلم بأنه مسلم -وليس كذلك- فإن مفاسده قليلة جدا، بل تكاد تنعدم إذا عرفنا حقيقة الفرق بين الكفر والإيمان، ولم نقر مسلما على أن يعمل باطلا أو يقول باطلا، فإذا أنكرنا على المسلم فعله الباطل، سواء كان شركا أو كفرا أو معصية، فإننا براء عند الله، ثم اتبعنا مع كل مسلم القواعد الشرعية في المعاملات، فلم نزوجه إلا إذا عرفنا صدقه وأمانته، ولم نشتر منه أو نتبايع معه إلا كذلك أيضا، فلا شك أننا نكون في أمان وعافية.

والمهم في هذا الصدد أن الخطأ في الحكم بالإسلام للمسلم الذي يُظهر شيئا من الإسلام خير من الخطأ في الحكم بالكفر على مسلم نخرجه من الدين وهو لا يستحق هذا الإخراج.

٦ - من البدع قول من يقول: «لا نشهد لأحد بالإسلام إلا من عرفنا عقيدته».

قدمنا فساد الطرائق المحدثة التي أحدثها أهل الابتداع والغلو ممن يتوقفون في الحكم بالإسلام لأحد من أهل القبلة حتى يعلموا رضى الله عن حقيقة معتقده في زعمهم، وهؤلاء يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا ولقد ناقشت كثيرين منهم فوجدت منهم دعاة إلى هذه الزندقة التي هم عليها طيلة ثلاث سنوات ومع ذلك لا يعلم في الأرض مسلما غير نفسه وهو مع ذلك يستحل دماء كل المسلمين المصلين وأموالهم وأعراضهم، ويقول لا يمنعني من السيطرة عليها وحيازتها إلا أنني غير متمكن فقط، ولكن إذا كنت متمكناً ورفض هؤلاء دعوتي استبحت دماءهم وأعراضهم ولم أعترف بصلاتهم ولا بصيامهم، وهذا ما قاله لي غير واحد منهم، ولاشك أن هؤلاء - كما قلت لبعضهم- قد أتوا بكفر ومروقٍ من الدين لم تأت من الناشئة الأولى من الخوارج، لأن هؤلاء لا يحاربون إلا أهل الصلاة والصلاح من المسلمين ولا يوجهون سهامهم إلا إلى أهل الدعوة والخير ولا يبدأون حربهم إلا في المساجد التي يستضعفون أهلها ولا ينفرون من شيء في الدنيا تنفيرهم من الصلاة في المساجد الموجودة حاليا بحجة أنها في ظل سلاطين كفرة، وبهذا يبدأون حربهم لأهل الصلاة وأهل الصلاح.

فهل ثمة في الأرض كفر ومروق من الدين أعظم من هذا؟ ومع ذلك يظن هؤلاء المارقون أنهم أكمل المؤمنين إيمانا، وأعظمهم درجة عند الله، ويعتقدون في أنفسهم أن لا فضل للصحابة عليهم في علم ولا عمل وأنهم قد يبلغون منزلة في الإيمان أبلغ من منزلة الرسول نفسه ولقد ناقشت بعضهم في هذا فجعل نفسه في منزلة الصحابة في فهمه للدين، وإذا ذكرته بالسلف والأئمة قال لك نحن رجال وهم رجال مع العلم أنني ناقشت بعضهم ماذا تحفظ من القرآن فلم أجد عنده إلا جزأين فقط، ولم يقرأ من القرآن إلا القليل فضلا عن حفظه وفهمه، وعامتهم لا يحسن من العربية شيئا، وليس عنده من الأحاديث إلا بضعة أحاديث لا يعلم من فقهها وفهمها شيئا يذكر، ويستحلون لأنفسهم الكذب على المسلمين، وإظهار غير معتقدهم بحجة أنهم ضعفاء غير متمكنين، ويكفرون غيرهم بتأويل سائغ ولا يكفرون أنفسهم بالتحريف الكامل للدين والعقيدة، ويفسقون غيرهم بالمعصية اليسيرة ويرتكبون هم العظائم ويعتقدون أنهم ضعفاء مضطرون، ولا يرجعون في فقه القرآن والسنة إلى سلف صالح لهم أو عالم يعتد بعلمه، أو فقيه أو مجتهد بل كل منهم يعتقد في نفسه الاجتهاد وفهم الدين وأخذ الأحكام هكذا رأسا من الكتاب والسنة، ويحملون الآيات والأحاديث على معان بعيدة كل البعد عما وضعت له وسيقت من أجله. فالله المستعان على هذه النائبة الجديدة في النفاق والكفر والمروق التي شتتت شمل المسلمين ومزقت جماعتهم.. واعتقد كل جاهل منهم أنه جماعة المسلمين وأن كل من عداه من عموم المسلمين إما كفار تُستحل دماؤهم وأعراضهم، وإما جاهليون لا يحكم لأحد منهم بإسلامه حتى يدخل فيما دخل هو فيه من الكفر والزندقة والمروق من الدين وسب المسلمين وتكفيرهم، ولقد أضعت من أوقاتي أوقاتا طويلة في مناقشتهم ونصحهم فمنهم من هدى الله ورجع عن غيه وضلالته ومنهم من لم يزده نصحي إلا غواية ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾.

والخلاصة أننا نحكم بالإسلام لكل من أظهر لنا شيئا من الدين دون التفتيش عن حقيقة معتقده وهل فهم إلا الله أم لم يفهم معناها، ونعامل المسلمين بما ظهر لنا من أحوالهم ونكل سرائرهم إلى عالم السرائر سبحانه وتعالى.

٧ - متى يجوز استحلال دم المسلم؟

من المعلوم في الإسلام ضرورة أن ذم المسلم حرام على المسلمين، وقد علمنا أن المسلم هو من شهد الشهادتين أو أظهر شعيرة من شعائر الإسلام كالصلاة أو الإحرام ونحو ذلك، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**» [متفق عليه] وكان اليوم يوم عرفة، وهو يوم من شهر ذي الحجة المحرم وأعظم يوم في العام كله حرمة في الإسلام، والبلد الذي قال فيه الرسول هذا الحديث هو مكة وهي بلد حرام إلى يوم القيامة.

متى يجوز قتل المسلم ؟

وقد جاءت نصوص تبين الوقت والحال الذي يستحل فيه دم المسلم وأن ذلك محصور في ثلاث حالات فقط وهي الزنا مع الإحصان والنفس بالنفس، والردة، وذلك لحديث ابن مسعود في الصحيحين قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق في الدين التارك الجماعة]**.

فالقصاص معلوم وهو قتل القاتل المتعمد، وأما الثيب الزاني فهو الرجل والمرأة إذا سبق لهما زواج ووقع منهما الزنا الذي يثبت باعتراف أو شهادة أربعة، وأما المارق في الدين فهو المرتد.

وقد شرحنا الأحوال التي يحكم فيها على المسلم بالردة وأنها إعلانه للكفر أو إقامته لشعائره ولحوقه بالكفار، أو الخروج عن جماعة المسلمين بمعتقد يكفر صاحبه قد أقيمت عليه الحجة فيه، ولا مساغ للتأويل فيما ذهب إليه، أو من عمل عملا حكم الله على فاعله بالكفر يعمل ذلك متعمدا عالما بما يعمل قد أقيمت عليه الحجة وله مندوحة ألا يفعله -أعني أن لا يكون قد فعله مضطرا راهبا، أو راغبا- وكل ذلك أيضا مرهون باستتابته وهذه هي الحالات الثلاث التي يجوز فيها قتل المسلم وإهدار دمه.

متى يجوز قتال المسلم ؟

هناك فارق كبير بين قتل المسلم وقتاله، فالقتل معناه إهدار دمه والقضاء

عليه، وأما القتال فهو دفع عدوان والتصدي لظلم وكف شر، وقد أجازت الشريعة المطهرة للمسلم أن يدفع الشر والعدوان عن نفسه وماله وعرضه ولو أدى ذلك إلى قتل المعتدي -ولو كان مسلما- ويدل لهذا آيات وأحاديث منها قوله ﷺ في الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (من قُتِل دون ماله فهو شهيد) وفي الحديث أيضا أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: «**أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي قال: لا تعطه قال: فإن أبى قال: قاتله قال فإن قتلني قال أنت في الجنة قال فإن قتلته قال هو في النار**» [رواه مسلم] وهذا نص في وجوب الدفع عن المال ولو أدى ذلك إلى قتل المعتدي، ولاشك أن الدفع عن النفس بطريق الأولى والأحرى وقد جاء منصوصاً عليه أيضا في قوله ﷺ: «**ومن قتل دون نفسه فهو شهيد**» ولكن قتال المعتدي علينا غير قتله -أعني أنه يجب قتاله ودفعه وليس قتله- ومعنى القتال أن تدفع المسلم المعتدي على النفس والمال بما يندفع به، وهذا ما يسمى في الشريعة (بدفع الصائل) أي المعتدي على النفس أو العرض أو المال، وحكم هذا أن ندفعه بأيسر ما يندفع به فإذا اندفع بالسب دفعناه أو باليد أو العصا دفعناه، وإذا لم يندفع إلا بالسيف استعملناه.

ويستوي في هذا الباب أن يكون الصائل أو المعتدي فردا واحدا أو جماعة وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ فقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾ نص في وجوب التصدي للفئة الباغية الظالمة حتى تثوب إلى رشدها وترجع إلى الحق وتذعن للصلح وتكف عن القتال والبغي.

وقد شُرِع القتال أيضا لكف البغاة القائمين في وجه السلطان المسلم المبايَع له، كما قاتل علي بن أبي طالب من قام في وجهه بعد إقرار البيعة له وذلك بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، ولهذا كف عن مقاتلة أصحاب الجمل بمجرد تركهم للقتال، ولم يجهز على جريحهم، ولم يتبع الفار منهم، ولم يستحل دماءهم ونساءهم.

وكذلك جعل العلماء من هذا الباب قتال المتمالئين على ترك واجب أو فعل محرم كما قاتل أبو بكر مانعي الزكاة، وإن كان بعضهم لم يمتنع عن إقامة الصلاة ولكنهم لما تمالأوا على ترك فريضة ثابتة في الدين قاتلهم وقال: **«لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال»** [متفق عليه]. ومن هذا العرض يتبين لنا أن القتل غير القتال وأن القتل في ثلاث جرائم فقط منصوص عليها، وأما القتال فهو للبغي على الإمام أو على مجموعة المسلمين أو على فرد مسلم.

٨ - أ: منهج أهل السنة في تقويم أخطاء الحكام

من أوائل الأمور التي وقع الخلاف فيها بين المسلمين أسلوب تغيير المنكر. فبالرغم من أن هناك اتفاقا عاما أو إجماعا بين المسلمين جميعا على أن المنكر يجب تغييره بوسيلة من الوسائل الثلاث: اليد واللسان والقلب، فإن المسلمين اختلفوا قديما في الأسلوب الذي يجب أو يستحب تغيير المنكر بواسطته، وكذلك اختلفوا أيضا في المواضع التي يجوز استعمال اليد -أي القوة- فيها، ومتى يجوز استخدام اللسان، وما الأوقات التي يعذر المسلم فيها إن أنكر بقلبه فقط؟؟.

وبالرغم من أن المسلمين أيضا متفقون على وجوب اتباع الحكمة في كل ذلك إلا أن تفسير الحكمة يختلف من طائفة إلى أخرى، ومن فرد إلى فرد.

ويظهر هذا الاختلاف واضحا جليا في إنكار منكر الإمام المعلم للإسلام، فبينما رأى الخوارج والمعتزلة وجوب إنكار منكر الإمام بكل صورة من صور الإنكار: اليد واللسان والقلب، نجد أن أهل السنة وعلماء السلف قديما وحديثا قالوا بتحريم إنكار منكر الإمام المعلن للإسلام باليد، وأنه لا يجوز إنكار منكره إلا باللسان والقلب فقط.

مستند الخوارج والمعتزلة:

وقد استند الخوارج والمعتزلة، فيما ذهبوا إليه من وجوب الخروج على الإمام المسلم بالسيف إذا انحرف أو ظلم أو خرج في نظرهم عما يعتقدونه من الدين استندوا في ذلك إلى عموم قوله ﷺ: **«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده**

فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان [رواه مسلم]، وقالوا إن هذا حديث عام ولم يخص فيه الرسول الإمام عن غيره ممن يعمل منكرا، وكذلك استدلوا بقول عمر بن الخطاب: (وإذا أسأت فقوموني!! فقال له رجل: لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا!!) فسكت عمر على ذلك، وهذا إقرار بجواز تقويم منكر الإمام العام وعوجه بالسيف.

مستند السلف وأهل السنة والجماعة:

وقد رد علماء السنة والسلف على ما قاله الخوارج والمعتزلة في ذلك بقولهم: إن الرسول ﷺ استثنى الإمام من تغيير منكره بالقوة، بل لم يجز أصلا إنكار منكره إلا باللسان فقط وقد جاء هذا في أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ في حديث ابن مسعود: «**ستكون أثرة وأمور تنكرونها**»! قالوا يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال «**تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم**» [رواه البخاري ومسلم] وكذلك حديث أم سلمة في مسلم عن النبي ﷺ: «**أنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برىء ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع**»، قالوا يا رسول الله أفلا نقاتلهم؟! قال ﷺ: «**لا، ما صلوا**» ا.هـ

قال أهل السنة والجماعة: وهذا نص في أن الإنكار على الإمام الذي يخلط في عمله وحكمه بين الحلال والحرام لا يجوز الخروج عليه بالسيف، بل إذا أنكر بقلبه فقد برئ، وإذا أنكر بلسانه فقد سلم ولكن من رضي وتابع كان مشاركا في الإثم والمعصية، وقد استفصل المسلمون رسول الله في جواز الخروج عليهم بالسيف حينئذ فأبى وقال: (لا، ما صلوا)، أي ما قاموا ملتزمين بالصلاة.. ويؤيد حديث أم سلمة هذا حديث عوف بن مالك في مسلم أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**» قيل يا رسول الله: أفلا ننابذهم بالسيوف فقال: «**لا ما أقاموا فيكم الصلاة! وإذا رأيتم من ولاتكم شيئا تكرهونه فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يدا من طاعة**» وهذا نص ظاهر واضح أن الإمام - وإن استحق اللعن من المسلمين، وكان بغيضا إليهم مبغضا لهم - لا يجوز الخروج عليه بالسيف مادام أنه من

جملة المصلين!! وقال أهل السنة من الجماعة أيضا والسلف قاطبة: إنه لا يجوز الخروج على الإمام الذي مازال يصلي إلا أن يكفر كفرا بواحا، والبواح هو العلانية الشائع أي أن يعلن ذلك ولا يكون مُسرا به لأهل خاصته مثلا، واستندوا في ذلك أيضا إلى حديث جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض فقلنا حدثنا -أصلحك الله- بحديث ينفع الله به سمعته من رسول الله ﷺ فقال: «**دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله قال: إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان**» [متفق عليه] وهذا نص ظاهر في عدم جواز منازعة الإمام الأمر إلا أن يعلن الكفر علانية.

وأما استدلال الخوارج والمعتزلة بقول عمر فلا حجة فيه لأنه لم يقل قوموني بالسيف وإنما قال: قوموني فقط، وقول القائل لعمر: رضي الله عنه: لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا تطاول منه على أمير المؤمنين لم يشأ أن يرد عليه وهو في مقام الإمام وفي خطبته الأولى حتى لا يتهم بالدفاع عن نفسه، وإلا فهذا الأمر أشبه بين السلف مما هو معلوم من الدين بالضرورة.

ب - منهج أهل السنة في تقويم أخطاء الحكام

لم يكتف أهل السنة والسلف بالاستدلال بالنصوص فقط لتأييد وجهتهم في عدم جواز إنكار منكر الإمام المسلم بالسيف والاكتفاء فقط باللسان والقلب.

أقول لم يكتفوا بالنصوص فقط بل أيدوا آراءهم بالأدلة العقلية أيضا، وكذلك فعل الخوارج والمعتزلة، فقد زعموا أن الخروج على الإمام بالسيف أدعى لاستئصال مادة الشر، وأرهب للأئمة حتى لا يجاوزوا القرآن والسنة، ويخافوا البطش بهم إن هم جاروا أو ظلموا.

وأما أهل السنة فإنهم قالوا: بل الضرر الواقع على جمهور المسلمين من ذلك أشد من انحراف الحاكم وظلمه، فإن السيف إذا وقع بين الأمة وقعت بسببه مفاسد كثيرة. فالإمام لابد وأن ينحاز له كثيرون معه، خاصة إذا كانت الشوكة بيده كالسلاح والجيوش وهؤلاء حتما سيتعصبون له ومن ذا يستطيع أن يصل إلى الإمام دون أن يقع القتل في مسلمين كثيرين يتترس بهم الإمام؟ وهذه

الأحداث شواهد على ما نقول.. والأدهى من ذلك أن المنافقين من الحكام الذين يظهرون الإسلام.. وقد يبطنون غيره، سيتخذون من خروج بعض المسلمين عليهم ذريعة إلى التنكيل بالمسلمين عامة، واستئصال جذوره من المجتمع، والتضييق على دعاته، وقد فعلوا ومازالوا يفعلون ذلك عند كل بادرة يقام فيها في وجههم باليد والقوة.

وهنا يقول الجاهلون الأغرار: وإذا كان الأمر كما تقول فمعنى هذا أن لا يُنشر الدين ولا يُنصر الإسلام بل ما يبنيه الدعاة في عام قد يهدمه السلطان المنافق في يوم، وهذا القول فيه من الجهل أمور كثيرة وذلك أن كلمة الحق أقوى من جبروت السلطان مهما كان، وصبر أهل الحق على حقهم وتعرضهم للأذى في سبيله وانتظارهم لفرج الله ورحمته كل ذلك من عوامل انكسار الباطل واندحاره مهما كان هذا الباطل.. وإذا فرضنا في السلطان النفاق وادعاء الإسلام زورا وبهتانا، فكيف إذا كان محبا للإسلام محبا للخير قد يحجم عن بعض تشاريعه لرغبة أو رهبة دنيوية، وقد يحب أن يسود الدين والفضيلة ولا يجد أعوانا للخير يعينونه في ذلك، وافتراض الشر دائما بالسلاطين من اتباع الظن ومن الحكم على القلوب التي لا يطلع عليها إلا الله ونحن نعلم أن القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء.

شهادة التاريخ:

والآن ماذا صنع الذين أرادوا تقويم عثمان رضي الله عنه بالسيف؟ وماذا صنع الذين خرجوا على علي؟ والعباسيون هل كانوا خيرا من الأمويين؟ وهل كان الشريف حسين الذي خرج على خلافة العثمانيين -على ما فيها- خيرا منهم؟ وماذا صنع الذين لا يفتأون يلوحون بقبضاتهم في الهواء ويزمجرون بها في السراديب.

ولاشك بعد كل ذلك أن الحوار والدعوة باللسان يجب أن تكون الوسيلة الوحيدة للإصلاح في أوساط هذه الأمة، ولا يجوز بتاتا أن توجه سيوف هذه الأمة إلا إلى أعدائها الحقيقيين من الكفار الأصليين المحاربين للمسلمين أو إلى الذين خرجوا بيقين من دائرة الإسلام والمسلمين.

٩ – مفهوم الكفر البواح

قد يثير الفصل السابق عن وسائل تغيير المنكر تساؤلات كثيرة، واعتراضات كثيرة أيضا، وقد ينبري للرد علينا بطرق غير مباشرة كثيرون، ومن أهم هذه الاعتراضات والشبهات التي قد أثيرت حول هذا الموضوع هي: ما مفهوم الكفر البواح؟ هل هو بأن يعلن الفرد عن نفسه أنه كافر؟ قالوا إن هذا لا يحصل عادة، وذهب هؤلاء المعترضون إلى أن الكفر البواح هو الخروج عن أحكام الدين، ولو في أمر واحد فقط، فقد قطع كلام هؤلاء في أن كل من خالف أحكام الإسلام ولو في قضية واحدة فهو كافر، وإن صلى وصام وأعلن أنه مسلم!! وهذا الذي توصل إليه هؤلاء المعترضون هو من أعظم الفساد في الأرض لأنه إخراج للمسلمين جميعا من الإسلام بل إخراج لأنفسهم أيضا منه لأنه لا يوجد فرد ما حاكما كان أو محكوما إلا وهو مقصر، أو خارج عن بعض أحكام الدين، وقد يكون هذا ضعفا أو تقصيرا أو جهلا أو خوفا أو غير ذلك.. ولو عرف هؤلاء الآثار المدمرة لفقههم المريض في هذه القضية الخطيرة لربما كفوا عن الكلام في العقائد دون روية وتبصر وتعلموا أيضا أن دراسة العقائد ومسائل الإيمان من أهم ما ينبغي على المسلمين فعله الآن، فليس كل من حمل بعض الحماس الديني، واستطاع أن ينقل بعض الأحاديث والآيات قد أصبح فقيها بها، وهذه أعظم مشكلاتنا في الوقت الحاضر: أنصاف وأرباع المتعلمين الذين يستعجلون الفتوى وخاصة في الأمور العقائدية الخطيرة!.

والآن إليك بحول الله البيان لمفهوم (الكفر البواح) الذي عناه الرسول ﷺ في حديثه الذي يرويه مسلم عن جنادة بن أمية، قال دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض فقلنا: حدثنا أصلحك الله بحديث ينفع الله به، سمعته من رسول الله ﷺ فقال: «**دعانا رسول الله ﷺ، فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله قال: إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان**» [رواه مسلم]، فالبواح هو الظهور والإعلان وهو ضد الخفاء وبالرغم من أن الإسلام قد أمرنا أن نحكم للمسلم بالإسلام بأي ظاهر يدل على ذلك فإنه قد شدد جدا علينا أن نُخرج مسلما من جماعة المسلمين إلا بيقين مطلق لا يقبل الشك أبدا،

فنحن نحكم بالإسلام للشخص إذا رأيناه يعمل أي عمل يدل على الإسلام، كالشهادتين والصلاة، ففي الصحيحين عن عتبان بن مالك أنه قال: (أصابني في بصري بعض الشيء فبعثت إلى رسول الله ﷺ أني أحب أن تأتيني فتصلي في منزلي، فأتخذه مصلى، قال: فأتى النبي ﷺ ومن شاء الله من أصحابه فدخل وهو يصلي في منزلي وأصحابه يتحدثون بينهم، ثم أسندوا عظم ذلك وكبره إلى مالك بن دخشم، أي أنهم اتهموا هذا الرجل بالنفاق وسوء الأفعال)، قالوا: - أي الصحابة - ودوا أنه دعا عليه رسول ﷺ فهلك، أو أصابه شر.. فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: «**أليس يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟**» قالوا إنه يقول ذلك وما هو في قلبه، قال رسول الله ﷺ: «**لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فيدخل النار أو تطعمه**»، وهذا نص واضح في أن النبي ﷺ نهى أصحابه عن الحكم بنفاق رجل ظهرت لهم منه أفعاله القبيحة، مادام أنه يشهد أن لا إله إلا الله.

وكذلك جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا غزا قوما انتظر إلى صلاة الفجر، أمسك وإلا أغار، وهذا واضح أيضا أن الحكم بالإسلام يثبت للقوم إذا أعلنوا شعيرة من شعائر الإسلام، وهي الأذان، وأنهم يأخذون بعض حقوق المسلمين، وهي عدم جواز الهجوم عليهم وقتالهم، وكذلك جاء النص القرآني في سورة الفتح الذي يعلن الله فيه أنه صرف المسلمين عن قتال الكفار في غزوة الحديبية لأن بمكة مسلمين مستترين، قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾، أي وتنحى هؤلاء المؤمنون وتميزوا وخرجوا عن مكة ولم يبق فيها إلا المشركون الخُلص لسلطناكم عليهم.. وهذا إعلان من الله لنا أن المؤمن - ولو كان مستترا أيضا - له كرامة المؤمنين في عدم جواز البطش بقومه، إلا إذا خرج من بين ظهرانيهم، فكيف بالذين يريدون الفتن في بلاد المسلمين، وأن يقتل المسلم أخاه، والحال أن هذه البلاد تقام فيها الصلاة وسائر العبادات؟!

والمهم من كل ذلك أن الحكم بالإسلام إنما هو للظاهر، وكف اليد عن

المسلم حق له وإن لم يقل لا إله إلا الله إلا تحت السيف كما جاء في الحديث الصحيح عن أسامة بن زيد، قال: «**بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري عنه وطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا (إلى المدينة) بلغ النبي ﷺ ما فعلته، فقال: يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟.. قلت: يا رسول الله كان متعوذا. قال: هلا شققت عن قلبه؟! فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم**» [رواه البخاري ومسلم].

وكذلك جاء مثل هذا عن المقداد بن الأسود أنه قال لرسول الله ﷺ: «**أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار فاقتتلنا، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله. أأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ﷺ: لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال**» [متفق عليه] ومعنى هذا أن المسلم يكفر إذا قتل مسلما ومن مات مظلوما بعد أن قال لا إله إلا الله فهو في الجنة.

ومعنى هذا كله، أن الحكم بالإسلام لشخص ما يتحقق إذا أظهر شيئا من الإسلام، وأنه يُحكم له بذلك، ويأخذ أحكام الإسلام من وجوب الكف عن دمه وماله وعرضه، وأنه لا يجوز الحكم بتاتا بأنه منافق، وإن أظهر بعض أعمال المنافقين، لأن النفاق قضية قلبية لا يطلع عليها إلا الله سبحانه.. وأن القرائن التي قد توحي بأن شخصا ما أعلن الإسلام لحاجة في نفسه، أو لمنفعة مادية لرغبة أو رهبة، لا يجوز التعويل عليها مطلقا، وإذا عرفنا هذا وتأكدنا منه بقي أن نعرف ما اليقين الذي يجوز به إخراج فرد ما أو جماعة ما من الإسلام، وإلحاقهم بالكفار، وإجراء أحكام الكفر عليهم؟

١٠ - التطرف آفة كل الشرائع

نشرنا مقالا لأحد الأخوة أنحى فيه باللائمة على من يقول: إن هناك تطرفا دينيا، فقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، وسفه أقوال الذين ناقشوا ظاهرة التطرف، فنسبوها إلى التفسخ وانتشار الموبقات، واستفحال الظلم، وتردي السياسات العربية في الخنوع أمام إسرائيل، والتفريط بالأوطان،

ورد كذلك على الذين نسبوا هذه الظاهرة إلى غير ذلك من الأسباب، ولما كان المقال بوجهه الذي نشر به يُفهم منه أنه لا تطرف حاصل أو قد حصل في فهم الدين والعمل به، وكانت هذه مغالطة كبيرة قد تجعل كل فعل انتسب إلى الدين بأنه من الدين، حتى وإن كان خارجا عنه، وبعيدا عن آدابه وأحكامه، لهذا أحببنا أن نفصل القول في هذا الأمر تنزيها للدين، ووضعا للأمور في مواضعها.

الغلو والتشدد آفة في كل الشرائع:

فنقول.. وبالله التوفيق، إن الغلو والتشدد والتنطع آفة في كل الشرائع السماوية، فقد غالى النصارى في نبيهم عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليه حتى عبدوه وزعموا أنه الله، أو ابن الله وقال الله رداً عليهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ وكذلك كان من تشددهم وتنطعهم اتخاذهم الرهبانية دينا لم يشرعه الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ وكذلك تشدد اليهود في تحري الحق في زعمهم، فشددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم في كثير من الشرائع التي ألزمهم بها، كما حدث في شأن البقرة التي أُمروا بذبحها، وبشأن الانقطاع عن العمل يوم السبت وغير ذلك، ولذلك جاء النبي ﷺ محذرا من التنطع والتشدد في الدين، فقال ﷺ: «**هلك المتنطعون، هلك المتنطعون.. هلك المتنطعون**» [رواه مسلم]، وكان الدين الذي بعث به النبي ﷺ هو الحنيفية السمحة، وقال ﷺ: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**» [متفق عليه]، وقالت عائشة رضي الله عنها: «**ما خُير رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه**» [متفق عليه].

التشدد والتنطع درجات:

ولاشك أن التشدد والتنطع والتطرف في الدين درجات، فقد يكون في إلزام النفس بعبادة فوق الحد الذي شرعه الله، كمن يصوم النهار أبدا، أو يصلي الليل أبدا، ومثل هذا قال فيه الرسول: «**ولكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر**

وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»! [متفق عليه]. وقد يكون بتحريم الحلال على النفس، كمن يحرم على نفسه الزواج مثلا تبتلاً، ولا شك في حرمة ذلك، ومثل هذا النوع من التشدد خفيف الضرر، قليل الأثر، بل هو أمر طبيعي فطري يجابه المتدين بمجرد انفتاح قلبه إلى الخير، وانشراح صدره للإسلام، كما قال ﷺ: «**لكل عابد شره ثم فترة، فمن كانت فترته إلى سُنة فقد هُدي، ومن كانت فترته إلى بدعة فقد ضل**» [رواه أحمد]. والشره هي النهم، وازدياد الرغبة، والمقصود هنا النهم إلى كثرة العبادة، ثم تأتي بعد ذلك الفترة وهي السكون والراحة، فمن سكن إلى عبادة مشروعة فقد اهتدى، ومن ابتدع عبادة ولازمها بعد ذلك فقد ضل، وعلى كل حال هذا النوع من التشدد ليس آفة وليس خطراً لأنه إلى أمد محدود وعلاجه سهل ميسور.

ولكن التشدد والتطرف الذي هو آفة الآفات وغاية الشرور وسبيل هدم الدين وتمزيق جماعة المسلمين، هو الغلو في التكفير، والتنطع بإخراج المسلم من الإسلام بالمعصية التي لا تبلغ درجة الكفر، واستحلال دمه وماله بذلك. وهذا النوع من الغلو هو الذي فرق أمة الإسلام في عهدها الأول، فعن طريقه استحلت طائفة من المسلمين دم الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، زاعمين أنه لا يسير على سنة الشيخين، واستحلوا بعد ذلك قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واستحلوا قتل معاوية وعمرو بن العاص، ثم حاربوا الخلفاء من بني أمية الواحد منهم بعد الآخر، وظل هذا دينهم في خلافة بني العباس، كل منهم يدعي نصر الدين، فيخرج مع مجموعة معه على المسلمين فيعمل فيهم القتل والتشريد، وفيهم قال رسول الله ﷺ: «**يخرج من ضئضئي هذا قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. . لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**»، وقال في رواية: «**يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان**» [متفق عليه].

التطرف حديثا:

ولاشك أنه قد وقع بعض أفراد وجماعات من المسلمين المعاصرين في هاوية التطرف، وقد كتب الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي كتابا في ذلك، ولما سئل عن التطرف قال: (ومبلغ هذا التطرف وغايته حين يسقط عصمة الآخرين،

ويستبيح دماءهم وأموالهم، ولا يرى لهم حرمة ولا ذمة، وذلك إنما يكون حين يخوض لجة التكفير واتهام جمهور الناس بالخروج من الإسلام أو عدم الدخول فيه أصلا -كما هي أقوال بعضهم- وهذا يمثل قمة التطرف الذي يجعل صاحبه في واد وسائر الأمة في واد آخر).

ويقول الأستاذ محمد الغزالي عن هذا الموضوع أيضا: (وعندما أبحث عن جراثيم الانحراف بين المتدينين أجد هذا اللون من "الفراعنة" وراء جملة المسالك التي نشجبها، ونضيق بأهلها، فالجماعة التي تحمل عنوان "التكفير والهجرة" مثلا تبنت أفكارها في السجون، ونمت أشواكها وراء القضبان.. هل أدافع بهذا القول عن التطرف؟ لا.. فأي عالم مسلم يأبى العوج الفكري والانحرافات النفسية، إن ذات الشاب مختل المزاج، فصاحب الرسالة ما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وهؤلاء الشباب ما خُيروا بين أمرين إلا اختاروا أصعبهما، والإسلام يقدم الدليل ويؤخر العنف، فما يلجأ إليه إلا كارها.. أما أولئك الشباب فقد نظروا إلى الأسلوب الذي عُوملوا به، واستبيحت به حرمتهم، فلم يروا أمامهم إلا السلاح). (العربي عدد يناير ١٩٨٢م).

وبهذه الكلمات القليلة فسر الأستاذ الغزالي الظاهرة وبين أسبابها.

مخاطر العنف على حركة الجهاد الإسلامي:

ولاشك أن هذه الحركات الغوغائية البائسة التي يقوم بها بعض المتطرفين بين آن وآخر، تعطي السلطات السياسية التي تريد بالمسلمين شرا الدليل المادي لاستباحة حرمات المسلمين وتقتيلهم وتشريدهم، وبذلك يكون هؤلاء أعظم عونا للسلطات الجائرة، بل إن كثيرا من هذه السلطات تفتعل هي أحيانا مثل هذه الأعمال وتنسبها إلى الجماعات الإسلامية، فيكون هذا مبررا لاستئصال النبت الإسلامي الجديد.

١١ - هل تتعارض المصلحة الشرعية والنص الشرعي أحيانا ؟!

قد يقابل العنوان السابق باستهجان أو استغراب ممن لم يخبر تجدد الوقائع واختلاف الأحوال، ويظن أن النص الشرعي لا يخالف المصلحة الشرعية مطلقا، وهذا خطأ لأن المصلحة الشرعية ثابتة بنصوص وقواعد شرعية

أيضا. . أعني قد يتصور بليد الذهن وقاصر العلم أن نصا ما يجب أن يجري على إطلاقه، وفي كل الظروف والأحوال، وهذا خطأ، وذلك أن النصوص الشرعية مطلقة من حيث الزمان حقا، بمعنى أن ما شرعه الله في كتابه وعلى لسان رسوله (ﷺ) هو تشريعه أبدا وإلى قيام الساعة، ولكن الله سبحانه وتعالى قد وضع قواعد وضوابط للتنفيذ والامتثال، كقوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ ومعلوم أن وسع فلان غير وسع غيره ولذلك فالنص العام ينزل منازله بحسب الأفراد لا بحسب العموم، ولذلك جاءت الشريعة باستثناءات كثيرة للمضطر والمريض والمسافر والأعرج والأعمى، وذلك في الطعام والشراب والقتال، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعلان الإسلام، وقول كلمة الكفر، والصلاة والصيام، وسائر العبادات، وهذا معلوم مشهور، ولكن ما يقع الخلاف فيه من أهل العلم هو تغليب المصلحة الشرعية على تنفيذ نص شرعي، والسبب في الخلاف حول هذه القضية: أن المصلحة الشرعية لا يراها الناس بمنظور واحد، وكذلك الاختلاط وامتزاج المصالح الخاصة أحيانا بالمصالح الشرعية، وكذلك لقصور الإنسان عن معرفة ما يصلح له في الحقيقة مما لا يصلح له. . وعلى كل حال فالأخذ بالمصالح الشرعية من منهج الإسلام ومن أصوله الثابتة، ففي السنة غلب رسول الله ﷺ جوانب المصلحة التي رآها، فقد شاور الصحابة في شأن أسرى بدر، وكلهم أشار بما يرى أنه المصلحة للمسلمين، كما أشار عمر بأن يقتل الأسرى حتى لا يقوم للكفار قائمة بعد، وهذه مصلحة شرعية، وأشار أبو بكر وغيره بالإبقاء على حياتهم وأخذ فدية مالية منه ليتقوى بها المسلمون، ولعل الله أن يهدي الكفار، وهذه مصالح شرعية، وقد أخذ الرسول بما رآه مصلحة في نظره، وأقره الله على ذلك، وإن كان قد وجهه سبحانه أن المصلحة الحقيقية في الرأي الأول، وكذلك ترك رسول الله ﷺ قتل المنافقين الذين أعلنوا الكفر كعبد الله ابن أبي والمستهزئين بالله ورسوله الذين نزل فيه قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾، ومع ذلك لم يطبق الرسول ﷺ فيهم حكم المرتد، وذلك خوفا من أن يتكلم الناس أن محمدا يقتل أصحابه، كما جاء في حديث الصحيحين، وهذا ترك لإعمال نص وهو قوله ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**» [رواه البخاري]، أخذاً بتلك

المصلحة الشرعية، أو بالأحرى خوف مفسدة شرعية، وهي تكلم الناس أن محمدا يقتل أصحابه، وفي هذا تنفير عن الدين.

وكذلك ترك رسول الله ﷺ تنفيذ حد القذف الثابت في القرآن على عبد الله بن أبي بن سلول رأس الإفك ورأس المنافقين، وذلك حذرا من إعلانه الردة وتمزيق جماعة المسلمين وانتقاض أحوال المدينة على الرسول، إذ كان عبد الله بن أبي زعيما مسموعا مطاعا في قومه، ومازال كذلك حتى وفاته.

وأما في حياة الصحابة رضوان الله عليهم، فقد أخذوا بكثير من المصالح الشرعية، ومن أشهر ذلك ما سنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مسألة الخراج، وهي حبس الأرض المغنومة من الكفار على بيت المسلمين أبدا، وفرض ضريبة عليها وهي عشر ما يخرج منها ليكون في مصالح المسلمين العامة، وليس عند عمر في هذه القضية نص يحدد هذا الأمر، وإنما كان ذلك اجتهادا، ولاشك أنه اجتهاد صائب استفاد المسلمون منه طيلة حياة الدولة الإسلامية في عصور القوة والفتح، إذ كان دخل الخراج هو أعظم موارد بيت مال المسلمين، والذي توقف عليه إعداد الجيوش وإمداد المسلمين بالقوة العسكرية.

والحق أن الأخذ بالمصالح الشرعية عند الصحابة لم يكن فقط في قضايا السياسات والمعاملات، بل تعدى ذلك إلى قضايا العبادات، فقد أفتى عمر بن الخطاب وابن مسعود بوجوب ترك الصلاة للجنب الذي لم يجد ماء يغتسل به، وأنه يجوز له الصلاة ولو لم يجد الماء شهرا، وقد أفتوا بذلك خوفا من أن يتهاون الناس في غسل الجنابة، كما قال عمر: (يوشك إن أحللنا لهم ذلك أن يتركوا الغسل إذا برد عليهم الماء)، وكذلك أفتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بوجوب إفراد الحج خوفا من هجران الناس للبيت في غير موسم الحج، وحملا للناس على أن يعتمروا في غير وقت الحج، وكذلك صلى عثمان رضي الله عنه بالناس في الحج الظهر والعصر أربعا خوفا من أن يظن الأعراب أن صلاة الظهر والعصر والعشاء ركعتين فقط.. وهذا قليل من كثير من اجتهاد الصحابة -رضوان الله عليهم- في الأخذ بالمصالح الشرعية في أمور العبادات،

فضلا عن أمور المعاملات والسياسات.

١٢ - رأي الإمام ابن تيمية في تكفير المسلم

قال الإمام ابن تيمية: " ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله، ولا بخطأ أخطأ فيه، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة، فإن الله تعالى قال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾، وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء وغفر للمؤمنين خطأهم.

والخوارج المارقون، الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - أحد الخلفاء الراشدين - واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولم يكفرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم، ولم يقاتلهم علي رضي الله عنه حتى سفكوا الدم الحرام، وانحازوا على أموال المسلمين، فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم، لا على أنهم كفار، ولهذا لم يسب حريمهم، ولم يغنم أموالهم.

وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا، مع أمر الله رسوله ﷺ بقتالهم، فكيف بطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم؟ فلا يحل لواحدة من هذه الطوائف أن تكفر الأخرى، ولا تستحل دمها ومالها، وإن كانت فيها بدعة محققة، فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة أيضا؟.

والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض، لا تحل إلا بإذن الله ورسوله.. قال النبي ﷺ لما خطبهم في حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا وفي شهركم هذا**» [متفق عليه]، وقال ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه**» [رواه مسلم].

وقال: «**لاترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض**» [متفق عليه]،

وقال: «**إذا قال المسلم لأخيه يا كافر! فقد باء بها أحدهما**» [متفق عليه]، وهذه الأحاديث كلها في الصحاح.

وإذا كان المسلم متأولا في القتال أو التكفير لم يُكفر بذلك، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن حاطب بن أبي بلتعة: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**إنه شهد بدرا، وما يدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**). **وهذا في الصحيحين.**

وكذلك ثبت في الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه قتل رجلا بعد ما قال: لا إله إلا الله، وعظم النبي ﷺ ذلك لما أخبره، وقال: «**يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ وكرر ذلك عليه حتى قال أسامة: تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ**»، ومع هذا لم يوجب عليه قودا، ولا دية، ولا كفارة، لأنه كان متأولا، ظن جواز قتل ذلك القائل، لظنه أنه قالها تعوذا.

فهكذا السلف قاتل بعضهم بعضا من أهل الجمل وصفين ونحوهم، وكلهم مسلمون مؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ فقد بين الله تعالى أنهم مع اقتتالهم، وبغي بعضهم على بعض أخوة مؤمنون، وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل.

ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضا موالاة الدين، لا يعادون كمعاداة الكفار، فيقبل بعضهم شهادة بعض، ويأخذ بعضهم العلم عن بعض، ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك.

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ، سأل ربه: «**ألا يُهلك أمته بسنة عامة، فأعطاه ذلك، وسأله ألا يسلط عليهم عدوا من غيرهم، فأعطاه ذلك، وسأله ألا يجعل بأسهم بينهم، فلم يُعطه ذلك**». وأخبر أن الله لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم يغلبهم كلهم حتى يكون بعضهم يقتل بعضا، وبعضهم يسبي بعضا.

وثبت في الصحيحين لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال: (أعوذ بوجهك) ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: (أعوذ بوجهك) ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ وقال ﷺ: «**هاتان أهون**».

هذا مع أن الله أمر بالجماعة والائتلاف، ونهى عن البدعة والاختلاف، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾، وقال النبي ﷺ: «**يد الله على الجماعة**» [رواه الترمذي وابن حبان]، وقال: «**الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد**» [رواه أحمد والترمذي وغيرهما].

١٣ - من أقوال الإمام ابن تيمية رحمه الله في السياسة الشرعية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال رحمه الله ورضي الله عنه في كتابة الحسبة: "معلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتمامه بالجهاد هو من أعظم المعروف الذي أمرنا به، ولهذا قيل: ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر، وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات فالواجبات والمستحبات، لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة، إذ بهذا بُعِثت الرسل ونزلت الكتب، فالله لا يحب الفساد، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح.

وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وذم المفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن بما أمر الله به، وإن كان في ترك واجب وفعل محرم، إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباده، وليس عليه هداهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضلال، وذلك يكون تارة بالقلب وتارة باللسان وتارة باليد، فأما القلب فيجب بكل حال إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبي ﷺ: «**وذلك أدنى - أو أضعف - الإيمان**» [رواه مسلم]، وقال: «**ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**» [رواه ابن حبان والطبراني في الكبير]،

وقيل لابن مسعود: من ميت الأحياء؟ فقال: الذي لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، وهذا هو المفتون الموصوف في حديث حذيفة بن اليمان.

وهنا يغلط فريقان من الناس: فريق يترك ما يجب من الأمر والنهي تأويلا لهذه الآية، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته: إنكم تعدون هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وأنكم تضعونها في غير موضعها، وإني سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه**» [رواه أحمد]. والفريق الثاني من يريد أن يأمر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقا من غير فقه وحلم وصبر ونظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح، وما يقدر عليه وما لا يقدر، كما في حديث أبي ثعلبة الخشني: سألت عنها رسول الله ﷺ قال: «**بل ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمرا لا يدام لك به فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام، فإن من ورائك أيام الصبر، والصبر فيهن على مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن كأجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله**» [رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك]. فيأتي بالأمر والنهي معتقدا أنه مطيع في ذلك لله ورسوله، وهو معتد في حدوده، كما انتصب كثير من أهل البدع والأهواء كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهي والجهاد على ذلك، وكان فساده، أعظم من صلاحه، ولهذا أمر النبي ﷺ بالصبر على جور الأمة، ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة، وقال: «**أدوا إليهم حقوقهم، وسلوا الله من حقوقكم**» وقد بسطنا القول في ذلك في غير هذا الموضع.

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة لزوم الجماعة، وترك قتال الأئمة، وترك القتال في الفتنة، وأما أهل الأهواء كالمعتزلة فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم، ويجعل المعتزلة أصول دينهم خمسة: التوحيد الذي هو سلب الصفات، والعدل الذي هو التكذيب بالقدر، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي منه قتال الأئمة.. وقد تكلمت على قتال الأئمة في غير هذا الموضع، وجماع ذلك داخل القاعدة

العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد وتعارضت المصالح والمفاسد، فإن الأمر والنهي وإن كان تضمنا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأموراً به، بل يكون محرما إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته، لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيرا بها وبدلالتها على الأحكام، وعلى هذا إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرقون بينهما، بل إما أن يفعلوهما جميعاً أو يتركوهما جميعاً، لم يجز أن يؤمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر، بل ينظر فإن كان المعروف أكثر أُمر به، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر، ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه، بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله، وزوال فعل الحسنات، وإن كان المنكر أغلب نُهي عنه، وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمراً بمنكر وسعيا في معصية الله ورسوله، وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما، فتارة يصلح الأمر، وتارة يصلح النهي، وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهي، حيث كان المعروف والمنكر متلازمين، وذلك في الأمور المعينة الواقعة، وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقا وينهى عن المنكر مطلقا، وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة يؤمر بمعروفها ويُنهى عن منكرها، ويحمد محمودها ويذم مذمومها، بحيث لا يتضمن الأمر بمعروف فوات أكثر منه أو حصول منكر فوقه، ولا يتضمن النهي عن المنكر حصول أنكر منه أو فوات معروف أرجح منه، وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن حتى يتبين له الحق، فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية، وإذا تركها كان عاصيا، فترك الأمر الواجب معصية، وفعل ما نهى عنه من الأمر معصية، وهذا باب واسع ولا حول ولا قوة إلا بالله [الحسبة في الإسلام ص٤٣، ٤٢، ٤١]. انتهى منه بلفظه.

الباب الثالث
شبهات وردود

١ - هل كان محمد بن عبد الوهاب خارجا على الدولة العثمانية؟

نشرت مجلة المجتمع بعددها رقم ٤٧٢ الصادر في ١٧ ربيع الثاني سنة ١٤٠٠ الموافق ٤/٣/١٩٨٠م مقالا بعنوان: (رجل لكل العصور.. محمد عبد الوهاب). وقد نسب كاتب المقال إلى محمد بن عبد الوهاب خروجه على السلطان المسلم في وقته، حيث يقول الكاتب: (ومحمد بن عبد الوهاب أبرز رجال التاريخ المعاصر المعروفين بالخروج على السلطان المنحرف عن منهج الله، سواء كان انحرافه جزئيا أم كليا...) ا.هـ.

ونسب الكاتب هذا الذي مدح به ابن عبد الوهاب في زعمه إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما وابن الزبير وسعيد بن جبير، وذلك من الأقدمين، وقد أثنى أيضا بهذا وبغيره على طائفة من علماء الدعوة المحدثين كالأستاذ حسن البنا - رحمه الله - وسيد قطب، والأستاذ المودودي - رحمهم الله جميعا-.

وحيث إن هذا الأمر الذي مدح به الكاتب هؤلاء الرجال -في زعمه- يخالف الحقيقة أولا، وكذلك يمس عقيدة من عقائد أهل السنة والجماعة ثانيا، وهي أن السلطان المسلم لا يخرج عليه بالسيف مطلقا حتى لا يقع السيف بين المسلمين، فإنني قد رأيت من واجبي إنصافا للحق ووضعا للأمور في نصابها، ودفاعا عن هؤلاء الذين ينسبون إلى الخروج على الأمة -وهم من ذلك براء- أن أذكر الموقف الحقيقي لهؤلاء، وأن أدافع عن عقيدة من عقائد أهل السنة والجماعة يراد الآن تشويهها وتغييرها، وذلك لدفع الشباب المؤمن إلى محاربة بني جلدتهم من المسلمين، وبالتالي استنزاف طاقاتهم وجهودهم، وتمزيق

جهادهم، وتفشيل دعوتهم، ووضعهم في كارثة بعد كارثة، وذلك لتظل الأمة ضعيفة متناحرة، ويفرح أعداؤها بعد ذلك، ويتمكنون من أرضها وديارها.

وسواء كان الذين يكتبون هذه المقالات يعرفون الهدف النهائي من وراء دعوتهم المنحرفة أو لا يعرفون، فإنهم على كل حال يسهمون في دفع عجلة الإسلام إلى الوراء.

الإمام محمد بن عبد الوهاب داع ملتزم بالمنهج السلفي:

فأما الإمام محمد بن عبد الوهاب الذي جعله صاحب المقال الآنف أبرز رجال التاريخ المعاصر المعروفين بالخروج على السلطان المنحرف عن منهج الله (حسب زعم القائل)، فإنه لم يكن كذلك بتاتا، فقد بدأ دعوته -كما يعلم الجميع- في البصرة وأخرج منها، ثم حريملة بلدته وأخرج منها، ثم في الدرعية التي احتضنه فيها أميرها محمد بن سعود، وعاهده هذا الأمير على نصر دعوته، وأن يجعل أسيافه في خدمة رسالته، فأين وكيف كان محمد بن عبد الوهاب في كل ذلك خارجا على السلطان؟! ولكن ما كادت دعوة ابن عبد الوهاب في التوحيد تنتشر حتى عاداه وعادى إمارة ابن سعود الأمراء حوله فبدأوه هم بالحرب والعداوة، فحاربهم دفاعا عن نفسه.. فهل كان في هذا خارجا على السلطان؟ ومعلوم أن الإمارات والمشيخات التي حاربت ابن عبد الوهاب كانت إمارات مستقلة، كأنها دول مستقلة في قلب هذه الجزيرة.

وأما ما زعمه الكاتب أيضا من أن محمد بن عبد الوهاب خرج على السلطان العثماني عبد الحميد خان الأول وسليم خان الثالث، فهذا كذب محض واختلاق، فمعلوم لكل من قرأ شيئا من التاريخ أن الأشراف في مكة كانوا هم نواب السلطان العثماني في بلاد الحجاز، وهؤلاء الأشراف ما كادوا يسمعون بدعوة ابن عبد الوهاب في الجزيرة حتى خافوا على أنفسهم منها، ورأوا أنها ستسلبهم الإتاوات والسحت الذي يأخذونه من القبور المقامة في بلاد الحجاز، وعلموا أن من دعوة بن عبد الوهاب هدم القبور وتحريم الذبح لها والصلاة عندها، ولذلك سيروا جيوشهم الجيش تلو الجيش يحارب ابن عبد الوهاب في نجد، ولم يقم الشيخ بأكثر من رد العدوان عن نفسه وعن دعوته..

فأين كان في هذا خارجا على السلطان!؟ ومع ذلك أرسل الشيخ محمد عبد الوهاب بوفد إلى الشريف أحمد بن سعيد شريف مكة، وكان على رأس هذا الوفد الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الحصين، وكان مع هذا الوفد هدايا وتحف كثيرة، وكتب الشيخ ابن عبد الوهاب مع هذا الوفد كتابا للشريف أحمد قال فيه بالنص: (المعروض لديك أدام الله فضل نعمه عليك حضرة الشريف أحمد بن الشريف سعيد أعزه الله في الدارين، وأعز به دين جده سيد الثقلين أن الكتاب لما وصل إلى الخادم "يعني نفسه"، وتأمل ما فيه من الكلام الحسن رفع يديه بالدعاء إلى الله بتأييد الشريف لما كان قصده نصر الشريعة المحمدية ومن تبعها، وعداوة من خرج، وهذا هو الواجب على ولاة الأمور)، ثم يقول في ختام رسالته (فإذا كان الله سبحانه قد أخذ ميثاق الأنبياء إن أدركوا محمدا ﷺ على الإيمان به ونصرته، فكيف بنا يا أمته؟ فلابد من الإيمان به، ولابد من نصرته، لا يكفي أحدهما عن الآخر، وأحق الناس بذلك وأولاهم أهل البيت الذي بعثه الله منهم، وشرفهم على أهل الأرض به، وأحق أهل البيت بذلك من كان من ذريته ﷺ، وغير ذلك يعلم الشريف أعزه الله أن غلمانك من جملة الخدام، ثم أنتم في حفظ الله وحسن رعايته [انظر حياة محمد بن عبد الوهاب ص٣٢٢].

فإذا كان الشيخ يجعل نفسه من جملة خدام الأشراف، فكيف يكون خارجاً على السلطان؟!.

ومع هذا فقد جاء من الأشراف بعد ذلك من جمع العلماء من أهل السوء الذين أفتوا بكفر محمد بن عبد الوهاب وخروجه على الناس بدين جديد، وعدم جواز تمكين أتباعه من حج البيت، ولذلك مُنع أهل نجد من أهل الدعوة من الحج، ثم جهز الشريف غالب بعد ذلك جيشا كثيفا لحرب الشيخ ابن عبد الوهاب في نجد، ولما لم يستطيعوا أن يبلغوا غايتهم في إخماد الدعوة استعانوا بالسلطان العثماني الذي تباطأ في هذا الأمر، ثم أوعز إلى محمد علي والي مصر وأمره بقتال من سماهم بالوهابيين، وذلك عندما أفتى له علماء السوء أنهم كفار مارقون.. ومعلوم أيضا أن محمد علي جهز عدة جيوش لحرب أتباع

الشيخ ابن عبد الوهاب، وكان ذلك بعد وفاة الشيخ. . فأين كان الشيخ ابن عبد الوهاب في كل ذلك خارجا على السلطان؟!.

هذا ومع أن الدولة العثمانية حاربت أتباع ابن عبد الوهاب بدعوى أنهم كفار عن طريق محمد علي باشا والي مصر، إلا أن أهل نجد والأمراء من أتباع الشيخ ابن عبد الوهاب لم يرفعوا لهم يدا من طاعة فيما يطيعون فيه الله ورسوله، وقد كتب الأمير عبد الله بن سعود مجموعة من الرسائل إلى محمد علي باشا والي مصر والسلطان محمود الغازي العثماني، يعلن في كل واحدة منها أنه عبد من عبيدهم،وأنهم ما قاموا بدعوتهم في نجد إلا إصلاحا لأهلها، وإبعادا لهم عن الشرك والخرافة، وإقامة للصلاة والزكاة فيهم، وإنهم من جملة الأتباع والخدام للباب العالي العثماني ولواليه محمد علي باشا.

وهذه فصول من الرسالة التي أرسلها الأمير عبد الله ابن سعود إلى السلطان محمود الغازي:

(بسم الله الرحمن الرحيم. . الحمد لله الذي جعل للداء العضال دواء، وحسم وألفى نيات الأعداء السيئة بالصلح والصلاح، اللذين كانا أول مانع من الوقوع في المهالك المهلكة، والصلاة والسلام على أشرف خلقه وأصفيائه محمد خاتم أنبيائه الذي بلغ أحسن أنبائه وبعد: فإني أطوف حول الكعبة آمال العبيد التي هي أعتاب دولة مولانا قطب دائرة الوجود، وروح جسد العالم الموجود، وملاذ الحاجز والبادي، ومحط رحال آمال الرائح والغادي، علم الأعلام، إنسان عين أعيان الأنام، من نام في ظل عدله كل خائف، ولجأ إلى حماه كل عاقل عارف،، ذي الأخلاق هي أرق من نسيم الصبا، مع الهيبة التي تحل من أجله الحبا، سلطان البرين، وخاقان البحرين، الذي برز بطلعته طالع السمو، السلطان ابن السلطان، سيدنا السلطان محمود الغازي، وأقدم عريضتي هذه المشتملة على الضراعة، وهي أنه لما كان عبدكم هذا من المسلمين الذين لا ينفكون عن أداء شروط الإسلام، التي هي إعلاء كلمة الشهادة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج بيت الله الحرام، ومنع الظلمة من الإضرار بالناس كف أيديهم) ا.هـ. ثم بعد ذلك سرد الأمير عبد الله بن سعود كيف أن

أشراف مكة افتروا عليه عند السلطان العثماني لقتاله، وأنهم كتبوا عرائض مزورة إلى السلطات باسم الأمير سعود بن عبد العزيز بن محمد تعلن العصيان، ورفض الحجاج الذين يأتون من الآفاق، ويتابع الأمير رسالته قائلا: (وعلى العموم فإن كل ما نسب إلى عبدكم هذا من أمور الطغيان والخروج كلها ناشيء عن خدعة الشريف المشار إليه "دسيسة")، ثم يقول في ختام رسالته: (قدمت عريضتي هذه التي هي أشهر من المثل السائر مصداقا لصداقتي على أن لا أنفك عن قيد الإطاعة، وأن أعد من عبيدكم القائمين بجميع خدمات الدولة العليا، فهي برهان قاطع يشهد بأني قائم بالدعوات في الأعياد والمحافل وعلى المنابر بدوام عمركم ودولتكم). [انظر الدولة السعودية الأولى لعبد الرحيم عبد الرحيم ص٣٩٢-٣٩٣].

وأما كتاب الأمير عبد الله بن سعود أيضا إلى محمد علي باشا والي مصر، فقد كان وافيا مظهرا أن أتباع ابن عبد الوهاب لم يكونوا خوارج، فقد قال في كتابه بعد ديباجة طويلة ومدح لمحمد علي.

(وبعد فغير خاف على جنابكم حقيقة ما نحن عليه، وما ندعو الناس إليه: أننا جاهدنا الأعراب حتى أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وألزمناهم صيام رمضان وحج بيت الله الحرام: ومنعناهم عن ظلم العباد، والسعي في الأرض بالفساد، وعن قطع السبيل والتعرض لحجاج بيت الله الحرام من الوافدين، فبعد ذلك شكوا إلى والي مكة غالب ورمونا بالكذب والبهتان، وخرجونا (أي اتهمونا بأننا خوارج)، وبدعونا، وقالوا فينا ما نحن منه براء، فسير علينا بأجناد وعدد وعدة فأعجزه الله وله الحمد والمنة فقاتلناهم دفعا لشره، ومقابلة لفعله القبيح ومكره، فرده الله بغيظه لم ينل خيرا، واستولينا على الحرمين الشريفين وجدة وينبع، فلما تمكنا من أوطانه فعلنا معه كل جميل، وأقررناه على ما كان تحت يده من البلدان، ووجهنا مدخول البنادر إليه، وأكرمناه غاية الإكرام توقيرا للنسب الشريف، وتعظيما للبلد الحرام).. ثم يقول بعد أن بين مكر الشريف بهم وتزويره رسائل إلى السلطان العثماني باسمهم: (فعلمنا أنه مطلوب الدولة العلية صيانة الممالك الإسلامية، لاسيما الأقطار الحجازية، ومن أعظمها صيانة

الحرمين الشريفين، والذود عن حماها الأحمى بلا ريب.. ومنها الدعاء بحضرة سلطان السلاطين - نصره الله تعالى - على المنابر، وكف يد الأذى عن الوارد إلى الممالك المحروسة والصادر).

فإذا كانت هذه هي صورة العلاقات القائمة بين أتباع الشيخ ابن عبد الوهاب وبين الدولة العثمانية والوالي محمد علي باشا فكيف يقال بعد ذلك أن ابن عبد الوهاب خارج على السلطان العثماني وأن هذه هي عقيدة السلف؟!

٢ - هل أمر حسن البنا بالخروج على حكم فاروق ؟

فقد ذكر الأستاذ حسن البنا عن نفسه في كتابه (مذكرات الدعوة والداعية) ص٧٨ أنه في فترة وجوده بالإسماعيلية وشى به بعض الناس لدى السلطة واتهموه بالعيب في الذات الملكية، وأنه جرى معه تحقيق في هذه التهمة وثبت بطلانها وأنه كان يملي على طلبته موضوعات يثني فيها على شجاعة الملك ويعدد مآثره، كما أنه شجع العمال يوم مرور الملك بالإسماعيلية إلى تحيته، وقال لهم: (لازم تذهبوا إلى الأرصفة وتحيوا الملك حتى يفهم الأجانب في هذا البلد أننا نحترم ملكنا ونحبه فيزيد احترامنا عندهم) ا.هـ.

وذكر البنا أيضا في مذكراته (ص ٢٣٥ و ٢٣٧) أن جماعة الإخوان المسلمين اشتركت بعشرين ألف رجل مع جماعة الشبان المسلمين في احتفال تنصيب الملك فاروق ملكا على مصر بعد بلوغه الثامنة عشرة من عمره ورفع الوصاية عنه، وأنهم هتفوا بالبيعة للملك العظيم ورددوا شعارات إسلامية.

وقد كتبت بعد ذلك مجلة (الإخوان المسلمون) مقالات كثيرة تدعو الملك فاروق إلى أن يكون خليفة للمسلمين، وكان كثير من هذه المقالات بقلم الأستاذ البنا نفسه، وبعضها بقلم الأستاذ صالح عشماوي ومحمد الشافعي، وقد كتب الأستاذ البنا مقالا بعنوان: (إلى مقام صاحب الجلالة الملك فاروق الأول) ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٧٥ ومقالا بعنوان: (أيها الإخوان تجهزوا) يقول فيه: (وإن لنا في جلالة الملك المسلم أيده الله أملا محققا) وكتب مقالا آخر بعنوان: (ملك يدعو وشعب يجيب - إلى جلالة الملك الصالح فاروق الأول من الإخوان المسلمين)، وكل هذه المقالات داعية للملك فاروق أن يتبنى قضية

الإسلام، وأن يكون قائدا للأمة وخليفة للمسلمين، ومع أن الاحتفالات التي كانت تقام للملك بمناسبات كثيرة، كان يتخللها أنواع من الفساد والرقص وشرب الخمر، فإن الإخوان في ذلك الوقت شجبوا ذلك ولم يؤيدوه، واستمروا على سياستهم في دعوة الملك فاروق إلى الإسلام، وتهيئة المناخ له ليتخذ الطريق إليه مع كتاب: (الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصرية ١٩٢٨ - ١٩٤٨) للدكتور زكريا سليمان بيومي، يقول فيه في ص٢٠٩: (وجاء زواج الملك سنة ١٩٣٨ ليحدث ما يعكر صفو العلاقات بين جماعة الإخوان والملك، فقد اعتكفت عن المشاركة في حفل الزواج لما حدث به من اختلاط ورقص وخمور في وقت ينادونه فيه بأمير المؤمنين، وألقيت اللوم في ذلك على الشيخ المراغي، وطالبته بالحرص على اللقب، وحض الملك والحكومة على تطبيق شريعة الإسلام، ولكن الجماعة مع ذلك أعلنت عن عدم تخليها عن تأييد الملك والسعي معه لتحقيق أمنية الخلافة) انتهى.

وقد استمر هذا الولاء من جانب جماعة (الإخوان المسلمين) ومؤسسها حسن البنا للحكم في مصر بالرغم من عدم الاستجابة الفعلية من القصر للنداءات المتكررة بحمل راية الإسلام وإعلان خلافته في الأرض.. أقول استمر هذا إلى مقتل الأستاذ حسن البنا.

فقد كتب الأستاذ حسن البنا رسالته المشهورة (نحو النور) في رجب سنة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وكذلك نشرت جريدة (الإخوان المسلمون) القرار الذي أصدرته جماعة: (شباب محمد) - وهي جماعة منشقة عن الإخوان - وقد دعت في هذا القرار الجماعات الإسلامية كافة والأزهر لمبايعة الملك فاروق بالخلافة، وطالبته بالإعداد للجهاد والدعوة (العدد ٧٣ في ٨ شوال سنة ١٣٦٤هـ الموافق ١٤/٩/١٩٤٥).

وفي رسالة الأستاذ البنا رحمه الله (نحو النور) التي هي بمثابة خطاب مطول أرسله إلى الملك فاروق، وكذلك إلى مصطفى النحاس وبقية الزعماء المصريين، قال الأستاذ البنا: (حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق: السلام

عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: فإنما حملنا على التقدم بهذه الرسالة إلى مقامكم الرفيع رغبة أكيدة في توجيه الأمة التي استرعاكم الله أمرها، ووكل إليكم شأنها (في عهدها الجديد) توجيها صالحا تقيمها على أفضل المسالك.. ولسنا نبغي من وراء ذلك شيئا، إلا أن نكون قد أدينا الواجب وتقدمنا بالنصيحة.

يا صاحب الجلالة إن الله وكل إليكم أمر هذه الأمة، وجعل مصالحها ومستقبلها أمانة لديكم ووديعة عندكم، وأنتم مسؤولون عن ذلك كله بين يدي الله تبارك وتعالى - (انظر رسالة نحو النور ص١٦٣ من مجموعة رسائل الشهيد حسن البنا).

وقال أيضا في هذه الرسالة مخاطبا الملك فاروق: (فكونوا أول من يتقدم باسم رسول الله ﷺ بقارورة الدواء من طب القرآن لاستنقاذ العالم المعذب المريض) ص١٩١

وقال أيضا: (وبعد فهذه رسالة الإخوان المسلمين نتقدم بها، وإنا لنضع أنفسنا ومواهبنا وكل ما نملك تحت تصرف أية هيئة أو حكومة تريد أن تخطو بأمة الإسلام نحو الرقي والتقدم، نجيب الدعاء ونكون الفداء، ونرجو بذلك أن نكون قد أدينا أمانتنا وقلنا كلمتنا، والدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم..).

وبعد فهذا موضوع يطول، وفيما سردناه كفاية وبيان، ورد على من زعم أن حسن البنا كان بطلا من أبطال الخروج على الحكام، حيث يقول في المقال الذي نحن بصدد الرد عليه: (كان محمد بن عبد الوهاب مجددا بمعنى الكلمة.. فهو بطل، كما أن حسن البنا بطل). ا.هـ.

ونحن نعتقد حقا أن محمد بن عبد الوهاب كان مجددا وبطلا أيضا، ولكنه لم يخرج على السلطان المسلم كما زعم كاتب المقال، وكذلك نعتقد أن حسن البنا بطل، ولكن ليس على غرار البطولة التي أراد صاحب المقال أن يخلعها عليه، وإنما بطولة الدعوة إلى الله بالحسنى والكلمة الطيبة.

الباب الرابع
الساحة الكويتية والتطرف والعنف

الساحة الكويتية مثال رائع لمن يريد أن يعرف المدى الذي يمكن أن تصنعه الدعوة إلى الله وفق السياسة الشرعية، فعلى مدى عشر سنوات فقط من بدء الدعوة الفعلية في الساحة الكويتية، كان معظم الشباب قد توجه إلى المساجد، وكانت الفتيات اللاتي احتفلن بحرق العباءة وغطاء الوجه في عام ١٩٥٧م، وذلك بجمع هذه العباءات في ساحة مدرسة ثانوية وحرقها وسط مهرجان يمثل قطع الصلة بالماضي، والانطلاق إلى عصر جديد بعيد عن التقيد بأخلاق الإسلام وعاداته.. هؤلاء الفتيات عُدن من جديد للباس الإسلام وأخلاقه، وبدأ ذلك بفتيات الجامعة.. اللاتي كن قد خرجن يوماً ما في مظاهرة يطالبن برفض التعليم الذي يستقل فيه الفتيان والفتيات بكلياتهم، ويطالبن بتعليم مختلط.. لقد كانت الدعوة الإسلامية التي تتبع السياسة الشرعية هي العامل الأول في هذا التحول المفاجىء، والفضل لله وحده سبحانه وتعالى.. ولم تكن القرارات الفوقية ولا القوانين التعسفية هي السبب في هذا الانقلاب الفكري، والتحول الثوري في العقليات والمفاهيم، علماً بأن هذا جميعه يحدث في بلد الدخل الفردي فيه هو أعلى دخل في العالم، ويمتلك فيه الأبناء والبنات أعظم حرية أسرية ليست موجودة في أي مكان في الدول العربية، وفي بلد متفتح على العالم أجمع، يسافر أبناؤه وبناته وشيبه وشبانه إلى كل دول العالم تقريبا، ويكاد ينزح عنه جميع أهله في فترة الصيف، حيث يجولون العالم شرقاً وغرباً، وهو سوق لكل أنواع المنتجات في العالم أجمع، وبالتالي هو سوق لكل الأفكار والعقائد والسياسات، ومع ذلك تنجح فيه الدعوة الإسلامية هذا النجاح الذي

يكاد أن يكون منقطع النظير والشبيه، وكل ذلك في إطار دعوة سلمية علمية تعليمية دون أدنى إكراه أو ابتزاز.

لاشك أن هذا يرشدنا إلى أنه لو خُليَ بين الناس وبين الاختيار، وأعطينا الحرية للعقائد والأفكار، فإن دعوة الإسلام لا تقوم لها دعوة، ولا تنافسها عقيدة..

ومن أجل ذلك كان حرصنا أن تبقى هذه الساحة الكويتية مكاناً آمنا لينمو الإسلام فيها النمو الطبيعي، وتتشربه نفوس أبنائه، ويتمثلونه بفطرتهم السليمة.

ولكننا كنا نصطدم بين الحين والآخر بما يعكر صفو هذا الهدوء، وبمن يريد أن يعتسف الأمور، ويقطع الطريق على ركب الدعوة الإسلامية السليمة.

فبعد قيام الثورة الإيرانية واستلامها الحكم في إيران، ظن بعض الذين لا يقرأون خلفيات الأحداث، ولا يطالعون عبر التاريخ، ظنوا أن الثورة الإيرانية إسلامية التوجه، وأنها الحليف الطبيعي لهم ضد الأنظمة التي لا تحكم بالإسلام، وأن الوقت قد حان لتفجير العالم الإسلامي من داخله لإقامة الخلافة الإسلامية.. كان هذا ظن بعض الناس في الأرض الإسلامية العربية، وقامت من أجل ذلك حركات وانتفاضات في كل بلد عربي تقريبا.

وسارع مستشرقون وعملاء لروسيا وأمريكا وإسرائيل يعقدون ندوات ويدعون لها شخصيات إسلامية مرموقة لمناقشة مستقبل الإسلام.. المهم أنه عقد ما بين سنة ١٩٨٠ و١٩٨٢ عدة مؤتمرات سرية وعلنية كلها تستهدف كيفية تفجير الثورة الإسلامية العالمية.

ففي شهر ديسمبر سنة ١٩٨١ نشرت مجلة (الأوبزيرفر البريطانية) مقالا جاء فيه:

"طار إلى لندن في نهاية الأسبوع الماضي ممثلو حركات إسلامية معارضة في عدة بلدان لعقد مؤتمر سري مدته ثلاثة أيام، يعتقد بأنه أول مؤتمر من نوعه يعقد على هذا المستوى.

ويشير المؤتمر إلى تطور في الانبعاث الذي يجتاح العالم الإسلامي، وذهب الممثلون إلى لندن لإعطاء إطار عمل تنظيمي واستراتيجية مشتركة إلى الحركة الكبيرة الواسعة النطاق للنشاط الإسلامي.

ورغم الجهود التي بذلت لإبقاء المؤتمر سريا، فإن من المعروف أنه ضم قادة جماعات وأحزاب معارضة إسلامية من غرب أفريقيا إلى الفلبين، ومن أفغانستان إلى تونس. ومن تلك البلدان حيث الحركات السرية الإسلامية أنشط، مثل مصر وسوريا والسودان والعراق، كانت بعض هذه الجماعات قد أقامت فعلا اتصالات فيما بينها، ويعتقد بأن مؤتمرات أصغر قد عقدت في مراكز أوروبية أخرى.

لكن مؤتمر لندن يوحي بظهور شيء أشبه بدولية إسلامية موجهة ضد الأنظمة الحاكمة في كثير من بلدان آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط، وهذه الجماعات لديها الكثير من الأمور المشتركة، وإن كانت همومها مختلفة، وأعضاؤها في كل بلد تقريبا من الشباب خاصة وبصورة غالبة، وهي تتركز في الجوامع والجامعات" ا.هـ (الوطن - الأربعاء ٢٣/ ١٢/ ١٩٨١)

وقبل هذا المؤتمر بشهرين تقريبا عقدت ندوة في أمريكا لمجموعة من المستشرقين والمهتمين بالدراسات الإسلامية، وكانت تحت عنوان (لماذا تتعثر حركات البعث الإسلامي؟)، وكانت النتيجة التي خلص لها المؤتمرون والذين كان فيهم عدد كبير من ممثلي الحركات والتنظيمات الإسلامية في العالم أن السبب في تأخر البعث الإسلامي أن الجماعات الإسلامية تهتم بقضايا هامشية كالتربية والتعليم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذلك تتشتت جهودها، وأن عليها إذا أرادت النجاح أن تحصر هدفها في دائرة واحدة من دوائر الصراع، وهو صراع الحكام فقط والوصول إلى السلطة السياسية، لأنه عن طريق الوصول إلى السلطة السياسية تتعدل كل القوانين والنظم، والعجيب أن هذا المؤتمر الاستشراقي العلني الذي عقد في أمريكا، والمؤتمر السري للتنظيمات الإسلامية السرية الذي عقد في لندن، قد توصلا إلى نتائج واحدة تقريبا، كان من أطرفها أن الاتحاد السوفيتي ليس عدوا للمسلمين، وإنما عدوهم فقط هو أمريكا!!.. أليس هذا من أعجب العجب؟!

ولا نستطيع بالطبع أن نقول إن كل الذين اجتمعوا في هذا المؤتمر، وشاركوا في تلك الندوات كانوا عملاء أو أعداء للإسلام، بل حتما كان منهم أناس مخلصون يحبون الخير لأمتهم، ولكن ذلك المؤتمر السري كان أكبر من

أن يعرف أبعاده الحقيقية معظم الذين شاركوا فيه، بل إن رجلا كسعيد رمضان، وهو الداعية المشهور زوج بنت الأستاذ البنا والذي يعيش في أوروبا منذ عام ١٩٥٤ تقريبا لم يعرف من وراء هذا المؤتمر؟ ولماذا انعقد؟ وعلى أي شيء انفض؟ حيث يقول كما نشرت عنه الاكسبريس الفرنسية:

"أقول لكم بكل صراحة: إنه في البداية لم يكن لدينا أي تحديد لسبب اجتماعنا، وحتى عندما افترقنا لم يكن الجواب قد أصبح واضحا.. وإن الوضع معقد جدا، وإنه لكذلك فعلا بالنسبة للإخوان المسلمين على الأقل بعد أن صارت جماعات متطرفة تتخطاهم بمدى تعصبها، مما يجعلها أشد عرضة للوقوع في فخ الأعداء" ا.هـ.

ولذلك أيضا لم يستطع سعيد رمضان تحديد هدف المجموعة التي قتلت السادات، حيث يقول في مقال الجريدة الفرنسية نفسه: (في لندن التقينا بالدكتور سعيد رمضان زوج ابنة حسن البنا، وأحد المفكرين الرئيسيين للإخوان، سألناه: "ما رأيك يا دكتور بقتلة السادات؟ هل كانوا على حق في عمليتهم؟" بعد تردد أجاب رمضان: "يجب أن تدركوا أن اسم مجموعة (التكفير والهجرة) ليس سوى أحد اختراعات السلطة، وهذا يدل على المدى الذي بوساطته يمكن خلق أخبار ومعلومات من لا شيء.. لقد تصرف أولئك الشباب التعساء بهدي من إيمانهم وعواطفهم.. ولكن من يؤكد لنا أن كل العملية لم تكن مدبرة من الأساس؟ إن الوضع معقد جدا ".) ا.هـ.

ويقول أيضا: "إن الوضع معقد على هذا الصعيد"، كما يقول الدكتور رمضان: وهذا يسمح باللعب بالريح الإسلامية التي تهب على العالم الإسلامي، وحرفها في هذا الاتجاه أو ذاك، "ففي كل عمل للحركة الإسلامية -يقول رمضان- يوجد رجال مخلصون وآخرون من المندسين".

وحتى نعلم ما هو الشعور العام الذي انفض عنه مؤتمر لندن الآنف الذكر، نقرأ هذه الفقرة الأخيرة من مقال الجريدة البريطانية:

"ولمواجهة الأخطار اتفق المؤتمرون المسلمون على سياسة زيادة الضغط على الحكومات العربية لإرغامها على تغيير نهجها، وكما قال أحد المؤتمرين

في مجلس خاص: (يجب أن نحطم الوضع الراهن قبل أن يحطمنا) ا.هـ.

ومرة ثانية أقول: لم نشك قط في أن عددا كبيرا من الذين يحضرون هذه المؤتمرات يكونون أناسا مخلصين محبين للخير، يريدون إعزاز أمتهم ونهضتها، ولكن حتما كان هناك مندسون يريدون قطع طريق النهضة الإسلامية، وقتل هذه الصحوة في مهدها، وتحويل مسارها لتخدم في النهاية الأهداف الشيعية في المنطقة، وتستخدم فقط من أجل محاربة النفود الأمريكي، وتكون النتيجة هي أن يكون المسلمون أداة فقط يُستغلون.. ثم يتسلم الراية غيرهم.

لقد كنا نتابع هذه الأحداث ونحن مشفقون على الشباب الإسلامي المتوجه إلى الإسلام بنفوس منشرحة وصدور ملؤها الخير والإشراق والرغبة في العمل لنهضة أمته وتوحيد صفوفها، وكنا نعلم ما يدبر لهم في الخفاء، ولذلك رفعنا أصواتنا بالتحذير من الانسياق وراء الكلمات البراقة، وطالبنا الشباب دائما بتحديد الهدف جيدا، واتخاذ الوسيلة الصالحة للوصول إلى أهدافه، وتقدير كل خطوة قبل أن يخطوها، واتباع السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، والحذر من الانزلاق نحو الفتنة التي تستأصل جهوده وتدمر ما بناه.

حصر دائرة الصراع

الحركة الإسلامية في حالة حرب مع أعدائها الفعليين بكل ما تعنيه كلمة الحرب من قتل وتشريد وتدمير ومذلة وتعذيب وإعدام. هذه حقيقة لا تنتطح فيها عنزان، وإذا كان الأمر كذلك. وهو قطعاً كذلك فمن باب أولى فهم قوانين الحرب أو مبادىء الحرب بتعبير أدق، ومن أهم مبادىء الحرب: تحديد العدو الفعلي، وبالتالي ضخ القوى ضده لتلافي بعثرتها وتشتيتها، ومن يدخل الحرب دون أن يحدد - بدقة - العدو والقوى الموالية والرديفة له، فإنما هو يدخل متاهة ومفازة تتبعثر فيها القوى والطاقات، ولا تتحقق منها نتيجة. إذن لابد - لكي تكون الحرب ناجحة وتحقق أهدافها - من حصر دائرة الصراع وتوجيه كل الناس للهدف الصحيح، وبالكيفية الصحيحة.

من هو العدو الفعلي واليومي للحركة الإسلامية؟ ومن هو المعوق الفعلي

واليومي لمسيرة الحركة الإسلامية؟ ومن هو هذا العدو الذي يتسلح بالأجهزة المادية والإدارية والمالية والإعلامية، والذي يتمتع بـ (الشرعية) الواقعية في مواجهته للإسلام كدعوة وكحركة؟ وهل هذا العدو قوة مادية ظاهرة محسوسة وملموسة؟ أم أنه قوة خفية غير ظاهرة وغير محسوسة ولا ملموسة؟ وبقدر ما كانت الأسئلة محددة وواضحة، فهكذا ينبغي أن تكون الإجابة عليها.

إن العدو الفعلي واليومي للحركة الإسلامية هو الأنظمة، وأن المعوق الفعلي واليومي لمسيرة الحركة الإسلامية هو الأنظمة، وأن العدو الفعلي الذي يتسلح بالأجهزة المادية والإدارية والمالية والإعلامية، والذي يتمتع بـ (الشرعية) الواقعية في مواجهته للإسلام كدعوة وكحركة هو أيضا الأنظمة.

والأنظمة قوة مادية وظاهرة محسوسة وملموسة، وليست قوة خفية غير ظاهرة ولا محسوسة أو ملموسة. يرأس هذه الأنظمة رجال من لحم ودم وعظام، فيهم كل ضعف البشر، وخوف البشر، وارتجاف البشر، وفي طوعهم أجهزة يرأسها رجال أيضا، فيهم كل ما في أسيادهم من ضعف وخوف وانحدار وارتجاف، لا ينامون في الليل إلا تحت حراسة، ولا يأكلون الطعام إلا تحت حراسة، ولا يرتخون ويقهقهون في حضرة النساء إلا تحت حراسة. فالأنظمة إذن قوة واضحة نراها ليل نهار، وهي العقبة الكأداء أمام مسيرة الدعوة الإسلامية.

إن معركة الحركة الإسلامية ليست هي مع الفتاة السافرة أو المتبرجة، وليست مع البرامج الهابطة في الأجهزة المرئية والمسموعة، وليست مع البنوك التي تمتص دماء الفقراء وتحقنها في كروش الأغنياء، ولست مع الحفلات الراقصة، ليست تلك هي معركة الحركة الإسلامية، ولا ينبغي أن تكون أو أن تحصر في هذه الدوائر الثانوية. إن المعركة الفعلية للحركة الإسلامية ينبغي أن تكون مع الأنظمة التي أفرزت هذا الواقع بتلك المواصفات، سواء الاقتصادية أو الاجتماعية أو الإعلامية. إن كل الظواهر السلبية في أي مجتمع من المجتمعات هي نتيجة طبيعية مفروزة من طبيعة النظام العام الذي يعيش في ظله المجتمع، وليست وليدة اختيارات فردية. إن تفشي الخمور والمخدرات والزنا واللواط - مثلا- في المجتمع الأميركي ليست نتيجة للاختيار الفردي بقدر ما هي نتيجة

للنظام العام الذي يسود المجتمع الأميركي، والذي تقف على سنامه السلطة السياسية الأميركية، وما تمثله فعليا من مصالح القوى الاقتصادية، الاستثمارية والتجارية في ذلك المجتمع، بتعبير آخر إن الفرد الأميركي قابل للصلاح بقدر ما يصلح النظام العام الذي يعيش في ظله، بدليل أن العرب في الجاهلية كانت فيهم كل هذه المبادل وعندما صلح النظام العام عن طريق تأسيس دولة الرسول ﷺ في المدينة المنورة صلح حال الفرد العربي في الجزيرة، وإن الفرد العربي اليوم قابل للصلاح، وقابل للالتزام بالإسلام وبشريعته بقدر ما يصلح النظام العام السياسي الذي يعيش رهينة في ظله.

وباختصار نقول: إنه إذا أرادت الحركة الإسلامية أن تحقق شيئا من خلال منهج عملها الحالي - والذي تعوزه الكثير من المراجعات- فينبغي أولا حصر دائرة الصراع وتحديد العدو والهدف.

إن بعثرة القوى الإسلامية في مواجهات جانبية من شأنها توسيع دائرة الصراع، وبالتالي تفريغ الطاقة الإسلامية في فراغ لن تتحصل منه فائدة تذكر لمجمل أهداف الدعوة. إن العدو الفعلي والمعوق الفعلي لمسيرة الدعوة هي الأنظمة، وليست الجماهير - بكل راياتها ومسمياتها- وإن العمل الإسلامي الذي يتحرك بمعزل عن هذه الحقيقة الجارحة لن يحقق أي نتيجة على المدى البعيد". ا.هـ.

وبعد أن قرأت هذا المقال، وأنا أعيش أحزان أمتي وأفراحها، وعلمت المنعطف الخطير الذي يمكن أن يؤدي إليه نشر مثل هذا المقال، وهو أن ينصرف الشباب عما سماه المقال بالدوائر الثانوية والهامشية من العمل لتوجيه دفة الاقتصاد إلى الإسلام، وتحول الفتيات والفتيان إلى الدين الصحيح والتمسك بآداب الإسلام وأحكامه، فقد جعل المقال مثل هذا دوائر ثانوية، وبين أن عدو الأمة هو الأنظمة، ويجب حصر الحرب معهم فقط.. لقد كان المقال إعلان حرب على الأنظمة دون تحديد لماهية هذه الحرب ولا وسائلها ولا أهدافها ولا كيفيتها، ولا تعريف للمقصود بالأنظمة.. إنها حرب وكفى.

ورأيت أن من واجبي قطع الطريق على الفتنة قبل أن تبدأ، وإنقاذ الشباب

من غرور الكلمة، وخمرة الحماسة الفارغة، وإيقاف كل متكلم عند كلمته ليوضح مراده، ويصدع بما يرى أنه حق، ولا يترك الناس في البلبلة والتخمين والاضطراب، فنشرت مقالا في جريدة الوطن التي أتولى شؤونها الدينية بعد ذلك المقال بثلاثة أيام فقط وكان هذا نصه:

ماذا تريد مجلة المجتمع بالتحديد ؟

في عدد الثلاثاء ١٣ محرم لعام ١٤٠٢هـ الموافق ١٠/١١/١٩٨١ في مقالها الرئيسي بعنوان (حصر دائرة الصراع) خرجت علينا مجلة المجتمع لتقول بالنص: (إن العدو الفعلي واليومي لمسيرة الحركة الإسلامية هو الأنظمة)، وتقول أيضا: (إن معركة الحركة الإسلامية ليست هي مع الفتاة السافرة أو المتبرجة، وليست مع البرامج الهابطة في الأجهزة المرئية والمسموعة، وليست مع البنوك التي تمتص دماء الفقراء وتحقنها في كروش الأغنياء، وليست مع دور السينما، وليست مع الحفلات الراقصة.. ليست تلك هي معركة الحركة الإسلامية، ولا ينبغي أن تكون أو أن تحصر في هذه الدوائر الثانوية.. إن المعركة الفعلية للحركة الإسلامية ينبغي أن تكون مع الأنظمة التي أفرزت هذا الواقع)، ثم تقول أيضا في نهاية المقال: (باختصار نقول إنه إذا أرادت الحركة الإسلامية أن تحقق شيئا من خلال منهج عملها الحالي، والذي تعوزه الكثير من المراجعات، فينبغي أولا حصر دائرة الصراع، وتحديد العدو والأهداف).

ونحن إزاء هذه الدعوة السافرة إلى الفتنة وتضليل الشباب المسلم والزج به فيما يريد أعداء الأمة من تدمير نفسه وأمته ووطنه الإسلامي، نريد أن نطرح بعض الأسئلة على مجلة المجتمع التي تتبنى اليوم الدعوة إلى الفتنة بكل أبعادها، علها ترشدنا إلى مخططها الجديد.

أولا: ماذا تعنون بالنظام؟

ماذا تعني مجلة المجتمع بكلمة الأنظمة؟ هل تعني بها الحكومات العربية الحالية؟ وهل تشمل دعوتها تدمير هذه الأنظمة وحربها كل الأنظمة العربية؟ أم بعضها دون بعضها؟.

وإذا كان المراد بالأنظمة هو الحكومات؟ فهل رئيس الدولة فقط هو

الحكومة؟ أم الحكومة والوزراء؟ وما رأيهم في وكلاء الوزراء أيضا؟ هل هؤلاء من النظام أم خارجون عنه؟ وما رأيهم بأعضاء المجالس النيابية؟ هل هم جزء من النظام أم لا؟ وما القاعدة في تحديد العدو وغير العدو؟.

وما رأي مجلة المجتمع في أفراد الجيوش العربية، وقوات الشرطة التي تحفظ الأنظمة وتحافظ على الأمن، هل هم داخلون في حكم الأنظمة أم لا؟ وهل إذا كانوا من الأنظمة فدمهم مهدور أيضا ؟ وهل تستطيع (المجتمع) أن تفتينا في حكم الإسلام في دخول الجيش والشرطة؟ والعمل في الوزارات والمجالس النيابية.. هل هذه الأعمال جائزة أم محرمة؟.

ثانياً: ماذا تعنون تماما بكلمة حرب؟

تقول مجلة المجتمع: (لابد لكي تكون الحرب ناجحة وتحقق أهدافها من حصر دائرة الصراع وتوجيه كل الناس للهدف الصحيح، وبالكيفية الصحيحة)، ونحن نسأل الآن عن هذه الحرب الناجحة!! ماذا تعنون تماما بكلمة حرب؟ هل تعنون الاغتيالات السياسية؟ أم تعنون الثورة المسلحة؟ ومن الذي سيقود هذه الحرب؟ وما هي الكيفية الصحيحة التي تدعون إليها؟ وماذا تعنون بدعوة كل الناس إلى هذه الحرب؟ أي ناس هؤلاء؟ وكيف ستدعون الناس؟ أعن طريق مجلة المجتمع التي تتبع هيئة رسمية هي إحدى مؤسسات النظام؟!.

هذه بعض الأسئلة التي نوجهها -مخلصين- إلى القائمين على مجلة المجتمع ليعرفوا أولا بماذا ينطقون؟ وإلى أي شيء يدعون الناس.. وإذا كانت المجتمع قد أفلست من دعوة الشباب إلى الهداية والاستقامة، ودعوة الحكام إلى الاستقامة على أمر الله وتحكيم شريعته، ودعوة الشعوب إلى الدخول في الإسلام أقول إذا كانت مجلة المجتمع قد أفلست من ذلك فلتتق الله في الشباب الذي قد يفتر وينزلق إلى تدمير أمته ونفسه بهذا المسلك الخاطئ.

باختصار (المجتمع) لا ترى جدوى من تحويل الفتاة السافرة إلى فتاة متحجبة عن طريق الإقناع ودعوة الخير، ولا ترى جدوى من إقامة بنوك إسلامية لتحل محل البنوك الربوية، ولا ترى جدوى من مزاحمة البرامج التافهة ببرامج هادفة في وسائل الإعلام، ولا ترى جدوى من كل هذا البناء للأمة بطريق

الدعوة وشق طريق الخير والصبر على الأذى وتحمل الصعاب، وتنادي في الناس أن اتركوا كل ذلك، واحصروا دائرة الصراع في حرب الأنظمة!!.

للأسف أن يكون كل هذا التضليل باسم الإسلام، وأن ينسب كل هذا العبث إلى هدي الرسول الكريم وحكمته.." .أ.هـ.

لقد جاء المقال - بحمد الله - في وقته تماما، فقد ساعد الشباب المسلم على الإفاقة السريعة، ووضع أيديهم رأسا على الخلل، واستطاعوا بعد ذلك تحديد الهدف والاتجاه بعد أن كادت تضل بهم الطرق.. وأعتقد أننا وصلنا بحمد الله من خلال مقالي ذلك إلى صحوة عامة، وتعريف بالأخطاء التي يمكن أن تقع فيها الدعوات، وأشعر وأنا أكتب هذه السطور بعد عامين تماما من هذا المقال، أنه كان نقطة فاصلة في توجيه مسار الدعوة في الكويت، وإن كنت تعرضت خلال هذين العامين لصنوف الأذى والسباب والشتائم والاتهام بالعمالة للسلطات والخيانة للإسلام، والله المستعان.. وسامح الله الجميع وعفا عنا وعنهم.

الباب الخامس
المفهوم الجديد للجهاد عند بعض الشباب المسلم

بدأ منذ عام ١٣٧٥هـ - ١٩٦٥م تقريبا فهم جديد لمعنى الجهاد في الإسلام، وهذا الفهم الجديد نشأ عن تصورات عقائدية، ولأسباب وأحداث سبقت ظهور هذا الفهم وصاحبته، ونستطيع أن نلخص ونوجز أبعاد هذا الفهم الجديد لمعنى كلمة الجهاد فيما يلي:

١ - المجتمع الذي نعيش فيه مجتمع كافر، لأنه استبدل القوانين الإسلامية بالوضعية، وأن مظاهر الانحلال والفساد دبت فيه، وأن المعروف قد أصبح منكرا والمنكر قد أضحى معروفاً.

٢ - أفراد هذا المجتمع وحكوماته مرتدون مارقون، والمظاهر الإسلامية في هذا المجتمع مظاهر كاذبة مضللة منافقة، فشيوخ الدين ممالئون للسلطان الكافر.

٣ - والمساجد مساجد ضرار، لأنها تسير في ركاب الحاكم الذي يحكم بغير ما أنزل الله، والمؤسسات الإسلامية سواء كانت أهلية، كجمعيات الخير والبر، أو حكومية كوزارات الأوقاف والجامعات الإسلامية، حكمها حكم المجتمع ما دامت أنها تستظل بظل الحكومات الكافرة.

٤ - الجهاد مفروض لتغيير هذا الواقع وإحلال شريعة الله مكان شريعة الكفر.

٥ - كل الوسائل السلمية لا تُجدي فتيلا، ولا توصل للهدف السابق، لأن كل عمل سلمي للدعوة يقابل بالدعاية الحكومية الكافرة، لأنها تملك المال ووسائل الإعلام من تلفزيون وإذاعة وصحافة، وكذلك تمتلك المدارس

والجامعات، والوظائف، وتستطيع بذلك أن تفعل ما تريد، ولأنها تهدم والدعاة يبنون فإنها تسبقهم حتماً، لأن الهدم أسهل من البناء.

٦ - مادام الحكام كفرة والجهاد واجبا، فقد وجب الخروج عليهم وقتالهم بالسلاح، لأن الرسول أمر عندئذ بالخروج عليهم، كما قال ﷺ: «**إلا أن تروا كفرا بواحاً عندكم من الله فيه برهان**» [متفق عليه]. والحكم بغير ما أنزل الله كفر بواح.

٧ - في القتال يجوز الخداع، لأن الرسول ﷺ قال: «**الحرب خدعة**» [متفق عليه].

٨ - ويجوز الاغتيال، لأنه أرسل من يغتال كعب بن الأشرف، وعبد الله بن سفيان، وغيرهما.

٩ - يجوز إظهار خلاف ما يبطنه المسلم حتى يتمكن من قتل هؤلاء الأعداء.

١٠ - لا يجب في القتال أن تُرفع راية، أو يُعلن جهاد أو يُميز صف، لأن القتال فرض على كل أحد، والذي على الحق جماعة ولو كان وحده، فكيف لو كان هناك اثنان أو ثلاثة.

١١ - يجوز قتل كل من تترس به الكافر ولو كان من المسلمين إذا كان لا يمكن قتل هذا الكافر إلا بهم وبذلك يجوز قتل الجنود والشرطة والجيش إذا حاولوا الدفاع عن الحكام الكفار.

١٢ - لا يجب إعلان القتال على الكفار، لأن رسول الله قاتل أقواما (وهم غارون) لا يعلمون بمقدمهم إليه.

١٣ - ليس للنساء والأطفال حرمة، لأن أولاد الكفار من الكفار، وقد سئل الرسول عن أولاد الكفار ونسائهم يُقتلون في البيات (الهجوم الليلي)، فقال: «**هم منهم**» [متفق عليه].

١٤ - يجوز قتل الكفار، وهم الحكام والشعوب الراضية ليلا ونهارا وبغير إعلام وإشعار لهم، ولو قُتل في ذلك نساؤهم وأطفالهم.

١٥ - أموال هؤلاء (الكفار) أعني المسلمين الذين يعيشون في هذا

المجتمع يجوز أخذها بكل سبيل، لأن أموال الكفار غنيمة للمسلمين، فيجوز غصبها وسرقتها ونهبها.

١٦ - نساء الكفار (أعني المسلمين الذين يعيشون في ظل النظام الوضعي) حلال أيضا استرقاقهم وسبيهم.

١٧ - لأن النظام نظام كافر، فالدار التي نعيش فيها دار حرب، وبذلك تكون كل ديار المسلمين الآن ديار حرب، يجوز فيها ما يجوز في دار الحرب من القتل والسلب والنهب والغصب والخطف.

١٨ - لا تجوز الصلاة بالمساجد، لأن الدولة الكافرة هي التي تنفق عليها وتعين أئمتها ومؤذنيها.

١٩ - لا يجوز تولي أي ولاية في هذه الحكومات، لا وزارة، ولا عمل في جيش أو شرطة، أو تعليم أو صناعة، لأن كل عمل حكومي هو إعانة للحكم الكافر.

٢٠ - جميع النصارى واليهود وأهل الملل الأخرى الذين يعيشون في بلادنا (بلاد الحرب) لا عهد لهم ولا أمان، لأنهم محاربون للمسلمين، وبالتالي هم حربيون، وليسوا مستأمنين أو معاهدين أو أهل ذمة.

٢١ - لا يوجد الآن حكم إسلامي قط في الأرض، ولذلك يجب العمل لإيجاد هذا الحكم.

٢٢ - ليست هناك طريقة لإيجاد الحكم الإسلامي إلا بالحرب، والحرب تكون وفق المفاهيم والأحكام السابقة.

٢٣ - لا يجوز أن نحكم بالإسلام لأحد، إلا من عرفنا حقيقة معتقده، وأنه يوافقنا في كل ما قلناه آنفا، وكل من لا يعتقد هذه العقيدة تماما كما نعتقد فهو كافر يجب إلحاقه بمعسكر العدو وحربه معه.

٢٤ - لا يجوز بتاتا تقديم حرب الاستعمار والكفار الخارجين كاليهود والأمريكيين والروس مثلا قبل حرب الأعداء القريبين، وهم هؤلاء الذين يُنسبون إلى الإسلام وليسوا كذلك!!

٢٥ - أي شخص اختارته الجماعة التي تعتقد هذه الأفكار أميراً فهو أمير

تجب طاعته وإن لم يعلم به غيرهم، فلا يشترط في الأمير العام الذي يعلن هذه الحرب، ويقوم بهذا الجهاد أن يكون ظاهرا ولا متمكناً، بل يكفي أن يبايعه رجل أو رجلان.

٢٦ - الحكم الإسلامي هو ما في القرآن الكريم والحديث فقط، وفهم الصحابة ليس حجة علينا، وأقوال الأئمة والفقهاء ليست حجة، ويستطيع كل أحد أن يفهم القرآن والسنة ويستنبط منهما، وإن لم يدخل معهدا علميا أو جامعة أو تتلمذ على أي شيخ من الشيوخ، وفينا من هو أعلم من الصحابة، وأفقه من الأئمة!!

٢٧ - يجوز الانبثاث في الجماعات الإسلامية العلنية القائمة لتحويل مسارها نحو هذا الفهم الجديد للإسلام.

الرد على هذا المفهوم الجديد للجهاد:

هذه هي خلاصة الفقه الجديد، أو المنهج الجديد للجهاد الذي تتبناه اليوم مجموعات شتى في أنحاء العالم الإسلامي، وعندي النصوص الكاملة لهذا الفقه من كتب هذه الطوائف الجديدة، ولا أشك أن بعض هؤلاء الذين جنح بهم فهمهم المريض إلى هذا الحد مخلصون محبون للخير، ولكن كم من مريد للخير لم يبلغه، ولا أشك أيضا في أن هناك من غير المخلصين، بل من الذين يريدون شراً بأمة الإسلام، وتحول ساحة الوطن الإسلامي إلى ساحة حرب حقيقية بين أبناء المسلمين أنفسهم، حيث يقتل بعضهم بعضا ويسبي بعضهم بعضا، بل ويغدر ويكذب ويغش ويتعلم النفاق الذي ليس بعده نفاق، واللؤم الذي ليس بعده لؤم قط.

وصفحات الكتاب السابقة كانت ردا على كل هذه الأفكار المنحرفة الجانحة، ونستطيع أن نوجز الرد على هذا الفكر هنا أيضا بما يلي:-

١ - متى يكون المسلم كافراً ؟

لاشك أن تعميم القول بالكفر ليس بصحيح وهو مخالف لهدي القرآن والسنة، حيث أمرنا ألا نشهد إلا عن بينة.. وكيف نشهد أن مجتمعاً ما أصبح خاليا من الإسلام؟! والحال أن عامة أهله مسلمون، ممن يشهد أن لا إله إلا الله

ويصلي ويصوم ويتقي الله عز وجل، ويتورع عن الحرام في مطعمه ومشربه ومأكله، وهو كذلك يكره الكفر والكافرين، ولا يرضي الله عنه ولا يوالي أعداء الدين، فكيف يكون أمثال هؤلاء كفاراً لمجرد سكناهم في بلد اختلطت فيها قوانين الكفر بقوانين الإسلام؟! علما بأن الله شهد بإسلام من يعيش في ديار الكفار مضطراً لا يستطيع الهجرة منها، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾، وهـذا ودولـة الإسلام قائمة في المدينة وما حولها، والأنصار يواسون ويفرحون بمن هاجر إليهم، ولا ينزل أحد من المهاجرين عند أنصاري إلا بقرعة.. فكيف الآن! وليس هناك من إمام يعلن أنه إمام المسلمين، وأن هلم إلى العيش في رحاب الإسلام، وأن هاجروا من الدار التي يستذل فيها المسلمون إلى الدار التي يعزون فيها!؟ هل في هذه الحالة يُسمى من يعيش في بلد يحكم بالقوانين الوضعية كافراً مرتدا لمجرد وجوده وسكناه في مثل هذا البلد؟ لاشك أن هذا قول من لم يفقه الدين، ولم يعرف الواقع.

٢ - تعميم القول بكفر الحكام جميعاً خطأ

لا شك أن الأمة قد ورثت هذه الحالة البائسة بعد غزو عسكري لأراضيها وأوطانها استمر زمانا طويلا، ففي بعض بلاد المسلمين بقيت عساكر الكفار قرنا من الزمان، وبعض آخر منها قرنين وأكثر، استطاع الكفار فيها وضع قوانين الكفر، وتغيير العقول والقلوب، وتربية جيل يؤمن بأفكاره وعقائده من أبناء المسلمين، وليسوا جميعا على موقف واحد من الدين، وموقف واحد من الكفار المستعمرين، فهناك حكام يصلون ويصومون، وقد ورثوا هذا التركة بكل ما فيها، وهم يتمنون التخلص من قوانين الكفر، وإحلال قوانين الإسلام مكانها، وهناك آخرون انسلخوا من الدين ظاهرا وباطناً، أو انسلخوا باطنا وأبقوا شيئا من ظاهر الدين على أنفسهم كالصلاة في الأعياد، وإرضاء المسلمين ببعض الكلمات كالبسملة والحوقلة.

ولا شك أن هذه الأصناف لا يجوز أن يكون الحكم عليها واحدا، وإلا كانت الشريعة غير حكيمة، والحال أن الشريعة حكيمة تُفرق بين المضطر

وغيره، وبين المتأول والمتعمد، وبين المنافق والكافر، ولذلك فالحكم بالجملة على كل الحكام دفعة واحدة حكم يعوزه الصواب، وتنقصه الحكمة، بل هو حكم متعد. . وقد رأينا وشاهدنا من حكام المسلمين من يتمنى ويسعى جاهدا لاستبدال قوانين الكفر بقوانين الإسلام، ومن يحب أن يسود الخير ويكثر أصحابه، كما أن منهم من هو بضد ذلك، فكيف يجوز أن يتساوى عندنا أهل الصدق والإيمان والصلاة بأهل النفاق والكفر ومحاربة الدين؟

٣ - قواعد الحكم بتكفير المسلم

لاشك أيضا أن للتكفير أصولا بيناها سابقا، ونوجزها الآن، وهي: لا يجوز أن يُحكم بالكفر على مسلم إذا رأيناه يفعل مكفرا من المكفرات إلا بالضوابط الآتية:

أ - أن لا يكون جاهلا، فإذا كان جاهلا بحكم ما يفعله فلا يكفر حتى يتعلم وتُقام الحجة عليه.

ب - أن لا يكون متأولاً يرى أن ما يفعله من مخالفة شرعية إنما هو لمصلحة أعظم أو درءا لمفسدة أعظم، كما ترك الرسول ﷺ تنفيذ بعض الحدود درءاً لمفسدة أعظم، ونحو ذلك.

ج - أن لا يكون مضطرا، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾.

والآيات في هذا المعنى -أعني الاضطرار- كثيرة جدا.

ووفق هذه الضوابط يكون الحكم على معين ما أنه كافر، وأما إلقاء الكلام على عواهنه، وتكفير الناس دون العلم بحقيقة حالهم، فهذا لا يقدم عليه إلا رقيق الدين، قليل التقوى والخوف من الله، حيث يقول ﷺ: «**من قال لأخيه يا كافر وليس كما قال إلا حار عليه**».

٤ - من ينفذ الحدود ؟

لاشك أنه ليس هناك تلازم بين الحكم على شخص ما بالكفر والأمر بقتله أو قتله، وذلك أن تنفيذ القتل حداً كما هو في المرتد لا يجوز إلا للحاكم

المسلم القائم الظاهر، أعني لا ينفذ الحدود إلا الإمام المسلم العام أو من ينوب عنه، وليس قتل المرتد هو من واجبات أو حقوق الأفراد، وإلا لقتل كل أحد من يريد قتله وزعم أنه مرتد، وهذه قضية إجماعية لا خلاف فيها بين المسلمين، أعني أن تطبيق الأحكام ليست للرعية وإنما هي للإمام، وذلك لأن ترك الرعية تقوم بتنفيذ العقوبات الشرعية (الحدود) يؤدي إلى الفوضى والفساد والاضطراب.

وبسبب الجهل بهذه النقطة حدث الفساد في الأرض من الجماعات التي تدعي نُصرة الدين والجهاد، لأنهم ظنوا أن قتل المرتدين وقتالهم هو من حقوقهم، وأنه مُسند إليهم، وبذلك استحلوا دماء مخالفيهم في عقيدتهم التي شرحناها آنفاً، بل قتل بعضهم بعضاً عند أدنى خلاف بينهم فيما يعتقدونه، ظانين أن هذا من باب تنفيذ الحكم على المرتد، والحال أنه لا ينفذ حكم الردة إلا إمام قائم معين أو من ينوب منابه ويسد مسده، وهذه كما ذكرنا مسألة مُجمَع عليها.

٥ - لا تلازم بين تكفير الحاكم والخروج عليه

وقد ظن كثير من هؤلاء الشباب أيضا أن الحكم على حاكم ما، أو رئيس ما بالكفر يستلزم الخروج عليه بالسيف، وهذا خطأ أيضا، فليس كل حاكم كفر كفرا بواحا يلزم المسلمين الخروج عليه، مهما كانت الظروف والأحوال، بل إن الخروج عليه يستلزم اتباع السياسة الشرعية في ذلك، شأن ذلك شأن إنكار أي منكر من المنكرات، فكما لا يجوز إنكار المنكر بمنكر، ولا إزالة منكر يترتب على إزالته حدوث منكر أعظم منه، فكذلك الأمر في إنكار منكر الحاكم أو الرئيس الخارج على الدين المعلن للكفر، فمع الحكم بكفره فإن الخروج عليه بالسيف يستلزم أن يكون الخروج مؤديا إلى إزالة منكره دون أن يحدث ما هو شر من ذلك، كأن يأتي من هو أعظم منه شراً وبلاء على المسلمين، وكأن يحفزه ذلك إذا تمكن من الإفلات أن يستأسد على المسلمين، ويستبيح بيضتهم، ويهتك حرماتهم... وقد حدث هذا مراراً، فكم من حاكم ظالم أو فاجر، أو حتى كافر معلن للكفر قام عليه بعض الأفراد من أهل الحماسة

الفارغة والغيرة الكاذبة، ففشلوا في تحقيق مآربهم، فكان هذا بلاء على المسلمين عامة، حيث استباح هذا الفاسق حمى المسلمين، وفضح حريمهم، ومزق جماعتهم، وتسلط بسيف القهر عليهم، فكان قيام مثل هؤلاء المغرورين المتحمسين الجاهلين بلاء على المسلمين وليس شفاء لأمراضهم، وإزاحة لعلتهم.

والمهم هنا البيان أنه لا تلازم بتاتا بين الحكم بكفر حاكم ما، والخروج عليه، نعم يجب اعتقاد وجوب الخروج عليه، ولكن لا يجوز تنفيذ هذا الواجب إلا وفق السياسة الشرعية الحكيمة، وهي ألا يُزال منكر بمنكر، وأن لا يترتب على إزالة هذا المنكر منكر أعظم منه.

٦ - ديار المسلمين الآن ليست ديار حرب

لاشك أن القول بأن ديار الإسلام الآن وأوطانهم ديار حرب قول فاجر، ليس عليه دليل من كتاب أو سنة أو فقه أو عقل أيضا، وذلك للأسباب الآتية:

أ - أنه لا يجوز أن تكون هناك دار حرب إلا إذا كان هناك دار إسلام، والقائلون بأن بلاد المسلمين الآن هي ديار حرب نسوا أن يذكروا لنا أين ديار الإسلام، وذلك أن ديار الكفار لا تسمى ديار حرب إلا لوجود ديار الإسلام التي تعلن الحرب عليها، وتحوز المسلمين، وتحميهم، أما إذا انعدمت دار الإسلام التي تحمي المسلمين وتدافع عنهم، وتنطلق منها جحافلهم وجيوشهم، فإنه ينعدم أيضا وجود دار حرب، لأن الرسول ﷺ لم يسم مكة دار حرب عندما كان يسكنها قبل الهجرة، بل لم يفرض الله عليه الحرب إلا بعد أن تكونت ووجدت دار الإسلام أولا، وعلى الذين يقولون إن الدار الفلانية دار حرب أن يوجدوا دار الإسلام أولا كما أوجدها الرسول دون قتال وسفك دماء.

ب - أن القول بأن ديار الإسلام الآن وأوطانهم ديار حرب: معناه أن يتحول المسلمون إلى مجموعة من اللصوص والقتلة والمنافقين والمجرمين، وهذا ما حدث بالفعل مع الذين نادوا بذلك، فقد تحولوا بالفعل إلى قتلة بلا هدف ولا سياسة، ولصوص يسرقون ويغتصبون، بل استطاعوا أيضا استدراج

الفتيات البريئات من أهلهن المسلمين بحجة أنهم كفار، وتزوجوا بهن دون ولاية أو تسجيل عقود!!.

بل قال لي بعض هؤلاء: لو تمكنت من مال أي شخص، ولو كان يصلي، ولو كان من أنصار السنة وأهل التوحيد لسرقت ماله، واغتصبت زوجته، لأن كل هؤلاء ليسوا مسلمين، ونحن في دار حرب، ومالهم مباح !! وسألته، وكنا في مدينة (بنها) وتعداد سكانها ربع مليون نسمة: تعلم في هذه المدينة مسلما قال: لا !!.. فانظر مقدار هذا الفهم، وقلت له أيضا: ما يمنعك من أخذ مال غيرك واسترقاق أطفاله، وسبي نسائه؟ قال: لأنني غير مُمَكن فقط، أي لأني لا أملك تنفيذ ما أعتقد به من إباحة أموال ونساء هؤلاء.

أقول.. لا شك أن القول بأن ديار المسلمين اليوم وأوطانهم ديار حرب يجعل ممن يقولون بهذا القول مجموعة من المنافقين، والقتلة، والمجرمين.

ج - بالرغم من فظاعة وشر القول بأن ديار المسلمين الآن ديار حرب، إلا أن أصحاب هذا القول أيضا متناقضون فالمعروف أن دار الحرب لا تُقام فيها الحدود الشرعية، فمن شرب خمراً مثلا لا يُجلد، ومن سرق لا تقطع يده، وهذا أمر متفق عليه بين الفقهاء، وذلك حتى لا يلحق المسلم الذي يقع في معصية من المعاصي التي تستوجب حدا لا يلحق بالكفار، وللأسف أن أصحاب الفهم الجديد في الجهاد قد يتعللون عند مواجهتهم بالقول: لماذا تقتلون وتذبحون وتغتالون؟ يقولون نريد أن نقيم الحدود!! فكيف تكون مثل هذه حدود والحال أنتم تقولون إننا في دار حرب!! ودار الحرب لا تقام فيها الحدود، وكذلك لا يجوز إقامة حد في الإسلام إلا بتعيين إمام وقاض وشهود وتمكين للمتهم من الدفاع عن نفسه، فكيف يكون اغتيال شخص ما أو سرقة محل ما إقامة للحدود!!؟

ولا شك أن ديار المسلمين الآن وأوطانهم هي ديار إسلام مادام أهلها مسلمين، وإن غلب بعض أنظمة الكفر عليهم، وهم مطالبون بطاعة الحق فقط، ومأمورون بمعصية أنظمة الكفر وقوانينه لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وهم مأمورون بالسعي والجهاد بكل معاني الجهاد التي شرحناها

للوصول إلى تطبيق شرع الله سبحانه وتعالى كاملا، واتباع السياسة الشرعية في سعيهم وجهادهم، هذا هو الدين القويم والصراط المستقيم.

٧ - حكم القتال دون تمييز الصفوف

وأما القول بأنه يجوز قتال دون أن يتميز صف المسلمين من صفوف الكفار، فهو حرام وقول أعمى لا ينبني على فقه أو دين أو عقل، وهذه آيات القرآن، وأحاديث الرسول وتاريخ الصحابة والمسلمين كله شاهد أنه لا قتال إلا بعد تميز الصفوف، وانحياز أهل الإسلام إلى إمامهم وعلمهم، وانحياز أهل الكفر إلى قوادهم وجيشهم، فلم يأمر الله تعالى الرسول بالقتال إلا بعد أن تميز جيشه، وكانت له قاعدته في المدينة، وجماعته المستقلة التي تخرج وتبرز وحدها رافعة لواءها، معلنة أهدافها، معروفة أوصافها.. هذا هو الجهاد الإسلامي، صف مميز له هدف معلوم وراية مرفوعة، وجماعة ظاهرة، وإمام قائم، وأما المجموعات السرية المختبئة في الجحور التي تخرج على الناس فجأة فتغدر وتقتل وتضرب على غير هدى فليسوا دعاة إسلام، وليس لفعلهم هذا شبه ولا مثال في كل تاريخ من يُقتدى به من أهل الإسلام.. وأما الاستدلال بأن الرسول غزا أقواما من بني المصطلق وهم غارون فنعم لقد فاجأهم الرسول، ولكن النذارة بلغتهم بأن الرسول (ﷺ) قادم إليهم، وخرج الرسول ﷺ وهو ذو علم، وصاحب جماعة وأمة، وله رسالة قد أبلغها في الآفاق، وجيش معروف، وأهداف واضحة، وقد أمر ﷺ أن لا يحارب قوم حتى يدعوا إلى الإسلام أولا، فإن أبوا فالجزية، فإن أبوا فالحرب. (صحيح مسلم باب الإمارة). فهذه سنة رسول الله وسنة خلفائه الراشدين وسنة من يقتدي به من أهل الحق والدين.

وأما أن الرسول قد أرسل من يغتال أفرادا من الكفار فنعم، فإن الإمام المسلم الظاهر له أن يرسل من يغتال من يؤذي المسلمين إذا لم يكن من يغضب له، وكان هو رأس شر، يموت الشر بموته ولا يستفحل بقتله، كما فعل الرسول مع كعب بن الأشرف، لأنه رجل واحد، رأس من رؤوس الشر، ليس له إلا جسد، ولا جيش وراءه ولا أمة تغضب له، وكذلك الحال مع عبد الله بن

سفيان الذي كان يجمع للرسول أوباش الناس وأخلاطهم، وليس صاحب شرف أو قبيلة أو جماعة، فأرسل الرسول (ﷺ) من يقتله وهو عبد الله بن أنيس، فتفرق كل هؤلاء الأوباش والأخلاط بعد أن قتله عبد الله بن أنيس رضي الله عنه.. وكذلك أرسل النبي من قتل سلام بن أبي الحقيق اليهودي بخيبر، لأنه رأس من رؤوس الشر إذا قُتل انتهى شر جماعته وخمدت نيرانهم، وقد كان.. فالاغتيال جائز في الإسلام إذا صدر الأمر به عن إمام ممكن وأمة قائمة، وكان الاغتيال لا يؤدي إلى ضرر أكبر منه.. ألا ترى كيف أوصى رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان عندما أرسله ليأتي بخبر الكفار في الخندق؟ قال له الرسول ﷺ: «**اعرف الخبر ولا تحدث حدثا حتى تأتيني**» كيف أن حذيفة أتاهم والريح تضربهم، والظلام يلفهم، وقد قال لهم أبو سفيان وقد كان قائدهم: إني مرتحل.. ثم ركب ناقته ولم يفك وثاقها إلا بعد أن ركبها.. وقال حذيفة: لم يكن بيني وبينه شيء وأردت أن أقتله بسهم، ولكني تذكرت كلام رسول الله ﷺ: «**لا تُحدث حدثاً حتى تأتيني**»، فأمسكت.. أرأيت لو قتل حذيفة بن اليمان أبا سفيان بن حرب في ذلك الوقت، مخالفا أمر رسول الله ﷺ؟! ماذا ستكون النتيجة؟! لا شك أن هذه الغزوة ما كانت لتنتهي على ذلك النحو، وهو رجوع الكفار إلى مكة، واكتفاء المسلمين بقتال الله عنهم، بل إن الكفار القرشيين لو قُتل رئيسهم ما كان لهم أن يرجعوا هكذا فرارا، بل كانوا سيرجعون ويمكثون ويقاتلون مهما كلفهم ذلك من أمر، وكان في هذا كل البلاء على المسلمين.

والشاهد هنا أنه ليس كل شخص صالحاً لأن يغتال، بل للاغتيال أيضا في الإسلام أصوله وقواعده الشرعية، ولابد قبل إقدام الإمام المسلم عليه أن يقدر المصالح والمفاسد.. هذا هو شأن الاغتيال في الإسلام، فكيف يتناسب ذلك مع ما يفعله أفراد من الشباب الأغرار؟ تختمر عندهم فكرة ما أن فلانا عدوا لله أو أنه فعل كذا وكذا.. وقد يكون هذا بدفع من مخابرات الأنظمة الفاجرة، أو ممن يريد بالمسلمين شراً لإيقاع الفتن بينهم، فيغريهم بذلك، ويندفعون ليغتالوا، وقد ينجحون في قتل غريمهم، ولكن الشر بعده يعم ويطم، وقد يفشلون فتكون الداهية أعظم.. فكيف يُقال والحال هذه إن مثل هذا جهاد؟ والحال أنه في معظمه غدر وإفساد واستبدال لشر أخف بشر أعظم.

٨ - حكم تولي الولايات في الحكومات الكافرة:

وأما القول بأن حكوماتنا هذه كافرة بإطلاق، فقد بينا حكمه آنفا، وأما القول بأن تولي الولايات في الحكومات الكافرة لا يجوز شرعاً، فهذا أيضا لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، بل الكتاب والسنة على غير ذلك، فقد تولى يوسف ﷺ وهو نبي كريم القيام على خزائن الأرض في مصر وهو منصب مشابه لمنصب وزارة المالية الآن، وهو وإن كان في شرع من سبقنا، إلا أنه لم يأت في شرعنا ما يخالفه، نعم جاء نهي النبي ﷺ أن يكون المسلم جابياً أو شرطياً عند أئمة الجور [رواه أحمد] فلا يتعدى هذا إلا بدليل، وهو أنه يحرم أن يكون المسلم جابياً يجمع المكوس من الناس للحاكم ظلماً، وكذلك أن يكون شرطياً يضرب الناس ليأخذ أموالهم، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأما في ولاية لا يكون المسلم فيها عاصياً لله، كأن يكون معلماً، أو صانعاً أو زارعاً، أو مدافعاً عن أمته بالحق، أو نحو ذلك من ولايات ووظائف الحق، فهذا لا شيء فيه إن شاء الله، ولو كان الحاكم كافراً، فكيف إذا كان مسلماً ظالماً لنفسه، جامعاً بين المعصية والطاعة، لا شك أن تولي الولايات التي تعين المسلمين وترفق بهم، وتحجب أعداء الله عن الإفساد في الأرض أولى من تركها لأهل الشر والفساد، وبطانة السوء الذين يفسدون ولا يصلحون.. وبالجملة فالمسلمون المخلصون هم أولى الناس بتولي الولايات وتقلد المناصب، وإزاحة أهل الشر والفسق، وتسيير شؤون المسلمين إلى الخير، وليس العكس، حيث ينزوي المسلمون ويبتعدون مفسحين المجال لغيرهم، تاركين شؤون المسلمين بيد أعدائهم، فإن هذا من أعظم الفساد والشر.. نعم لا يجوز للمسلم إذا كان في ولاية ما أو منصب ما أن يكون منفذا للشر، عاملا به، بل لابد وأن تكون له شخصيته وعمله، ولابد وأن يكون ائتماره بأمر الله أولا، وأن يكون عمله في طاعة الله وليس في معصيته.

والخلاصة أنه يجوز للمسلم أن يعمل ولو عند كافر مادام أن عمله مباح، وهو من أعمال الخير، فكيف إذا كان في عمله تقوية لشأن المسلمين، ورفع لمنزلتهم، وإبعاد لأهل الشر والفساد عن حصون المسلمين، والتحكم بأعراضهم وأموالهم.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: " وجميع الولايات الإسلامية إنما

مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سواء في ذلك ولاية الحرب الكبرى، مثل نيابة السلطنة، والصغرى، مثل ولاية الشرطة، وولاية الحكم، أو ولاية المال، وهي ولاية الدواوين المالية، وولاية الحسبة. . لكن من المتولين من يكون بمنزلة الشاهد المؤتمن والمطلوب منه الصدق، مثل الشهود عند الحاكم، ومثل صاحب الديوان الذي وظيفته أن يكتب المستخرج والمصروف، والنقيب والعريف الذي وظيفته إخبار ذي الأمر بالأحوال، ومنهم من يكون بمنزلة الأمين المطاع والمطلوب منه العدل، مثل الأمير والحكم والمحتسب، وبالصدق في كل الأخبار، والعدل في الإنشاء من الأقوال والأعمال، تصلح جميع الأحوال، وهما قرينان كما قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال النبي ﷺ لما ذكر الظلمة: «**من صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولا يرد علي الحوض، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه وسيرد علي الحوض**» [رواه أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم]، وفي الصحيحين عن النبي أنه قال: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً**»، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢]، وقال: ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق: ١٥ - ١٦]، فلهذا يجب على كل ولي أمر أن يستعين بأهل الصدق والعدل، وإذا تعذر ذلك استعان بالأمثل فالأمثل، وإن كان فيه كذب وظلم، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وبأقوام لا خلاق لهم، والواجب إنما هو فعل المقدور، وقد قال النبي ﷺ أو عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**من قلد رجلا على عصابة، وهو يجد في تلك العصابة من هو أرضى منه، فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين**» فالواجب إنما هو الأرضى من الموجود، والغالب أنه لا يوجد كامل، فيفعل خير الخيرين، ويدفع شر الشرين، ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول: "أشكو إليك جلَد الفاجر وعجز التقي"، وقد كان

النبي ﷺ وأصحابه يفرحون بانتصار الروم والنصارى على المجوس، وكلاهما كافر، لأن أحد الصنفين أقرب إلى الإسلام، وأنزل الله في ذلك سورة الروم لما اقتتلت الروم وفارس والقصة مشهورة وكذلك يوسف الصديق كان نائبا لفرعون مصر وهو وقومه مشركون، وفعل من العدل والخير ما قدر عليه، ودعاهم إلى الإيمان بحسب الإمكان" ا.هـ. [الحسبة ص ٦ و ٧].

والشاهد فيما سقناه من كتاب الحسبة للإمام ابن تيمية - رحمه الله - أن المسلم عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب استطاعته وتوليه الولايات التي يستطيع من خلالها أن يقوم بهذا الأمر.. وقد كان يوسف الصديق نائبا لفرعون مصر وهو وقومه مشركون وفعل يوسف من الخير ما قدر عليه وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر بحسب استطاعته، ولا شك أن هناك ولايات كثيرة يستطيع المسلم من خلالها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان في ظلال حكم جائر، أو كافر، كوزارة التربية والتعليم، والأوقاف والدعوة، والشؤون، وغير ذلك.. اللهم إلا إذا كان المسلم في ولاية ما سببا لأمره بالمنكر ونهيه عن المعروف وصده عن سبيل الله، فإنه حينئذ لا يجوز له البقاء، ويحرم عليه العمل.

٩ - منزلة العمل السلمي، والدعوة والتربية في الإسلام

وأما القول بأن الدعوة السلمية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يغني فتيلاً في الإسلام، فهو قول خاطىء جداً بعيد عن الصواب، فقد جعل الرسول ﷺ أعلى درجات الجهاد قول كلمة حق عند سلطان جائر، حيث يقول ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»، فكيف تكون كلمة الحق عند سلطان جائر هي أفضل الجهاد؟ ويقول قائل إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يغني فتيلاً، بل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أصل الدين الأصيل، بل هو الذي من أجله جعل الله تبارك وتعالى المسلمين خير أمة أخرجت للناس، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، فكيف يُقال إن الدعوة السلمية لا تجدي!! ولاشك أن الذين قالوا هذا القول لم يعرفوا الغايات التي من أجلها

شرع الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي أداء الأمانة التي حملها الله لأهل العلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

والغاية الثانية: هي هداية من كتب الله هدايته، والدعوة هي الطريق إلى ذلك.

والثالثة: هي إقامة الحجة لله حتى ينقطع عذر الكافرين يوم القيامة أمام ربهم.

والرابعة: من غايات الدعوة هي إقامة المجتمع المسلم، وتربية أفراده على الإسلام.

والخامسة: هي الذب عن دين الله، ودفع الشبهات التي تعترض الناس وتحول بينهم وبينه، وكل هذه أهداف عظيمة لا تتأتى إلا بالدعوة والجهاد السلمي والتعليم والرد على الشبهات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأما القتال، فمع أنه في نفسه من خير أعمال الإسلام وأفضلها، إلا أنه شرع دفاعاً عن حوزة الدين، وتحطيماً للسدود التي يضعها الظالمون في وجه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكسرا لشوكة الكافرين، وهو مع أهميته ومنزلته فإنه لا يجوز أن نُلغي به جهاد الكلمة، وبيان الحق، بل يجب أن يكون هذا في مكانه، وهذا في مكانه من هذه الشريعة المطهرة، وأما أن نُلغي هذا، ولا نوجه الشباب إلا للحرب فقط، ونجعل تعليمهم وتربيتهم في غرف مظلمة ولا يتعلمون إلا أساليب القتل والاغتيال، والتدمير، ولا يسمع الناس منهم كلمة حق، ثم نخرج بهم رأسا على الناس يقتلون ويخربون ويُفسدون دون أن يعلم الناس من هؤلاء؟ وماذا يريدون؟ وإلى أي شيء يدعون؟ فإن هذا من أكبر الباطل وأعظم الشر، وقد كتبنا فصلاً كاملاً من هذه الفصول عن أثر الدعوة السلمية بعنوان (الساحة الكويتية والتطرف والعنف)، فارجع إليه إن شئت.

١٠ - حكم غير المسلمين في أرض الإسلام

وأما القول بأن جميع النصارى والملل الأخرى، بل وجميع الطوائف عدا أهل السنة منهم لا عهد لهم أو أمان، ويجب قتلهم وقتالهم، فإن هذا أيضا من

أعظم الشر والفساد.. ولا شك أن المسلمين اليوم ليسوا في وضع سياسي يسمح لهم بتطبيق ما طبقه المسلمون في عصورهم الزاهرة على أهل الذمة، كإلزامهم بزي خاص، وأخذ الجزية منهم، وعدم تمكينهم من إظهار شركهم وصلبانهم، أو بناء كنائس جديدة.. الخ، ولاشك أيضا أنه قد بينت طوائف تُنسب إلى الإسلام لعلها أشد شراً وفتكا وأذى من سائر الطوائف الأخرى وأن هؤلاء إن لم يعلنوا الحرب على المسلمين علانية، فإنهم سائرون فيها سراً بكل ما أوتوا من قوة فهم ممالئون لأعداء الله من الكفرة والمستعمرين، موالون لهم، هذا في غالب أحوالهم، إلا أنه يكون منهم أيضا من ولاؤه ومحبته لأهل وطنه من المسلمين، وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نشهد بالحق، وقال عن النصارى في وقت نزول الوحي على النبي محمد ﷺ، «**ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة**» ولاشك أن إعلان الحرب هكذا من الجماعات الإسلامية على كل الطوائف غير الإسلامية، وغير السنية، إنما هو عمل أحمق جاهل لا يقره دين ولا عقل، لأن غايته أن يحرض الحكومات القائمة على أهل التدين الصحيح، ويمَكن لأعداء الإسلام من ديار الإسلام أكثر من تمكنهم الآن، وإنما البصيرة أن يُدعى إلى الإسلام الدعوة الصحيحة، وأن يُحاوَل قدر الإمكان أن توضع الأمور في نصابها، فلا يتسلم أمور المسلمين أعداؤهم، ولا يكون في جيوشهم وشرطتهم من ولاؤه لغير هذه الأمة، ومن قلبه مع أعدائها، ومن يتسلط عليها بدافعٍ من كفره أو طائفيته.. والواجب على الشباب المسلم أن يقدر كل هذه الأمور، وأن يعرف كيف يضع الأمور في مواضعها الصحيحة.

ولا شك أن الإسلام من خلال شريعته المطهرة لم يطارد غير المسلمين لكفرهم، بل حاربهم لعداوتهم وحربهم، ولما تخلوا عن العداوة والأذى، فإن غير المسلمين عاشوا في بلاد الإسلام معززين مكرمين التكريم اللائق بهم، وهذه المسألة هي من أخطر ما تواجه الدعوة الإسلامية في الوقت الحاضر، وإن لم يعالجها الشباب المسلم بما تمليه المصالح الشرعية بعيداً عن الهوى والجهل والتعصب، فإن الريح ستعصف ببناء الإسلام، وستكون هذه الطوائف هي أعظم فتنة وبلاء على أمة الإسلام.

١١ - من الذي يصح له الاجتهاد والاستنباط؟

وأما القول بأن كل أحد قادر على فهم الكتاب والسنة والاستنباط منهما، وحل مشاكل الأمة، وخاصة هذه المشاكل العويصة التي تحتاج إلى أرضية فكرية وسعة اطلاع هائل، ومعرفة بأحوال العالم اليوم، وسياسات الدول والحكومات.. خاصة بعد هذا التشعب والتداخل واهتمام كل دولة بما يحدث في الأخرى، نظرا لأن العالم قد أصبح كالقرية الواحدة، وأصبحت حياة كل دولة ترتبط بصورة أو بأخرى بما في الدول الأخرى، فبترول المسلمين مثلاً يعيش أكثر من شطر العالم عليه، وما يحدث في بلادنا يهم بالضرورة كل من ترتبط حياته بهذه المادة الحيوية، وهكذا..

وفي خلال هذا التشابك يصبح معرفة ما يجب على المسلمين عمله ليس أمراً هيناً، بل يحتاج إلى فقه عظيم ودراسات كثيرة لا تتأتى للمبتدئين، ولا للمنعزلين عما يدور في هذا العالم.

هذا، وشروط الاجتهاد التي دونها فقهاؤنا كثيرة، منها: الإحاطة أو شبهها بالكتاب والسنة، ومعرفة فقه الفقهاء، وأصول الفقه، وقواعد اللغة، وأن يكون ذا عقل راشد، وفهم سليم، وتقوى لله عز وجل، وبُعدٍ عن الهوى، ومعرفة بالمصالح والمفاسد، ومعرفة بأحوال الناس.. فكيف يقال بعد ذلك إن كل أحد يستطيع الاجتهاد وتقرير ما يُصلح هذه الأمة.. للأسف إن معظم ما قرأته مما كتبه أهل الفقه الجديد في الاجتهاد كانت من كتابات أناس لم يتعدوا الثلاثين من أعمارهم، بل كان كثير منهم دون ذلك بكثير، بل وكثير من هؤلاء لم يتتلمذوا تتلمذاً صحيحاً على علماء، أو فقهاء بل إن كثيراً منهم لم يكد يعدو وجوده في إطار الإسلام الصحيح سنة أو سنتين، وكان قبل ذلك بعيداً كل البعد عن مشاكل المسلمين وأحوالهم، بل بعيداً بنفسه كذلك عن أخلاقهم وصفاتهم، فهل يعقل أن يحرم الله علماء الأمة جميعا الفهم الصحيح لمعاني الجهاد، ويمتن بذلك على أفراد من الشباب هذا شأنهم ومبلغهم من العلم؟

ومرة ثانية نقول: إن للاجتهاد أصوله وضوابطه، وإن أعظم الاجتهاد ما يكون منه في شؤون المسلمين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فهذه أمور

متجددة متغيرة، ويحتاج المفتي والمجتهد فيها أن يكون ملماً بمشكلاتها، وهذا عكس قضايا العبادات وشؤون القربات، فإنها ثابتة لا تتغير.. أقول هذا لأنني رأيت كيف أن شابا صغيراً جمع نصوصاً عن كيفية وضع اليد في الصلاة بعد الركوع، وتتبع أقوال العلماء ثم رجح ما رآه، وظن بعد ذلك أنه مجتهد، وقال لي: أنا مجتهد لأنني اطلعت على أقوال العلماء في هذه المسألة، وكان هذا عندما بينت له ما معنى المجتهد، وطالبته بالمسائل التي اجتهد فيها، وكان له رأي، فذكر هذه المسألة، فذكرت له أن هذه المسألة ليست الوحيدة في الصلاة، بل هناك في الصلاة وحدها أكثر من عشرة آلاف مسألة، فكيف بالصوم والحج وسائر العبادات الأخرى؟ وكيف بما وراء ذلك من شؤون المعاملات والسياسات؟ لاشك أن الوصول إلى معرفة قضية واحدة أو عشر قضايا لا يجعل من الشاب مجتهداً، وإنما ذلك يحتاج إلى زمن طويل وعلم غزير بينا بعضه آنفا، ولست ممن يقول أنه لا يوجد الآنِ من يجتهد، بل لا يخلو وقت للإسلام إلا من قائم لله بحجة، كما قال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**» [متفق عليه].

ولا شك أيضا أن الله سبحانه وتعالى قد كلفنا حدود استطاعتنا، ونحن لا نكلف أن نعمل إلا بما نظن وفق اجتهادنا أنه الحق، ومن الاجتهاد سؤال أهل العلم والشورى والنظر، وعدم الاستبداد بالرأي، ولو أن كل شاب متحمس يفعل ذلك، ويرجع إلى أهل العلم والرأي من المسلمين قبل أن يُقدِم على عمل ما من أعمال الجهاد والدعوة لصلحت أحوالنا ولوفقنا الله في أعمالنا، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ولكن للأسف يخرج عليك كل يوم من لا فقه لهم ولا علم، ثم هم مستبدون برأيهم، ظانين أنهم قد بلغوا الغاية علماً وفهماً وجهاداً، والحال أنهم غير ذلك تماما.

وختاماً: فإننا ننصح هؤلاء الشباب أن يتقوا الله في أمتهم، وأن يخافوه سبحانه، وأن لا يُقدموا على أمر ما حتى يشاوروا أهل العلم والرأي من المسلمين، ففي هذا الخير كل الخير لهم، وفي هذا التعجيل بنصر الإسلام وعزه.

الباب السادس
آراء بعض العلماء المعاصرين في السياسة الشرعية في الدعوة

أحببنا أن نختم هذه الفصول ببعض الآراء لأشهر رجال يعملون في حقل الدعوة الإسلامية في أيامنا هذه، وقد اخترنا من هؤلاء الأخيار الذين يشهد لهم الناس بالخير في طول البلاد الإسلامية وعرضها فضيلة الشيخ عبد العزيز عبد الله بن باز، وأظنني لست بحاجة إلى تعريفه لأنه لا يجهله مسلم يعيش في عصرنا هذا، ويهتم بشيء من أمور المسلمين، ولا أحب أيضا أن أزكيه في هذا المقام، فمقامه أكبر من تزكيتي مهما بلغت.. وأسأل الله أن يمد في عمره.. والعالم الجليل الثاني هو الأستاذ سيد سابق الداعية الجليل، صاحب كتاب فقه السنة الذي لا يكاد يخلو منه بيت طالب علم في العصر الحاضر، والعالم الثالث هو الأستاذ عمر التلمساني، ويكفيه أنه مازال منذ وفاة الأستاذ الهضيبي مرشد عام الإخوان المسلمين، مازال هو العضو الظاهر البارز كمرشد لجماعة الإخوان المسلمين، وإليك نصوص أقوالهم:

١ - الشيخ عبد العزيز بن باز يرد على شبان مسلمين بأمريكا حول قضايا تكفير الحكام

اتصل بعض الشباب المسلمين الذي يدرسون في أميركا بالشيخ عبد العزيز بن باز يسألونه في بعض الأمور التي تهم المسلمين في كل مكان، وقد تفضل الشيخ بالرد عليهم هاتفيا، وفيما يلي مجمل الأسئلة وردود الشيخ عليها:

هناك من يقول بأن كتاب العقيدة الطحاوية لا يمثل عقيدة السلف، وأنه

توجد فيه أخطاء، وبخاصة في الشرح، فهل هذا صحيح ؟

الشيخ ابن باز: لا، هذا ليس بصحيح، وفيه أخطاء قليلة نبه عليها الشارح، والتي طبع عليها أحمد الشاكر والشيخ ناصر الدين الألباني وشرحه طيب ومفيد وسلفي، وهو من تلاميذ ابن كثير رحمه الله والأخطاء قليلة في المتن ونبه عليها الشارح.

ما قولك في قول أبي جعفر الطحاوي: " ولا يكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله"؟!.

ـ المراد بذنب أي دون الشرك أي المعاصي هذا هو قول أهل السنة والجماعة، أنه لا يكفر مسلماً بذنب دون الشرك كالزنا والسرقة، وهذا ردهم على الخوارج، والطحاوي مصيب بذلك القول:

وأهل السنة والجماعة لا يرضون عن قول الخوارج بأن العاصي يخلد في النار، وكل كتب عقائد أهل السنة ينبه بها إلى هذه النقطة، وهذه هي عقيدة السلف، ومن خرج عن هذا فهو من عقيدة الخوارج والمعتزلة.

ـ هل يدخل ضمن هذه القاعدة الحكام والمحكومون ؟ أم أنها خاصة بالمحكومين فقط ؟.

ـ يدخل في هذه القاعدة الجميع: الحكام والمحكومون.

ما قولك في حاكم لا يحكم بما أنزل الله، وهو يعتقد بأنه مخطئ، آثم في عمله هذا؟

ـ من يفعل هذا يكون عاصياً، وقد أتى كبيرة، عظيمة إذا كان لا يستحله، ولكنه تابع الناس لمقاصد سياسية أو لمقاصد دنيوية، ويكون عاصيا وكافراً دون كفر، وظالما دون ظلم، فإذا استحله، أو قال بأن القانون أفضل أو مساويا يكون كافراً عند جميع المسلمين.

ـ هناك من الناس من يقول إن هذا شركه أكبر، لأنه نازع الله في خاصية من خصائص الألوهية، وهي أن الحاكمية لله.. فما رأيكم؟

ـ الحكم لله بلا شك، وكذلك المال لله، ولكن من أخذ المال بغير حق كالسرقة والغصب لا يكفر، هكذا من حكم بشيء برشوة، أما إذا حكم مستحلاً كفر.

وإذا قلت بأن الحاكم لا يستحل هذا العمل، يقال إن هذه فتوى الشيخ عبد العزيز بن باز في تعليقه على كتاب فتح المجيد، فالشيخ ابن باز كفرهم ولم يُفرق المستحل من غير المستحل، ويقال: بأنك علقت على هذا بقولك على الآية: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾. إن مثل هذا، وشر منه من اتخذ كلام الفرنجة قوانين يتحاكمون بها في الدماء والفروج والأموال، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله، ولا ينفعه أي اسم تسمى به، ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام ونحوها، يقال بأن هذا هو كلامك في فتح المجيد.

ـ ما أعلم أن لي تعليقا مثل هذا، ومن الذي نسبه إلي (هذا كلام حامد الفقي والله أعلم) أ.هـ.

هناك من الناس من يقول أنتم تضيعون أوقاتكم في بيان الشرك القديم، وهو التوسل بالقبور والاستغاثة بهم، وتنسون الشرك الحديث، شرك الحاكمية أو شرك الحكام، وأولى عندهم الاشتغال بتكفير الحكام والعمل على الخروج عليهم من العمل في الدعوة في هذه الأيام.. فما قولكم في هذا ؟

ـ هذا غلط، وهم مساكين، فالأولى تصحيح عقائد الناس وتبصيرهم، وتبيان لهم حقيقة الشرك والكفر من جهة الوثنية، ومن جهة الشيوعية، ومن جهة الإباحية، أما قولهم بالخروج على السلاطين، فهو من شأن الخوارج والمعتزلة، الخروج ليس فيه غير القتل والفساد، يقتلون ويُقتلون، فهم يبيدون أنفسهم ويبيدون الدعوة، وهذا فيه فساد عظيم.

٢ – رأي الشيخ سيد سابق حول السياسة الشرعية في الدعوة (تحقيق صحفي في جريدة الوطن).

كتب نبيل الصفار: الشيخ الفقيه "سيد سابق" أحد أبرز أقطاب الدعوة الإسلامية المعاصرة، وهو من أولئك الذين تمرسوا بالعمل الإسلامي مروراً بمراحله مداً وجزراً، قرابة الأربعين عاما. والشيخ الفقيه، من المقربين للإمام حسن البنا رحمه الله وقد كان فضيلته أحد مؤسسي الخلايا السرية المقاتلة

للاحتلال الإنجليزي.

وسيد سابق في لقاء الشؤون الدينية في "الوطن" به يرسم خطوطا عريضة لشباب الانبثاقة الإسلامية المعاصرة، وهو عندما يتحدث عن بعض القضايا التي تعصف رياحها بالعمل الإسلامي، فإنما يضع يده على جراح توشك أن تتعمق وتغور في الأعماق، وتكاد تدمي أصحابها، وقد تتباين الآراء وتختلف في بعض ما يطرحه، ولكنها خطوة لابد منها لحوار إسلامي يرشد شباب الدعوة إلى الصراط المستقيم السوي في طريقٍ ملؤه الأشواك والعقبات.

في بداية اللقاء يطرح فضيلته عدة أسس وضوابط يرى أهميتها للدعوة المعاصرة، حيث يقول: الملاحظ أن هناك يقظة تُبشر بخير، ولكن هذه اليقظة تفتقر إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنها تحتاج إلى توعية كاملة، فالحماس وحده لا يكفي والعاطفة الجياشة أيضا لا تكفي، بل لابد من أن يصحب ذلك الوعي الصحيح، والوعي بالظروف والمتطورات حولنا.

والأمر الثاني: أن هذه الانبثاقة الطيبة تحتاج إلى تنظيم، فكل جماعة هي صاحبة نية طيبة وقصد حسن، ولا أتهم هؤلاء في نواياهم ولا إخلاصهم، ولكنهم لا يأتون البيوت من أبوابها، فهؤلاء بحاجة إلى تنظيم، والحياة الآن مبنية على النظام، والنظام هو الذي يوفر لنا الجهد.. ومن الملاحظ أن كل جماعة تبدأ من حيث انتهت جماعة أخرى، ثم تأتي جماعة أخرى لتبدأ من جديد، وهكذا تستمر العملية "محلك سر".

والأمر الثالث: أن التنظيم يحتاج إلى قيادة، فالقيادة هي التي تضع الخطوات والأسس والقواعد الضامنة لنجاح الدعوة.

فهذه الأمور الثلاثة هي التي تفتقر إليها الدعوة، ويجب على أي حركة من الحركات أن تبدأ واعية لأهدافها وغاياتها، عارفة بالأساليب والمعوقات، وكيف تستطيع أن تأخذ طريقها في وسط التيارات.

ويحدد الشيخ الداعية سيد سابق ملامح الخطوة التالية، وهي التي اصطلح على تسميتها تنظيميا "بالتجميع"، حيث يقول فضيلته: لدينا عمال وسيدات

وشبان وجامعيون لهم تدين، ولكن كل من أولئك يسير في طريق دون أن يكون له تلاق مع البقية، فتكون النتيجة قليلة الثمر، فلابد أن يضاف "الوعي" بعضه إلى بعض، ويكون للعمال منهج يسيرون عليه، وللشباب منهج في كيفية مواجهة القيادات، ومعرفة تنمية الأطفال على الطريقة الإسلامية، ويجب أن نعرف ماذا نقدم للمرأة، فلابد من التناسق وفقا لقاعدة موجهة، بحيث يمكن أن تثمر على أساسها الدعوة.

لا صدام مع الأنظمة:

وحول طبيعة وملامح التحرك الذي يجب أن تصطبغ به هذه الانبثاقة الإسلامية يقول الشيخ سيد: في هذه الحركة، ينبغي ألا نصطدم بالحكومات، لأن الاصطدام يؤدي إلى نتيجة خطأ، وموقفنا من الحكومات إن كانت مسلمة، أن نطالبها بالعمل بالإسلام والمزيد منه، وإن لم تكن مسلمة، نطالبها بأن تعمل بالإسلام، ولكن لا ندخل معها في صدام!.

هناك بعض الآراء ترى أن الوضع الفاسد القائم، إنما هو بفعل الأنظمة الفاسدة، ولا يتغير هذا الواقع إلا بالمصادمة مع النظام الفاسد، فما رأيك؟

المصادمة مع الحكومات خطر كبير لأن الحكومات عادة تملك المال والسلاح والقوة، وليس هناك قوة تستطيع أن تواجه هذه القوة، وعلى هذا تكون الدعوة التي تواجه الحكومات تقضي على نفسها بنفسها، فليس من الشجاعة أن أرى أسداً، وأقول أنا شجاع وأعبث بذيله، فليست تلك بشجاعة، والرسول عليه الصلاة والسلام، في ليلة من ليالي العقبة، جاءه الأنصار، وقالوا يا رسول الله: اسمح لنا أن نقتل الكفار كافة ونقضي على رؤوس الكفر، ولا يشرف النهار حتى تعلن الدعوة، وتكون ملكا، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**لم أؤمر بهذا**»، وكان بإمكان الرسول أن يقضي فعلا على كل الكفار، فهذا المنطق حق أريد به باطل، ولكن لابد من تربية الشعب الذي سيحمل الدعوة على أكتافه.. افرض أنني قتلت حاكماً أو اثنين أو ثلاثة، وأخذت الحكم، ولكن.. أين الشعب المهيأ الذي سيحمل الرسالة.

ويضيف الشيخ سابق: إن الانقلاب المقبول هو الانقلاب الشرعي الذي

يأتي عن طريق الأمة نفسها، وهي التي تطالب الحاكم بالعمل الإسلامي، أو (بالتنحي عن الحكم) فإذا بلغ الشعب ذلك، وكانت عنده القدرة والاستعداد على الإطاحة بحكومة والإتيان بحكومة مثالية وممثلة للإسلام، عندئذ اشترط لهذا ثلاثة شروط هي: عدم سفك الدماء، وعدم تخريب البلاد، وعدم إضعاف الدولة أمام غيرها.

هل يُفهم من ذلك أن الدعوة الإسلامية التي لا ترى الأسس التي ذكرتها قد أخطأت سبيل التغيير السليم ؟.

يا سيدي، ذلك أشبه "بغسل الدم بالبول"، وتغيير للخطأ بخطأ أكبر منه، ونحن غير مكلفين بذلك، وموقفنا "من الحكام" أن ندعوهم وننصحهم، وقد أخبرنا الرسول عليه السلام بثلاث مراحل: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»، ولم يأمرنا الرسول بأن نقتل أنفسنا، ولنا الحق أن نقتل أنفسنا بشرف، وأما أن تقتل النفس نفسها، فهذه عملية انتحارية وليست بجهاد، فالجهاد ما شرعه الله، والرسول عندما أخبر أن الحكام سيغيرون ويبدلون، فقال الصحابة: أفلا نقاتلهم، قال الرسول عليه السلام: «**لا، ما أقاموا الصلاة**»!.

ولكن الرسول عليه السلام قال: «**إلا أن تروا كفراً بواحاً**»؟. نعم، ولكن هذا مع ملاحظة الشروط التي ذكرتها. والحكم بغير ما أنزل الله، أليس من الكفر البواح؟

قد يكون، ولكن يجب أن يكون عند القدرة على التغيير الذي لا يترتب عليه ضرر، وكما قلت فأنا لا أغسل الدم بالبول "وإلا يبقى ما عملتش حاجة، وزودت النجاسة"!.

لا اغتيال في الإسلام:

والشيخ سيد سابق لا يقر ما يسمى بالاغتيال السياسي، حيث يقول: لا يوجد في الإسلام اغتيال، الإسلام عنده النصيحة، وكلمة الحق التي تقال عند سلطان جائر، الرجل الذي قام إلى سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله، " ماقالش قام إلى إمام جائر، فصوبه وموته"، ومن ناحية الحكم الشرعي، فالإسلام لا

يرى هذا، إنما الإسلام يرى إعداد الأمة إعدادا كاملا، ثم الأمة هي التي تطالب بحقها، فإن كان لها حق وسكتت عنه فهي كالشيطان الأخرس، وإذا تكلمت تكون قد أدت الواجب الملقى على عاتقها، وربنا لا يكلفنا أكثر من طاقتنا.

وجد التطرف الديني طريقه في عهد الخلفاء الأوائل متمثلاِ بالخوارج الذي أخبر الرسول عليه السلام عنهم، فهل للتطرف وجود في محل العمل الإسلامي المعاصر؟.

- في الحقيقة لا أحسب أن هناك تطرفاً في زماننا، فذاك التطرف "الخوارج" تصرف مذهبي عقيدي، والعقيدة لها أصول، وشكلت مدرسة قائمة بذاتها لها فلسفتها، ولا يوجد عندنا ما يمكن تسميته بتطرف، ولكن كل ما يوجد أن لدى بعض الأخوة يقظة ضمير، وقوة إيمان، وحينما يجدون أنفسهم في وسط الجاهلية الموجودة، يشعرون بآلام كثيرة للفرق الكبير جدا بين ما يدينون به ويعتقدونه، وبين الواقع القذر، فيحصل لديهم نفور من هذه النقائص التي يرونها.

ما موقفنا من هذه الطائفة؟

- هؤلاء جهلة، ويجب أن يتم تعليمهم، ولا نرميهم بأكثر من الجهل.

منحرفون لا متطرفون:

هناك من الجماعات من ينسف عهد السلف الصالح، ولا يقرون له بمكانة، ولا يأخذون باجتهاد الخلفاء الراشدين أو الأئمة، ويعتزلون مساجد الدولة والمجتمعات، ألا يمكننا أن نسمي هذا تطرفا ؟

- هؤلاء ليسوا متطرفين، وإنما هم منحرفون فعلاً، وبعيدون عن الإسلام، ويبدو لي أن الاستعمار يقظ، ويريد أن يوقع الفرقة بين المسلمين ليشغلهم عنه، ولذلك يقوم "بتصنيع ناس مخصوصين باسم الإسلام"، ويمد لهم، ويمكن لهم، وهم الذين روجوا هذه الأفكار، فيعمدون إلى تلقين الناس الأغرار الطيبين ذوي اليقظة والضمير الحي تلك الأفكار، في الوقت الذي يغيب فيه الإسلام، فيتلقون هذا دون أن يجدوا غيره، مشكلين مدرسة عقائدية جديدة، متبنين آراء غريبة جدا، دون الالتفات إلى أهل الرأي المخلصين، فهؤلاء كُونوا تكوينا خاصا ليكونوا نشازا في المجتمع الإسلامي والحركة الإسلامية، وباسم الدين،

مثل جماعات التصوف، واتباع الطرق، الذين تم تكبيرهم في المجتمع الإسلامي ليكونوا معولا من معاول الهدم، وكذلك هؤلاء المتطرفون هم معول هدم، ولابد أن يكون هناك من يحركهم ولا نعرفه، والدليل على ذلك، أنهم يكثرون وينتشرون بشكل غير عادي، بينما يمضي دعاة الحق سنوات دون أن يتمكنوا من تجميع الناس حولهم، فكيف تمكن هؤلاء؟

ألا تظن أن للحكومات يدا في تصنيع هؤلاء لأهداف ما ؟

ـ الدول تريد أن تشغل الناس بعضهم ببعض، فبدلا من أن تدخل معهم في معركة، تشغل حيزاً من الشباب بمثل ذلك، كجماعة القرآنيين، أو أصحاب السنن أو البدع، فالدولة تعرفهم وتتغاضى عنهم لتشغلهم عنها بما خلقوه لأنفسهم، أو بما خلقه العدو لهم.

عبد الناصر من الإخوان:

شيخ سيد، من المعلوم أنك أحد أبرز الدعاة التنظيميين في دعوة الإخوان المسلمين في فترة مضت، وكان جمال عبد الناصر من ضمن المجموعة التي تعمل فيها، فهل كان جمال حقاً إخوانيا أم استغل الإخوان لصالحه؟!.

ـ سأقول كلمة حق في ذلك، أولا جمال عبد الناصر كان من الإخوان المسلمين يقيناً، وقد بايع مع كمال الدين حسين في ليلة واحدة على المصحف والمسدس، وكان جمال تابعاً للخلايا السرية، وبقي كذلك حتى قامت الثورة، وكانت فكرة الخلايا السرية أساسا محاربة الإنجليز، فإذا استطاع الإنجليز القضاء على الهيكل الظاهري، فيكون وجود الخلايا السرية باقيا كقوة، وقد كان لي دوران في الهيكل التنظيمي للإخوان، في الجماعات السرية وكذلك الظاهرة، ولم يكن أتباع الظاهر يعلمون بأني مسؤول إحدى الجماعات السرية الباطنة، والتي يتبعها جمال عبد الناصر، وعندما قام جمال بالثورة مع الإخوان الذين يعرفونه، ونجحت ثورته بدأ الخلاف، وأساس الخلاف الدائر كان حول "من الذي سيحكم"؟! وعندما كبر بدأ يتنكر ويقول: "كنت بروح للشبان، وبروح للإخوان، وأروح لمصر الفتاة، وأروح للشيوعيين" والجماعة المحيطة به تكتب مذكرات كاذبة، ومضى في طريقه المعروف.

آراء الأستاذ عمر التلمساني حول بعض مسائل السياسة الشرعية في الدعوة حوار أجراه معه أحمد باقر:

جريدة (الوطن) الكويتية - الجمعة: ٢٥ يونيو سنة ١٩٨٢

الأستاذ عمر التلمساني غني عن التعريف، فهو زعيم من زعماء حركة الإخوان المسلمين، عاصرها منذ نشأتها الأولى على يد الأستاذ حسن البنا، وتحمل في سبيل دعوته السجن والبلاء مرات كثيرة، وحول حركة الإخوان المسلمين والتطرف الديني والسياسة في مصر والعالم الإسلامي كان لنا هذا الحوار الشائق مع عمر التلمساني في شقته بالقاهرة يوم الجمعة الماضي.

يدور جدل كبير في أوساط الدعاة المسلمين عن كيفية الوصول إلى تطبيق الشريعة الإسلامية في مجتمعاتنا اليوم؟ وهناك أطراف متناقضة في فهم سيرة الرسول ﷺ في كيفية الوصول إلى تطبيق الشريعة في زماننا هذا، بل إن هناك من يفسر حركات الدعاة القديمة بتفسيرات كما يريدها وكما يشتهيها هو، فما هو التفسير الحقيقي لدعوة الإمام الشيخ حسن البنا (دعوة الإخوان المسلمين) من هذه القضية ؟

التلمساني: لو أن الشباب المشتغل بالدعوة الإسلامية قرأ كتاب الله قراءة مستبصرة، وألم بأحاديث رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين والسلف الصالح لتبين طريقه في الدعوة إلى تطبيق شرع الله في العالم الإسلامي كله، ولكن هذا الشباب بحكم حماسه واندفاعه يريد أن يحقق تطبيق الشريعة الإسلامية ما بين يوم وليلة، ولو كان هذا في قدر الله سبحانه وتعالى لأنجى نبيه صلوات الله وسلامه عليه من كثير من المتاعب والإهانات التي وُجهت إلى رسول الله ﷺ طوال مكثه في مكة، ولكن الله سبحانه وتعالى، وقد أراد لأتباع هذا الدين أن يُحكموا عقولهم، وأن يُدبروا أمورهم وفق منطق العقل السليم، ولا أريد أن تكون العاطفة بعيدة عن موازين العقل، ولكن كما يقول إمامنا الشهيد: (ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول)، لابد للمسلم أن يكون صاحب عاطفة ولابد أن يكون عاقلا وحصيفا وأريباً، وما أصدق رسول الله ﷺ يوم أن قال: «**إن في المعاريض مندوحة لكل أريب**»، الرسول عليه الصلاة والسلام المؤيد بالوحي

من السماء، الذي أرسل الله له رسولا ليطبق الجبال على كفرة مكة فأبى هذا الرسول، وذهب إلى الطائف، فتسلط عليه غلمانها وسفهاؤها، ويقذف بالأحجار حتى يُدمى كعبه الشريف، فيأوي إلى حائط.. فماذا قال عليه الصلاة والسلام: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس**» محمد عليه الصلاة والسلام لم يكن ضعيف القوة، ولم يكن قليل الحيلة، ولم يكن هيناً، أشرف الخلق عند الله لم يكن في مركز الهوان..

ولكنها سنة الدعوة، والله سبحانه وتعالى لم يرد لهذا الدين أن يسير طوال مدة التاريخ إلى أن تقوم الساعة على المعجزات والأمور الخارقة للعادة، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن تكون نواميس هذا الدين وقواعده وطرقه وأساليبه متماشية مع المنطق العقلي البشري، الذي يهتدي بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.. لقد أوذي في مكة إيذاء شديداً، وكان يمر على آل ياسر، ومن أروع ما كان يقول: «**صبراً آل ياسر، لا أملك لكم من الأمر شيئاً**»، إن الرسول في هذه الكلمة عليه الصلاة والسلام يريد أن يقول للناس إنني مجرد من القوة التي أستطيع بها أن أدفع بها عن أصحابي الإساءة لهم، مع أنه لو قال: "يارب نج آل ياسر" لنجوا فوراً، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام يريد منا أن نعمل، وكتاب الله سبحانه وتعالى يريد منا أن نعمل، يقول: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟﴾، ولا شيء غير العمل، والنتائج إلى الله سبحانه وتعالى، أمرنا أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، وجعل الفقهاء لهذا الأمر مقياسا وضوابط، وقالوا: إن كان الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر يأتي بشر أكثر مما هو واقع فلا داعي لهذا، لأن الدين ينظر إلى المصلحة بدقة، وإلى الواقع بدقة، ولا يريد أن يكلف أحداً فوق طاقته، وحسبنا أن يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فإذا كان في بلد من البلاد دعاة إسلاميون يدعون إلى الله سبحانه، فكيف يتبادر إلى أذهانهم أنهم يستعملون العنف في الدعوة إلى الله، ويقاومون حكومة وجيشا وشرطة وبوليسا، وهم مجردون من كل هذا؟.. إن الله ينهانا أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة بأنفسنا.

ويستطرد الأستاذ التلمساني: إن صحابياً جليلاً هو البراء بن مالك أو

البراء بن عازب كان جسوراً جسارة تفوق الحد، وهو الصحابي الذي قال للمسلمين حين اعتصم المرتدون بحديقة بني حنيفة: ضعوني في المنجنيق واقذفوا بي إلى الحديقة، وأفتح لكم الباب من الداخل.. ولكن، وعندما كان عمر أميرا للمؤمنين، قال لقائد الجيش سعد بن أبي وقاص حول هذا الصحابي الجليل: "لا تُوله إمرة سرية من السرايا على المسلمين أن يقدم بهم المهلكة ".. إذن ليست الأمور متعلقة بالحماس والاندفاع.

وعندما كان رسول الله ﷺ في مكة كان يصلي إلى الكعبة، وفوق الكعبة ثلاثمائة وستون صنما.. محمد الذي جاء بالتوحيد كان يصلي إلى الكعبة وفوقها الأصنام لم يمد يده إلى صنم واحد، لأنه لا يستطيع تبعا للسنن الكونية في هذا الدين، فلما واتته القوة ونصره الله وأيده بنصره وبالمؤمنين، دخل مكة وكان يشير على الأصنام واحدا واحدا فتتهاوى إلى الأرض، هل كان يدين بالولاء إلى هذه الأصنام حتى يصلي إليها وهي فوق الكعبة؟ الجواب بالنفي، لكنه كان لا يملك شيئا، فقد كانت تنقصه القوة المادية التي يستطيع بها أن يفعل ما يريد، فلما اشتد الإيذاء وأُذِن له بالهجرة استقر في المدينة ودخل المدينة، فماذا فعل؟ تحالف مع اليهود، فلما نكثوا نكثوا على أنفسهم لم ينكثوا عليه.. تحالف مع اليهود رغم أنه هو الذي بلغنا قرآن الله سبحانه وتعالى الذي يقول: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾، وفعل ذلك لأن منطق العقل يقضي بهذا، كان يعقد المحالفات مع المسلمين ومع غير المسلمين.. إذن أطلب من شباب هذا اليوم أن يجعل لعقله سيطرة على تفكيره قبل أن يندفع؟ نحن لا نريد أن نقول له أطفىء حماسك، فالرسول ﷺ يقول: «**نصرني الشباب**»، شباب كل أمة هم عدتها في حاضرها وفي مستقبلها، ولكن لا نريد منهم أن يكونوا شباباً متهوراً، فالضرر في التهور أكثر من النفع.

ثم هذا الشباب لو أنه جاد حقا في الوصول إلى الشريعة، والغد في كل أمة من الأمم لهذا الشباب، فبدلا من أن يُلقي بيده إلى التهلكة، ويصطدم مع القوة العادية التي تفوقه بمراحل، (وياليتها قوة داخلية، ولكنها قوة داخلية وخارجية)، فليحكم العقل، وليهتم بنشر الدعوة، ويصنع كل شاب من نفسه

مسلما صحيحا، فلن تمضي عشر سنوات أو أكثر أو أقل حتى يكون هذا الشباب هو الذي يتولى أجهزة الحكم في الوطن الذي يقيم فيه، فإذا كان على رأس جهاز الشرطة مسلم تقي ينفذ أوامر الله، وعلى رأس الجيش تقي مسلم ينفذ أوامر الله، والقضاء والمالية والاقتصاد، والاجتماع، والأخلاق، والتعليم إذا كان على رأس كل جهاز من هذه الأجهزة مسلم فقد انتهى الأمر.. هو الذي سيدير وسيصل إلى ما يبتغي دون أن يخاطر بمن معه من الدعاة.

وأقول للشباب كن واسع الصدر طويل الأناة، لا تندفع، لا تجعل إنسانا يجرك إلى معركة خاسرة يحدد هو مكانها وزمانها.. هذا الكلام يستتبع مني أن أقول إن الاغتيالات تنتج من الآثار أسوأ مما يُنتجه عدم الاغتيال، لأنه إذا اغتيل حاكم له بطانة وله أنصار وله مستفيدون كل هؤلاء لا يجدون أمامهم إلا ضرب الدعوات الإسلامية في البلد الذي حدث فيه الاغتيال، وياليتهم يُحكمون حتى القانون الوضعي، فلا يحاكمون إلا من اغتال.. لا.. إنهم يضربون الدعوة في جميع أشخاصها، ومن يدري أن حوادث الاغتيال قد تُدبر أحيانا لضرب الدعوة الإسلامية، وينساق إليها الشباب وهم معصوبو الأعين.

ويسكت الأستاذ التلمساني ثم يستطرد: "تعالوا معنا إلى رسول الله ﷺ في بعض المواقف الأخرى.. يمسكه أعرابي بثوبه من عند عنقه ويجذبه حتى يؤثر الرداء في عنقه الشريف، ويقول: يا محمد إنكم قوم مطل، ويهم عمر بشبابه أن يستل سيفه فيقتله، فيقول محمد ﷺ: **«لا يا عمر لا يقول الناس أن محمدا يقتل أصحابه مُرْه بحسن الاقتضاء ومرني بحسن الأداء»**، محمد عليه الصلاة والسلام يُسمي الأعرابي الذي يفعل فيه ما فعل من أصحابه، (لا يقولون محمدا يقتل أصحابه) ليست هذه من التصرفات التي يجب أن يتبعها شباب الجيل لنصرة هذه الدعوة، كل ما يطلب منهم وهو سهل ميسور أن يقيموا من أنفسهم ومن أصدقائهم ومن أهليهم مسلمين أتقياء.

ولو أن كل مجموعة من الشباب في حي من الأحياء أقامت من نفسها خادمة لهذا الحي، تزور أهله، وتقدم لهم المعونات في الأفراح والأحزان، تسأل عن مريضهم، تعينهم على نوائب الدهر، سيجدون من أهل الحي عطفاً

وحباً ومودة، وسوف يستجيب هؤلاء لهذا الشباب بعد ذلك.

حقيقة تنظيم حسن البنا:

عدت أسأل: هل هذا رأيك فقط؟ أم هو كما تعتقد رأي حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان ؟

وأجاب:

- هذا الرأي كونته من تعاليم الأستاذ حسن البنا، ومن قيادة الأستاذ حسن الهضيبي رحمة الله عليهما، فهما ما كانا يدعوان إلى صدام أبدا.

ولكن هناك من يقول إن الشيخ حسن البنا أسس التنظيم السري للصدام والانقلاب؟

- هذا مفهوم خاطىء، فقد نشأ هذا التنظيم أول ما نشأ لمقاومة الإنجليز المستعمرين في مصر، واليهود الذين نزلوا في فلسطين، ولو أنك اطلعت على القضايا التي عرضت على المحاكم، والأوراق التي ضبطت، لرأيت أن التخطيط للهجوم والحرب والصدام لا يتفق مع البلد الذي يقيم فيه هذا الشباب، ولكن طبيعة الأرض كانت تملي على هؤلاء الشباب أن يتدربوا تدريبا معيناً على طبيعة الأرض التي سيقاتلون عليها اليهود في فلسطين.

هل كان اغتيال الشيخ حسن البنا كنتيجة سلبية للاغتيال السياسي الذي قام به بعض الدعاة ؟.. يقال مثلا إن هناك بعض المتحمسين على أيام الشيخ حسن البنا، قام باغتيال النقراشي، فرد أعوان النقراشي باغتيال حسن البنا.

- هذا القول له جانب من الصحة، وحقيقة الأمر - ولعلي أعتذر إلى الشباب - بأني استشهد بغير مسلم.. بكتاب أو برسالة للدكتور (متشن) قال: إن الإخوان المسلمين لم يقتلوا النقراشي، ولكن النقراشي هو الذي قتل نفسه باستجابته إلى مطالب القصر والإنجليز - أعوان النقراشي - الذين كانوا يستفيدون منه قطعا، أرادوا أن يثبتوا أنهم رجال، وأنهم يثأرون، فاغتالوا عن طريق الحكومة التي كانت قائمة في ذلك الوقت الإمام الشيخ، واشترك فاروق في هذا الاغتيال، لأن الأستاذ البنا عندما نُقِل إلى مستشفى القصر العيني كان يمكن إسعافه، ولو أُسعف لنجا، ولكن حياته انتهت، وقدر الله لابد أن يتم،

فأمر فاروق الأطباء أن يتركوه ينزف إلى أن مات.

إذن فقد كان اغتياله رداً من أعوان النقراشي ؟

- التلمساني: هكذا حصل..

هل بلغت رأيك هذا إلى الشباب المسلم في مصر؟

- لقد ذهبت إلى جميع الكليات في الجامعات المصرية، وتحدثت معهم في هذا بمنتهى الوضوح، وقلت لهم: إن الحكومات تكره الأسر، وتعتبر أن هذه الأسر خطر عليها، وأنا علانية أدعوكم إلى تكوين الأسر ولكن في شكل وصورة واضحة.. خمسة أو ستة من شباب الحي يجتمعون ويتدارسون ما يصلحهم وما يضرهم، وما ينفع الحي الذي يقيمون فيه، وما يؤدي إلى تفضيله على غيره من نظافته وصحته وأحواله.. كنت أدعو إلى هذا، وكنت أصارحهم بأنني ضد الاغتيالات.

وماذا كان جوابهم ؟

- الكل كان يستمع، والدليل على أنهم كانوا يستمعون أن الأحداث الأخيرة أثبتت دائما أن أحدا من الإخوان المسلمين لم يشترك فيها، وكما سئلت أمام المدعي الاشتراكي هل كل الذين انحرفوا وتطرفوا بالمفاهيم الدينية من الإخوان المسلمين؟ أو كانوا من الإخوان المسلمين؟ إن هذا تجن على الحقيقة، لأن هذا الشباب لو وجد في صفوف الإخوان المسلمين متنفسا لأفكاره لبقي في الإخوان، واستعان بعددهم وكثرتهم، لكنه لم يجد متنفساً لآرائه في صفوف الجماعة، فخرج منها، وكون ما شاء.

إني لا أهاجم الجماعات، ولكني أقول يجب على هذا الشباب أن يحكم عقله.

تجربة السجن:

إذن من قام بهذه العمليات المتطرفة لم يكن من الإخوان المسلمين؟

- لم يكونوا من الإخوان المسلمين، ورئيس جمهورية مصر صرح بعد الاغتيال بأن الإخوان المسلمين بعيدون عن هذا الفعل.

هل كانت هناك محاولة فعلية لاغتيال جمال عبد الناصر في ميدان المنشية؟

- ثبت على لسان بعض الضباط الأحرار، وعلى لسان رئيس جمهورية مصر الأسبق محمد نجيب: أن هذه المؤامرة مدبرة من حاشية جمال عبد الناصر، ليوجدوا له شعبية من صفوف الشعب المصري.

إذن لم يكن السجن الأخير (المحنة الأخيرة) التي عشتموها في السجن.. هل كان فيها تعذيب كسابقتها أيام عبد الناصر مثلا ؟

- أنا سجنت سجناً انفراديا وباعدوا بيني وبين العالم كله من يوم أن قبضوا علي، كل الذين قُبض عليهم أيام سبتمبر الماضي كانوا مع بعضهم بعضاً (عداي)، فقد وضعوني في مكان منعزل، ولم يضعوا معي مخلوقا، وقطعوا ما بيني وبين العالم، لا جرائد ولا مجلات ولا إذاعات ولا شيء بالمرة، ربما هناك تعذيب وقع، ولكني لم أر شيئا.

مستقبل مجلة الدعوة:

هل تتوقع أن يفرج مرة أخرى عن مجلة الدعوة ؟ وهل تعود إلى نشاطها؟

- لقد صدر حكم لصالح المجلة أمس الخميس ١٧ يونيو.. صدر حكم برفع الأختام الموضوعة على دار المجلة في ميدان التوفيقية، وفي ميدان السيدة زينب.

الحمد لله.. هذا شيء عظيم جدا - شيخ عمر- لأنه بعد إغلاق المجلة حدث لغط كثير لا نعلم أين الصحيح منه، فهناك من يأتي ويقول هذه آراء الشيخ عمر التلمساني، وهناك من ينفي أن تكون هذه آراء الشيخ عمر التلمساني، حتى إن بعض الصحف الإسلامية التي تصدر خارج مصر - بعد إغلاق مجلة الدعوة المصرية - ظهر فيها إعلان كبير يحذر من قبول أي حديث ينسب إلى الشيخ عمر التلمساني في الجرائد المصرية، فهل هذا صحيح؟ وخاصة أن هذا الإعلان نشر بعد مقابلتكم الشهيرة في آخر ساعة؟

- كل كلمة صدرت في الصحف المصرية، أو المجلات المصرية أنا مسؤول عنها، ورصدت كما قلتها، بلا تحريف ولا تجريح، سواء أرضى هذا الناس أو لم يرضهم، ليس هذا في حسباني، أنا إذا تحدثت أنظر إلى الله

سبحانه وتعالى وحده، لا أنظر إلى بشر، وأقول ما أعتقد أنه الحق، قد يكون ما أعتقد أنه حق خطأ، ولكن أقول وأنا مؤمن أنه صواب وإذا تبين وجه الخطأ فيه - طبعاً الإنسان يجب أن يعدل عن الخطأ إلى الصواب - وإنه لم يحرف عني كلام ولم يزد علي أو يزيف علي الكلام.

المد الإسلامي لن يتوقف:

شيخ عمر: كانت فترة السبعين إلى الثمانين فترة ذهبية بالنسبة للدعوة الإسلامية في مصر، خاصة في شباب الجامعات، وأنا كنت طالبا في جامعة الإسكندرية في هذه الفترة، وعاصرت هذه الدعوة.. فهل تعتقد أن هذا المد قد توقف الآن بعد اغتيال السادات، والإجراءات الأخيرة التي فرضت على الشعب كرد فعل لهذا الإجراء؟ أم أن هذا المد مازال مستمراً؟

- هذا المد لم يتوقف، ولن يتوقف لأنها دعوة الله سبحانه وتعالى، والذين يقومون بها ليسوا طلاب دنيا أبدا، كلهم يطلبون تطبيق شرع الله سبحانه وتعالى في البلاد الإسلامية، ولعل من أكبر انتصارات هذه الدعوة أن الفترة التي ذكرتها، اضطرت الحكم القائم حينذاك أن يرصد في المادة الثانية من الدستور أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتقنين في مصر، هذا النص لم يطبق إلى الآن، ولكنه انتصار للدعوة الإسلامية.. أن يجبر الذين يقاومون الدعوة الإسلامية أن يتستروا خلف الإسلام، معنى هذا أن الإسلام لا يزال الصخرة المنيعة التي يتستر خلفها كل من يريد أن يؤذي دعاة الله سبحانه وتعالى.

التطبيع:

كيف تفسر الأوضاع العربية الحالية؟ وما موقفكم كدعاة مسلمين تمثلون حركة إسلامية شهيرة جداً من قضية التطبيع مع اليهود مثلا ؟

ـ لقد كتبت في هذا الموضوع في مجلة الدعوة، وذكرت حوالي عشرين سببا في وقف التطبيع.. بعنوان (التطبيع شر كله) وكان هذا المقال من بين المقالات التي أثارت العهد الماضي، وأنا أعتقد لو أن جميع المسلمين في البلاد الإسلامية قاطعوا كل ما هو يهودي سيبوء التطبيع بالفشل، وأقول: إن المسلم إذا رؤي سائرا مع يهودي، أو مؤاكلا له، أو مصادقا له يعتبر آثماً عند

الله سبحانه وتعالى، إن كانت هذه المؤاكلة أو المصادقة عن إخلاص بالنسبة له.

وبالنسبة لعودة مصر للصف العربي

- أيضا كتبت في هذا، واستغله العهد الماضي عندما قبض علي.. قال: إن عمر يستعدي البلاد العربية على مصر، ولم أقل هذا، أنا قلت إنني سمعت أن المرحوم الملك خالد رجل طيب، فلو أن ربنا هداه وجمع جميع حكام المسلمين، ودعاهم إلى مؤتمر يعقد في مكة أو في المدينة بين رحاب البيت الحرام أو قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، وتشاوروا في هدوء، لعلهم يصلون إلى نتيجة، فاعتبر العهد الماضي أن هذا استعداء للبلاد العربية على مصر!

لماذا. . هل استثنيت مصر ممن تسيء إليهم ؟

عدت أسأل: ما هي أخبار الشيخ المحلاوي ؟ ألا يزال مقبوضاً عليه ؟

وهل هو من الإخوان ؟

- لا ليس من الإخوان تنظيماً، ولكنه رجل فاضل أنا لا أقول فيه شيئاً.

و(السنانيري) ؟ لقد التقيت به في الكويت قبل عدة سنوات، هل تعتقد أنه توفي من التعذيب؟ أو قتل قتلاً صريحاً كما قالت بعض المجلات الإسلامية؟

- لو قلت هذا أقوله بغير علم، لأني لم أحضر الحادث، "لا شفته وهو يشنق نفسه ولا شفته وهو يقتل.. فكيف أصدر حكماً؟! أنا أعرف كمال تماماً، وأعرف دينه، وأعرف تقواه وما كان عليه، وأعرف زهده وتجرده، كل هذا أعرفه عن المرحوم كمال السنانيري، إنما كيف أحكم كمسلم على قضية لم أحضر وقائعها، ولم أستمع فيها إلى كل الأطراف، وأعتقد أن الأيام كفيلة بإظهار الحقيقة.

والشيخ مصطفى مشهور ؟

- وجود في أوروبا، خرج قبل الأحداث، فلما أعلنت الأحكام العرفية وحدث ما حدث فضل البقاء.

وأحداث أسيوط التي حدثت مع الاغتيال، ألم يقم بها الإخوان ؟

- لم يقم بها الإخوان، وصدقني إلى الآن لا أعرف تفاصيلها بالضبط، لم

أسمع عن أحداثها إلا من الجانب الحكومي، والجانب الحكومي صورها بصورة ناس انحدروا من الجبل في يوم العيد وقتلوا الأبرياء.. هذا تصوير الحكومة، إنما هم ليسوا من الإخوان، وليس لدي علم بتفاصيل هذا الحادث.

صرحت أيام السادات وقلت "أنا ادعو الله أن يطيل حكمك".. نريد أن نعرف كيف حدث هذا التصريح ما هي خلفياته وماذا كنت تقصد فيه لأن هناك من فسره تفسيرات سيئة جداً ؟

- للأسف الشديد أن هذا الاعتراض من بعض الناس مثل من يقول "ولا تقربوا الصلاة" أو كمن يقول "إني كفرت".. الذي حدث أنني دعيت إلى منتدى للفكر الإسلامي عقده السادات ودعيت بإلحاح ورفضت بإلحاح لدرجة عجزت عن مداومة الرد فقلت أحضر حاضر، فحضرت فلما بدأ ينهال علي بالاتهام بالتخريب والتحريض والاستثارة، وعيب يا عمر وما يصحش يا عمر يعني لدرجة وهو بيتكلم قلت له إن الكلام ده عليه رد اللي أنت بتقوله. قال لي لما أخلص رد علي. فلما خلص وقفت أرد عليه وكان من حديثي وأنا بكلمه قلت له في العهد اللي أنت حكمت فيه مصر وجدنا فرصة أن ندعو فيها إلى الله مطمئنين وكنت بذلك أرجو أن يطول عهدك إلى أطول فترة ممكنة ولكن هذا الكلام الذي قلته لو قاله غيرك لي لشكوته إليك أما أنت. محمد أنور السادات رئيس جمهورية مصر فلا أشكوك إلا إلى الله.. وكل من رآه يقول إن "البايب" الذي في فمه ارتعش قال: اسحب شكواك فقلت: لقد رفعت إلى الله وانتهى.. لا أظن أن الناس لو جمعوا بين هذا وذاك يستطيعون أن يقولوا هذه الدعوة بل على العكس هناك واحد من أنصار عصام العطار أخذ الكلمات من الجريدة وذهب لفرد من الإخوان في المسجد، وقال له كفر عمر التلمساني. قال له: لماذا؟ قال: إنه يقول للسادات إني أتمنى أن يطول حكمك أكبر مدة ممكنة؟ شوف المناسبة، شوف إيه الكلام! شوف إيه اللي قيل وبعدين احكم عليه، إنما كده كفرت على طول كده بالسهولة دي، هو لم يكن يتصور أني أقول له حاجة، لم يكن يتصور أن إنسانا في مصر يقف ويقول له هذا الكلام مواجهة، مش من ورائه.

هذا التصريح في الحقيقة ساهم بشكل أو بآخر في تزايد الخلافات التي حدثت بين التنظيم الدولي للإخوان، وبعض التنظيمات التي انشقت عن الإخوان كالتي ذكرتها قبل قليل؟

- والله شوف يا أخي أحمد يعني الرسول ﷺ تحدث عن هذا وقال: "الملتمسون للبراء العيب" يحاولون أن ينسبوا إلى أي أخ مسلم أي عيب.. ما حيلتي.. أنتم تشتمونني، أنا لن أشتمكم.

وهناك من الدعاة من يقول لي أنك حاولت أن تلاين الحكم الخائن، ورغم ذلك حبسك.

فقلت له أنا لم ألاينهم تجارة ليبعدوا عني، لكن ألاينهم لأن هذه طبيعتي أولا، وأسلوب الدعوة الذي فهمته من حسن البنا وحسن الهضيبي في طريق تبليغ الدعوة، فسواء أكرموني أو أهانوني.. الوضع عندي واحد، هم على العكس عرضوا علي أني أكون عضوا في مجلس الشورى، وعرض علي السادات بإلحاح فرفضت بإلحاح، وبعثت له أناسا من المقربين، وقلت له: أوعى تنزل اسمي في كشف المعينين في مجلس الشورى، لأني حاعتذر وأن هذا فيه إشكال وموقف سياسي مش ظريف بالنسبة لي وهم يحاولون أن يكرموني فلم أتأثر، فأنا لم أعاملهم بهذا الأسلوب حتى أكتسب ودهم أو عطفهم.. قطعاً لا، أنا في غنى أوله وآخره لرضاء الله سبحانه وتعالى.

انتهى الحديث الشائق والممتع، فشكرت الأستاذ عمر التلمساني وودعته على أمل أن ألقاه في زيارة أخرى بحول الله تعالى لنناقش قضايا أخرى مهمة من جوانب أعمال الدعاة إلى الله تعالى.

السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله

فهرس الكتاب: